

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني عشر

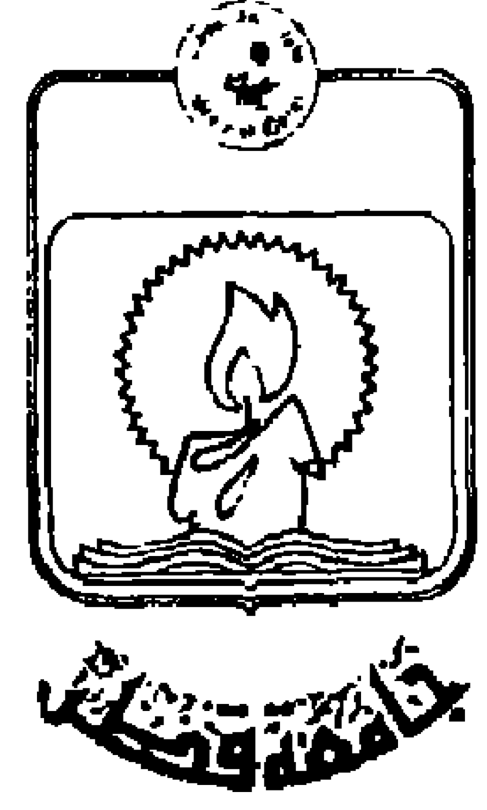
١٤١٠هـ / ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين

صدق الله العظيم

حولية تصدر عن
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر



حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني عشر

١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول ويحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور - فتح الله خليف رئيس قسم الفلسفة - جامعة قطر ص . ب : ٢٧١٣ - الدوحة - دولة قطر .

فهرس الحولية

الاملاء تعليمه وتعلمه
وعلاقة الأخطاء فيه بمستوى التعليم

الدكتور جابر عبدالحميد جابر
أستاذ علم النفس التعليمي
ووكيـل الجـامـعـة

مقـدمـة :

قواعد الإملاء نظام لغوي معين ، موضوعه الكلمات التي يجب فصلها ، وتلك التي ينبغي وصلهـا ، والحروف التي تزاد ، وتلك التي تحذف ، والهمزة بأنـواعها المختلفة ، سواء أكانت مفردة ، أم على أحد حروف اللين الثلاثة ، والألف الليـنـة ، وهـاء التأنيث وتاؤه ، وعلامات الترقيم ، ومصطلحات المواد الـدراسية والتنـوين بأنـواعه والمد بأنواعه ، وقلب الحركات الثلاث ، وإبدال الحروف ، واللام الشمسية والقمرية[٣] .

والإملاء فرع هام من فروع اللغة العربية ، وهو من الأسس الهامة في التعبير الكتـابي . وإذا كانت قواعـد النحو والصرف وسيلة لضمان سلامة الكتابة من الناحية الإعرابية والاشتقاقية فإن الإملاء وسيلة لها من حيث الصورة الخطية[٧] .

ويؤدي الخطأ الكتابي في الإملاء إلى تحريف المعنى وغموض الفكرة . ولهذا تعتبر الكتابة السليمة إملائياً مهارة هامة في التعليم وهي ضرورة لنقل الأفكار والتعبير عنها ومتابعة أفكار الآخرين والإلمام بها .

والأخطاء الإملائية منتشرة ولدى الكثير من المربين انطباع بأنها في الأجيال الحاضرة من المتعلمين أكثر انتشاراً عنها في أجيال مضت . وهذه الأخطاء لا تقتصر على تلاميذ المرحلة الإبتدائية بل امتدت فشملت تلاميذ المرحلة الإعدادية والثانوية ، بل إننا نجدها لدى بعض الجامعيين والمشتغلين بالتعليم .

دراسات في الاملاء :

أولاً - الدراسات العربية :

في العقد الأول من هذا القرن ألف الشيخ مصطفى السفطي كتاباً بعنوان «النجابة في قواعد الكتابة» وكان ناظر المعارف والأوقاف قد أشار عليه «أن أجمع رسالة في علم الرسم صغيرة قريبة الفهم مفصلة أحسن تفصيل خالية عن الإيجاز والتطويل ليعم نفعها المكاتب والمدارس الملكية ، فامتثلت إشارته وأجبته بالسمع والطاعة وجمعت هذه الرسالة سهلة واضحة الدلالة» وقد احتوى الكتاب على مقدمة وأربعة أبواب . يشرح المؤلف في المقدمة مفهوم علم الخط وموضوعه . وفي الباب الأول عرض للكلمات التي يجب فصلها وتلك التي يجب وصلها ، وفي الباب الثاني عرض لما يبدل من الحروف والباب الثالث عرض الحروف التي تزاد خطأ وان لم ينطق بها ، والباب الرابع الحروف التي تحذف[١٧] .

وفي العقد الرابع من هذا القرن ثار جدل علمي عندما نادى بهي الدين بركات ناظر المعارف العمومية بإصلاح الكتابة العربية لتكون هادية ومرشدة للقاريء ، ممثلة لما ينبغي أن ينطق به وأن تكون ميسرة سهلة التناول على المتعلم حين يتعلم . وأفردت مجلة التربية الحديثة لهذا الجدل الذي ثار على إصلاح الكتابة العربية ودواعيه وأشكاله ومساراته ونتائجه العدد الثالث الصادر في فبراير سنة ١٩٣٨ ، فكتب ساطع الحصري «حول إصلاح رسم الكتابة العربية» ، وتحدث علي الجارم عن «كتابة العربية وقراءتها» ، وعائشة عبدالرحمن عن «رسم

الكلمات العربية» ، وأحمد عطية الله عن «العوامل السيكولوجية في إصلاح الهجاء العربي» ، وإسحق موسى الحسيني عن «صعوبة الكلمات العربية» ، وحامد عبدالقادر عن «الحروف والحركات العربية بين شقي الرحى» ، وكانت مجلة الهلال قد شاركت في هذا الجدل العلمي في عدد مايو ١٩٣٨ بمقالتين ، فكتب طاهر الطناحي : «هل يمكن إصلاح الحروف العربية؟» وكتب أبو فاضل عن : «إصلاح الهجاء العربي» ، طريقة جديدة لرسم الكلمات العربية ، وكتب أحمد السكندري عن «تيسير الهجاء العربي» ، وقدم الجنيدي خليفة كتابه «نحو عربية أفضل»[١٩] .

وفي العقد الرابع حظى تعليم الإملاء بكتاب تحدث عن قواعد الإملاء الحديثة قدمه نهاد الترزي وشوكت الصواف عام ١٩٣٩م[٢٠] .

وقد حدث تطور في بحوث تعليم اللغة العربية في العقدالخامس من هذا القرن إذا ما قورن بما كتب عن تعليم العربية في العقد السابق عليه وقد وصل عدد ما ألف من كتب ومقالات وبحوث إلى ثمانية وأربعين مؤلفاً ، في حين أن ما ألف في العقد الرابع وصل إلى واحد وعشرين مؤلفاً . غير أن نصيب تعليم الكتابة من هذا الإنتاج كان كتابين ومقالة وفيها عرض لقصة الكتابة العربية والتدوين وخصائص الخط العربي وأشكاله وتيسير الإملاء ولغة الكتابة ولغة التخاطب . ففي مقال كتبه محمد علي الدسوقي في صحيفة دار العلوم عنوانها «تيسير اللغة العربية وتهذيبها» عرض دراسة عن المراحل التي مر بها إصلاح اللغة العربية وتنقيحها ، ثم سهولة تعليم اللغة العربية وضبطها على أبناء العرب الأول . وسبب اختلاف لغة الكتابة عن لغة التخاطب عند الأمم المستعربة وعدم اختلافها عند الأوروبيين وأسباب صعوبة ضبط اللغة العربية ، وأخيراً اقتراحات لضبط اللغة من تمثيل وخيالة وصحف يومية ومجلات وإعلانات . وعرض إبراهيم جمعة قصة الكتابة العربية فتحدث عن الكتابة والتدوين ، والمراحل التي مرت بها الكتابة العربية وخصائص الخط العربي وأشكاله ، أما

تيسير الإملاء فقد عرض في الدورة الرابعة عشرة من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية(١٩) .

والحق أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد اهتم منذ عام ١٩٤٧ بتيسير الإملاء ، كما اهتم بقواعد ضبط الهمزة وتنظيم كتابتها(١٠،١٢) .

وفي العقد السادس من القرن العشرين زادت الكتابات والبحوث التي أجريت في ميدان تعليم اللغة العربية كماً وكيفاً ووصلت في مجملها إلى ست وخمسين مقالة وثلاثة وستين كتاباً وعشرة بحوث غير أن حظ الكتابة منها قليل وحظ الإملاء أقل من ذلك وينبغي أن نشير إلى عملين هامين في هذه الحقبة : الأول ما كتبه محمود تيمور في مجلة مجمع اللغة العربية عن ضبط الكتابة العربية . وفي هذا المقال يعالج مشكلة اللغة العربية ويعرض الحلول المختلفة التي قدمت لعلاجها وأول هذه الحلول استخدام الحروف اللاتينية واعتبر ذلك وسيلة تقريب بين الأمم وأن هذه الحروف مورست في الطباعة واكتسبت مرانة في الاستخدام وأثبتت قدرتها ويسرها في ضبط كتابة اللغات الأجنبية . وقد أمكن إدخال ضروب من التعديل عليها تناسب ضبط الكلام العربي على أدق وجه بحيث نجعل كل حرف في الكلمة يدل بذاته على صورته الصوتية دلالة صادقة لا لبس فيها ولا إبهام . والثاني هو اختراع حروف جديدة تحل محل حروفنا العربية ذات علامات للضبط ملائمة لها . ولكن الأخذ بحروف مخترعة أمر يتطلب من رحابة الصدر وشجاعة النفس ومن الاستعداد للقبول بالجديد أكثر مما يتطلب الأخذ بطريقة الحروف اللاتينية . وثالث الحلول الإبقاء على الحروف العربية القائمة مع اختراع علامات للضبط تكون ميسورة على المطابع واضحة للقاريء وتلحق هذه العلامات بتلك الحروف وهذا الإلحاق يفقد الحروف صورتها المألوفة . وأما الحل الرابع فهو الإبقاء على الحروف العربية وعلامات ضبطها على أن تكتب علامة الضبط مع الحرف في بنية واحدة حتى لا نحيد عنه وهذا حل مكلف اقتصادياً وصعب فنياً ، فإن صندوق الحروف العربية في أوضاعها القائمة كثير الصور ،

يعيا به الصفافون إذ يبلغ أكثر من ثلاثمائة عين . ولو أضيف إلى الصندوق صور جديدة من الحروف عليها علامات الضبط على اختلافها لازداد جهد القائمين بصف الكلمات أضعافاً مضاعفة . وثمة حل خامس وهو وضع علامات الضبط بجانب الحروف منفصلة عنها كما هو الحال في الحروف اللاتينية وهذا يقتضي تغير أوضاع الكتابة العربية في تركيب الكلمات والحل السادس والأخير الاقتصار على الحروف منفصلة وهذا يزيد من الحيز المقسوم للكلمات ولا يحمي من خطأ الكلمة أول وهلة ويقتضي نقطة للفصل بين كل كلمة وكلمة[١٦] .

والثاني ما قدمه إبراهيم عبدالمطلب في كتابه «الهداية إلى ضوابط الكتابة» عام ١٩٥٨ ثبتاً بالأخطاء الإملائية التي تشيع في الصحف والمجلات وقد حصر عددها فبلغت ١٨٢ خطأ . ولكنه لم يحدد المنهج الذي اتبعه في جمعها ، ولم يعرضها مرتبة حسب تكرارها ويمكن أن تندرج الأخطاء في الفئات الآتية : الألف اللينة ، وما يوصل بغيره من الكلام ، وما يفصل عن غيره منه ، والحروف التي تحذف أو تزاد في بعض الكلمات[١] .

وفي العقد السابع من القرن العشرين ازدهرت الكتابات والبحوث في ميدان تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي فما ألف وترجم في العقد السابع وصل إلى مائة وأربعة كتب ، ومائة مقالة وأربع مقالات وأحد عشر بحثاً . نال تعليم الكتابة من هذا كله ثلاثة كتب وأربع عشرة مقالة .

وقد نشرت مجلة اللغة العربية مقالاً كتبه محمد بهجة الأثري بعنوان «تيسير الإملاء العربي» يقترح فيه طريقة للكتابة العربية تتلخص في صلة الكتابة بالأقيسة النحوية والأصول الصرفية ولهجات القبائل . ويقترح أسلوباً لكتابة الهمزة والألف اللينة بصور ميسرة[١٣] . ويكتب حامد عبدالقادر مقالاً في مجلة مجمع اللغة العربية بعنوان «دفاع عن الأبجدية والحركات العربية» وفيه يعرض تاريخ اللغة العربية وما طرأ من تطور على الأبجدية ونشأة الشكل والنقط ومشكلة

الإملاء وطرق التغلب عليها[٢] .

وقد تناولت الدورة السادسة والعشرون مجموعة البحوث والمحاضرات التي صدرت عن المجمع وقد تناولت هذه البحوث بالدراسة مشكلة الكتابة العربية وتيسير الخط العربي وتبسيط قواعد رسم الهمزة باختلاف مواقعها في الكلمة والمشكلات التي تعترض التلاميذ في هذا المجال والعلاج الذي يلائمها والقرارات التي صدرت بهذا الصدد والتي أحيطت بها وزارة التربية والتعليم علماً[١١] .

ونشر عبدالفتاح شلبي وأعوانه عام ١٩٦٠ تقريرهم عن تيسير قواعد الإملاء وعرضوا فيه الأخطاء الشائعة والأسباب التي أدت إليها .

وفي هذا البحث قام الباحثون بدراسة مسحية للأخطاء الإملائية في امتحانات النقل في مراحل التعليم العام الثلاثة ثم وضعوا اختباراً لقياس بعض القواعد الإملائية يتألف من قطع تلائم مستوى الصفين الخامس والسادس الإبتدائيين ، والصفوف الأربعة في المرحلة الإعدادية والصفين الأول والثاني من معاهد المعلمين والمعلمات . وقد روعي في تصميم هذا الاختبار التدرج في المحتوى واللغة وانتقى الباحثون ٣٢ مدرسة موزعة على مناطق القاهرة والجيزة بنين وبنات . ورغبة في توحيد أسلوب تطبيق الاختبار قام أفراد معينون بإملاء القطع ، ثم جمعت النتائج وأفرغت الأخطاء وحسبت النسب المئوية لأنواع الأخطاء في كل صف دراسي .

١ - تباينت الأخطاء من حيث الكم والنوع بتباين الصفوف الدراسية وكانت الأخطاء كثيرة في الصفين الخامس والسادس الابتدائيين في الألف اللينة والهمزة في وسط الكلمة ، وفي الحروف التي يجب أن تزاد أو تحذف اصطلاحاً ، وفي هاء التأنيث . وكذلك في الصفوف الأربعة من المرحلة الإعدادية ، علاوة على أخطاء وقعت فيما يجب أن يوصل بغيره من

الكلمات . وفي دور المعلمين والمعلمات ارتفعت نسبة الخطأ في الهمزة المتوسطة والحروف التي يجب أن تحذف .

٢ - كانت أخطاء البنات دون أخطاء البنين في جميع الصفوف الدراسية السابقة .

٣ - وقع طلاب المعلمين والمعلمات في أخطاء في الألف اللينة والهمزتين المتوسطة والمتطرفة وفي أخطاء أخرى لم تكن متوقعة بالنسبة لمستواهم التعليمي .

٤ - بتر الكلمات تجنباً للصعوبة في الهجاء . أي أن التلميذ يميل إلى الابتعاد عن الكلمات الصعبة عندما يكون حراً .

وقد خلصت اللجنة إلى أن صعوبة قواعد الإملاء هي السبب في وقوع التلاميذ في الخطأ الإملائي ، وأن تيسير قواعد النحو كفيل بالتخفف من هذه الأخطاء ولذلك رأت أن كل ما ينطق به يرسم في الكتابة ، وكل ما لا ينطق به لا يرسم ، وأن تكتب الهمزة في أول الكلمة ألفاً مطلقاً ، وأن تثبت الهمزة في وسط الكلمة على حرف مجانس لحركة ما قبلها إذا كانت ساكنة ، وعلى حرف مجانس لحركتها إذا كانت متحركة ، أما الهمزة المتطرفة فتكتب على حرف متجانس لحركة ما قبلها فإذا كان ما قبلها ساكناً كتبت مفردة ، وكتابة الألف اللينة ألفاً مطلقة(٨) .

ووضع محمد خير الدين عرقسوس عام ١٩٦٥ اختباراً في الإملاء ذكره محمد أحمد السيد في كتابه «الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها» عام ١٩٨٠ . وقال انه قام بتطبيقه على طلبة دبلوم معهد التربية للمعلمين وطالبات دبلوم معهد التربية للمعلمات في العام ١٩٧٥ / ١٩٧٦ وأسفرت النتائج عن ضعف شديد في مهارات الإملاء وخاصة عند الطلاب .

ولقد صمم هذا الاختبار بعد دراسة مسحية لمهارات الإملاء المتعلمة في مراحل التعليم ويتألف الاختبار من ١٩٢ مفردة بعضها صحيح وبعضها خطأ

ووضع بجوار كل مفردة حقلان أحدهما كتب فوقه صواب والآخر كتب فوقه خطأ . وعلى المفحوص أن يضع علامة (/) في حقل الصواب إذا كانت الكلمة صحيحة ، وإشارة (×) في حقل الخطأ إذا كانت الكلمة خطأ ثم يكتب الكلمة الصحيحة في المكان الخالي بجوار الكلمة .

والاختبار لم يستوف خصائصه السيكومترية من حيث الصدق والثبات والمعايير (١٥) ويبين حسن شحاته : ان الاختبار يقيس صحة رسم الكلمات كما أنه يستغرق قواعد الإملاء أو أنماط الأخطاء التي تشيع بين الطلاب . وليس للاختبار مفتاح تصحيح حتى يمكن الاعتماد عليه كأداة موضوعية تشخيصية[٤] .

وقد نمت البحوث في ميدان تعليم اللغة العربية في العقد الثامن من هذا القرن عما كانت عليه . فقد بلغ ما ألف أو ترجم في العقد الثامن أربعمائة وسبعة وعشرين مؤلفاً منها مائتان وثمانية وأربعون كتاباً ، ومائة وثنتان وعشرون مقالة وسبعة وخمسون بحثاً . ومعنى هذا ان الانتاج العلمي في هذا المجال زاد زيادة واضحة عما كان عليه في العقد السابق . ولقد اتجه جانب من هذا الإنتاج إلى تعليم الكتابة وقد تناول جوانب مختلفة منها الدفاع عن اللغة العربية المكتوبة وتوحيد الرسم الإملائي والإملاء والترقيم في الكتابة العربية .

وقد أخرج عبدالعليم إبراهيم كتاباً عن «الإملاء والترقيم في الكتابة العربية عرض فيه القواعد الإملائية وبسط علامات الترقيم وذكر كثيراً من الشواهد الإملائية والتمرينات التطبيقية على كل قاعدة من قواعد الإملاء[٥] . كما قدم مقالاً إلى المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب عن توحيد الرسم الإملائي على مستوى العالم العربي[٦] .

ونالت أساليب تعليم اللغة العربية ثلاثة وعشرين كتاباً يحتوي معظمها على

معالجة للإملاء إبرازاً لأهميتها وتحديداً لأنواع وطرائق تعليمها وتقويمها . أنظر ملحق رقم (١) .

وقد حظى العقد الثامن من القرن العشرين بنصيب موفور من البحوث بلغ عددها سبعة وخمسين بحثاً تناولت مجالات تعليم القراءة وتعليم الإملاء وتعليم النحو وتعليم الأدب وبحث مشكلات تواجه تعليم اللغة العربية وتعليم الدين الإسلامي وتعليم الأميين الكبار .

وفي هذه الفترة درست منى بحري «تقويم الاختبارات الصفية التحريرية لمادة إملاء اللغة العربية للصف الرابع الابتدائي في العراق «فحللت ٢٠٢ اختباراً إملائياً وانتهت إلى الكشف عن أسباب القصور في الاختبارات الإملائية كطول الاختبار الذي يثقل على التلميذ ويعرضه للأخطاء ، وقصر الاختبار الذي لا يمثل عينة كافية من سلوك التلميذ وبالتالي لا يبين نواحي ضعفه ومن هذه الأسباب عدم ملاءمة لغة الاختبار ومفرداته لمستوى التلميذ فيصعب عليه فهم معناه ، وعدم استعمال علامات الترقيم ، بل أشارت إلى أن عدم العناية في تصميم الاختبار يؤدي إلى عدم تحقيقه للأهداف المتوخاه من درس الإملاء[١٨] .

وفي هذه الفترة أيضاً قام محمد صلاح الدين مجاور بتحديد المهارات اللغوية في فروع اللغة العربية في مراحل التعليم العام في دولة الكويت . ومن بين هذه المهارات التي حددت مهارات الإملاء . ولقد توصل إلى هذا التحديد من خلال استبانة طبقها على ألف وثلاثمائة مدرس من الكويت ومصر وعلى تسعين موجهاً من موجهي اللغة العربية في البلدين ، فضلاً عن عشرة من المهتمين بعلم النفس ممن لهم علاقة بتعليم اللغة العربية ومن المفكرين التربويين .

وانتهى مجاور إلى تحديد مهارات الإملاء التي تخص المرحلتين الإبتدائية والمتوسطة ولم يحدد مهارات خاصة بالمرحلة الثانوية .

ويشمل ثبت مهارات الصف الأول الإبتدائي كتابة التلميذ لإسمه وإسم أبيه وجده ، ومعرفة أشكال الحروف والتمييز بين أصواتها ورسم الكلمة ، والتمييز بين الحروف المتشابهة والقريبة من مخارجها . وكتابة الكلمات التي يتعلمها في القراءة ، وكتابة أسماء زملائه في الصف وأسماء بعض الحيوانات ، وأن ينقل كلمات نقلاً صحيحاً ، وأن ينقل جملة قصيرة سهلة أو جملتين .

ويشمل ثبت مهارات الصف الثاني أن يكتب التلميذ إسم المدرسة والمدرس والناظر ويكتب إسم اليوم ، والشهر بعد أن يراه في التقويم وينقل جملتين أو ثلاثاً من الجمل السهلة التي يقرؤها ، ويميز بين أصوات بعض الحروف كالذال والزاي والسين والثاء ، ويكتب أسماء زملائه في الصف مع أسماء آبائهم وينقل الإعلانات التي في لوحة المدرسة ، ويكتب جملتين صحيحتين من الكلمات التي تعلمها .

ويشمل ثبت مهارات الصف الثالث الإبتدائي نقل التلميذ فقرة لها معنى في ثلاث جمل أو أربع ، ويكتب عبارات مثل أبي العزيز ، وأمي العزيزة وصديقي فلان ، ويكتب عبارات ترحيب أو توديع أو تهنئة مثل أهلاً وسهلاً ومرحباً ومع السلامة وعيد سعيد ، وترك الهوامش المناسبة حين يكتب ويتقن الكلمات ذات اللام الشمسية وذات اللام القمرية .

في الصف الرابع يتقن التلميذ رسم الكلمات وينقل فقرتين نقلاً صحيحاً ويكتب رسالة قصيرة سليمة هجائياً ، ويكتب موضوعاً من فقرة أو فقرتين قصيرتين صحيحتين في الهجاء .

وفي الصف الخامس الابتدائي أو الأول المتوسط يعرف التلميذ كتابة التاء المفتوحة والتاء المربوطة ، والحروف التي تزاد في الكلمات اصطلاحاً ، ويكتب حوالي ثمانين كلمة من الكلمات التي درسها دون خطأ إملائي فيها . ويفهم المعنى العام لما يكتب .

وفي الصف السادس الابتدائي -الثاني المتوسط- يكتب التلميذ مائة كلمة دون خطأ إملائي ، ويتقن كتابة الكلمات التي تشتمل على همزات أو ألف لينة إلا ما كان منها صعباً عليه ، ويكتب رسالة أخوية أو في مناسبة ، ويكتب موضوعاً صغيراً دون خطأ هجائي .

وفي الصف الأول الإعدادي -الثالث المتوسط- يتقن التلميذ كتابة الكلمات التي تشتمل على الهمزات وتلك التي تشتمل على الألف اللينة وغير ذلك من الكلمات الصعبة ويكتب موضوعاً من مائة وعشرين كلمة تقريباً دون خطأ هجائي قد يؤثر في المعنى ويكتب رسالة صحيحة هجائياً .

وفي الصف الثاني الإعدادي -الرابع المتوسط- لم يكن هناك مقترحات بوضع مهارات في هذه السنة إلا التدريب المستمر على المهارات السابقة في الإملاء مع إضافة التدريب على استعمال علامات الترقيم . وهذا معناه إمكانية تدريب التلاميذ على الإملاء في المدرسة الابتدائية وفي الصفين الأول والثاني من المرحلة الإعدادية أما بعد ذلك فالمفروض أن يكون التلميذ قد عرف الكتابة الصحيحة هجائياً(١٤) .

ويعد تلخيص هذه الدراسة يشير حسن شحاتة إلى أن هذه النتائج تمثل أراء عينة من المعلمين والموجهين وأن فكرتهم عن مهارات الإملاء ليست دقيقة فذكرهم لكتابة التلميذ رسالة قصيرة أو موضوعاً من فقرة أو فقرتين مهارات تعبير وليست مهارات إملاء(٤) .

هذا فضلاً عن أن فكرة الموجهين والمعلمين عن مهارات الإملاء ليست شاملة فقد كشف مسح لمهارات الإملاء التي يتقنها تلاميذ المرحلة الابتدائية عن خمس عشرة مهارة هي : المد بأنواعه ، والتنوين بأنواعه ، واللام الشمسية والقمرية ، وتاء التأنيث بنوعيها ، والهمزة في أول الكلمة وفي وسطها وآخرها والألف اللينة وإبدال الحروف ومصطلحات المواد الدراسية ، وقلب الحركات ،

والحروف التي يجب أن تحذف اصطلاحاً ، والحروف التي تزداد اصطلاحاً . وقد قصرت فكرة الموجهين والمعلمين فلم تشمل كثيراً من هذه المهارات[٩] .

ويشكك حسن شحاتة في جدوى الاستبانة كوسيلة للحصول على المعلومات وهذا النقد مقبول إذا كان المجتمع المستهدف لا يعرف موضوع الاستبانة أما وهم من معلمي اللغة العربية وموجهيها فهم مصدر هام من مصادر التوصل إلى تحديد هذه المهارات ، وليسوا المصدر الوحيد .

وبحث حسن شحاتة عام ١٩٧٨ الأخطاء الشائعة في الإملاء لتشخيصها وعلاجها . وذلك بعد أن قام بتحليل كتابات ألف ومائة تلميذ وتلميذة من تلاميذ الصفوف الثلاثة الأخيرة من المرحلة الابتدائية ومن النتائج التي أسفر عنها البحث :

- بعض أخطاء التلاميذ لم تتناولها المقررات الدراسية في المرحلة الابتدائية مثل مصطلحات المواد الدراسية ، وقلب الحركات الثلاث وإبدال الحروف والحروف التي يجب أن تزاد اصطلاحاً ، والكلمات التي توصل بها بعدها ، والكلمات التي تفصل عما بعدها مما يدعو إلى إعادة النظر في مقررات الإملاء في المرحلة الابتدائية .
- اختلاف الأخطاء الإملائية باختلاف الصفوف الدراسية ، فبعضها يقل مع الانتقال إلى صف دراسي أعلى وبعضها يرتفع مع التقدم في الصفوف وبعضها يختص بصفوف دراسية معينة .
- اختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي يؤثر في أخطاء الإملاء في الصفوف الرابع والخامس والسادس الابتدائي ولا فروق بين الجنسين في الأخطاء[٣] .

ثانياً - الدراسات الأجنبية :

ان تدريس الهجاء شأنه شأن أي مادة أخرى يتطلب تعاوناً من قبل التلميذ . ومن هنا فإن تاريخ تدريس الهجاء قد بدأ حين شعر الناس لأول مرة

أنهم في حاجة إلى الالتزام بهجاء الكلمة بطريقة معينة . وهذا يتطلب بطبيعة الحال أن يكون هناك هجاء مقنن للكلمة . ذلك أنه إذا كان في الإمكان هجاء الكلمة بطرق مختلفة فإن الهجاء يصبح عملية فردية ولا حاجة عندئذ إلى تعليمه ، فكل حسب اجتهاده وطريقته . ولقد توافرت الظروف في القرن الثامن عشر التي أدت إلى تقنين الهجاء في اللغة الإنجليزية ، وإلى توافر رغبة المتعلمين في معرفة الشكل الصحيح لكل كلمة .

ولقد نشر جونسن S. Johnson عام ١٧٥٥ قاموسه الذي أصبح مشهوراً فيما بعد Dictionary of the English Language ولقد ساعد على شهرته وذيوع صيته تفوقه على من سبقوه ، ومقدمته العلمية الرصينة وصدوره على يد مجموعة كبيرة من الناشرين ، وساعد على ذلك أيضاً المناخ العلمي الذي كان سائداً في ذلك الوقت والذي ساعد على تقنين الهجاء واعتبار هذا القاموس العمدة في هذا المجال .

وفضلاً عن ذلك فقد ظهرت في القرن الثامن عشر طبقة متوسطة مؤثرة في انجلترا من التجار كان لها ممثلوها في البرلمان وفي غيره ، وفي الوظائف العامة . وتزايد احتكاكهم مع الطبقة الارستقراطية . وقد أدت هذه البيئة الاجتماعية الجديدة إلى زيادة اهتمام هؤلاء باللغة التي يستخدمونها . وترتب على ذلك ظهور كثير من الكتب عن النطق والنحو والهجاء في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فكان أكثر الكتب المبكرة تأثيراً كتب وبستر Noah Webster's Blue-backed Spellers الذي ظهر عام ١٧٨٣ . ومنذ البداية افترض وبستر وتلامذته أن الغرض من تدريس الهجاء هو تعليم ضبط الإملاء والنطق والمعنى لكل كلمة تدرس . ولقد افترض وبستر وناشرو كتابه ومقلدوه أن النطق اللغوي أصبح مقنناً وكذلك الهجاء ، ودرسوا هذا النطق الصحيح في

كتبهم الخاصة بالهجاء . ولقد انصرف التركيز في التعليم في الدروس المبكرة على المقاطع المتشابهة في الإيقاع ثم على الكلمات المتشابهة في الإيقاع أو المسجوعة . غير أن جهوداً قليلة بذلت لشرح أشكال الهجاء المختلفة لنفس الصوت والهجاء المتماثل للأصوات المختلفة وتفسيرها واستخدامها . ولقد شعر هؤلاء المؤلفون بوجود مبادىء أساسية للهجاء ولذا نجد وليم وبستر W. G. Webster عند تحريره لكتاب أبيه عام ١٨٦٦ يكتب قائلاً : «ان خطة التصنيف التي وضعت قد اتسعت لكي تشمل كل نوع هام من الكلمات الإنجليزية ، وقد رتبت فئات الكلمات مع توجيهات مناسبة للنطق ، بحيث أن أي تلميذ يتقن هذه الجداول المبدئية لن يجد إلا صعوبة ضئيلة في تعلم أي كلمة تنتمي على نحو صحيح للغة الوطنية وفي نطقها» .

والاستخدام المتكرر للجمل في الإملاء ، أي هجاء الكلمات في السياق ، هو الخاصية المميزة لكتب الهجاء المبكرة التي وضعها وبستر ومن سار على دربه وكانت الكلمات الجديدة تدرس عادة بمعزل عن الجمل ، وتتم مراجعتها في الجمل والسياقات على نحو غير منظم . فالكلمات التي تتألف من مقطعين كانت تقدم للتلميذ ليتعلمها لأول مرة في الدرس السادس والعشرين وتقدم الكلمات ذات المقاطع الثلاثة في الدرس الرابع والخمسين دون تعليق على البدايات pre-fixes واللواحق suffixes التي كثيراً ما تضاف إلى مقطع آخر أو كلمة أخرى وكثيراً ما كان المدرس اليقظ يزود التلاميذ بهذه المادة بنفسه ، ولكن كتب الهجاء في القرن التاسع عشر لم تقدم للمعلم إلا مساعدة قليلة وتوجيهاً محدوداً وخاصة إذا قورنت بالكتب الحالية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر أي بعد مائة عام تقريباً من الاستقرار بدأت الأفكار التي تتصل بالهجاء في التغير . واختفت الفكرة القائلة بأن الفرد يستطيع أن يتعلم هجاء جميع الكلمات بتعلم هجاء عدد قليل منها . ولقد احتوى كتاب

Seventy Lessons in Spelling الـذي نشر عام ١٨٨٥ وقـد ألف أصلاً لتلاميذ المـدرسـة الثـانـوية الـذين لم يتعلموا الهجاء والذين ينوون الاشتغال بالأعمال التجارية والاقتصادية ، على تحذير هو : «ان هجاء الكلمات الانجليزية هو في أفضـل الحـالات تعسفي وغـير متسق ، بحيث أن تعلم هجاء الكلمات التي نستخدمها في الحياة اليومية عمل يتسم بقدر كاف من الصعوبة . . ولقد حذفت قواعد الهجاء عن قصد ، لأنها تعوق الهجاء أكثر مما تساعد عليه» .

ولسوء الحظ فإن وجهة النظر هذه انتشرت حتى الستينيات من القرن الحالي وما يزال بعض المدرسين يقبلونها .

نقد الطرق التقليدية :

كيف يمكن للفرد أن يتعلم الهجاء ، أو تدريسه للآخرين ؟ وكيف وصل الأفراد الذين يجيديون الهجاء إلى ما وصلوا إليه ؟

لقد طرحت الأسئلة السابقة وما يماثلها وبذلت جهود للإجابة عنها من قبل المربيين الذين قاموا بتقويم التعليم الابتدائي في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن .

ولقد لخصت هيلدرث Hildreth عام ١٩٥٥ بعض الاعتراضات على الطرق التقليدية في تدريس الهجاء ومنها أن المدرسين أخفقوا في الربط بين الهجاء وبقية المنهج التعليمي الأمر الذي أدى بالتلاميذ إلى الخطأ في هجاء كلمات في الدروس الأخـرى لا يخطئـون هجـاءها في دروس الإملاء . ومن الأسئلة المطروحة في الصفوف العليا بل وحتى في الجامعة : هل للهجاء أهمية ؟ ان هذا السؤال يعبر عن حقيقة هي عدم الارتباط بين الهجاء والكتابة .

كما أن الطريقة التقليدية في تعلم الهجاء والتي تستخدم القوائم قد تعرضت للنقد . فقد اختفت في نهاية القرن مجموعات الكلمات المسجوعة أو ذات الإيقاع

الـواحـد التي انتشرت في كتب وبسـتر والتي يظهـر بينهـا قدر من الاتسـاق . وأصبحت القوائم تتألف من كلمات غير متصلة وأحياناً من كلمات لا فائدة منها . ويبدو أن مؤلفي هذه الكتب لم يتبينوا أن هجاء أي كلمة يسهل تذكره إذا ارتبطت بشيء آخر ، حتى ولو كان في سياق موضوع الانشاء .

وظهرت شكوى أخرى من تدريس القوائم وهي أنها كانت غير واقعية في ضوء حاجات الطفل ، وأنها كانت تستخدم بقدر كبير من الجمود في الدروس . ولم تعد هناك ثقة فيما يسمى بنظرية المخزون البارد cold storage theory أي أنه ينبغي أن يتعلم الأطفال هجاء كلمات لا يعرفونها استعداداً للقراءة أو لمناسبة قد تظهر الحاجة لاستخدامها في الخطاب يوماً ما . وكان ينظر إلى تعلم كل كلمة باعتبـاره عملية خاصـة لا تتصـل بتعلم الكلمات الأخـرى لذلك بدا من غير الضروري ومن الجمـود انفـاق قدر متسـاو من الوقت والتدريب في تعلم كل كلمة . ولقد أدت هذه الاعتراضات على الطرق التقليدية في تدريس الهجاء إلى إدخال تعديلات على برامج الهجاء وإجراء تجارب عليها .

وإذا اعتمد تدريس الهجاء على اشباع الحاجات التي يشعر بها الطفل . فإنه ينبغي أن يتـوافـر له مصـدر مريح يستمـد منـه الكلمـة التي يريد كتـابتها ، واسـتراتيجية اقتصـادية فعـالة يستطيع بها أن يتعلم الكلمة متى تم توافرها . وهكذا يمكن القول بأن قوائم الكلمات لها قيمتها وفائدتها إذا اشتقت من كلمات يطلبها الطفل ويسأل عنها[٢٥] .

وأجريت التجارب الأولى على صفوف دراسية حدث فيها تكامل بين الهجاء وأنشـطة الفنـون اللغـوية الأخـرى ، من قبيل استخراج الكلمات التي يتعلم هجاؤها من موضوعات القراءة ولقد نجح هذا النوع من التجارب .

تجارب تدريس الهجاء :

من موضوعات البحث الهامة محتوى قائمة الكلمات التي تدرس . ولقد أجريت احصاءات لا حصر لها للكلمات التي تتفاوت من حيث الفهم والدقة . واعتمدت هذه القوائم كلية على استخدام اللغة الإنجليزية من قبل الراشدين . ولذلك فإنها لم تساعد كثيراً في تدريس الهجاء للأطفال .

وكانت القائمة الأولى هي تلك التي وضعها آيرز Leonard P. Ayres عام ١٩٢٥ وترجع أهمية آيرز إلى أنه خلال محاولته لتوسيع القائمة الأصلية ، والتي تألفت من ألف كلمة لتصبح ألفين ، اكتشف أن ثلاثمائة من هذه الكلمات تشكل ٧٥٪ من جميع الكلمات التي ترد في أي فقرة مكتوبة ، وان الألف كلمة الأكثر شيوعاً تؤلف ٩٢٪ من الفقرة . وعند هذه النقطة أو بعدها بقليل يبدأ تواتر الكلمات في التفاوت مع نوع المادة .

ان هذا الاكتشاف فيما يبدو أدى ببعض المربين من أمثال دولش Dolch ١٩٤٢ وفتز جيرالد Fitzgerald عام ١٩٥١ إلى الأخذ بمدخل جديد تماماً في تدريس الهجاء . وهو تدريس ألفين من الكلمات وقد تأكدوا بالبحث أنها تشتمل على ٩٥٪ من جميع الكلمات المكتوبة وأن يركزوا على اتجاهات وعادات مثل البحث عن الكلمة في القاموس ومراجعة الفرد لما يكتبه لتصحيحه الأمر الذي يسهم في تحسين الهجاء . ولقد أخفق هذا المدخل في إدراك أن معظم الكلمات الشائعة في السياق وبالتالي أكثرها شيوعاً في هذه القوائم هي كلمات وظيفة "func-tion" words كالأدوات الشرطية وحروف العطف والجر والأفعال المساعدة وأن معانيها المعجمية محدودة ، ومع ذلك فمعانيها كثيرة من حيث أنها جزء من تركيب لغوي . والخمس في المائة الأقل شيوعاً كلها خصبة في المعنى القاموسي ، والخطأ في هجاء أي منها يكون عادة واضحاً ، وهكذا فإن نسبة الكلمات التي يخطيء في هجائها الفرد لكي يعتبر ضعيفاً ليست عالية جداً .

ولقد شاعت ممارسات أخرى بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بالنسبة للمدرسين الذين يحاولون تحسين تدريس الهجاء . ولعل نجاح فيرنالد Fernald في الطريقة الحسية الحركية في التدريس العلاجي (واستخدام التعزيز الحسي الحركي) أدى إلى جعلها جزءاً أساسياً من كل درس هجاء . ويقدم فيرنالد وغيره من الباحثين في هذا المجال مقترحات لتشخيص صعوبات الهجاء وعلاجها ، ذلك أن جميع الأطفال الذين يجدون صعوبة في الهجاء يحتاجون إلى تكوين صور واضحة للكلمات . وينبغي أن يعلم كل تلميذ بحيث يستخدم جميع الحواس في تعلم الهجاء أي أن يستخدم الانطباعات البصرية ، والسمعية ، والنطقية الحركية ، واليدوية الحركية في تكامل بحيث تترسب في مخيلته صورة الكلمة التي يستطيع استرجاعها آلياً . والأطفال الذين يجدون صعوبة لفترة قد يحتاجون تأكيداً أكبر على الصور السمعية ، أو ربطاً بين الانطباعات السمعية والانطباعات الحركية للكلمة . ان عمل المعلم يتطلب الصبر والتجريب مع الطفل الضعيف حتى يجد عناصر الطريقة التي تثمر في تعليمه وتحقق النتائج المطلوبة . ولابد أن ينصرف التأكيد بالنسبة لهؤلاء الأطفال إلى إنجازهم مهما كان ضئيلاً ولا ينصرف إلى إخفاقهم . ان الطفل الذي تثبط همته ويشعر بالإخفاق يصعب عليه أن يتعلم ، أما الطفل المتفائل فإنه يتميز بالصبر والكفاح لتحقيق نتائج أفضل متى وجد توجيهاً وإرشاداً معيناً .

غير أن طريقة التعزيز الحسية الحركية تقتضي ان يكتب التلميذ كل قائمة من الكلمات عدداً من المرات ، وكثيراً ما يحدث هذا بطريقة مملة .

وفي محاولة لاضفاء نوع من الوحدة على درس الهجاء اتجه بعض المؤلفين لكتب تعليم الهجاء إلى عرض قوائم الكلمات المستجدة من خلال قصة قصيرة أو فقرة . ويقوم الطفل أما بنقل الفقرة وإما باستخدام كل كلمة فيها بعد بوضعها في جملة . وتدريس الهجاء في سياق مبدأ سليم . ولقد وجد من خلال التعليم

العلاجي أطفال عديدون يستطيعون هجاء الكلمات في السياق وعدم قدرتهم على هجائها منفردة .

ولقد ظهر اتجاه متزايد لعدم تدريس الهجاء بعد الصف السادس الابتدائي على افتراض أن الطفل ما أن يبلغ هذا الصف إلا ويكون قد اكتسب جميع المهارات والدافعية اللازمة للاستمرار في تعلم هجاء الكلمات الجديدة التي تواجهه . وهذا افتراض غير صحيح ويصدق هذا أيضاً على القول بأن التلاميذ يتعلمون الهجاء من القراءة . ذلك أن قلة من الناس هي التي تلتفت إلى الهجاء . ويمكن التحقق من هذا بتطبيق اختبار على عينة من الطلاب بالجامعة ، وسوف يتضح أن بعضهم ما يزال يخطيء في تهجي كلمات رغم أنها مكتوبة في ورقة الاختبار على نحو صحيح .

ومن الممارسات التي تضر بتدريس الهجاء تخصيص ثلاث حصص من الخمس الخاصة بتعليم الهجاء للاختبارات . والأساس النظري الذي تستند إليه هذه الممارسات هو أن الطفل ينبغي أن يركز جهوده على الكلمات التي لا يستطيع هجاءها . وترتيباً على ذلك يطبق اختبار على التلميذ في أول حصة من أول أيام الأسبوع لتحديد الكلمات التي يخطيء في هجائها وهي التي يقوم بدراستها خلال ذلك الأسبوع تاركاً الكلمات التي يتهجاها على نحو سليم . وفي منتصف الأسبوع يطبق عليه اختبار يتناول ما تعلمه في اليوم السابق أو الحصة السابقة وفي نهاية الأسبوع يطبق عليه اختبار ثالث يتناول عمل الأسبوع كله . والمشكلة في هذه الطريقة أن الطفل يفيد من حصص التدريس الفعلي أكثر مما يفيد من حصص الاختبارات ، ويستطيع أن يراجع الكلمات التي يعرفها .

تأثير اللغويات :

خلال الخمسينيات بدأ ظهور تأثير علماء اللغة على تدريس الفنون اللغوية ومنها تدريس الهجاء . وظهرت المحاولة الأولى في هذا الاتجاه في كتاب ألفه وليامز

Williams على مستوى الجامعة عام ١٩٦٠م . ورغم نواحي قصور هذا الكتاب إلا أنه مهد الطريق لآخرين جاءوا بعده وتناولوا المستوى الابتدائي . ولعل أهم بحث أجري على الهجاء في الستينيات من هذا القرن هو المشروع الضخم الذي نفذ ما بين ١٩٦٣ ، ١٩٧٥ على يد بول هانا Paul R.Hanna وجين هانا ١٩٦٦م والذي درس اسهام الحاسب الآلي في تهجي ما يزيد على ١٧ ألف كلمة وعلى الـرغم من أن نتـائـج هذه الدراسة إحصائية إلا أنها هي المادة الخام للدراسة اللغوية للهجاء[٢٨] .

وقد أظهرت نتائج دراسة «هانا وهانا» أن الهجاء في اللغة الإنجليزية أكثر انتظاماً في أنماط عما يشيع اعتقاده . وأن استخدام طريقة تعتمد على الأمارات السمعية الشفوية للهجاء قد تدلل على أنها أكثر كفاءة وفاعلية من الطرق الحاضرة والتي تعتمد أساساً على التعلم اليدوي البصري .

وهناك شواهد قوية على أنه يمكن توفير الوقت لتدريس الهجاء بتجميع كثير من الكلمات الشائعة وفقاً لنمط . وحين يلقى الأطفال كلمة تمثل نمطاً ، فإن المعلم يستـطيع أن يسـاعـدهم في تكوين قائمة من كلمات أخرى يستطيعون هجاءها بالالتفات إلى النمط والإحساس بالثقة الذي يكتسبه الأطفال من خلال هذه الطريقة يزيد دافعيتهم للتعلم على أساس درجة التطابق بين الرمز والصوت[٢٣] .

طريقة التنظيم الهرمي :

وهنـاك طريقـة جديدة في التحليل اللغوي تعرف بنظرية التنظيم الهرمي توصل إليها كينث بايك Kenneth Pike وطورها خلال الخمسينات . وقد ثبتت فائدتها لدى المهتمين بالهجاء . ومن مفاهيمها الأساسية أن كل فرع من فروع اللغة : علـم المعاني semology وعلم المعاجـم lexicology وعلم الصرف -morphol

ogy وعلم الأصـوات له تنـظيمه الهرمي . فعلم دراسة الأصوات المنطوقة يبدأ بالفـونيمـه phoneme عند أصغر الوحدات ويتقدم إلى المقطع فالكلمة فمقطع الجملة phrase فالجملة ومعاملة هذه كلها كوحدات نحوية لا يتوافق ولا يتزامن بالضرورة مع وحدات علم الأصوات .

الجرافيميات Graphemics :

ومن الإمكانيات المتاحة لبحوث أكثر عمقاً في هذا الاتجاه (التنظيم الهرمي) دراسة الكلام المكتوب والذي يمكن أن يطلق عليه جرافيميات وأصغر وحدة في تنـظيمـه الهـرمي هو الجرافيم ، وسوف يكون هناك تقدم إلى المقطع فالكلمة فمقطع الجملة فالجملة . وعلى الرغم من أن المألوف أن يفكر في الكتابة باعتبارها ممثلة للكلام (وبالتالي للصوت) ، فإن كثيراً مما يكتب لا ينطق به قط كما كتب ، وترتيباً على ذلك فان الجرافيميات لابد أن يكون لها تنظيمها الهرمي الذي سوف يختلف عن التنـظيم الهرمي في علـم الأصوات . هذا يتضح من وحدة المقطع الذي يظهر في كل تنظيم هرمي . فالمقطع الفنولوجي أو الصوتي قد ينتهي في منتصف صوت مثل كلمة tenor ، انها تنقسم عند حرف n أي في المنتصف ، فكيف يمكن التعبير عن هذا الانقسام في الكتابة ؟ ولما كان المقطع الجرافيمي مختلف تماماً عن المقطع الفنولوجي فان قواعد تقسيم المقطع الجرافيمي هي تلك التي يضعها عمال الطباعة . والدرس المستفاد من هذا بالنسبة لمدرس الهجاء هو أن يحاول تدريس المقـاطـع لا بأصـواتهـا وإنـما بالقواعد الجرافيمية وممارسات اللغويين في تحديد الأصوات بفواصل أو خطوط مائلة ، وبتوضيح الجرافيميات بوضع خط تحتها يساعد في التعليم ويتيح للأطفال الصغار تعلمها .

أنماط الهجاء :

هناك خمسة تعميمات لا تتناول صوتاً مفرداً ، بل قدراً كبيراً من الهجاء في اللغة الإنجليزية :

التعميم الأول :

ان عدد المقاطع في الكلمة قد يؤثر في بعض جوانب هجائها . وعلى سبيل المثال فإن الأفعال ذات المقطع الواحد والتي تنتهي بالحرف (i) يكون هجاؤها (ie) بعد حرف ساكن كما يحدث في الكلمتين lie ، die ، ويتم هجاؤها (y) بعد حرفين ساكنين أو أكثر كما في الكلمات : (cry ، dry ، ply) . والأفعال التي تتألف من مقطعين أو أكثر وتنتهي بالحرف (i) يكتب الحرف فيها جميعاً (y) .

التعميم الثاني :

هو ان موضع الصوت في كلمة أو مقطع قد يؤثر في هجائه . ولعل أكثر الأمثلة اثارة للاهتمام أن نجد حوالي ستة حروف ساكنة تستخدم فونجراما خاصاً (أي مجموعة تمثل صوتاً واحداً) نجد ذلك في نهاية الكلمات ذات المقطع الواحد حين يجيء الحرف الساكن بعد حرف متحرك قصير وأحياناً يكون ذلك حرفاً مزدوجاً كما في الكلمات الآتية : doff, fluff, doll, full, brass, miss .

التعميم الثالث :

ان الصوت الذي يسبق مباشرة الفونيم أو يليه قد يؤثر على الهجاء . ولعل أكثر الإيضاحات شيوعاً لهذه النقطة تضعيف الحرف الساكن الأخير قبل إضافة لاحق suffix للكلمة يبدأ بحرف متحرك . أي أن الحرف الساكن الأخير ينبغي من بين أشياء أخرى أن يسبق بحرف متحرك مفرد (أي قصير) وعمل المتهجى لن يكون سهلاً لأن بعض الأصوات تؤثر في نطق الصوت المجاور وعلى سبيل المثال في كثير من الكلمات مثل (water and wash) يتحول الحرف المتحرك البسيط (a) إلى حرف متحرك مركب (oh) التي كثير ما تكتب (au) أو (aw) .

التعميم الرابع :

إن أصل الكلمة يحدد بعض خصائص هجائها . فإذا كانت الكلمة مشتقة

من أصل إغريقي يكتب الحرف (f) حرفين هما (ph) وهلم جرا ويواجه التلاميذ الضعاف في الهجاء ومن لديهم عادات ضعيفة في استخدام القاموس مشقة في هجاء مثل هذه الكلمات . ومن العادات الجيدة التي ينبغي أن تنمى لدى الطالب طريقة استخدام القاموس ، والنظر في الاشتقاق وفي المعنى أيضاً ، ومن المفيد أيضاً أن نعرف أن بعض اللغات لها أهمية خاصة في مجالات معينة ، فالإغريقية مثلاً لها أهمية في المصطلحات العلمية .

التعميم الخامس :

يتعلق بموقع النبرة accent في الكلمة . وأكثر الأمثلة الشائعة توضيحاً لهذه الحقيقة القاعدة القائلة بتضعيف الحروف الساكنة في نهاية الكلمة قبل إضافة لاحق suffix لها يبدأ بحرف متحرك ذلك أن تضعيف الحرف الساكن الأخير يقتضي أن تتركز النبرة على المقطع الأخير . وهذه النبرة قد تغير النطق مما يؤدي بالمتهجي إلى الخلط . وعلى سبيل المثال بالنسبة لمقطع ليس عليه نبرة (وعادة ما يكون المقطع الأخير) يطرأ تغير على حرف (t) حين يقع قبل حرف (u) طويل كما في كلمة (nature) ، ولو كانت النبرة على المقطع الأخير للكلمة فإن (t) تبقى كما هي كما في كلمة (mature) . ولعل أكثر أخطاء الهجاء شيوعاً التي يخلقها هذا الخلط ما نجده حين يقوم الطالب بهجاء كلمة (picture) أي صورة على أنها (pitcher) ابريق .

وقد اهتم أولئك الذين يفضلون الأخذ بأسلوب نسقي في تعليم الهجاء بهذه التعميمات والقواعد ودرسوا على أساسها . غير أن هناك قدراً كبيراً من الاتفاق على أن استخدام القواعد في تعليم الهجاء غير منتج بالدرجة المتوقعة لأن القواعد كثيراً ما تتضمن مفاهيم لم يكتسبها الأطفال بعد نهائياً ، ولا يمكن الوثوق بالقواعد بدرجة كبيرة لأنها تتجاهل الاستثناءات ، وبالتالي تعرض التلاميذ لقدر من التضليل ولا تستخدم بالقدر الكافي عندما يكتب التلميذ موضوعات التعبير وغيرها .

وهنـاك أسـاليب تعليمية عديدة تسـاعد على تعلم الهجاء منها الأسلوب الاستقـرائي وهو الذي يؤدي إلى توصل التلاميذ إلى تعميمات بعد ملاحظتهم للكلمات أو لقوائم منها وحتى لا تكون عملية الهجاء عملية آلية .

ويرى جيبسون ولفن Gibson and Levin عام ١٩٧٥ أن التعلم الذي يؤدي إلى التعميم ينبغي أن يكون تعلماً يقوم به الطفل نفسه ، غير أن تعلم التعميم يمكن أن يكـون جزءاً من اسـتراتيجية للتعلم ، وذلـك بأن يشجع المعلمون الأطفال على ملاحظة الحروف التي تتكرر في الكلمات المختلفة وبنفس الترتيب وتعويدهـم على الاستقصاء بأنفسهم[٢٨] .

والألفة بنواحي التشابه بين الحروف المتسلسلة letter strings لا تتحقق من خلال القراءة ، لأن القاريء لا ينظر إلى كل كلمة وهو يقرأ فالقراءة تنبؤية أكثر منها رجعية . ومع ذلك فبالنظر إلى الكلمات المطبوعة أو المكتوبة بدقة وعناية -أي بالنظر إلى تتابع حروفها حرفاً حرفاً- يكتسب معرفة عابرة بالخصائص الإملائية المميزة لها . والنظر أو الملاحظة الدقيقة لبنية الكلمة هو الذي يؤدي إلى تعميم ناجح . وهذا هو الذي يؤدي إلى طالب يجيد الهجاء .

ومن العوامل التي تساعد في تدريس الهجاء العامل البصري فمن الممارسات الشائعة لدى الراشدين أن يراجعوا هجاءهم للكلمات بصرياً ، أي أن يكتب الفـرد الكلمـة حين يشك في هجائها ليتبين هل تبدو صحيحة . ولقد أثبتت البحـوث نجاح هذه الطريقة . وهذه المراجعة البصرية تستند إلى خبرة مكثفة بالتسلسل المحتمل للحروف في الكلمات . ويبدو أن التعرض المستمر للكلمات مكتوبة ولتراكيب الحروف مع أنواع مختلفة من النطق يؤدي إلى وعي باستقرار التمثيل البصري لهجاء الكلمات .

وإذا كان الهجاء يتوقف على نوع من النظر ، فإنه يتوقف على النظر باهتمام

وقصد وتوجه لإعادة إنتاج الكلمة في صيغة مكتوبة . ولقد أكد شونل عام ١٩٤٢ على أنه في تعلم هجاء الكلمة ينبغي أن ترتبط العناصر البصرية والسمعية والنطقية ارتباطاً وثيقاً بكتابتها وهذا يعني أن يكون الخط واضحاً .

ولقد لاحظ فرث وفرث Frith & Frith (١٩٨٠) فرقاً هاماً بين من يحسنون الهجاء ومن يسوء أداؤهم فيه وهو أن الفئة الأخيرة تتمسك فيما يبدو باستراتيجية التعلم القائمة على الفونيم والجرافيم أي صوت الكلمة ورسمها بينما تستطيع الفئة الأولى أن تنتقل إلى استراتيجيات أخرى عندما يعجز الصوت عن تقديم الأمارة التي تدل على الهجاء الصحيح . ويرى هذان الباحثان أن تذكر الأشكال البصرية تكتيك أساسي يستخدمه مجيدو الهجاء وذلك لأن الذاكرة قادرة على تذكر أمارات متنوعة وكثيرة من صوت ورسم . . . إلخ[٢٤] .

ولقد وجد مانجيري وبالدوين Mangieri and Baldwin (١٩٧٩) بعد استبعاد تأثير تواتر الكلمة ، وطولها ، وانتظام الصوت مع الرسم في التحليل الإحصائي لنتائج دراستهما ، أن هناك علاقة لها دلالة إحصائية بين معنى الكلمة ودقة هجائها ورأيا أن دراسة المفردات وهجائها ينبغي أن يترابطا[٢٦] .

وقارن سمث H.A. Smith (١٩٧٥) بين خمسة طرق لتدريس الهجاء لتحديد أكثرها فاعلية وذلك من خلال عينة من تلاميذ الصف الثالث بالمدارس الإنجليزية بلغ عددها ٣٠٩ تلميذاً . وتوصل إلى أن أفضل طريقة لتعلم هجاء الكلمات هو عرضها في سياق وذلك من حيث فاعلية التعلم[٢٧] .

وقارن كالاوي وماكدانيل وماسون Callaway, McDaniel & Mason (١٩٧٢) عدة طرق لتعليم أطفال الصف الأول القراءة والهجاء ولاحظ أن التلاميذ الذين يكتبون قصصاً يؤلفونها بأنفسهم على أساس ما يقرأونه أنجح التلاميذ في هجاء الكلمات[٢٢] .

ويعد هذا الاستعراض الموجز للجهود التي بذلت في مجال التنظير والتطبيق في تعليم وتعلم الإملاء في اللغة العربية واللغة الإنجليزية وهي جهود خصبة فكراً ، ومتنوعة بحثاً يجتزيء الباحث ليتناول بالبحث الامبيريقي علاقة الأخطاء الإملائية بالمستوى التعليمي ولبيان أكثر هذه الأخطاء شيوعاً وأقلها شيوعاً لدى عينة من طلاب المرحلة الإعدادية .

ولعل الاطار الفكري العام الذي استغرق معظم البحث يصلح أساساً فكرياً لبرنامج من البحوث يتصدى له شباب الباحثين فيتناولون متغيراته المختلفة وفي ذلك مدخل أساسي لتطوير تعليم اللغة العربية والارتقاء بمستواها .

الدراسة الحالية

أهمية الدراسة :

أنها محاولة مبدئية للتوصل إلى أكثر الأخطاء الإملائية شيوعاً ، ومعرفة حجم الظاهرة في هذه العينة المحدودة مما يفسح المجال لبحوث أكثر شمولاً تتناول أسباب الظاهرة والأساليب التي تكفل التخفف منها .

وللدراسة أهمية تطبيقية إذ تساعد معلمي اللغة العربية على توجيه جهودهم على نحو تفاضلي حين يعلمون الإملاء بما يكفل انقاص حجم هذه الظاهرة .

مشكلة الدراسة :

تتحدد مشكلة البحث في الإجابة عن سؤالين هما :

* السؤال الأول - ما مقدار تناقص الأخطاء الإملائية مع التقدم في التعليم؟
* السؤال الثاني - أي الأخطاء الإملائية أكثر شيوعاً وأيها أقل شيوعاً؟

عينة الدراسة :

اختيرت عينة من طلاب المرحلة الإعدادية عام ١٩٨٧ . بلغ حجمها ١٢٤ طالباً ، ٦١ طالباً بالصف الأول الإعدادي ، ٢٣ بالصف الثاني الإعدادي ، ٤٠ طالباً بالصف الثالث الإعدادي .

أداة الدراسة(*) :

قطعة إملائية تتكون من مائة كلمة تشتمل على معظم المواقف الإملائية الشائعة كلمات تبدأ بهمزات وصل أو همزات قطع وكلمات تنتهي بتاء مربوطة أو مبسوطة ، وبها كلمات بها همزات في مواضع مختلفة وفيها حروف مد وحروف ساكنة وفيها تنوين وتشتمل على ضمائر وحروف . . . إلخ .

(*) ساعد في اختيار هذه القطعة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز مطر .

طريقة إجراء الاختبار :

تم توزيع ورقة إجابة مقسمة إلى مائة قسم بحيث يكتب الطالب كلمة واحدة في كل قسم من الورقة .

قام بالإملاء معلمون لمادة اللغة العربية بالمدرسة بعد الاتفاق على النقاط الآتية :

أولاً - أن يتم الإملاء في بداية اليوم المدرسي للتخفف من عامل التعب الذي قد يؤثر على أداء الطالب في نهاية اليوم المدرسي .

ثانياً - تقرأ القطعة كلها مرة واحدة قبل الإملاء ولا يسمح للطالب أثناء ذلك بإمساك القلم أو الكتابة .

ثالثاً - يقوم المعلم بالإملاء بتكرار الكلمة مرتين يفصل بينهما ست ثوان تقريباً تقدر بأن يعد المعلم في سره حتى العدة ١٥ بسرعة متوسطة بين كل كلمة يمليها والتي يليها . وذلك بعد تنبيه الطلاب للاستعداد للكتابة .

رابعاً - يعيد المعلم قراءة القطعة بالسرعة المعتادة ويسمح للطالب في هذه المرة أن يمسك بالقلم ويعدل في كتابته .

خامساً - تؤخذ جميع الاحتياطات التي تمنع الطالب من الغش ، ومن بينها توفير المسافات المناسبة بين الطالب وزملائه ، وإغلاق الكتب ووضعها في الأدراج .

طريقة تصحيح الاختبار وتحليل النتائج :

تم التصحيح على مرحلتين :

(أ) المرحلة الأولى :

- تم فيها عد الأخطاء الواردة في ورقة إجابة كل طالب على حدة .
- حسب متوسط الأخطاء لكل صف دراسي وانحرافها المعياري .

(ب) المرحلة الثانية :

- تم إيجاد تكرار كل خطأ على حدة وفي كل صف دراسي وتم حساب النسبة المئوية لكل خطأ على حدة .
- احتسبت الأخطاء المكررة خطأ واحداً . وقد أثبت في جدول التكرار المرفق كلمة واحدة لكل الكلمات المكررة بنفس اللفظ والرسم واحتسب الخطأ فيها خطأ واحداً . ومن هنا فقد احتوى جدول (٨) التكرار على إحدى وسبعين كلمة من أصل مائة حيث أن ٢٩ كلمة مكررة .
- تم تصنيف الأخطاء وترتيبها حسب أكثرها شيوعاً وتم اختيار أكثر من عشرين كلمة من حيث تواتر الأخطاء لكل صف وكتبت الكلمات حسب نسبتها المئوية .
- تم ترتيب أقل الأخطاء شيوعاً (اقتصرت على عشرين كلمة) .

النتائج ومناقشتها

يتضح من البيانات الواردة في الجدول (١) أن متوسط أخطاء مجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي الإملائية قد بلغت ١٤,٥ بانحراف معياري مقداره ١١,٨٥ وهذه النتيجة تدل على أن الطالب قد وصل هذه المرحلة التعليمية وما يزال يخطيء في المتوسط ١٤ خطأً في ٧١ كلمة أي أنه يخطيء في هجاء عشرين في المائة من الكلمات . ويدل الإنحراف المعياري على تباين شديد في مستوى الطلاب في الأخطاء الإملائية إذ بلغ الإنحراف المعياري ١١,٨٥ وقد تراوحت الأخطاء الإملائية لهذه المجموعة ما بين خطأً واحد وخمس وخمسين خطأً . غير أنه ينبغي أن نشير إلى أن طالباً واحداً من ٦١ طالباً هو الذي أخطأ ٥٥ خطأً (في ٧١ كلمة) أما الذي يليه فقد أخطأ في ٤٦ كلمة والذي يليه أخطأ في ٤٥ كلمة والذي يليه أخطأ في ٣٤ كلمة . ان الدراس لتوزيع أخطاء هذه المجموعة (جدول ٥ بالملاحق) يتبين أن ربع الطلاب يخطيء في تسع عشرة كلمة أو أكثر وان النصف الأوسط من الطلاب يتراوح خطؤهم ما بين ستة أخطاء وسبع عشرة خطأً ، بينما نجد الربع الأفضل يخطيء خمسة أخطاء أو أقل .

جدول رقم (١)

جدول يبين متوسط أخطاء طلاب الصف الأول والثاني والثالث الاعدادي الإملائية وانحرافاتها المعيارية

الصف	ن	م	ع
الأول الإعدادي	٦١	١٤,٥	١١,٨٥
الثاني الإعدادي	٢٣	٧,٢٦	٦,٥٥
الثالث الإعدادي	٤٠	٥,٤٠	٦,٠٠

فإذا انتقلنا إلى طلاب الصف الثاني الإعدادي نجد أن الأخطاء الإملائية قد انخفضت إلى نصف ما وجد لدى عينة طلاب الصف الأول الإعدادي إذ بلغت ٧,٢٦ كلمة في المتوسط . وهذه نتيجة تعني أن المدرسة الإعدادية تقوم بدور هام في رفع مستوى الطلاب في الإملاء وأن السنة الأولى فيها تقوم بدور فاعل في هذا المجال . ومن ناحية أخرى فإن النتيجة تعني أن الطلاب في الصف الثاني الإعدادي يخطئون في ١٠٪ من الكلمات التي يكتبونها في الإملاء وهي نتيجة تتطلب جهداً تربوياً مكثفاً من قبل المعلمين في اللغة العربية بل وفي غير اللغة العربية وواضح من الانحراف المعياري لهذه الدرجات وهو ٦,٥٥ أن المجموعة أصبحت أكثر تجانساً في الأخطاء الإملائية إذا قورنت بمجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي . وتراوحت الأخطاء في هذا الصف ما بين خطأ واحد و٢٣ خطأ . وفي هذه المجموعة نجد أربعة طلاب لا يخطئون أي خطأ ، كما نجد أن نصف الطلاب تقريباً تراوحت أخطاؤهم ما بين ٣ أخطاء وعشرة أخطاء غير أن ربع الطلاب في هذه المجموعة تتراوح أخطاؤهم ما بين ١٢ وثلاثة وعشرين وهم الطلاب الأكثر تعرضاً للأخطاء وهي ظاهرة جديرة بالتصدي لها تربوياً ومزعجة . (جدول ٦ بالملاحق) .

فإذا انتقلنا إلى طلاب الصف الثالث الإعدادي نلاحظ أن متوسط أخطائهم الإملائية قد بلغ ٤,٥ بانحراف معياري ٦ درجات أي أنه مع التقدم في التعليم انخفضت الأخطاء ، وازدادات المجموعة تجانساً .

ودراسة الجدول (٧) الذي يبين توزيع أخطاء مجموعة الصف الثالث الإعدادي يبين أن طالبين لم يتعرضا لأي خطأ إملائي وسبعة طلاب تعرضوا لخطأ واحد وهؤلاء تقريباً يمثلون ربع هذه العينة . ونلاحظ أن نصف العينة تقريباً تراوحت أخطاؤهم ما بين خطأين وستة أخطاء وأن الربع الأخير والأكثر تعرضاً للأخطاء قد أخطأ في ما بين ثمانية أخطاء وثمانية وعشرين خطأ . وهي نسبة خطأ عالية في هذه المرحلة من التعليم .

جدول رقم (٢)

يبين قيمة «ت» ومستوى الدلالة الاحصائية بين متوسطات الأخطاء الإملائية لمجموعات طلاب الصفوف الإعدادية الثلاث

المقارنة	ت	مستوى الدلالة
الأول الإعدادي مع الثاني الاعدادي	٣,٥٦	٠,٠٠١
الأول الإعدادي مع الثالث الإعدادي	٥,٠٢	٠,٠٠١
الثاني الإعدادي مع الثالث الإعدادي	١,١٣	—

وواضح من هذا أن الإجابة عن السؤال الأول لهذه الدراسة هي أن مقدار الأخطاء الإملائية قد انخفض إلى النصف من مجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي إلى مجموعة طلاب الصف الثاني الإعدادي أي من ١٤,٥ خطأً في المتوسط إلى ٧,٢٦ وهذا الفرق دال إحصائياً عند مستوى ٠,٠١ أي أنه لا يمكن أن يرجع إلى عوامل الصدفة . وقد تناقص متوسط الأخطاء الاملائية من

الصف الثاني الإعدادي إلى الصف الثالث بمقدار درجتين تقريباً والفرق ليس دالاً إحصائياً . وينبغي أن تؤخذ هذه النتائج بتحوط لأن العينة ليست كبيرة وتمثيلها لمجتمع طلاب المدارس الإعدادية موضع نظر . وأن كان المرجح أن هذه النتائج ليست بعيدة عما يمكن أن تكشف عنه دراسات لاحقة تستخدم عينة ممثلة للمجتمع الطلابي بدرجة أكبر .

إن هذه النتيجة تبين لنا ضرورة الاهتمام بتدريس الإملاء منذ الصفوف الأولى من المرحلة الإبتدائية وتقدم لنا ما يدل على أهمية استمرار التدريب على

الإملاء حتى نهاية المرحلة الإعدادية . وإذا استمرت هذه الظاهرة وجب الاهتمام بمعالجتها في بداية المرحلة الثانوية .

والدارس للجدول رقم (٣) الذي يشتمل على أكثر الأخطاء شيوعاً يجد أن الكلمات المهموزة وخاصة في وسطها تحتل مكانة بارزة . ففي هذا الجدول نجد أن من بين عشرين خطأ هي أكثر الأخطاء شيوعاً ، سبع كلمات بها همزات كان أقلها بالنسبة لعينة الصف الأول الإعدادي في (سألتك) ٢٤,٥٪ وأعلاها (مرؤوس) حيث بلغ الخطأ فيها ٩٢٪ .

جدول رقم (٣)

يبين أكثر الأخطاء الإملائية شيوعاً لدى عينة من طلاب الصفوف الإعدادية الثلاث

الأول الإعدادي ن = ٦١		الثاني الإعدادي ن = ٢٣		الثالث الإعدادي ن = ٤٠	
الكلمة	٪	الكلمة	٪	الكلمة	٪
مرؤوس	٩١,٨	مسؤولون	٥٦,٥٢	فـانـا	٥٠
مسؤولون	٧٨,٦٩	مرؤوس	٥٢,١٧	مرؤوس	٤٧,٥
ائتنا	٧٢,١٣	فـانـا	٥٢,١٧	ائتنا	٣٧,٥
بقية	٦٨,٨٥	ائتنا	٤٧,٨٣	بقية	٣٧,٥
فانا	٦٠,٦٦	وانصرف	٣٩,١٣	مسؤولون	٣٠,
ابن	٥٠,٨٢	بقية	٣٩,١٣	ولكن	٣٠,
وانصرف	٥٠,٨٢	ابن	٣٤,٧٨	راكبا	٢٥,
ورأس	٤٢,٦٢	يا مولاي	٢٦,١	سألتك	٢٢,٥
سأنتصر	٤٢,٦٢	منـه	٢١,٧٣	وانصرف	٢٠,
ولكن	٤٢,٦٢	سأنتصر	٢١,٧٣	سأنتصر	١٥,
الأعرابي	٣٤,٤٣	سألتك	١٧,٣٩	ابن	١٥,
يا مولاي	٣٤,٤٣	ورأس	١٧,٣٩	يا مولاي	١٢,٥
ســوء	٣١,٥١	ســوء	١٧,٣٩	ورأس	١٠
التفت	٢٩,٥١	إذا	١٧,٣٩	إذ	١٠
سألتك	٢٤,٥٩	ولكن	١٧,٣٩	بينها	٧,٥
خصم	٢٤,٥٩	شكره	١٧,٣٩	لـه	٧,٥
بعنان	٢٢,٩٥	راكبا	١٣	أعرابي	٧,٥
فرسه	٢٢,٩٥	فرسه	١٣	تضرب	٧,٥
راكبا	٢٢,٩٥	أيها	١٣	إذا	٧,٥
منصفوك	٢١,٣١	يزعجني	١٣	التفت	٧,٥
الفقر	٢١,٣١	منصفوك	١٣	خذها	٧,٥

ونجد نفس النمط الاستجابي بالنسبة لعينة طلاب الصف الثاني الإعدادي حيث توجد تسع كلمات بها همزة أقلها من حيث نسبة الخطأ (أيها) ١٣٪ وأعلاها (مسؤولون) ٥٦٪ ويلاحظ هنا أن نسبة الخطأ قد انخفضت انخفاضاً واضحاً من الصف الأول الإعدادي إلى الصف الثاني فالمدى هنا يبلغ ٤٣٪ وقد كان ٦٨٪ في الصف الأول الإعدادي .

وتكثر الأخطاء في الكلمات عندما يكون أولها أو وسطها همزة لدى عينة طلاب الصف الثالث الإعدادي ، حيث نجد عشر كلمات مهموزة من العشرين الأكثر شيوعاً من حيث الخطأ أقلها (إذا) وقد بلغ الخطأ ٧,٥٪ ولعل الخطأ يرجع إلى التنوين هنا وأعلاها (فانا) حيث بلغت نسبة الخطأ ٥٠٪ والمدى هنا مقارب لما نجده في عينة الصف الثالث الإعدادي وان انخفض حجم الخطأ .

ويخطيء الطلاب في التاء المفتوحة والتاء المقفلة نجد ذلك في كلمة (بقية) حيث تبلغ نسبة المخطئين في كتابتها في الصف الأول الإعدادي ٦٨,٨٪ تنخفض لتصبح ٣٩٪ في عينة الصف الثاني الإعدادي وإلى ٣٧٪ في عينة الصف الثالث الإعدادي . وتخطيء ٢٩,٥٠٪ في كتابة كلمة (التفت) من طلاب الصف الأول الإعدادي تنخفض لتصبح ٨,٧٪ في الصف الثاني الإعدادي ٧,٥٪ في الصف الثالث الإعدادي . (جدول رقم ٨ بالملاحق) .

ولا أريد أن أستطرد فالجداول مرفقة بالكلمات التي أمليت على الطلاب ونسبة الخطأ في كل عينة من طلاب الصف الأول والثاني والثالث . وهي بيانات جديرة بأن يلتفت إليها معلمو اللغة العربية وموجهوها وأولياء أمور الطلاب وخاصة ان الطلاب يدربون على الإملاء المنقول في الصفين الثاني والثالث الابتدائي ، ويدربون على مباديء الإملاء دون التعرض للقواعد الإملائية في الصف الرابع الابتدائي ويشتمل المنهج في هذا الصف على التدريبات الخاصة بالمهارات :

١ - اللامان الشمسية والقمرية .
٢ - التاءان المقفلة والمفتوحة .
٣ - التنوين .
٤ - اللام المزدوجة .
٥ - الهمزة في أول الكلمة وفي وسطها .

أما في الصف الخامس فيبدأ الطلاب دراسة القواعد الإملائية بالطريقة القاصدة التي تعتمد على الأمثلة والمناقشة والاستنباط والتطبيق وتخصيص حصة كاملة لدراسة القاعدة الإملائية والتدريب عليها كما تخصص حصص أخرى لكتابة القطع الإملائية وتدرس القواعد الإملائية التالية وهي التاء بنوعيها المقفلة والمفتوحة ، وهمزة الوصل وهمزة القطع ، والهمزة المتوسطة والهمزة المتطرفة وعلامات الترقيم .

وتستمر دراسة القواعد الإملائية في الصف السادس حول الموضوعات التالية :

واو الجماعة والتفريق بينها وبين الواو التي من أصل الفعل والألف اللينة (وابن) .

ويستمر التدريب على هذه المهارات في الصف الأول الإعدادي والصف الثاني الإعدادي[٢١] .

ويكفي أن نشير إلى مثال واحد يدل على أن أهداف المنهج التعليمي لا تتحقق فقد أخطأ ٥٠,٨٪ من عينة طلاب الصف الأول الإعدادي في كتابة (ابن) وانخفضت هذه النسبة لتصبح ٣٤,٧٪ لدى عينة الصف الثاني الإعدادي ثم إلى ١٥٪ في عينة الثالث الإعدادي .

جدول رقم (٤)

يبين أقل الأخطاء الإملائية شيوعاً لدى عينة من طلاب الصفوف الثلاثة الإعدادية

م	الصف الأول الإعدادي		الصف الثاني الإعدادي		الصف الثالث الإعدادي	
	الكلمة	٪	الكلمة	٪	الكلمة	٪
١	كـان	—	كـان	—	كـان	—
٢	أن	—	عبدالله	—	عبدالله	—
٣	فقال	—	جعفر	—	تعرض	—
٤	على	—	إذ	—	وقال	—
٥	عمري	—	له	—	الأمير	—
٦	الله	١,٦٤	وقال	—	بالله	—
٧	خصمي	١,٦٤	أن	—	أن	—
٨	فما	١,٦٤	فقال	—	فقال	—
٩	جعفر	٣,٢٨	أنت	—	أمجنون	—
١٠	وقال	٣,٢٨	لا	—	لا	—
١١	لا	٣,٢٨	فما	—	فما	—
١٢	ومن	٣,٢٨	خطبك	—	خصم	—
١٣	هذا	٣,٢٨	إذا	—	ومن	—
١٤	ثم	٣,٢٨	لي	—	هذا	—
١٥	بها	٣,٢٨	خصم	—	هو	—
١٦	بينها	٤,٩٢	ادفع	—	ثم	—
١٧	إذ	٤,٩٢	إليه	—	ادفع	—
١٨	تعرض	٤,٩٢	دينار	—	ألف	—
١٩	يزعجني	٤,٩٢	عـاد	—	دينار	—
٢٠	نساعدك	٤,٩٢	إليك	—	إليك	—

وبطبيعة الحال فإن البيانات الواردة في الجدول رقم (٤) بيانات تدعو إلى التفاؤل إذ تراوحت الأخطاء ما بين ٤,٩٢ في كلمة (نساعدك) في الصف الأول الإعـدادي إلى كلمـة (الله) حيث كان الخطأ ١,٦٤٪ ولا تخطئ عينة طلاب الصف الثاني الإعدادي وعينة طلاب الصف الثالث الإعدادي في أي من هذه الكلمات . ولعل جهوداً تربوية مكثفة في هذا المجال تؤدي إلى اتقان المهارات الإملائية .



ملخص

استهدفت هذه الدراسة هدفين :

أولاً – تقـديم ملخص عن الـدراسـات العربية والدراسات الأجنبية في مجال الإمـلاء بغية توفـير أسـاس شامل لتناول بعض متغيرات الظاهرة في التعليم والتعلم يفيد الباحثين في هذا المجال .

ثانياً :– عرض نتائج دراسة استطلاعية عن أكثر الأخطاء الإملائية شيوعاً لدى عينـة من طلاب المـدرسـة الإعـدادية وعلاقة حجم الخطأ بمستوى التعليم .

ولتحقيق الهدف الثاني أمليت قطعة إملائية تتألف من مائة كلمة تشتمل على معظم المواقف الإملائية الشائعة . على ثلاث مجموعات من طلاب الصف الأول الإعدادي والصف الثاني الإعدادي والصف الثالث الإعدادي بلغ حجمها على الـترتيب ٦١ ، ٢٣ ، ٤٠ طالباً . وقد اتبعت خطوات موحدة ومحددة لإجراء الاختبار بما يكفل موضوعية المقارنة بين نتائج المجموعات ثم حللت النتائج في محاولة الإجابة عن سؤالين هما :

١ – ما مقدار تناقص الأخطاء الإملائية مع التقدم في التعليم ؟
٢ – أي الأخطاء الإملائية أكثر شيوعاً وأيها أقل شيوعاً ؟

وقد أسفر تحليل النتائج عن أن متوسط أخطاء مجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي الإملائية هي : ١٤,٥٠ بانحراف معياري ١١,٨٥ وانخفض هذا المتوسط ليصبح ٧,٢٦ لدى مجموعة طلاب الصف الثاني الإعدادي بانحراف معياري مقداره ٦,٥٧ وهو انخفاض كبير ثم انخفض قليلاً ليصبح ٥,٤ لدى مجموعة طلاب الصف الثالث الإعدادي بانحراف معياري مقداره ٦ وقد كان الفرق بين أداء طلاب الصف الأول والصفين الثاني والثالث دالاً إحصائياً الأمر

الـذي لم يتحقق بين طلاب الصف الثـاني الإعـدادي وطلاب الصف الثالث الإعدادي . وتدل النتائج على أن هذه المجموعات تزداد تجانساً في هذاالمجال مع التقدم في التعليم كما يتضح من الانحراف المعياري الذي يبلغ ١١,٨٥ لدى المجموعة الأولى وأصبح ٦ لدى المجموعة الثالثة .

وفي محاولة للإجابة عن السؤال الثاني الذي طرحه هذا البحث تم ترتيب الأخطاء الأكثر شيوعاً والأخطاء الأقل شيوعاً ، أما الأخطاء الإملائية المتوسطة في هذا الشيوع فهي مثبتة في جدول رقم (٨) الذي يبين صورة شاملة لجميع الأخطاء .

واتضح من فحص النتائج الواردة في هذا الجدول ، أن نسبة الخطأ ما تزال مرتفعة وخاصة أن التعليم النظامي والتدريب على قواعد الإملاء يبدأ مع الصف الثاني الإبتدائي إن لم نقل الأول وتخصص له دروس في الجدول الدراسي ابتداء من الصف الرابع الإبتدائي وحتى الصف الثاني الإعدادي . وينص المنهج التعليمي على التدريب والتركيز على فئات الأخطاء التي كثر تعرض هذه العينة من الطلاب لها كالهمزة ، والتاء المفتوحة والمقفلة ، وابن ، . . . إلخ .

وهذه النتائج ينبغي أن يوظفها القائمون على تعليم اللغة العربية في التعليم الإبتدائي والتعليم الإعدادي . ولعل تلخيص الدراسات السابقة عربية وأجنبية يكون معيناً لهم في جهودهم التعليمية بما يحقق الخير لأبناء هذا الوطن .

وعلى الله قصد السبيل

المراجع

١ - إبراهيم عبدالمطلب : الهداية إلى ضوابط الكتابة . مطبعة مخيمر ، القاهرة ١٩٥٨م .

٢ - حامد عبدالقادر : دفاع عن الأبجدية والحركات العربية . بحث بمجلة مجمع اللغة العربية جـ١٢ . مطبعة التحرير ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

٣ - حسن شحاتة : الأخطاء الشائعة في الإملاء لدى تلاميذ الصفوف الثلاثة الأخيرة في المرحلة الإبتدائية ، تشخيصها وعلاجها ، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية التربية ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٨م .

٤ - حسن شحاتة : أساسيات تعلم الإملاء . مؤسسة الخليج العربي . القاهرة ، ١٩٨٦م .

٥ - عبدالعليم إبراهيم : الإملاء والترقيم في الكتابة العربية . مكتبة غريب . القاهرة ، ١٩٧٥م .

٦ - عبدالعليم إبراهيم : توجيه الرسم الإملائي على مستوى العالم العربي في تطوير تدريس علوم اللغة العربية وآدابها . الخرطوم ، فبراير ، ١٩٧٦م .

٧ - عبدالعليم إبراهيم : الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية . دار المعارف ، القاهرة ، ب ت .

٨ - عبدالفتاح إسماعيل شلبي : تقرير عن بحث في تيسير قواعد الإملاء (غير منشور) إدارة البحوث الفنية ، وزارة التربية والتعليم . القاهرة ، ١٩٦٠م .

٩ - كافية رمضـان ، وحسن شحـاتـة : قواعـد الإمـلاء ومشكلات الكتابة العربية . دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

١٠ - مجمع اللغة العربية «تيسير الإملاء» الدورة الرابعة عشرة ، الجلسة الرابعة للمجلس . القاهرة ، نوفمبر ١٩٤٧ ، والجلسة الخامسة يناير ١٩٤٨ .

١١ - مجمع اللغة العربية : مشكلات الكتابة العربية الخط العربي . مجموعة البحوث والمحاضرات . الدورة ٢٦ القاهرة ، ١٩٦٠م .

١٢ - مجمـع اللغـة العربية «قواعد ضبط الهمزة وتنظيم كتابتها» مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ١٩٣٢ - ١٩٦٢ مجموعة القرارات العلمية من الدورة الأولى إلى الثامنة والعشرين ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ، ١٩٧١م .

١٣ - محمد بهجة الأثري : تيسير الإملاء العربي . مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة جـ٢ ، ١٩٦٠م .

١٤ - محمد صلاح الدين مجاور : دراسة تجريبية لتحديد المهارات اللغوية في فروع اللغة العربية ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٤م .

١٥ - محمود أحمد السيد : الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها . دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

١٦ - محمود تيمور : ضبط الكتابة العربية ، مجمع فؤاد الأول للغة العربية . القاهرة ، يناير ١٩٥١م .

١٧ - مصطفى السفطي : عنوان النجابة في قواعد الكتابة . المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٣م .

١٨ - منى بحري : تقويم الاختبارات الصفية التحريرية لمادة إملاء اللغة العربية للصفوف الرابعة الابتدائية في العراق للسنة الدراسية ٧٠ - ٧١ ، مركز البحوث التربوية والنفسية . بغداد ، ١٩٧٣م .

١٩ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . إدارة التربية . دليل بحوث تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي في الوطن العربي ١٩٠٠ - ١٩٨٠م . تونس ١٩٨٣م .

٢٠ - نهاد الترزي وشوكت الصواف : قواعد الإملاء الحديثة . مكتبة المعرفة ، دمشق ، ١٩٣٩م .

٢١ - وزارة التربية والتعليم : إدارة المناهج والكتب المدرسية ، مناهج اللغة العربية ، الدوحة ، ١٩٨٥م .

22. B. Callaway, H. McDaniel & G.E. Mason. Five Methods of Teaching Language Arts: A Comparison. Elementary English, 1972, 49, 1240 – 1245.

23. L. C. Doughton (ed.). The Encyclopedia of Education, Vol. 8, The Macmillan Company & The Free Press, 1971.

24. U. Frith & C. Frith. Relationships between reading and spelling. In J.F. Kavanagh & R.L. Venezky (eds.), Orthography, Reading and Dyslexia, Baltimore: University Park Press, 1988.

25. T. Husen, & T.N. Postlethwaite (eds.). The International Encyclopedia of Education, Pregamon Press, N.Y. 1988.

26. J. N. Mangieri & R. S. Baldwin. Meaning as a factor in predicting spelling difficulty. Journal of Educational Research, 1979, 72, 285–287.

27. P.T. Smith. Teaching Spelling. British Journal of Educational Psychology, 1975, 45, 68–72.

28. R.G. Strickland. The Language Arts in the Elementary School (3rd ed.), D.C. Heath & Co., Lexingtion, Massachus ettes, 1969.

الملاحق

الملحق ١ قائمة كتب

الملحق ٢ قطعة الاملاء

الملحق ٣ الجداول الاحصائية

ملحق رقم « ١ »
قائمة كتب العقد الثامن

- إبراهيم محمد الشافعي ، «تطور تعليم اللغة العربية» .
- حامد حفني داود ، «الطرق الخاصة في تدريس اللغة العربية والدين» .
- جابر عبدالحميد جابر وآخرون ، «الطرق الخاصة لتدريس اللغة العربية وأدب الأطفال» .
- جودت الركابي ، «طرق تدريس اللغة العربية» .
- عائشة عبدالرحمن ، «تعليم اللغة العربية ورأي في أزمتنا اللغوية» .
- عابد توفيق الهاشمي ، «الموجه العملي لمدرس اللغة العربية» .
- عبدالفتاح السكري وآخرون ، «خدمة تدريس اللغة العربية للصف الثالث بمعاهد إعداد المعلمين للمرحلة الإبتدائية» .
- عبدالمنعم سيد عبدالعال ، «طرق تدريس اللغة العربية» .
- عبدالعليم إبراهيم ، «الموجه الفني لمدرس اللغة العربية» .
- علي الجمبلاطي ، «تطوير اللغة العربية والتربية الدينية بما يتفق مع روح العصر» .
- علي الجمبلاطي ، أبو الفتوح التونسي ، «الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية» .
- فتحي أحمد عامر ، «تطوير تعليم اللغة العربية لتخريج المواطن العربي العصري» .
- فتحي يونس ، محمود الناقة ، «أساسيات تعليم اللغة العربية» .
- مجيد دمعه وآخرون ، «اللغة العربية وأصول تدريسها لدور المعلمين التدريبية» .
- محمد صلاح الدين مجاور ، «تدريس اللغة العربية أسسه وتطبيقاته التربوية» .

- محمد صلاح الدين مجاور ، «تدريس اللغة العربية بالمرحلة الإبتدائية أسسه وتطبيقاته التربوية» .
- محمد عبدالقادر أحمد ، «طرق تعليم اللغة العربية» .
- محمد مصطفى هدارة ، «أهداف تدريس اللغة العربية في مراحل التعليم العام ووسائل تحقيقها» .
- محمود السعد ، «الموجز في طرق تدريس اللغة العربية وآدابها» .
- محمود الشحات ، «الاتجاهات المعاصرة في طرق تدريس اللغة العربية للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة» .
- موسى إبراهيم الكرباس ، «دراسات في أساليب تدريس اللغة العربية في مرحلة الدراسة الابتدائية» .
- ندوة النوري ، «فروع اللغة العربية وطرائق تدريسها» .
- نهاد الموسى ، «تعليم اللغة العربية» .

ملحق رقم « ٢ »

قطعة الاملاء

بينما كان عبدالله بن جعفر راكباً إذْ تعرض له أعرابيّ وأمسك بعنان فرسه ، وقال له : أيها الأمير ، سألتك بالله أن تضرب عنقي . فقال : له الأمير . أمجنون أنت ؟ فقال الأعرابي : لا ، ورأسِ الأمير . قال فما خطبك إذاً أيها الأعرابي ؟ قال : لي خصم سوء يزعجني . فقال الأمير : ومَن خصمُك هذا ؟ فقال له : هو الفقر يا مولاي . فقال له الأمير : إذن نساعدَك . ثم التفت الأمير إلى مرؤوس له وقال : إدفع إليه ألف دينار . ثم قال له : خذها ونحن مسؤولون ، ولكن ائتنا إذا عاد إليك خصمك ، فإنا منصفوك منه . فقال الأعرابي : سأنتصر بها على خصمي بقية عمري ، أطال الله بقاء الأمير . ثم شكره وانصرف .

---

(١) مرؤوس ، ومسؤول : يرى مجمع اللغة العربية ان يكتبا : مرءوس ومسئول . وهكذا يكتبان وأمثالهما في المدارس والصحف المصرية .

جدول رقم (٥)

يبين أخطاء طلاب الصف الأول الإعدادي وتكرارها وتكرارها المتجمع

الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع	الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع
١	١	١	١٧	١	٤٤
٢	٣	٤	١٩	٢	٤٦
٣	٣	٧	٢٠	١	٤٧
٤	٤	١١	٢١	١	٤٨
٥	٤	١٥	٢٥	١	٤٩
٦	١	١٦	٢٦	١	٥٠
٧	٧	٢٣	٢٧	١	٥١
٨	١	٢٤	٢٩	١	٥٢
٩	٤	٢٨	٣٠	٣	٥٥
١٠	١	٢٩	٣١	١	٥٦
١١	٤	٣٣	٣٣	١	٥٧
١٣	٣	٣٦	٣٤	١	٥٨
١٤	٢	٣٨	٤٥	١	٥٩
١٥	٢	٤٠	٤٦	١	٦٠
١٦	٣	٤٣	٥٥	١	٦١

جدول رقم (٦)

يبين أخطاء طلاب الصف الثاني الاعدادي الإملائية وتكرارها وتكرارها المتجمع

الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع
صفر	٤	٤
١	١	٥
٢	٢	٧
٣	٢	٩
٤	٢	١١
٥	١	١٢
٧	٢	١٤
١٠	٣	١٧
١٢	٢	١٩
١٧	٢	٢١
١٨	١	٢٢
٢٣	١	٢٣

جدول رقم (٧)

يبين أخطاء طلاب الصف الثالث الإعدادي الإملائية وتكرارها وتتكرارها المتجمع

الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع
صفر	٢	٢
١	٧	٩
٢	٨	١٧
٣	٢	١٩
٤	٧	٢٦
٥	٣	٢٩
٦	٢	٣١
٨	١	٣٢
٩	١	٣٣
١١	٢	٣٥
١٣	١	٣٦
١٥	١	٣٧
١٨	١	٣٨
٢٠	١	٣٩
٢٨	١	٤٠

جدول رقم (٨)

يبين عدد الأخطاء ونسبة الخطأ في كل كلمة من كلمات قطعة الإملاء لدى عينة من طلاب الصفوف الثلاثة الإعدادي

م	الكلمة	الأول الإعدادي ن = ٦١		الصف الثاني ن = ٢٣		الصف الثالث ن = ٤٠	
		ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪
١	بينما	٣	٤,٩٢	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
٢	كـــان	—		—		—	
٣	عبدالله	٣	٤,٩٢	—		—	
٤	بن	٣١	٥٠,٨٢	٨	٣٤,٧٨	٦	١٥
٥	جعفر	٢	٣,٢٨	—		١	٢,٥
٦	راكبا	١٤	٢٢,٩٥	٣	١٣	١٠	٢٥
٧	إذ	٣	٤,٩٢	—		٤	١٠
٨	تعرض	٣	٤,٩٢	١	٤,٣٥	—	
٩	له	١٠	١٦,٣٩	—		٣	٧,٥
١٠	أعرابي	١١	١٨,٠٣	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
١١	وأمسك	٧	١١,٤٨	١	٤,٣٥	١	٢,٥
١٢	بعنان	١٤	٢٢,٩٥	١	٤,٣٥	١	٢,٥
١٣	فرسه	١٤	٢٢,٩٥	٣	١٣	١	٢,٥
١٤	وقال	٢	٣,٢٨	—		—	
١٥	أيها	٧	١١,٤٨	٣	١٣	١	٢,٥
١٦	الأمير	٩	١٤,٧٥	١	٤,٣٥	—	
١٧	سألتك	١٥	٢٤,٥٩	٤	١٧,٣٩	٩	٢٢,٥
١٨	بالله	٧	١١,٤٨	١	٤,٣٥	—	
١٩	أن	—		—		—	
٢٠	تضرب	٥	٨,٢	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
٢١	عنقي	٥	٨,٢	١	٤,٣٥	١	٢,٥
٢٢	فقال	—		—		—	
٢٣	أمجنون	٨	١٣,١١	١	٤,٣٥	—	
٢٤	أنت	٥	٨,٢	—		١	٢,٥
٢٥	الأعرابي	٢١	٣٤,٤٣	٢	٨,٧٥	٢	٥,
٢٦	لا	٢	٣,٢٨	—		—	

تابع : جدول رقم (٨)

م	الكلمة	الأول الإعدادي ن = ٦١		الصف الثاني ن = ٢٣		الصف الثالث ن = ٤٠	
		ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪
٢٧	وراس	٢٦	٤٢,٦٢	٤	١٧,٣٩	٤	١٠
٢٨	فيا	١	١,٦٤	—		—	
٢٩	خطبك	٤	٦,٥٥	—		١	٢,٥
٣٠	إذا	٦	٩,٨٤	—		٣	٧,٥
٣١	لي	٥	٨,٢٠	—		١	٢,٥
٣٢	خصم	١٥	٢٤,٥٩	—		—	
٣٣	سوء	١٩	٣١,١٥	٤	١٧,٣٩	٦	١٥
٣٤	يزعجني	٣	٤,٩٢	٣	١٣	٢	٥
٣٥	ومن	٢	٣,٢٨	٣	١٣	—	
٣٦	خصمك	٩	١٤,٧٥	١	٤,٣٥	٢	٥
٣٧	هذا	٢	٣,٢٨	١	٤,٣٥	—	
٣٨	هو	١٠	١٦,٣٩	١	٤,٣٥	—	
٣٩	الفقر	١٣	٢١,٣١	١	٤,٣٥	٢	٥
٤٠	يامولاي	٢١	٣٤,٤٣	٦	٢٦,١	٥	١٢,٥
٤١	نساعدك	٣	٤,٩٢	١	٤,٣٥	١	٢,٥
٤٢	ثم	٢	٣,٢٨	١	٤,٣٥	—	
٤٣	التفت	١٨	٢٩,٥١	٢	٨,٧٠	٣	٧,٥
٤٤	إلى	٦	٩,٨٤	٢	٨,٧٠	١	٢,٥
٤٥	مرؤوس	٥٦	٩١,٨٠	١٢	٥٢,١٧	١٩	٤٧,٥
٤٦	ادفع	٥	٨,٢	—		—	
٤٧	إليه	٨	١٣,١١	—		١	٢,٥
٤٨	ألف	٥	٨,٢	١	٤,٣٥	—	
٤٩	دينار	١٢	١٩,٦٧	—		—	
٥٠	خذها	٦	٩,٨٤	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
٥١	ونحن	١١	١٨,٠٣	٣	١٣	١	٢,٥
٥٢	مسؤولون	٤٨	٧٨,٦٩	١٣	٥٦,٥٢	١٢	٣٠
٥٣	ولكن	٢٦	٤٢,٦٢	٤	١٧,٣٩	١٢	٣٠
٥٤	ائتنا	٤٤	٧٢,١٣	١١	٤٧,٨٣	١٥	٣٧,٥

تابع : جدول رقم (٨)

م	الكلمة	الأول الإعدادي ن = ٦١		الصف الثاني ن = ٢٣		الصف الثالث ن = ٤٠	
		ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪
٥٥	إذا	٨	١٣,١١	٤	١٧,٣٩	٣	٧,٥
٥٦	عاد	٥	٨,٢	—		٣	٧,٥
٥٧	إليك	٧	١١,٤٨	—		—	
٥٨	فإنا	٣٧	٦٠,٦٦	١٢	٥٢,١٧	٢٠	٥٠
٥٩	منصفوك	١٣	٢١,٣١	٣	١٣,	٢	٥
٦٠	منه	١١	١٨,٠٣	٥	٢١,٧٣	—	
٦١	سأنتصر	٢٦	٤٢,٦٢	٥	٢١,٧٣	٦	١٥
٦٢	بها	٢	٣,٢٨	٢	٨,٧٠	٢	٥
٦٣	على	—		—		—	
٦٤	خصمي	١	١,٦٤	—		٣	٧ ٥
٦٥	بقية	٤٢	٦٨,٨٥	٩	٣٩,١٣	١٥	٣٧ ٥
٦٦	عمري	—		—		١	٢ ٥
٦٧	أطال	٧	١١,٤٨	٢	٨,٧٠	٢	٥
٦٨	الله	١	١,٦٤	—		—	
٦٩	بقاء	١١	١٨,٠٣	١	٤,٣٥	—	
٧٠	شكره	٦	٩,٨٤	٤	١٧,٣٩	٢	٥
٧١	وانصرف	٣١	٥٠,٨٢	٩	٣٩,١٣	٨	٢٠

تنمية العالم الثالث
بين المركزية الحضرية والتوازن الاقليمي

أستاذ دكتور السيد الحسيني

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

تمهيد :

أبدى العلماء الاجتماعيون خلال السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً بتحديد طبيعة العلاقة بين التحضر والتنمية في مجتمعات العالم الثالث . ولقد أسفر هذا الاهتمام عن تبلور موقفين فكريين متباينين . أما الموقف الفكري الأول فينطلق من أن المدينة في هذه المجتمعات تشكل مجالاً حيوياً للنمو الاقتصادي ، والتطور الاجتماعي ، والوعي السياسي ، والنضج الثقافي ؛ وأنها بذلك تمثل اطاراً ملائماً لحشد الإمكانيات المادية والموارد البشرية اللازمة لتحقيق التنمية الاقتصادية ، والتغير الاجتماعي . وهذا يعني أن تحقيق التنمية في مجتمعات العالم الثالث يتطلب قدراً من المركزية الاقتصادية والتركز السكاني حتى تستطيع المشروعات الانتاجية انجاز أهدافها على أفضل نحو ممكن (الحسيني ، ١٩٨٥ : ٥٢) . ويسلم هذا الموقف الفكري بأن هذه المركزية الاقتصادية تؤدي إلى نتائج هامة ، خاصة إذا ما كانت مستندة إلى تصنيع واسع النطاق . ذلك أن التصنيع يؤدي إلى ظهور معايير رشيدة منظمة للعمل ، وقيم جديدة مؤكدة للحرية الفردية والتجريب ، مما يولد الاستعداد لتقبل الأفكار الجديدة ، واكتشاف المهارات الفردية ، والقدرة على توفير فرص الاستثمار، وحشد رؤوس الأموال (Moore, 1972) . وعلى الرغم من أن هذا الموقف الفكري يعكس منطق التصنيع في العالم الغربي الرأسمالي بأكثر مما يعكس ظروف التصنيع في العالم الثالث ، إلا أننا ما

نزال نجد بعض العلماء يروجون له في اطار الدفاع عن مزايا المركزية الحضرية في الدول النامية .

أما الموقف الفكري الثاني فيطرح وجهة نظر معارضة . إذ يذهب أصحابه إلى أن النمو الحضري السريع وعلى الأخص ذلك الذي شهدته المدن الكبرى قد أسهم في تعميق التفاوت الإقليمي بين المدينة والريف (الجوهري ، ١٩٨٣) . ذلك أن المدينة تحصل على نصيب الأسد من الثروة القومية ، بينما لا يحصل الريف على نصيبه العادل منها برغم ضخامته السكانية . لذلك نجد معارضى النمو الحضري في مجتمعات العالم الثالث يستخدمون مفاهيم كالتحيز الحضري ، ومحاباة العواصم ، والتخلف الريفي ، واختلال التوازن الاقليمي . وبرغم صدق ومنطقية هذه المفاهيم ، إلا أن حصيلة مجتمعات العالم الثالث من تجارب التنمية الريفية ، ونشر الصناعات ، والتحكم في نمو المدن الكبرى ما تزال متواضعة إلى حد كبير . والواقع أن التسليم بمثل هذه المفاهيم يتطلب طرحاً ملائماً لأهم قضايا ومشكلات النمو الحضري في العالم الثالث . فمن الضروري أولاً التحقق من صدق مقولة ارتفاع معدلات النمو الحضري في الدول النامية وتأثير ذلك على التنمية القومية . ومن الضروري ثانياً الكشف عن مدى صدق المقولة الذاهبة إلى أن التضخم الحضري في الدول النامية قد أحدث خللاً في التوازن الإقليمي والمكاني ، وذلك بتعميق مشكلات الحضر والريف على السواء . ومن الضروري ثالثاً التعرف على طبيعة السياسات التي تنتهجها دول العالم الثالث في مواجهة الخلل الإقليمي الناجم عن ارتفاع معدلات التحضر الناجم عن المركزية الحضرية . ولسوف يتضح لنا من خلال هذه الدراسة عجز الدول النامية عن رسم سياسات مكانية ملائمة ، وصياغة خطط إقليمية فعالة من شأنها تخفيف حدة الفقر وتذويب الفروق الدخلية بين الريف والحضر . ونحن نعتقد أن تنفيذ مثل هذه السياسات والخطط أمر بالغ الصعوبة في غياب استراتيجيات تنموية تهدف إلى القضاء على الاختلالات المختلفة داخل المجتمع .

وقبـل أن نشرع في معالجة هذه القضايا يجب أن نحذر مخاطر التعميمات المتعجلة ، خاصـة وأن مناقشاتنا تتصل باطار مكاني واسع هو العالم الثالث ، ومفـاهيم فضفـاضـة كالمـركـزية الحضرية ، والتـوازن الإقليمي . والواقع أن استعراض التراث النظري المتصل بالنمو الحضري في العالم الثالث يكشف عن قدر كبـير من الفـوضى الفكرية عند استخدام مفاهيم كالتضخم الحضري ، والتحيز الحضري ، والخلل الإقليمي . كذلك نجد بعض الكتابات تبالغ في أهمية سياسة حضرية بعينها وتدافع عنها كما لو كانت حلاً لكل مشكلات تخلف دول العالم الثالث ، دون أن تأخذ في اعتبارها طبيعة النظم السياسية ، وحجم الموارد المتاحة ، ونمط التوزيع المكاني ، وشكل البناء الأيكولوجي ، فضلاً عن مصفـوفة العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ان ما يعد ملائماً في مجال الاستيطان البشري بالنسبة لدولة كهونج كونج قد يكون ضاراً اذا ما طبق في دولة كالهنـد . والـواقـع أن سياسـات دول العالم الثالث في مجال المركزية الحضرية والتوازن الإقليمي تتفاوت تفاوتاً ملحوظاً . ويكفي أن نشير هنا إلى التناقض بين سياسة الصين الشعبية القائمة على الدعم الريفي كمدخل للتنمية ، وسياسة البرازيل الساعية إلى تحقيق تنمية ريفية من خلال نمط إنتاجي رأسمالي معتمد على الاستثـمارات الأجنبية ، وذلـك كوسيلة لتخفيف الضغط السكـاني عن المدن البرازيلية . وعند عقد المقارنات بين أشكال السياسات الإقليمية في دول العالم الثـالـث ، يجب أن نضـع في اعتبـارنـا أهم العـوامـل الحاكمة في هذا المجال كالأيديولوجية السياسية ، ونمط التنمية الاقتصادية ، وحدة التناقض بين المدينة والقرية ، وطبيعة العلاقات المكانية ، وحجم الموارد المتاحة . بدون ذلك تصبح المقارنات صورية خالية من الدلالات العميقة التي يجب الوصول إليها عند تناول قضية تنمية العالم الثالث .

أولاً : السيطرة الحضرية والخضوع الريفي : التناقض الاقليمي :

طرحت العلوم الاجتماعية منذ خمسينيات هذا القرن قضية التوازن بين كل

من التنمية الحضرية والتنمية الريفية في مجتمعات العالم الثالث . وربما كان الاقتصاديون هم أول من لفت الانتباه إلى أهمية هذه القضية ، وذلك في اطار مناقشاتهم لأولويات الاستثمار في قطاعي الزراعة والصناعة . لذلك نجد بعض الاقتصاديين يبرزون أهمية التنمية الزراعية ، ذاهبين إلى أن قطاع الزراعة يجب أن يصل إلى أعلى درجات انتاجيته حتى يتمكن من تحقيق الفائض الضروري لإقامة تنمية صناعية حضرية . وبدون هذا الفائض لا تستطيع دول العالم الثالث تدبير الاستثمارات اللازمة للنمو الصناعي ، وبالتالي تعجز عن إيجاد أسواق قادرة على تصريف المنتجات الصناعية والخدمات الحضرية (Johnston, 1961: 566–92) . وفي مقابل ذلك نجد وجهة نظر أخرى تذهب إلى أن النمو الصناعي والحضري هو شرط ضروري لإيجاد قطاع زراعي منتج حديث . ذلك أن الفائض من قوة العمل الريفية يجب أن يتجه إلى النشاطات الحضرية المنتجة ، مما يسمح بعد ذلك بإدخال أساليب زراعية متطورة معتمدة على تكثيف رأس المال ، وانتشار الأفكار الحديثة داخل المناطق الريفية التقليدية (مونتيجوي ، ١٩٨٢ : الفصل الثالث) .

ولم يكن علماء الاجتماع والسكان بمعزل عن هذه القضايا . فمنذ خمسينيات هذا القرن نجدهم يطرحون فكرة «التضخم الحضري» في مجتمعات العالم الثالث (UNESCO, 1957) ، حيث كشفت التحليلات الإحصائية عن أن نسبة كبيرة ومتزايدة من سكان أقطار العالم الثالث يعملون في نشاطات غير زراعية (وعلى الأخص الخدمات) وذلك إذا ما قورنت بالأقطار الصناعية عندما كانت تشهد معدلات تحضر مماثلة . ويفسر بعض الباحثين هذه النقطة في ضوء استمرار وارتفاع معدلات الهجرة من الريف إلى الحضر برغم ضيق نطاق البناء الاقتصادي وعجزه عن خلق وظائف ومهن جديدة تستوعب قوة العمل المهاجرة . لذلك فإن مفهوم «التضخم الحضري» يفسر لنا تزامن البؤس الحضري مع الفقر الريفي . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نجد فريقاً من علماء

الاجتماع يصفون مفهوم «التضخم الحضري» بالغموض . ذلك أن استخدام مثل هذا المفهوم يجعلنا دائماً أسرى المقارنة بين تحضر العالم الثالث الآن وتحضر العالم المتقدم في مرحلة سابقة ، مما يحول دون الوصول إلى نتائج تسهم في رسم سياسة حضرية تتميز بقدر من الخصوصية (McGee, 1971) . كذلك تعرض مفهوم «التضخم الحضري» لانتقادات مريرة من جانب أنصار النمو الحضري ، خاصة أولئك الذين يذهبون إلى أن المدينة قد ظلت على طول تاريخها مصدراً للإبداع الفكري ، والتغير الاجتماعي ، والتنوع الثقافي من أمثال بيرن Pirenne وممفورد Mumford . بل إننا نجد عالماً معاصراً مثل فريدمان Friedmann يذهب إلى حد الدفاع عن التحضر في العالم الثالث كمدخل لأحداث النمو الاقتصادي والتغير الاجتماعي . أي أن التحضر -في نظره- هو بمثابة استراتيجية تنموية .

وعلى الصعيد الأكاديمي العالمي تحولت قضية التناقض الريفي الحضري إلى قضية متعددة معقدة الأبعاد . فالمدافعون عن التنمية الصناعية الرأسمالية يميلون إلى إظهار مزايا التصنيع والنمو الحضري ، بينما يميل المدافعون عن التنمية الريفية إلى إظهار مزايا نشر الصناعات الريفية وتدعيم الأقاليم واعتبار الإنتاج الزراعي دعامة صناعية للدول النامية . وربما كان ليبتون Lipton من أوضح الكتاب المعاصرين تعبيراً عن خطورة الهيمنة الحضرية وانعكاساتها السلبية على التنمية الإقليمية . يقول ليبتون : «ان التناقض الرئيسي الذي تشهده المجتمعات النامية المعاصرة لا يتصل بعلاقة رأس المال بالعمل أو علاقة المصالح الأجنبية بالأهداف الوطنية ، بل يتجسد في شكل صراع حاد بين الطبقات الاجتماعية الريفية ، والطبقات الاجتماعية الحضرية . فالفقر يتركز في القطاع الريفي ، بينما يحصل القطاع الحضري على نصيب ضخم من الثروة القومية . وعلى طول تاريخ الدول النامية ، استطاعت الطبقات الحضرية أن تكسب كل جولات صراعها على الريف . والنتيجة الوحيدة المترتبة على ذلك هي مجرد إنجاز تنمية بطيئة غير متكافئة (Lipton, 1977) . لذلك يذهب كاتب آخر (Gugler, 1982)

إلى أن تحويل جانب من الموارد الحضرية إلى القطاع الريفي هو مدخل لأحداث توازن إقليمي من شأنه تخفيف حدة التباين بين القرية والمدينة في مجتمعات العالم الثالث . أن تحسُين الظروف المعيشية في الريف هو بحد ذاته وسيلة للحد من التضخم الحضري . ويدخل في اطار ذلك تدعيم الريف بهياكل انتاجية متطورة ، وصناعات زراعية منتشرة ، وخدمات اجتماعية متنوعة . بذلك تتحقق الإقليمية على أوسع نطاق وإلى أبعد مدى .

ونحن لا ننكر بطبيعة الحال وجود تباين شديد بين الريف والحضر في مجتمعات العالم الثالث فيما يتعلق بأنصبتها من الثروة القومية ، الأمر الذي أدى إلى استئثار المناطق الحضرية بمزايا عديدة لا تستطيع المناطق الريفية الحصول عليها . ومع ذلك فإننا يجب أن نتحفظ بعض الشيء قبل الوصول إلى تعميمات قاطعة في هذا المجال . إن المشكلة الأساسية التي تواجه أصحاب فكرة «الهيمنة الحضرية» هي أنهم يحددون مراكز الصراع في ضوء المكان الذي يعيش فيه الناس (ريف في مقابل حضر) لا في ضوء القطاع الاقتصادي الذي يعملون فيه (زراعة في مقابل صناعة) (Griffin, 1978) . والواقع أن سوء توزيع الثروة القومية لا يمس فقط فقراء الريف ، بل يمس أيضاً فقراء المدن . أي أن القضية ليست مجرد ظلم يتعرض له الريفيون ، بل معاناه شاملة يواجهها الفقراء أينما كانوا . وربما كان السبب الذي دفع بعض العلماء إلى إبراز الظلم الذي تعرض له الريفيون هو كثرتهم العددية وانتشارهم عبر مناطق متباعدة . ومن الطبيعي أن ينعم كبار المزارعين والفلاحين في مجتمعات العالم الثالث بظروف معيشية أفضل بكثير من تلك التي يعيش في ظلها أعداد كبيرة من السكان الحضريين . ولا يتعارض ذلك -بطبيعة الحال- مع القضية الأساسية المتمثلة في تدهور الظروف المعيشية لأعداد غفيرة من الفلاحين (Griffin & Khan, 1978) . هنا يبدو التناقض الداخلي لفكرة الثورة الخضراء : نمو الإنتاج الزراعي المرتبط بزيادة حدة الفقر . فالذين يملكون الأرض الواسعة والماء الوفير يستطيعون زيادة إنتاجهم ، بينما لا يستطيع

ذلك أولئك الذين حرموا من مثل هذه الموارد ، ومن ثم يتحملون أعباء زيادة الإنتاج كارتفاع أسعار المخصبات ، وزيادة تكاليف الميكنة الزراعية ، وقلة كميات المياه المتاحة . ومن الضروري أن نؤكد في الوقت ذاته أن فقراء المدن في العالم الثالث ليسوا أحسن حالاً من معدمي الريف . فهم (أي فقراء المدن) يعانون من انخفاض مستويات الدخول ، وارتفاع معدلات البطالة ، وتدني الظروف السكنية ، وتخلف المرافق والخدمات الحضرية .

وفي ضوء ما سبق يمكننا القول إن حضر العالم الثالث يحصل بالفعل على جانب من موارد ريفه ، وأن هناك خللاً ظاهراً في مجال التوزيع الإقليمي للإستثمارات القومية . لكن ذلك يتطلب الكشف عن كثير من الأبعاد الاقتصادية للظاهرة الحضرية في مجتمعات العالم الثالث . من الضروري التعرف على ما إذا كانت مشكلات هذه المجتمعات تعود إلى النمو الحضري السريع أم إلى عمليات أخرى ؟ وهناك أيضاً قضية خلافية أخرى تتصل بالتنمية والتركز الحضري . فإذا كانت الدول النامية تستطيع تحقيق معدلات إنتاجية عالية من خلال النمو الحضري ، فهل يتعارض ذلك مع أهدافها التنموية ؟ هنا يجب أن نضع القضايا التي أثارها ليبتون Lipton في سياق أوسع . ان حصول الحضر على استثمارات ضخمة لا يعد مشكلة حقيقية ، طالما أنه لا يؤثر سلباً على النمو الإقتصادي وتوزيع الدخول . ولنفترض أن الزراعة قد تعرضت للإهمال بسبب توجيه مزيد من الاستثمارات للصناعة والحضر . فإذا ما أدت هذه الاستثمارات إلى نتائج سلبية كالمضاربات على أراضي البناء ، وزيادة الإقبال على السلع الترفيهية ، فإننا نستطيع حينئذ التساؤل حول جدوى هذه التوجهات الصناعية الحضرية . وعلى الرغم من أن هذا الموقف شائع الحدوث في مجتمعات العالم الثالث ، إلا أننا لا نستطيع قياسه على نحو دقيق .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن نمط النمو الحضري ذاته قد يكون أحد معوقات التنمية الريفية . ففي غياب المراكز الحضرية الصغيرة وسيطرة المدن

الضخمة قد تحرم المناطق الريفية من فرص تسويق منتجاتها الزراعية. وحصولها على الخدمات الحضرية الضرورية لها . ولقد أشار جونسون Johnson إلى أن هناك مركزاً حضرياً لكل ستة عشر قرية في أوروبا في مقابل مركز حضري واحد لكل مائة وخمسين قرية في منطقة الشرق الأوسط (Johnson, 1970) . ويذهب جونسون أيضاً إلى أن المراكز الحضرية الصغيرة هي أحد دعائم التنمية الريفية في مجتمعات العالم الثالث . إلا أننا لا نستطيع التسليم بهذه النقطة دون تحفظ . فإذا كانت الأسواق الحضرية البعيدة تؤدي إلى ظهور مشكلات في مجال تسويق المنتجات الزراعية ، مما يسهم في ظهور الوسطاء والاستغلاليين ، فإن إقامة مراكز حضرية جديدة لا يشكل حلاً جذرياً للمشكلة ما لم تتطور وسائل النقل ، وأساليب التخزين . ان الفلاح الفقير لا يستطيع نقل منتجاته الزراعية إلى المدينة أو تخزينها ما لم يضمن الحصول على أسعار ملائمة لها . ومن ذلك يتضح أن من الصعب قبول وجهة نظر جونسون الخاصة بإنشاء مراكز حضرية صغيرة دون وضعها في سياق أشمل وأعم . فإذا كان لهذه المراكز أن تنشأ وتنمو وتزدهر ، فإن البداية يجب أن تبدأ بالريف المحيط بها : ارتفاع الإنتاجية الزراعية ، وزيادة الدخل الفردي ، وعدالة التوزيع ، وتحقيق فائض اقتصادي ، ووسائل نقل ملائمة .

وإذا كان تدعيم المراكز الحضرية الصغيرة في الدول النامية هو أحد دعائم الإصلاح الحضري في كثير من أقطار العالم الثالث (حمدان ، ١٩٧٩) ، إلا أننا لا نستطيع تصور حدوث ذلك في غياب سياسة تنموية تقوم على إحداث تغييرات هيكلية في نمط التوازن الإقليمي والعلاقات المكانية . ولقد أوضح بعض الباحثين المعنيين بمشكلات التحضر في قارة آسيا أن الريف الآسيوي يجب أن يمر بتحولات أساسية تهدف في النهاية إلى تحضيره وتحويله إلى أقاليم اقتصادية متطورة ومزدهرة . فبدلاً من انتقال أغنياء الريف إلى المدن للاستثمار فيها ، يجب أن يظلوا في أماكنهم الأصلية ويستثمروا فيها مدخراتهم بما يحقق زيادة معدل النمو

الاقتصادي ، ونشر الصناعات الريفية ، وارتفاع متوسط الدخل الفردي ، وتوفير الحد الأدنى من المرافق والهياكل الأساسية . وربما كانت هذه النقطة هي الدافع وراء دعوة البعض إلى التوسع في إقامة المدينة الزراعية agropolis أو مدينة الحقول كما يحلو لبعض الباحثين تسميتها . وتمثل المدينة الزراعية في نظر بعض الدارسين أحد أقطاب التنمية القومية ، حيث يفترض فيها أن تضم ما بين ١٥,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠ نسمة ، وتعتمد على ثلاثة دعائم هي : تكثيف الإنتاج المحلي ، وتعميق الديموقراطية ، وتحقيق التكامل الثقافي . كذلك يذهب أصحاب فكرة المدينة الزراعية إلى أنها يجب أن تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية في مجال التمويل والإدارة والخدمات والمرافق دون أن يعني ذلك العزلة عن بقية قطاعات المجتمع (Friedmann & Weaver, 1979) .

ثانياً : البناء الحضري المختل : التباين الداخلي

إذا كان بعض علماء الاجتماع والايكولوجيا قد ذهبوا إلى أن حضر العالم الثالث يحظى بموارد ضخمة ، بينما لا يحصل ريفه إلا على القليل ، فإننا نجد بعضاً آخر منهم يعبرون عن رفضهم الشديد للتركز الحضري المتزايد واستئثار المدن الكبرى (أو الأولى) على جانب كبير من الاستثمارات القومية على حساب المراكز الحضرية الصغيرة . وتزخر كتابات التنمية الإقليمية بمفاهيم عديدة تعبر بوضوح عن هذه الظاهرة «كالتباين الإقليمي المتزايد» ، «وتضخم العواصم» ، و«اختلال التوازن الحضري» و«التركز السكاني الشديد» . وتميل هذه الكتابات إلى تشبيه علاقة العاصمة «الطاغية» بالأقاليم «الضعيفة» بالجسم الإنساني المشوه المؤلف من رأس كاسح وجسم كسيح . فالرأس الكاسح ينمو باضطراد وعلى حساب الجسم الكسيح ، تماماً كما تنمو المدن الكبرى على حساب المدن الإقليمية الصغيرة المتهالكة . ويؤدي ذلك إلى ارتفاع معدلات الهجرة الريفية إلى المدن الكبرى ، وتعميق التفاوت الإقليمي . وزيادة التباين الطبقي .

ولا تخلو هذه المماثلة العضوية من بعض الصدق ، وان كانت تميل إلى تبسيط الواقع على نحو لا يخلو من مبالغة . ففي علم التشريح يمكن تشخيص الجسم المشوه بسهولة ويسر وذلك بمقارنته بالجسم الإنساني الطرازي أو المتوسط . وقد توجد حالات متطرفة أو هامشية ، ولكننا لن نجد صعوبة في التفرقة بين القزم والعملاق . فهل نستطيع أن نقوم بتطبيق ذلك في مجال المدن ؟ وهل نملك قواعد ومعايير يمكن من خلالها تحديد معالم بناء حضري مشوه ؟ ان الجسم الإنساني المشوه هو بطبيعته حالة استثنائية ، لأن هناك أجساماً إنسانية طبيعية كثيرة يمكن مقارنتها به . ومن الواضح أننا لا نستطيع بسهولة وصف البناء الحضري باستخدام هذا النمط من القياس البيولوجي . ففي حالة الجسم المشوه نحن نقارنه بجسم مثالي ، بينما لا نملك بناء حضرياً مثالياً نستخدمه كمحك أو معيار لفهم الظواهر الحضرية . والواقع أننا لا نجد بين علماء الأيكولوجيا الحضرية اتفاقاً حول الأحجام المثلى للوحدات الحضرية المختلفة ، وذلك بسبب الاختلافات الأيديولوجية ، وتباين السياسات التنموية ، فضلاً عن تنوع الملامح الاقتصادية والبيئية والاجتماعية والثقافية لدول العالم الثالث .

وخلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من قرننا الحالي ظهرت كتابات متنوعة الاتجاهات ، تحاول تشخيص أسباب التباين الداخلي داخل البناءات الحضرية لدول العالم الثالث ، بما في ذلك سيطرة المدن الكبرى والعواصم ، وضعف وتهالك المدن الإقليمية والمراكز الحضرية الصغيرة . ولقد أسفرت هذه الكتابات عن ظهور مجموعة من الموجهات العامة التي يمكن الاهتداء بها عند محاولة الحد من التضخم الحضري للمدن الكبرى وتنمية المدن الإقليمية الصغيرة . من ذلك ضرورة تنفيذ برامج من شأنها توزيع القوى العاملة على المناطق المختلفة ، والحيلولة دون تركزها في المدن الكبرى ، والعمل على تخطيط النمو العمراني للمدن الكبرى والتحكم فيه قدر الإمكان ، وضرورة إعادة النظر في نمط توزيع الدخول في المناطق الحضرية المختلفة ، بحيث تذوب الفوارق

الحادة بينها على نحو يسمح بتنمية حضرية إقليمية حقيقية . والواقع أننا بحاجة إلى نظرة جديدة للجهود التي بذلتها دول العالم الثالث في مجال التخطيط الحضري خلال العقود القليلة الماضية . ومن الطبيعي أن يقودنا ذلك إلى تحليل نقدي للسياسات التنموية التي انتهجتها هذه الدول بهدف تحقيق التوازن الحضري .

وربما كان تحقيق التوازن في مجال قوة العمل من أهم الإجراءات التي تتخذها الدول النامية من أجل تنفيذ سياسة مكانية ملائمة . ويتخذ ذلك صوراً وأساليب عديدة من بينها ، عدم تشجيع قيام مشروعات اقتصادية في المدن الكبرى وذلك بفرض رقابة صارمة على ذلك ، أو بتشجيع المشروعات التي تقام بعيداً عن المراكز الحضرية الكبرى . وقد تلجأ بعض الدول النامية إلى نقل بعض النشاطات الاقتصادية إلى المدن الأصغر ، أو تدعيم الإدارة المحلية عن طريق نقل بعض المؤسسات الحكومية إلى المدن الإقليمية . وفي بعض الأحيان قد تذهب دول نامية إلى حد إقامة مدن أخرى لاستقطاب جانب من النمو السكاني وخلق مراكز عمرانية جديدة . والهدف من وراء ذلك كله هو الحد من نمو المدن الكبرى التي تقع عادة في أقاليم غنية ، وتشجيع نمو المراكز الحضرية الواقعة في مناطق متطرفة . ويعتقد بعض الباحثين أن نقل النشاطات الاقتصادية من الأقاليم الغنية إلى الأقاليم الفقيرة يسهم في تحقيق نتائج إيجابية . فهو يخفف من حدة المشكلات التي تواجهها المدن الكبرى ، ويكسب المدن الإقليمية الأصغر حجماً حيوية ونشاطاً ، ويسهم في الحد من التفاوت الإقليمي ، وتحسين أحوال فقراء الأقاليم . وهكذا تبدو تنمية الأقاليم وسيلة لتحقيق أهداف قومية وإقليمية في آن واحد ، من حيث أنها تسهم في نهاية الأمر في زيادة معدلات النمو الاقتصادي الكلي .

ويذهب بعض علماء التخطيط الإقليمي إلى أن خلق مراكز عمرانية جديدة هو الوسيلة الأساسية لتحقيق تنمية إقليمية حقيقية (حمدان ، ١٩٧٩) . وتظهر هذه المراكز العمرانية الجديدة في شكل مناطق حضرية جديدة تضم عدداً من

المشروعات الصناعية التي تتميز بدرجة عالية من الديناميكية ، والقدرة على النمو السريع ، مما يسمح بظهور صناعات تكميلية تؤدي في نهاية الأمر إلى تقليل تكاليف الإنتاج . ومن الطبيعي أن تؤدي مثل هذه المراكز العمرانية الجديدة إلى ظهور خدمات متخصصة ، وقوة عمل ماهرة مدربة ، تدعم المنافسة بين الأقاليم المختلفة ، مما يؤدي إلى ظهور نشاطات جديدة . وفضلاً عن ذلك تؤدي هذه المراكز وظيفتين أساسيتين : فهي تحول دون التركز الاقتصادي من ناحية ، وتسهم في توزيع عادل للنشاطات الاقتصادية على الأقاليم المختلفة من ناحية أخرى . ومن المفترض أن تؤدي المراكز العمرانية الجديدة وظائف أخرى متعددة . فهي تسهم في تصنيع المنتجات الزراعية بقدر ما تشبع احتياجات السوق الحضرية . هي باختصار -وكما يقول بيري Berry - أداة لنشر الأفكار والفنون والآلات والمنتجات الجديدة (Berry – et al, 1976) .

ولا تخلو كتابات التنمية الحضرية من إشارات نقدية تتناول الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المراكز العمرانية الجديدة في تحقيق توازن إقليمي . فلقد ذهب بعض النقاد إلى أن هذه المراكز وإن كانت تسهم في الحد من التفاوت بين الدخول وتحسين ظروف بعض الفقراء ، إلا أنها ليست وسيلة كافية للقضاء على الفقر ذاته . وإذا ما افترضنا أن معظم هذه المراكز العمرانية الجديدة تعتمد على التصنيع كوسيلة تنموية قومية ، إلا أنها لا تستطيع الإسهام إلا بقدر محدود في تحقيق اشتراكية الأقاليم ، ودعم الكفاءة الحضرية ، وزيادة فرص الحصول على الخدمات الاجتماعية ، ورفع معدلات الإنتاجية . ويصل بعض النقاد إلى حد القول بأن إقدام الدول النامية على إقامة هذه المراكز العمرانية لا يخلو من انتهازية ، لأن ذلك يعني صرف الأنظار عن المشكلات الحقيقية للتخلف ، والترويج لمشروعات عمرانية مظهرية لا تسهم بالكثير في تطوير البناء الاقتصادي (Friedmann & Weaver, 1979: 187) . وهناك انتقاد آخر مؤداه ، أن هذه المراكز العمرانية الجديدة لا تسهم في تحقيق عدالة إقليمية بقدر ما تعمل على تعميق الهوة

بين الأقاليم وعلى الأخص في الدول النامية . كذلك ينظر نقاد آخرون إلى هذه المـراكـز العمرانية من زاوية أخرى . فبحكم اعتمادها على مشروعات صناعية متطورة تستخدم تكنولوجيا متقدمة ، فإنها تشجع على تدفق الاستثمارات الأجنبية إليها ، مما يدعم تبعية الدولة النامية للدول الرأسمالية المتقدمة والشركات المتعددة الجنسية . والـواقـع أن من الصعب قبـول هذا الانتقاد على اطلاقه . فالمراكز العمرانية الجديدة بحكم تخطيطها المتطور تتلاءم مع طبيعة التنمية الصناعية ، بينما أوضحت خبرات بعض دول العالم الثالث أن الاستثمارات الأجنبية ما تزال تفضـل توظيف أموالها في مشروعات تقع في اطار المدن الكبرى حتى تستطيع الإفادة من هياكلها الأساسية وخدماتها الواسعة النطاق . وإذا ما سلمنا بأن هذه المراكز العمرانية الجديدة قد تكون وسيلة ملائمة لتدعيم السيطرة الأجنبية على اقتصـاد الـدول النـامية فكيف نفسر ميل الدول الاشتراكية لإقامة الكثير منها كسياسة عامة للتخطيط الإقليمي ؟ وإذا كانت التنمية الإقليمية في بلد كالاتحاد السـوفييتي تختلف في كثـير من الـوجـوه عن قرينتهـا في دولـة رأسـمالية أخرى كفرنسا ، إلا أن أهداف المراكز العمرانية الجديدة في الحالتين واحدة . وفي دولة نامية كتنزانيا أقيمت هذه المراكز العمرانية على نطاق واسع كوسيلة لتحقيق توازن إقليمي من ناحية ، وتخفيف العبء عن المدن الكبرى من ناحية أخرى (Gilbert & Gugler, 1981: 175) .

ويظل الحكم النهائي على هذه المراكز العمرانية الجديدة متوقف على الهدف الأساسي الذي من أجله أقيمت ، وأعني به تحقيق التوازن الإقليمي عن طريق تخفيف الأعباء الملقاة على عاتق المدن الكبرى وإيجاد أقطاب تنموية جديدة . ان تحقيق هذا الهدف هو مطلب قومي بقدر ما هو تخطيطي ، وهو بذلك يتجاوز الاعتبارات الأيديولوجية التي أشرنا إليها قبل قليل . إلا أن خبرات دول العالم الثالث في هذا المجال ما تزال بعيدة عن تحقيق «اشتراكية المكان» ان كان لنا أن نستخـدم تعبـير جمال حمدان . ففي مصر نمت مجمـوعـة من المراكز العمرانية

الجديدة على أطراف إقليم القاهرة الكبرى في شكل مدن جديدة صغيرة مخططة بهدف استيعاب جانب من النمو السكاني في اطار خطة سكانية حضرية لمصر تصل إلى عام ٢٠٠٠ . والواقع أن الفاصل المكاني بين هذه المدن الجديدة وبين إقليم القاهرة الكبرى ليس كبيراً إذا ما أخذنا في اعتبارنا احتمالات الامتداد العمراني لأطراف القاهرة . فالمسافة بين معظم هذه المدن وحدود القاهرة الكبرى لا تزيد عن خمسين كيلومتر ، مما يحولها إلى توابع تسير في فلك المدينة الكبرى . وإذا كان لهذه المراكز العمرانية الجديدة أن تنمو نمواً مستقبلاً ، وتسهم إسهاماً حقيقياً في تصفية الحجم المرضى لإقليم القاهرة الكبرى ، فلابد وأن يترجم ذلك ترجمة مكانية ووظيفية (حمدان ، ١٩٨٤ : ٣٧٧) . فمن المتوقع في ظل معدلات النمو العمراني السائد أن تدخل بعض هذه المدن الجديدة في اطار إقليم القاهرة الكبرى بحلول عام ٢٠٠٠ لتسهم في زيادة حدة المشكلات الحضرية . وهكذا فإن الوسيلة التي استخدمت للحد من المركزية الحضرية ما تلبث أن تبتعد عن هدفها الأصلي لتلعب دوراً مناقضاً .

وربما كان فشل المراكز العمرانية الجديدة في تحقيق كل الأهداف الطموحة العريضة التي أقيمت من أجلها سبباً في استمرار حملة الانتقادات الموجهة إليها . وإذا كانت بعض هذه المراكز لم تحقق النجاح المنتظر منها ، فلأن أهدافها كانت أضخم بكثير من الإمكانيات المتاحة لها ، ولأن السياسات التنموية القومية (كما هو الحال بالنسبة لمصر) لا تدعم بدرجة كبيرة مطلب التوازن الإقليمي . وعلى الرغم من المشكلات العديدة التي تواجهها تجارب المراكز العمرانية الجديدة في دول العالم الثالث ، فإنها ما تزال تمثل سياسة مقبولة في مجال التخطيط الإقليمي ، وذلك إذا ما توافرت لها عوامل التدعيم والازدهار . ففي الدول النامية التي تعاني من تضخم عواصمها ومدنها الكبرى مثل مصر والمكسيك ، تصبح هذه المراكز العمرانية وسيلة ضرورية للتنمية الإقليمية من ناحية ، وحل مشكلات العواصم من ناحية أخرى . والواقع أن الحكم النهائي على خبرات

دول العالم الثالث في هذا المجال يتوقف على عوامل عديدة من بينها مستوى التطور الصناعي ، ودرجة التركز الحضري ، وتوافر الاستثمارات اللازمة لإقامة مراكز عمرانية جديدة ، ومستوى المركزية الإدارية ، ونمط الخطط التنموية وتوجهاتها الإقليمية .

وإذا كان بعض الكتاب قد روجوا لفكرة إقامة مراكز عمرانية جديدة لتحقيق التوازن الإقليمي ، فإننا نجد بعضاً آخر يبدي تحفظاته عليها من خلال خبرات دول العالم الثالث . وهنا نجد فريقاً من علماء التخطيط الحضري يطالبون بضرورة ترشيد نمو المدن الكبرى باعتباره أمراً حتمياً يصعب تفاديه . ويدعم هذا الفريق وجهة نظره بشواهد واقعية . فالاستقطاب الإقليمي هو عملية طبيعية تصاحب مسار التنمية القومية ، كما أن المدن الكبرى تتضمن مزايا عديدة منها ؛ ارتفاع الانتاجية ، والقدرة على استيعاب التكنولوجيا الجديدة ، وارتفاع مستوى المهارة نتيجة لارتفاع مستوى التعليم . ويطالب هذا الفريق أيضاً بعدم تدخل الحكومات في مسار النمو الحضري ، لأن من شأن ذلك تعويق النمو الاقتصادي . وليس من الصعب علينا اكتشاف تأثير الفكر الليبرالي على هذه التصورات الحضرية . ذلك أن العلماء الذين ينادون بـ«الليبرالية الحضرية» يطالبون في الوقت ذاته بعدم تدخل الدولة في مجال التوازن الإقليمي ، لأن مثل هذا التوازن يتحقق تلقائياً . ويصل الأمر ببعض الاقتصاديين إلى حد القول بأن التدخل الحكومي في مجال توزيع النشاطات الاقتصادية من شأنه إهدار الموارد الرأسمالية النادرة ، وإبطاء معدل النمو الإقتصادي القومي . وهكذا يطالب هؤلاء الليبراليون بترك قضية التوازن الإقليمي ، لأنها سوف تصحح نفسها بنفسها عندما يصل المجتمع إلى مستوى أعلى من التطور الاجتماعي والاقتصادي (Kuznets, 1970) .

ويدلل الليبراليون الحضريون على صحة وجهات نظرهم بنتائج دراسات حضارية مقارنة . فهم يذهبون إلى أن المدن الكبرى تتميز عادة بالفعالية والكفاءة

والتجديد إذا ما قورنت بالمراكز الحضرية الصغيرة . ومعنى ذلك أن التضخم الحضري لا يعد في نظرهم أحد معوقات التنمية الاقتصادية ، كما أن نمو الحجم الحضري مرتبط بزيادة العائد الاقتصادي (Alonso, 1969: 1-14) . ويذهب المدافعون عن النمو الحضري الحر إلى حد انكار فكرة «الحجم الأمثل للمدينة» ، ذلك أن نمو هذا الحجم يؤدي إلى مزيد من الفعالية الاقتصادية . وهم يستشهدون على ذلك ببيانات إحصائية تتناول البرازيل والسويد والولايات المتحدة تكشف عن أن الإنتاجية الصناعية ترتفع بشكل ملحوظ في المدن الكبرى مع تثبيت العوامل الأخرى المؤثرة على العلاقة بين المتغيرين . كذلك أشار المدافعون عن النمو الحضري الحر إلى أن ثمة شواهد إحصائية تتناول اليابان وألمانيا الغربية والمكسيك والاتحاد السوفييتي تشير إلى ارتفاع مستوى المعيشة في المدن الكبرى إذا ما قورنت بالمدن الصغيرة مع تثبت متغيرات وسيطة أخرى كالعمر والتعليم والنوع والمهنة . كما أن نصيب الفرد من رؤوس الأموال المخصصة للاستثمارات الاجتماعية يقل بشكل ملحوظ في المدن الكبرى عنه في المدن الصغرى (Hoch, 1972: 299 - 328) . ومعنى ذلك كله أن المدن الكبرى تتمتع بمزايا اقتصادية كبيرة إذا ما قورنت بالمدن الصغرى ، وأن التركز السكاني والمركزية الاقتصادية يسهمان في تحقيق تنمية اقتصادية سريعة ، وأن المشكلات المترتبة عليهما تميل إلى حل نفسها تدريجياً وبطريقة تلقائية . ويصل المدافعون عن النمو الحضري الحر إلى حد إعفاء المدن الكبرى من مسئولياتها عن المشكلات الحضرية كالجريمة ، والتلوث ، والازدحام . ذلك أن هذه المشكلات لا تعود إلى كبر حجم المدينة في حد ذاته ، بقدر ما تعود إلى متغيرات أخرى وسيطة . فارتفاع معدلات الجريمة في مدينة مثل نيويورك لا يمكن تفسيره في ضوء ضخامة حجمها ، بل في ضوء طبيعة التنظيم الاجتماعي ، والقدرة على مواجهة مشكلات أكثر من عشرة ملايين نسمة . لذلك نجدهم يعتبرون أن أفضل حل لمواجهة هذه المشكلات هو تنظيم إدارة المدينة لا الحد من نموها وتصفية حجمها . فالإجراءات الأمنية هي القادرة على مقاومة الجريمة بشكل مباشر ،

وبالتالي فإن اللامركزية الحضرية تبدو ضئيلة التأثير في هذا المجال .

والواقع أن آراء المدافعين عن المدن الكبرى والنمو الحضري الحر قد تعرضت لانتقادات عديدة خلال السنوات الأخيرة . فالقول بأن المدن الكبرى تتميز بالفعالية الاقتصادية إذا ما قورنت بالمدن الصغيرة الحجم يصعب قبوله دون تحفظات . ذلك أن ارتفاع الإنتاجية في المدن الكبرى لا يعود إلى اقتصاديات ضخامة الحجم ، وإنما يعود إلى تطور المرافق والهياكل الأساسية ، وتوافر قوة عمل ماهرة ومدربة (Borukhov, 1975: 199 – 205) . ويبدو أن ما تحققه المدن الكبرى من إنتاجية عالية يتم على حساب الإنتاجية المنخفضة في المدن الصغرى . ذلك أن الأخيرة (المدن الصغرى) تستطيع تحقيق إنتاجية مرتفعة إذا ما أتيح لها المزايا التي تتمتع بها الأولى (المدن الكبرى) . وفضلاً عن ذلك فإن ما تتميز به المصانع الكبيرة في المدن الكبرى من إنتاجية مرتفعة ، إنما يعود إلى الدعم الحكومي غير المباشر لها . ويذهب نقاد النمو الحضري الحر إلى أنه إذا كانت هناك شواهد تؤكد وجود علاقة بين ضخامة حجم المدن ، وارتفاع الإنتاجية فيها ، فإن هناك شواهد أخرى تشير إلى أن ارتفاع الإنتاجية قد يكون من سمات المدن المتوسطة الحجم ، مما يضع شكوكاً حول مدى قوة العلاقة بين الضخامة الحضرية والنمو الإقتصادي . كذلك ذهب نقاد آخرون إلى أن إعفاء المدن الكبرى من مشكلاتها هو بمثابة دفاع لا مبرر له عن نتائج النمو الحضري السريع الذي يعد أحد سمات الدول النامية . فالمدن الكبرى هي موطن للمشكلات الاجتماعية الضخمة وإن اختلفت طبيعتها . وتبدو هذه المشكلات واضحة في المدن الكبرى ، ببساطة لأنها (أي المدن الكبرى) هي واجهة المجتمع الذي تتبلور وتظهر فيها كل الجوانب والملامح الخفية . وإذا كان ذلك يبدو صحيحاً ، فإن من الواضح أيضاً أن المدن الكبرى لا تلفت الأنظار فقط إلى المشكلات الاجتماعية ، بل تسهم أيضاً في خلقها واستفحالها . فارتفاع معدلات الجريمة في المدن الكبرى لا يرجع فقط إلى التفاوت الطبقي الصارخ ، بل يرجع أيضاً

وبنفس الدرجة إلى صعوبة القبض على المجرمين . كما أن أزمات المرور والنقل لا ترجع فقط إلى زيادة عدد السيارات بالنظر إلى عدد السكان ، بل ترجع أيضاً إلى تعقد مشكلات النقل داخل المدن الكبرى .

وإذا ما افترضنا أن مزايا المدن الكبرى تفوق عيوبها ، فسيظل صحيحاً أن الفقراء هم الذين يعانون بدرجة كبيرة من مشكلات النمو الحضري إذا ما قورنوا بأفراد الطبقتين الوسطى والعليا . فالأخيرون قادرون على تغيير مناطق إقامتهم ، والحصول على خدمات أفضل ، والتأثير في مجال القرارات السياسية ، بينما لا يتمكن الفقراء من ذلك كله . ولقد لوحظ أن المناطق الصناعية توجد في أقاليم لا تسمح بتلوث الأحياء السكنية التي تقطنها الطبقة العليا . كما أن أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا يعانون بدرجة أكبر من مشكلات المرور ، خاصة إذا ما كانت رحلة العمل اليومية تقتضي الخروج من وسط المدينة إلى أطرافها أو العكس . وفضلاً عن ذلك فإن الفقراء الحضريين لا يحصلون على الخدمات الاجتماعية التي تتميز بها المدن الكبرى ولا تتمتع بها المدن الصغرى . ففي مناطق السكن الراقي تكون الخدمات والمرافق أكثر تطوراً ورقياً : الطرق ، والمياه ، والكهرباء ، والتليفونات . وعندما لا يستطيع أفراد الطبقة العليا الحصول على خدمات عامة ملائمة كالتعليم والصحة ، فإنهم يتمكنون من الحصول عليها وبشكل أفضل من مؤسسات القطاع الخاص .

وأياً كان الأمر فإن كثيراً من الآثار السلبية الناجمة عن النمو الحضري السريع يمكن مواجهتها والتحكم فيها من خلال التخطيط الحضري الملائم . وهناك إجماع بين العلماء الاجتماعيين المعنيين بظاهرة التحضر على أن التخطيط الجيد هو الوسيلة الأساسية لمواجهة مشكلات المدن الكبرى وعلى الأخص في الدول النامية . ومن أسف أن نجد كثيراً من الخطط الحضرية في هذه الدول لا تحقق النجاح المتوقع منها . ولقد أشار شبلي (Shibli) إلى أن «مدينة كراتشي لم تخضع لتخطيط منظم منذ سنة ١٩٤٧ . فالحكومة الباكستانية أعدت خطة لتطوير

المدينة ، ولكنها تفتقد الوسائل النظامية والقانونية والمالية اللازمة لتنفيذها» ,Shibli) (129–109 :1974 . كذلك أشار أحد المسوح الحضرية الدولية إلى أن «الإدارات الحضرية في الدول النامية لا تفعل أكثر من محاولة التكيف المؤقت مع الظروف السائدة ، وأنها غالباً ما تفشل في مواجهة أية ضغوط غير متوقعة -Ford – Founda) . tion, 1972: 21)

وليس من الصعب علينا تفسير إخفاق الدول النامية في مجال تنفيذ سياسات حضرية ملائمة وحاسمة . ذلك أن هذه السياسات غالباً ما تخضع لتأثير جماعات المصالح التي تلعب دوراً هاماً في تشكيل الحياة الحضرية . فمحاولة فرض ضرائب على أصحاب الدخول العليا قد تحبط في مهدها ، كما أن تقسيم الأقاليم الحضرية لا يخلو من محاولات لإفساد ذمم التنفيذيين بتقديم الرشاوي إليهم . كذلك فإن المشروعات الإنشائية الضخمة التي تستهدف حل بعض المشكلات الحضرية قد تؤدي إلى ظهور مشكلات أخرى . وفي معظم الدول النامية تواجه الحكومات صعوبات فرض نفوذها على بعض المناطق الحضرية بسبب تزايد القوة السياسية لبعض الجماعات ، وكذلك بسبب ارتفاع أسعار أراضي البناء ، مما يخلق حالة من الفوضى في مجال العقارات . ان التخطيط الفعال هو ذلك الذي يعتمد على توازن سياسي بين القوى الاجتماعية المختلفة . وفي الوقت ذاته فإن تحقيق مثل هذا التوازن هو الضمان الحقيقي لاستمرار التخطيط الفعال الذي يضمن أكبر قدر ممكن من العدالة الاقليمية .

وإذا ما نحينا جانبا الاختلافات الفكرية والأيديولوجية بين أنصار المركزية الحضرية ومؤيدي الإقليمية المكانية ، فإننا نلمس اتفاقاً ملحوظاً بين الفريقين حول عدد من القضايا . فعلى سبيل المثال نجد تحفظاً مشتركاً على فكرة الحجم المثالي للمدينة . ان من الصعب التسليم بهذه الفكرة طالما أن حجم المدينة وحده ليس مصدر مشكلاتها ، وبالتالي فإن من الصعب التسليم بوجود حجم مثالي محدد لمدينة ما . ومع ذلك فإن قضية الحجم قد تطرح نفسها مرة أخرى عند

مناقشة كيفية تحقيق أهداف معينة بطريقة رشيدة . هنا يصبح متغير الحجم أحد المتغيرات المؤثرة على إمكانية تحقيق الأهداف دون أن يكون هو المتغير الوحيد الحاكم . وهناك اتفاق عام بين المعنيين بقضية النمو الحضري في الدول النامية على أن التخطيط الفعال هو ضرورة من ضرورات الحياة في المدن الكبرى . ينطبق ذلك على البرازيل كما ينطبق على الصين . أي أن مطلب التخطيط الحضري يتجاوز الاعتبارات الأيديولوجية . ومن الطبيعي أن يفرض هذا التخطيط إجراءات وسياسات لا تتحمس لها بعض الجماعات الحضرية كتقليل عدد السيارات الخاصة ، أو فرض قيود على استعمالها داخل المدن الكبرى ، وتطوير وسائل النقل العام ، وتقليل معدلات التلوث ، وتنظيم استخدامات الأراضي ، وفرض ضرائب على العقارات . وإذا كان للتخطيط الحضري أن يحقق أهدافه ، فلابد للجماعات المؤثرة ذات المصالح الخاصة من أن تتكيف مع هذه الإجراءات والسياسات . إن التخطيط الحضري الجيد يجب أن يحقق هدفين في آن واحد : الفعالية الاقتصادية للمدينة ، وتحسين ظروف الفقراء الحضريين . كذلك فإننا نجد اتفاقاً بين العلماء الاجتماعيين المعنيين بقضايا التحضر في العالم الثالث على أن الإصلاح الحضري يجب أن يتناسب مع الظروف الخاصة لكل مدينة ، وأن يتلاءم مع طبيعة المشكلات التي تواجهها . فعلى سبيل المثال نجد مدينة مثل كاركاس تقع في وادي ضيق يعاني من نقص شديد في موارده المائية . كما أن مكسيكو سيتي تعاني من نقص المياه وزيادة معدل تلوث الهواء . وأخيراً فإننا نجد اتفاقاً بين هؤلاء العلماء على ضرورة تخفيف حدة مشكلات الضوضاء والتلوث والازدحام في المدن الكبرى . فإذا كانت هذه المدن تمثل هياكل اقتصادية فعالة ، فإن على المؤسسات الاقتصادية الضخمة أن تعوض السكان الحضريين عن جانب من المشكلات التي تفرضها عليهم بسبب إصرارها على البقاء داخل كردونها . أما إذا قررت هذه المؤسسات الانتقال إلى مناطق أخرى ، فإنها تكون بذلك قد أسهمت في تخفيف حدة المركزية الاقتصادية وتنمية أقاليم جديدة .

ثالثاً : سياسات التوازن الاقليمي في العالم الثالث : نظرة نقدية

تعددت وتنوعت الوسائل والأساليب التي تستخدمها دول العالم الثالث لتحقيق التوازن بين أقاليمها والوصول إلى استراتيجية مكانية ملائمة (UNCRD, 1976) . ومن الطبيعي أن تختلف هذه الوسائل والأساليب من دولة نامية لأخرى . ذلك أن تحقيق التوازن الإقليمي يعتمد على مصفوفة ضخمة من المتغيرات التي يجب وضعها في الاعتبار عند رسم الاستراتيجية المكانية . ومن بين هذه المتغيرات طبيعة التناقض بين الريف والمدينة ، ومستوى التطور الاقتصادي والانتاجي ، وأحجام المدن الصغيرة بالنظر إلى المدن الكبرى ، ومواقع المدن وعلاقتها بالريف المحيط بها ، والوظائف التي تؤديها المدن ، وطبيعة النشاطات الاقتصادية والانتاجية التي تؤديها الأقاليم المختلفة ، ومراكز التركز السكاني ، ومناطق الجذب العمراني ، فضلاً عن متغيرات أخرى كثيرة مثل حجم الاستثمارات المخصصة لمراكز العمران الجديدة ، وتنمية المناطق الريفية في اطار خطة تنموية قومية. ونظراً لتنوع سياسات التوازن الإقليمي في دول العالم الثالث، فإنا نستطيع التمييز بين ثلاث منها هي : سياسة تطوير الاقتصاد الريفي الساعية إلى تخفيض معدل النمو الحضري ، وسياسة تخفيض نمو المدن الكبرى من خلال التحكم في معدل الهجرة إليها ، وأخيراً سياسة تخفيض معدل النمو السكاني للمدن الكبرى عن طريق تشجيع نمو المدن الصغرى أو إقامة مراكز حضرية جديدة . وفي بعض الأحيان قد تلجأ الدول النامية الواحدة إلى استخدام أكثر من سياسة في وقت واحد . وسوف نتناول فيما يلي هذه السياسات الثلاث تناولاً نقدياً بهدف الكشف عن إسهاماتها في مجال التوازن الإقليمي لدول العالم الثالث .

١ - تطوير الاقتصاد الريفي وتخفيض النمو الحضري

إذا انطلقنا من التحليل البنائي للتكوينات الاجتماعية ، أمكننا القول إن

التحولات التي تطرأ على الاقتصاد الريفي لابد وأن تنعكس بشكل أو بآخر على نمط التنمية الحضرية . فالسياسة التي تستهدف إعادة توزيع الأراضى الزراعية على المعدمين من شأنها أن تقرب بين متوسط الدخل في كل من الريف والحضر ، وبالتالي فإنها تؤدي إلى تخفيض معدل النمو الحضري وذلك عن طريق زيادة الدخول الناتجة من النشاطات الزراعية . ومع ذلك فإننا قد نجد مشروعات زراعية تؤدي إلى نتائج سلبية في مجال النمو الحضري . ففي بعض الدول النامية كالبرازيل والأرجنتين ، أدى التوسع في إقامة المزارع الضخمة التجارية إلى زيادة أعداد الفلاحين المعدمين ، مما دفعهم بالتالي إلى الهجرة إلى المدن بحثاً عن فرص العمل . (Griffin & Ghose, 1979: 361 – 384) . وبسبب تنوع السياسات الريفية وتباين آثارها ، فإننا سنركز مناقشتنا على حالتين متباينتين ، وأعني بهما البرازيل والصين . ففي هاتين الدولتين نجد سياستين متباينتين في مجال التوازن الإقليمي . وتعبر السياسة المتبعة في كل من هاتين الدولتين عن أهداف أيديولوجية واضحة ، وقوى اجتماعية معينة ، ومصالح سياسية محددة . فالبرازيل سعت إلى استيطان منطقة الأمازون باستخدام نمط الإنتاج الرأسمالي والاعتماد على الشركات الضخمة كوسيلة لإحداث التطوير الاقتصادي الريفي . أما الصين فقد استخدمت التنمية الريفية كوسيلة لتدعيم الاشتراكية في ريف يتسم بكثافة سكانية عالية . ولا نهدف بمقارنة البرازيل بالصين المفاضلة بينهما فيما يتعلق بنمط التنمية الريفية ، بقدر ما نود البرهنة على أن برامج التنمية الإقليمية لا تنفصل عن خطط التنمية القومية . كذلك فإن من خلال هذه المقارنة تتضح لنا نقطة هامة هي ، أن تحقيق الأهداف الإقليمية متوقف بدرجة كبيرة على مدى ما تحصل عليه من موارد ودعم . وفي ضوء ذلك كله يمكننا أن نشرع في مناقشة الإنجازات التنموية التي قامت بها كل من البرازيل والصين في مجال التوازن الإقليمي .

ففي البرازيل مر برنامج التنمية الإقليمية (أو تنمية الحدود كما يطلق عليه

البعض) بمراحل مختلفة وتعرض لتنقيحات متعددة لاعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية . ومن بين الأهداف التي سعى إليها هذا البرنامج إقامة مدينة برازيليا ، ورصف طرق تصل مساحتها إلى عشرة آلاف ميل ، وتشجيع الاستثمارات الخاصة على توجيه رؤوس أموالها إلى المنطقة بتقديم حوافز مالية تتمثل في إعفاءات ضريبية كبيرة . ولقد تمكن البرنامج من طرح مساحات واسعة للتنمية ، وبالتالي فإنه قد شجع عدة ملايين من السكان على الهجرة إليها ، فضلاً عن أنه (أي البرنامج) قد أتاح فرص استخراج معادن كثيرة من المنطقة ، وعاون في الوقت ذاته على ظهور صناعات مختلفة معتمدة على الإنتاج الزراعي والحيواني الذي حققته المشروعات التجارية الكبرى (Gilbert & Gugler, 1981: 183)

ومن الطبيعي أن يثير هذا النمط من التنمية الريفية البرازيلية قضية أيديولوجية تتعلق بموقف الفقراء منها ، والمزايا التي حققوها من ورائها . ولا ينطبق ذلك على الفقراء فقط ، بل يمكن أن يشمل المجتمع البرازيلي بأسره . ذلك أن التنمية الريفية يجب أن تخفف العبء عن المدن الكبرى بتخفيض معدلات الهجرة الريفية إليها . وفي مرحلة معينة (وعلى الأخص فيما بين سنتي ١٩٧٠ و ١٩٧٤) كان هدف برنامج تعمير الأمازون إعادة توطين الأسر الفقيرة التي تنتمي إلى الإقليم الشمالي الشرقي من البرازيل . إلا أن الجفاف الذي أصاب البرازيل في سنة ١٩٧٠ قد دفع الحكومة العسكرية إلى تشجيع الأسر المعدمة التي تعيش في المناطق الجافة من الشمال الشرقي إلى الانتقال صوب الغرب لتعمير المناطق المحيطة بالطرق الرئيسية الجديدة . بيد أن المستوطنين الفقراء في هذه المناطق قد واجهوا مشكلات ضخمة بسبب صعوبة الحصول على القروض ، وانعدام الإرشاد الزراعي ، وضعف الهياكل الأساسية ، وقلة الخدمات الاجتماعية . ونتيجة لذلك لم يتبق في هذه المناطق بحلول منتصف سنة ١٩٧٥ سوى آلاف قليلة من المستوطنين الفقراء ، بعد أن كانت الحكومة

البرازيلية تتوقع أن يصل عددهم خلال الفترة ذاتها إلى ۱۰۰,۰۰۰ نسمة (Gilbert & Gugler, 1981: 184) . وباستثناء شبكة الطرق الواسعة التي أقامتها الحكومة البرازيلية ، فإن المرافق والهياكل الأساسية لم تحصل إلا على القليل من الاهتمام والاستثمار . ونتيجة لذلك بدأ المستوطنون الفقراء يستشعرون القلق ، ويدركون أن المستقبل لا يحمل لهم فرصاً طيبة . وفي الوقت ذاته بدأت الشركات الكبرى تغزو المنطقة وتحصل على مزايا ضخمة من أجل تعمير إقليم الأمازون من بينها ، إعفاء المعدات والسلع الأجنبية اللازمة لهذه الشركات من الضرائب ، بل وإعفاء الشركات ذاتها من الضرائب لعدة سنوات مقبلة ، في محاولة لتشجيعها على مواصلة استثمار أموالها في الإقليم . ونتيجة ذلك كله اتسعت مساحات المراعي ، ونمت مشروعات المطاط ، وتطورت مناطق التعدين على نحو دفع بعض الباحثين إلى القول بأن ما حدث في إقليم الأمازون هو «معجزة اقتصادية» بكل ما يتضمنه هذا التعبير من معان .

ومن الصعب تقييم مثل هذه المشروعات في ضوء معايير اقتصادية خالصة . فلو سلمنا بأن تنمية إقليم الأمازون قد أسهم في تنمية الدخل القومي البرازيلي ، إلا أن فقراء الفلاحين البرازيليين لم ينالوا منه إلا القليل . فالمشروع لم يسهم في إعادة توزيع الدخل القومي ، بقدر ما ساعد الشركات الكبرى على مضاعفة أرباحها والحصول على مزايا من الحكومة البرازيلية لم تكن لتحصل عليها في وقت سابق . ويكفي أن نشير إلى أن البرازيل خلال عقد الثمانينيات تواجه أزمة اقتصادية طاحنة مصدرها ارتفاع ديونها الخارجية على نحو يهدد استقلالها السياسي . وإذا كان مشروع تنمية إقليم الأمازون قد حقق نجاحاً محدوداً في مجال التوطين والتعمير ، إلا أنه لم يسهم في الحد من نمو المدن البرازيلية الضخمة . فلقد واصلت معدلات النمو الحضري في ساو باولو وريودي جانيرو ارتفاعها ، بينما اتجهت الأرباح المحققة من إقليم الأمازون صوب هاتين المدينتين ليعاد استثمارها في مشروعات ضخمة تسهم في تدعيم المركزية ورفع معدلات الهجرة الريفية إلى المدن .

أما الصين فقد تبنت منذ ثورتها الاشتراكية في سنة ١٩٤٩ سياسة معارضة للنمو الحضري منطلقة من تنمية ريفية أو عدالة إقليمية ان شئنا الدقة . ولقد سعت الصين من خلال ذلك كله إلى إحداث تحولات جذرية على بنية المجتمع الصيني بأسره . ولا شك أن السياسات-التي اتبعتها الصين كان لها نتائجها الإيجابية على المناطق الريفية مثل تنظيم النسل ، وإعادة توزيع الأراضي الزراعية التي كان يملكها الأغنياء على الفلاحين المعدمين ، واحتكار الدولة لمعظم النشاطات الاقتصادية ، والحد من استئثار المدن على الاستثمارات الضخمة . والواقع أن التجربة الصينية تقدم لنا نموذجاً فريداً لما يمكن أن تتبعه دولة نامية في مجال التوازن الإقليمي . لقد سعت هذه التجربة إلى الحد من النمو الحضري ، وتحقيق قدر كبير من الاكتفاء الذاتي في المناطق الريفية . وفي الوقت ذاته فإن الصينيين قد اهتموا أيضاً بتطوير المدن وتدعيم بناءاتها الاقتصادية ، مع محاولة التحكم في نمو سكانها . كذلك أقيمت مجموعة من المدن الجديدة لتكون عواصم لإقليم ذات طبيعة اقتصادية متميزة .

وهناك شواهد عديدة تؤكد الرفض الصيني للهيمنة الحضرية . فلقد ظلت الأجور في مجال الصناعة مستقرة ، مما أدى إلى تحسن الموقف التجاري للسلع الزراعية إذا ما قورنت بالسلع الصناعية . كذلك حاولت الحكومة الصينية تدعيم الاكتفاء الاقتصادي الذاتي للمزارع الجماعية في الريف . ولقد لقيت هذه المزارع الجماعية دعماً كبيراً ، مما شجعها على إقامة مصانع صغيرة لإنتاج ما يلزمها من منتجات صناعية بدلاً من الحصول عليها من المراكز الحضرية . وفضلاً عن ذلك حرصت الحكومة الصينية على تشجيع الأقاليم على تنمية مواردها بهدف تقليل تكاليف نقل المواد الخام والسلع المصنعة ، وربط السكان المحليين بالتنمية القومية . والواقع أن من أهم ملامح التنمية الصينية القدرة على حشد الموارد ، والمحافظة عليها من الهدر والضياع . وفي هذا السياق يمكننا الإشارة أيضاً إلى حرص الصينيين على تغيير القيم الثقافية بما يخدم تنمية المناطق الريفية . إذ

تحرص الحكـومـة الصينية على إرسال الموظفين الحضريين والشباب إلى الريف للإقامة فيه لفترات تطول أو تقصر بقصد الإلمام بالثقافة الريفية من ناحية والتخلي عن التحيز الحضري من ناحية أخرى .

ولا شك أن الصين قد أنجزت الكثير من خلال تجربتها التنموية الفريدة . وربما كان أعظم انجاز في هذا المجال هو ، أن التنمية القومية قد ضمنت لكل صيني نصيباً معلوماً من الدخل يحميه من سوء التغذية ، ويضمن له الحصول على احتياجاته الأولية . وإذا كان مستوى المعيشة في الصين ما يزال منخفضاً ، إلا أنه أعلى بكثير من قرينه قبل الثورة ، فضلاً عن عدالة التوزيع التي تعد من أهم سمات النظام الاقتصادي الصيني المعاصر . لقد استطاعت الصين القضاء على المجاعات وكل ضروب الاستغلال ، وحققت في هذا المجال ما لم تستطع تحقيقه كثير من دول العالم الثالث . وربما لهذا السبب نجد بعض المفكرين يطالبون دول العالم الثالث بتعلم كثير من الدروس الصينية في مجال التنمية (Green, 1978: 709–714) . وعلى الرغم من جاذبية النموذج الصيني في مجال التوازن الإقليمي ، إلا أنـه قد واجـه صعـوبـات ومشكـلات حادة حالت بينه وبين تحقيق بعض أهدافه . فالصين لم تستطيع إزالة التفاوت الإقليمي ، كما لم تتمكن تماماً من القضاء على التناقض بين القرية والمدينة . وعلى الرغم من أن الفروق الدخلية بين القرية والمدينة أقل بكثير من قريناتها في معظم مجتمعات العالم الثالث ، إلا أن المشروعـات التنموية الصينية لم تتمكن حتى الآن من القضاء عليها برغم الأهمية البالغة التي تمنحها الحكومة لتطوير المناطق الريفية (Murphey, 1976: 324) . وربما لهذا السبب يذهب بعض العلماء المهتمين بدراسة نمط التحضر الصيني إلى أن المدن الصينية لم تكف حتى الآن عن جذب المهاجرين الريفيين إليها ، على الرغم من السياسة المعلنة الصارمة الساعية إلى وقف نمو المدن الكبرى (Frolic, 1976: 154) . كذلك يتوقع هؤلاء العلماء أن التفاوت الإقليمي بين الريف والمدينة في الصين سوف يزداد اتساعاً في المستقبل وذلك بنمو حركة التصنيع في

المدن الصينية . ان الصين في نظر هؤلاء العلماء ما تزال أمة من الفلاحين ، تسعى لتحقيق تنمية ذاتية . وإذا كان من الصعب تشبيه المدن الصينية بغيرها من مدن العالم الثالث ، إلا أن هذه التنمية باعتمادها على التصنيع سوف تجعل من المدن الصينية أقطابها الحقيقية . ومع ذلك يظل صحيحاً أن الصين سوف تشهد واقعاً حضرياً مختلفاً عن ذلك الذي تشهده معظم دول العالم الثالث ، وذلك بسبب تميز توجهاتها الأيديولوجية وتفرد سياستها التنموية (الحسيني ، ١٩٨٥ : ٢٠) . ولا يتعارض ذلك كل مع الإنجازات الهامة التي قامت بها الصين منذ ثورتها الإشتراكية في مجالي توزيع السكان وتوطين الصناعات بعيداً عن المدن الكبرى . وتهدف الصين من وراء ذلك إلى إعادة توجيه النمو الإقتصادي بما يخدم تطوير الأقاليم ، والحد من الفروق الداخلية بين الريف والحضر ، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الإكتفاء الذاتي للأقاليم المختلفة وذلك لأسباب استراتيجية وتنموية في آن واحد .

وإذا كانت الصين قد أنجزت الكثير في مجال التنمية الإقليمة ، إلا أنها لم تحقق سوى القليل في مجال المركزية السياسية . فما تزال الصين تعبر عن نموذج متميز من مركزية القرارات الصادرة من أعلى إلى أدنى . لذلك فإن التطور الهام الذي شهدته الصين هو ذلك الذي تحقق في مجال الاكتفاء الذاتي لا في مجال الاستقلال المحلي . وربما كان ذلك من بين الأسباب التي دفعت أحد المهتمين بالتجربة التنموية الصينية إلى القول بأن «الصين تأخذ بنظام شمولي قد يؤدي إلى كارثة قومية ما لم تكن القيادة السياسية على درجة عالية من الحكمة والفطنة وبعد النظر» . (Morawetz, 1979: 877 – 892) . وبغض النظر عما ينطوي عليه هذا القول من مبالغة ، فإن الصين قد تبنت برنامجاً طموحاً في مجال التوازن الإقليمي وذلك في اطار تجربة اجتماعية واقتصادية فريدة . ان خصوصية التجربة الصينية تجعل من إمكانية نقلها إلى الدول النامية الأخرى مسألة بالغة الصعوبة . ويتضح ذلك بالنظر إلى ضخامة مساحة الصين ، وكبر عدد سكانها ، وتفرد

ثورتها . والواقع أن التجربة التنموية الصينية لا تختلف فقط عن التجارب التنموية في دول العالم الثالث ، بل تختلف أيضاً عن قريناتها في الدول الاشتراكية الأخرى . تلك حقيقة يجب أخذها في الاعتبار عند مناقشة قضية التوازن الإقليمي في مجتمعات العالم الثالث .

٢ - الحد من النمو الحضري والتحكم في الهجرة إلى المدن

سعت كثير من دول العالم الثالث إلى الحد من نمو مدنها الكبرى عن طريق التحكم في الهجرة إليها . إلا أن الإنجازات التي تحققت في هذا المجال ظلت متواضعة إلى حد كبير . ولأن حكومات دول العالم الثالث عاجزة عن تزويد المدن بمرافق وخدمات تكفي لمواجهة احتياجات النمو السكاني ، فإنها تطرح من حين لآخر فكرة التحكم في تدفق المهاجرين الريفيين إلى المناطق الحضرية وعلى الأخص المدن الكبرى . والواقع أن الدول النامية التي حققت إنجازات هامة في هذا المجال قليلة للغاية ، كما أن النتائج التي ترتبت على استخدام سياسة تقييد الهجرة الريفية إلى المدن كانت محدودة الإيجابية . ان الحد من النمو الحضري لا يستطيع أن يحقق أهدافه ما لم يرتبط باستراتيجية تنموية شاملة تسعى إلى تحقيق توازن إقليمي عن طريق الحد من الهيمنة الحضرية وتشجيع التنمية الريفية .

وربما كانت الصين هي النموذج الكلاسيكي الشهير الذي استطاع مواجهة ظاهرة الهيمنة الحضرية عن طريق تنمية الأقاليم . فمع «القفزة الكبرى إلى الأمام» التي تحققت خلال عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، ثم تسارعت مع «الثورة الثقافية» (١٩٦٦ - ١٩٦٨) ، شهدت الصين ولأول مرة في تاريخ دول العالم الثالث ، هجرة من المدينة إلى الريف . وفي سنة ١٩٦٣ قررت الحكومة الصينية ألا يزيد عدد السكان الحضريين عن ١١٠ مليون نسمة . ولتنفيذ ذلك شجعت الحكومة الحضريين من خريجي المدارس العليا والمعاهد الجامعية على الانتقال إلى

القرى الصينية ، مما أدى إلى تخفيف الضغط على الاقتصاد الحضري والإسهام في تطوير الزراعة والنهوض بالصناعات الوطنية . ولقد عبر ماوتسي تونج عن موقفه من هذه القضية ، فأوضح ضرورة عودة الشباب المتعلم إلى الريف الصيني من أجل تثقيف الفلاحين ، وأن القيادات الحزبية المركزية يجب أن تشجع الشباب على ذلك ، كما يجب على القيادات الحزبية المحلية تذليل كل العقبات التي تحول دون هجرة شباب المدن إلى الريف . ولقد لقيت دعوة ماو للعودة إلى الريف ترحيباً كبيراً من جانب الشباب الحضري ، حتى ان بعض الدارسين قد قدروا عدد المتطوعين الحضريين الذين توجهوا إلى الريف الصيني بحوالي خمسة عشر مليون متطوع خلال عامين فقط ، كما أن بعضاً آخر من الدارسين قد وصل بهذا الرقم إلى خمسة وعشرين مليون متطوع (في سنة ١٩٧٣) . وإذا كانت هذه التقديرات صحيحة ، فإن الصين تكون بذلك قد شهدت أضخم هجرة «حضرية - ريفية» عرفها التاريخ (Richard, 1971) .

وخارج نطاق العالم الاشتراكي ، تكاد تكون جمهورية جنوب أفريقيا هي الدولة الوحيدة التي نجحت في الحد من النمو السكاني للمدن الكبرى ، على الرغم من استخدام الأساليب القمعية وانتهاك حقوق الإنسان في معاملة السكان الوطنيين . فلكي يتمكن الإفريقي من الإقامة في مدينة ، يجب أن يحصل على عمل فيها ، كما أنه في حالة حصوله على تصريح بالعمل في مدينة لا يستطيع اصطحاب أسرته معه قبل خمسة عشر عاماً من إقامته الدائمة بها . ومن الواضح أن الأفارقة لا يستطيعون الإقامة في المدن ما لم يكن هناك مبرر قانوني لهذه الإقامة ، وأعني به العمل في مهنة تنتمي إلى القطاع الاقتصادي الرسمي . وإذا ما فقد الإفريقي وظيفته ، فإن ذلك يعني أن علة وجوده في المدينة قد انتفت ، وأن عليه أن يتحرك صوب الريف قبل أن تقبض عليه أجهزة الأمن . وإذا كان بعض الدارسين قد أشاروا إلى أن هناك أعداداً من السكان تقيم بطريقة غير قانونية في مدن مثل سويتو Soweto إلا أن الإجراءات الصارمة التي تتخذها

الحكومة قد حدت من نمو المدن الكبرى (Fair & Davies, 1976: 145-168) . فعلى سبيل المثال نجد مدينة مثل جوهانسبيرج لا يتجاوز فيها معدل النمو السكاني ٢٪ سنوياً فيما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ .

وهناك شواهد عديدة تشير إلى أن الضوابط التي تضعها حكومات دول العالم الثالث من أجل الحد من الهجرة إلى المدن تميل إلى الضعف تدريجياً لتتلاشى في نهاية الأمر . ففي سنة ١٩٧٠ أصدر حاكم جاكرتا قراراً بأن يحصل المهاجرون الريفيون إلى المدينة على إذن بالإقامة فيها لمدة ستة شهور ، على أن يدفعوا مبلغاً يصل إلى ضعف أجور المواصلات من المدينة إلى قراهم الأصلية . وإذا ما تمكنوا من الحصول على وظيفة خلال تلك الفترة ، ردت إليهم أموالهم ، وأصبحوا بالتالي سكاناً حضريين . وبالإضافة إلى هذه الإجراءات ، تميل بعض الدول النامية إلى تحجيم العمالة فيما يطلق عليه القطاع الرسمي . إلا أن ذلك لم يسهم إلا بالقليل في الحد من النمو السكاني الحضري . وفي دار السلام بتنزانيا حاولت الحكومة إقناع العاطلين بمغادرة المدينة والعودة إلى قراهم . إلا أن السلطات الحكومية لم تجد آذاناً صاغية من قبل هؤلاء العاطلين ، لأن الواقع الذي ينتظرهم في قراهم أسوء بكثير من الحاضر الذي يعيشونه في دار السلام . ومما سبق يتضح لنا أن اجراءات التحكم في الهجرة إلى المدن الكبرى في دول العالم الثالث لم تحقق نتائج إيجابية واضحة . ويبدو لنا أن النجاح الذي يمكن أن تحققه هذه الإجراءات يتوقف على طبيعة السياق الذي تتم فيه . فلقد تمكنت حكومة جنوب أفريقيا من التحكم في النمو الحضري بسبب سياستها التسلطية القمعية التي حالت دون زيادة السكان الأفارقة في المناطق الحضرية . وفي الصين تمكنت الحكومة من مواجهة النمو الحضري بانجاز تنمية ريفية متكاملة أدت في نهاية الأمر إلى تذويب الفوارق بين المدينة والريف ، مما أضعف من دوافع الهجرة إلى الحضر .

٣ - تدعيم المدن الصغيرة وإقامة مراكز حضرية جديدة

من بين الاستراتيجيات الشائعة لتحقيق التوازن الإقليمي في الدول النامية الحد من نمو المدن الكبرى ، وتدعيم المدن المتوسطة والصغيرة الحجم . ويتم ذلك عن طريق تشجيع بعض الصناعات على التوطن في المدن الصغيرة . والإجراء الشائع في هذا المجال هو أن تحث الحكومات الشركات الجديدة والقديمة على التوطن في مناطق متطرفة بعيدة عن المدن الكبرى أو في بعض المدن الصغيرة القديمة ، في مقابل منحها بعض المزايا كالإعفاءات الضريبية لفترة معينة ، وتدعيم المرافق والهياكل الأساسية لهذه المدن . ومع ذلك فإن النجاح الذي حققته حكومات الدول النامية في مجال إقليمية الصناعة ما يزال محدوداً ، ذلك لأن الضغط الشديد من أجل توطين المشروعات الصناعية في مناطق متطرفة أو مدن صغيرة قد يؤدي إلى إحجام الشركات الأجنبية الكبرى عن استثمار أموالها في دول العالم الثالث . (Gilbert & Gugler, 1981: 189) . وتميل بعض حكومات الدول النامية إلى تقديم حوافز وإغراءات لجذب الصناعات إلى مواقع جديدة . فعلى سبيل المثال نجد «برنامج الحدود» في المكسيك يشجع شركات أمريكا الشمالية على الإفادة من العمالة المكسيكية الرخيصة ، وتجميع منتجات صناعية لتصديرها إلى الولايات المتحدة . وفي البرازيل تمتعت الشركات الصناعية التي توطنت في مدن الشمال الشرقي الفقيرة بإعفاءات ضريبية عالية . وبرغم ذلك كله فإن النتائج المترتبة على هذه الحوافز والإغراءات الضريبية في مجال التوازن الإقليمي ما تزال محدودة بسبب غياب خطط تنموية شاملة في كثير من الدول النامية . وتشير بعض التجارب التنموية في مجتمعات العالم الثالث إلى أن تشجيع الصناعات على الانتقال من المدن الكبرى لا يؤدي بالضرورة إلى نتائج إيجابية تنعكس على المناطق الفقيرة ، خاصة إذا ما كانت الصناعات المتوطنة في هذه المناطق من النوع المعتمد على تكثيف رأس المال الذي لا يستوعب إلا القليل من قوة العمل . ومن الطبيعي أن يكون إسهام مثل هذه الصناعات في مجال التنمية الإقليمية محدود إلى حد كبير .

ومن أجل تحقيق التوازن الإقليمي تسعى بعض الدول النامية إلى إقامة مدن جديدة لتكون بمثابة مراكز جذب سكاني تخفف وطأة الضغط على المدن القديمة . وهنا يمكننا التمييز بين أنواع مختلفة من المدن الجديدة . هناك أولاً مدن تستخدم كمناطق سكنية يقطنها سكان مدينة كبرى مجاورة ، وهناك ثانياً مدن يعيش فيها سكان يعملون في مناطق تعدينية جديدة ، وهناك ثالثاً مدن تقام كعواصم سياسية جديدة . أما النمط الأول من المدن فغالباً ما يتخذ شكل توابع حضرية على نحو ما هو مألوف في بريطانيا . وغالباً ما تنشأ هذه التوابع في اطار مواجهة المشكلات والصعوبات التي تعاني منها المدن القديمة . فلقد نجم عن تقسيم الهند تدفق طوفان المهاجرين إلى كراتشي ، مما أدى إلى ظهور منطقتين حضريتين تابعتين لها . وفي مصر ظهرت مجموعة من التوابع الحضرية المجاورة للقاهرة في محاولة لمواجهة النمو السكاني المتزايد من ناحية ، وتخفيف العبء عن المدينة الأم من ناحية أخرى . أما النمط الثاني من المدن الجديدة فهو ذلك الذي ينشأ في مناطق التعدين بما في ذلك حقول استخراج البترول والحديد والألومنيوم . والواقع أن الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المدن التعدينية في مجال التوازن الإقليمي محدود للغاية بسبب عجزها عن جذب أعداد كبيرة من السكان نظراً لاعتمادها على التكثيف الرأسمالي . لذلك فإن هذه المدن تخدم أهدافاً قومية بأكثر مما تؤدي وظائف إقليمية . وأخيراً فإن النمط الثالث من المدن الجديدة يتمثل في عواصم بعض الدول النامية التي أقيمت لتكون واجهة عصرية جديدة من ناحية ، ولتسهم في حل مشكلات العواصم القديمة من ناحية أخرى . مثال ذلك برازيليا ، واسلام آباد ، وأنقرة . وفي ضوء الفلسفات والأهداف التي استندت إليها هذه العواصم الجديدة ، فإنه يبدو لنا أنها لم تسهم بالكثير في مجال العدالة الإقليمية . ان نظرة عابرة على إسلام آباد الحديثة الراقية وجارتها روالبندي التقليدية الفقيرة ، تكشف عن أن العاصمة الجديدة لم تسهم في حل مشكلات التضخم الحضري بقدر ما أدت إلى تعميق الازدواجية الحضرية .

ان الحكم على كفاءة سياسات التوازن الإقليمي يجب أن ينبع من قدرة هذه السياسات على مساعدة فقراء المناطق الريفية والحد من الهيمنة الحضرية التي تمارسها المدن الكبرى . وإذا ما اعتمدنا على هذا المعيار كأساس للحكم ، فإننا نجد أن الدول النامية لم تحقق في مجال التوازن الإقليمي إلا القليل . فما تزال المدن الكبرى تواصل نموها وتستأثر على نصيب الأسد من الاستثمارات القومية ، بينما تناضل المدن الصغرى والمناطق الريفية من أجل الاستمرار في البقاء . وإذا كنا نذهب هنا إلى أن برامج تنمية الأقاليم هي مطلب ضروري ضمن اطار خطة شاملة للنهضة القومية ، فإن الدعائم الأيديولوجية لهذه النهضة يجب أن تكون واضحة كل الوضوح . ان هذه البرامج التنموية يجب أن تسهم في إعادة توزيع الدخل القومي لصالح فقراء الأقاليم والمدن الكبرى على السواء ، وأن تعمل على خلق مزيد من فرص العمل للعاطلين الفقراء ، وأن تضمن استمرار ارتباط سكان الأقاليم بالنشاطات التي يقومون بها والأماكن التي يعيشون فيها . والواقع أن تنمية الأقاليم ذاتها هو مدخل تحقيق العدالة بين المدينة والريف ، أو «اشتراكية المكان» كما يقال . وباستثناء الصين ، فإننا لا نجد نقاطاً مضيئة قوية في مجتمعات العالم الثالث تشير إلى تنمية إقليمية حقيقية يحظى فيها الفقراء بنصيبهم العادل من الثروة القومية . ويكشف لنا ذلك كله عن حقيقة أساسية هي ، أنه في غياب مشروع نهضة قومية شاملة لا تستطيع الدول النامية تحقيق ما تصبو إليه من توازن إقليمي . ذلك أن هذا التوازن الإقليمي ليس مجرد انعكاس لسياسة مكانية يمكن تحديدها في ضوء مفاهيم التخطيط والهندسة المعمارية ، ولكنه قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، تجسيد لمستوى من التطور الاجتماعي ، وتعبير عن قوى اجتماعية قادرة على احتكار المكان بقدر ما هي قادرة على توجيه الزمان .

المصادر العربية :

١ - الجوهري ، م ، ١٩٨٣ - ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد «في الجوهري ، م ، وشكري ، ع ، علم الاجتماع الريفي والحضري ، القاهرة ، دار المعارف .

٢ - الحسيني ، أ ، ١٩٨٥ ، المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، القاهرة ، دار المعارف .

٣ - حمدان ، ج ، ١٩٧٩ ، جغرافية المدن ، القاهرة ، عالم الكتب .

٤ - حمدان ، ج ، ١٩٨٤ ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان ، القاهرة ، عالم الكتب ، الجزء الرابع .

٥ - مونتيجوي ، آ ، ١٩٨٢ ، التصنيع في الدول النامية ، ترجمة السيد الحسيني ، القاهرة ، مطابع سجل العرب .

المصادر الأجنبية :

1. Alonso, W. 1969, "Urban and Regional Imbalances in Economic Development", Economic Development and Cultural Change, 17: 1–14.

2. Berry, B. (ed.) 1976, Urbanization and Counter-Urbanization, Sage Publications.

3. Borukhov, E. 1975, "On the Urban Agglomeration and Economic Efficency: Comment", Economic Development and Cultural Change, 24: 199–205.

4. Fair, T. & Davies, R. 1976, "Constrained Urbanization: White South Africa and Black Africa Compared", in Berry, B. (ed.) Urbanization and Counter-Urbanization, Sage P-ublications.

5. Ford Foundation. 1972, International Urbanization Survey: Findings and Recommendations, Ford Foundations.

6. Friedmann, J. & Weaver, C. 1979, Territory and Function: the Evolution of Regional Planning, Edward Arnold.

7. Frolic, B. 1976, "Noncomparative Communism: Chinese and Soviet Urbanization", in Field, M. (ed.) Social Consequences of Modernization in Communist Societies, John Hopkins.

8. Gilbert, A. & Gingler, J. 1981, Cities, Poverty and Development: Urbanization in the Third World, Oxford University Press.

9. Green, R. 1978, "Transferability, Exotism and Other Forms of Dogmatic Revisionism", World Development, 6: 709–714.

10. Griffin, K. 1978, "Review of Why Poor People Stay Poor", Journal of Development Studies, 15: 108 – 109.

11. Griffin, K. & Ghose, A. 1979, "Growth and Impoverishment in Rural Areas of Asia" World Develoment, 7: 361 – 384.

12. Gugler, J. 1902' "Over Urbanization Reconsidered" Economic Development and Cultural Change, 30: 212–223.

13. Hoch, I. 1972, "Income and City Size", Urban Studies, 9: 299–328.

14. Johnson, E. 1970, The Organization of Space in Developing Countries Harvard University Press.

15. Johnston, B. & Mellor, J. 1961, "The Role of Agriculture in Economic Development" American Economic Review, 51: 566–592.

16. Kuznets, S. 1966, Modern Economic Growth: Rate Structure and Spread, Yale University Press.

17. Lipton, M. 1977, Why Poor People Stay Poor: a Study of Urban Bias in World Development, Temple Smith/Harvard University Press.

18. McGee, T. 1971, The Urbanization Process in the Third World: Explorations in Search of a Theory, Bell.

19. Morawetz, D. "Walking on Two Legs: Reflections on a China Visit", World Development, 7: 877 – 892.

20. Moore, W. 1972, The Impact of Industry; Prentice-Hall.

21. Murphey, R. 1976, "Chinese Urbanization under Mao", in Berry, B. (ed.) Urbanization and Counter Revolution, Sage Foundations.

22. Richard, S. 1971, Mao's Revolution and the Chinese Political Culture, Berkeley, California University Press.

23. Shibli, K. 1974, "Metropolitan Planning in Karachi: a Case Study" in Jakobson, L.; and Prakash, V.; Metropolitan Growth: Public Policy for South and South-East Asia, Halsted Press.

24. UNCRD (United Nations Centre for Regional Development) 1976, Growth Pole Strategy and Regional Development in Asia, 1976.

25. UNESCO 1957, Urbanization in Asia and the Far East.

تبادل التمثيل الدبلوماسي البريطاني السعودي ١٩٢٩ - ١٩٣٠

الدكتور جمال محمود حجر
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

لعل وصول الشيخ حافظ وهبة إلى لندن في ٧ نوفمبر ١٩٣٠ ، بصفته أول وزير مفوض سعودي يبعث به الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود إلى أي مكان في العالم ، إعلان بنهاية مرحلة طويلة من الإتصالات غير المنتظمة ، بدأت في عام ١٩٠٣ ، حين سعى الأمير عبدالعزيز إلى إيجاد قناة اتصال تمكنه من إدارة حوار مع بريطانيا ، أقوى الدول الكبرى نفوذاً في المنطقة في ذلك الوقت .

ومنذ البداية مرت محاولات إقامة تمثيل دبلوماسي بريطاني - سعودي بعدة مراحل نستطيع أن نضع لها التصور التالي :

المرحلة الأولى : وتبدأ بعام ١٩٠٣م ، حين بعث الأمير عبدالعزيز -من الرياض- عبدالرحمن بن سلمان ، أحد كبار أهل الإحساء لمقابلة المندوب البريطاني في البحرين ، للتشاور حول ما يمكن أن تقدمه بريطانيا للأمير السعودي من مساعدة ، إذا نهض ضد الدولة العثمانية . وتنتهي هذه المرحلة بعام ١٩١٣ ، حين أطل عبدالعزيز على ساحل الخليج العربي -دون مساعدة من أحد- وفرض نفسه على الحضور البريطاني في الخليج[1] .

في هذه المرحلة ، كانت ممتلكات الأمير عبدالعزيز تقع في دائرة اهتمام حكومة الهند البريطانية ، وبالتالي كانت اتصالاته ببريطانيا تتم من خلال الوكلاء السياسيين في الكويت أو البحرين أو حتى مسقط ، ولم تكن بريطانيا في هذه

المرحلة تعتزم تعيين وكيل مقيم لها في الرياض ، لانتفاء الحاجة إلى ذلك . وبصفة عامة ، كانت الاتصالات محدودة للغاية ، لأسباب تتعلق بطبيعة الاستراتيجية البريطانية في هذه المرحلة .

المرحلة الثانية : تبدأ بعام ١٩١٤م ، حين نشبت الحرب العالمية الأولى ، وصار من الضروري أن تقيم بريطانيا إتصالات مع مختلف الحكام العرب . وتنتهي في عام ١٩٢٥ ، مع نهاية الحكم الهاشمي في الحجاز ، الذي كان لبريطانيا فيه تمثيل سياسي وقنصلي معتمد .

في هذه المرحلة ، حدث مد واضح في رقعة البلاد التي كان يحكمها عبدالعزيز بحيث صارت تلامس مناطق تقع تحت إشراف وزارة المستعمرات . وبالتالي كان عليه أن يقيم إتصالاته بهذه الوزارة ، فيما يتعلق بشئون المناطق المجاورة ، إلى جانب اتصالاته السابقة مع حكومة الهند ، وكان ذلك كله يتم من خلال سفارات غير مقيمة[٢] .

المرحلة الثالثة : تبدأ بعام ١٩٢٦م ، حين استقر الحكم في الحجاز لعبدالعزيز ، حيث كانت توجد سفارات مقيمة لبعض الدول الكبرى في جدة ، على مستوى الوكلاء السياسيين والقناصل . وتنتهي بعام ١٩٢٨ ، حين بدأت عملية تطوير قنوات الاتصال الدبلوماسي .

في هذه المرحلة ، أصبح واقع قنوات الاتصال أكثر تعقيداً ؛ ذلك أن الحجاز كان يقع في دائرة اهتمام وزارة الخارجية البريطانية ، وكانت هذه ممثلة في «القنصل والوكيل السياسي» المقيم في جدة . ومع أن هذه الصفة الدبلوماسية لممثل بريطانيا لم تكن مؤكدة ، فإن صلاحياته بقيت محصورة في إقليم الحجاز بعد دخوله تحت حكم عبدالعزيز آل سعود . وقد أدى ذلك إلى ظهور هذه الطبيعة الشاذة لتوزيع الاشراف السياسي على شبه الجزيرة العربية بين ثلاث جهات مختلفة ، هي : وزارة الهند من خلال حكومة الهند ، ووزارة المستعمرات من

خلال الأدميرالية ، ووزارة الخارجية من خلال القاهرة ، مما أدى إلى حدوث كثير من المشاكل ، التي كان من الصعب إيجاد حل لها بدون تشاور كامل بين هذه الجهات الثلاث الرئيسة[٣] .

وقد توضح هذه الصورة أسباب عجز الإدارة البريطانية (المسئولة عن صناعة القرار) ، عن التصرف في الوقت المناسب باتخاذ القرار المناسب . فمثلاً إذا كان الملك عبدالعزيز في الرياض ، أو في المقاطعات الشرقية من بلاده ، وأراد الاتصال ببريطانيا ، يمكنه أن يفعل ذلك من خلال الوكلاء السياسيين الثلاثة في الخليج (الكويت ، البحرين ، مسقط) ، ومنهم إلى المقيم السياسي في بوشهر ، على الساحل الفارسي ، ومنه إلى حكومة الهند ، فوزارة الهند بلندن ، ويسلك الرد عليه الإتجاه المعاكس من نفس الطريق . وإذا تصادف أن كان الملك في المناطق الشمالية ، فعليه أن يقيم اتصالاته مع المعتمد السياسي في بغداد أو في القدس ، وهي الإدارة البريطانية لمناطق الانتداب التابعة لوزارة المستعمرات . أما إذا كان الملك في الحجاز فإن لديه وكيلاً سياسياً مقيماً في جدة ، يوصله بوزارة الخارجية البريطانية عن طريق القاهرة . وفي النهاية ، فإن كل ما يأتي من الملك عبدالعزيز يصب في لندن بعد مروره بقنوات مختلفة ، فإذا تشابكت الأحداث على أطراف بلاده ، وتعددت المشاكل حولها ، يتضح لنا كم كانت صناعة القرار النهائي صعبة ، إن لم تكن مستحيلة .

هذه الأوضاع هي التي دفعت الملك عبدالعزيز مراراً إلى طلب توحيد قنوات إتصاله ببريطانيا ، لتصبح قناة واحدة ، تتبع وزارة الخارجية دون غيرها . وفي عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ تكاتفت الجهود لتحريك قضية تطوير التمثيل الدبلوماسي مع بريطانيا . وقد نشط كل من فؤاد حمزة[٤] ، «المسئول الفعلي عن الشئون الخارجية للملك عبدالعزيز» في ذلك الوقت ، والوكيل السياسي البريطاني في جدة (ستون هيوار - بيرد)[٥] . فقد كان الرجلان متحمسين لتطوير العلاقات الدبلوماسية بين بلديهما ، كما كانا قادرين على التأثير المباشر في حكومتيهما ، على

تفاوت محتوى كلمة «حكومة» ، فضلاً عن كفاءتيهما في معالجة الموضوع ، مما مكنهما من الوصول إلى الغاية المطلوبة في عام ١٩٢٩[٦] .

ومن هنا تبدأ المرحلة الرابعة ، التي نحن بصدد دراستها في هذا البحث ، في عام ١٩٢٩ حين استقر الرأي بين الحكومتين البريطانية والسعودية على ضرورة تطوير التمثيل الدبلوماسي ، ورفعه إلى مستوى المفوضية ، وتبادله ؛ حيث أن الملك عبدالعزيز لم يكن له أي نوع من التمثيل الدبلوماسي أو القنصلي في بريطانيا قبل عام ١٩٣٠ .

خلال هذه المرحلة ، حرص بيرد على توكيد صفته الدبلوماسية ، فقد كان الممثلون البريطانيون قبله في وظيفة «قائم بأعمال الوكيل والقنصل» Acting Agent and Consul وهي درجة تقل عن درجة الوكيل Agent والقنصل Consul معاً . ولذلك يعتبر بيرد أول ممثل بريطاني في جدة يحصل على لقب «الوكيل السياسي والقنصل» ، وقد غلبت على هذا اللقب الصفة السياسية[٧] .

وعلى مستوى آخر ، كان بيرد حريصاً على توسيع دائرة اختصاصه لتشمل كل البلاد الواقعة تحت حكم الملك عبدالعزيز ، ولا تقتصر على الحجاز وحده ، لا لتيسير إمكانيات صناعة القرار فحسب ، ولكن لإحداث تغيير جوهري في مركزه بجدة ، بأسلوب هاديء يدعم مركزه ، في مواجهة المسئولين البريطانيين ، التابعين لوزارة المستعمرات ، في مناطق الانتداب البريطاني المجاورة . ولكن الظروف السياسية العامة ، فضلاً عن الاختلافات العقيمة بين وزارتي الخارجية والمستعمرات ، حول تحديد الصلاحيات الخاصة بكل منهما في المنطقة ، حالت دون تحقيق ذلك الطموح في حينه[٨] .

وقد عوّقت ظروف بيرد الصحية السيئة قدرته على متابعة موضوع توسيع دائرة الاختصاصات ، فتركه لخلفه جاكنز[٩] . وساعدت الظروف السياسية

العامة ، التي واجهت بريطانيا في المنطقة ، على سرعة إتمام الخطي ، التي كان بيرد قد بدأها من قبل ؛ فقد اشتعلت حركة تمرد الاخوان في شرقي وشمالي شبه الجزيرة العربية ، مما هدد الحضور البريطاني في مناطق الانتداب ، وأبرز أهمية الحاجة إلى سرعة الاتصال بالملك عبدالعزيز ، وإلى سرعة صناعة القرار المناسب .

وبناء على ما سبق ، كُلف القائم بأعمال القنصل البريطاني في طنجة (بوند)[١٠] بالسفر إلى جده في مايو ١٩٢٩ ، لشغل منصب «الوكيل السياسي والقنصل» البريطاني لدى الملك عبدالعزيز . وأوصى جورج رندل في ٧ مايو ١٩٢٩ ، بضرورة التأكيد على أن يمنح بوند الصفة السياسية ، حتى يتمكن من ممارسة صلاحياته في «مملكة الحجاز ونجد وتوابعها» ، وهو الإسم الذي كان الملك عبدالعزيز يؤثر استخدامه في المراسلات الرسمية . وبذلك أصبح في إمكان بوند أن يناقش -بطريقة رسمية ولأول مرة- قضايا تجري خارج منطقة الحجاز[١١] .

هكذا استقبل الملك عبدالعزيز ، في ١٦ يونية ١٩٢٩ ، أول ممثل دبلوماسي إلى بلاده تغطي صلاحياته كل أطراف مملكته الواسعة ، ويتبع لوزارة الخارجية البريطانية مباشرة ، وبذلك تخلص من إزدواجية قناة الاتصال ببريطانيا . وألقى بوند في حفل استقباله خطاباً ، يفيد بأن بريطانيا قررت إخراج علاقاتها الدبلوماسية مع الملك عبدالعزيز من مرحلة السكون إلى مرحلة الانطلاق[١٢] .

هذه الدراسة -إذن- غير معنية بالدبلوماسية بمعنى فن ممارسة العلاقة بين بلدين ، كما أنها غير معنية بتنظيم هيكل السلك الدبلوماسي وقواعده ، وإنما هي معنية بالتطور التاريخي لقيام التمثيل الدبلوماسي وتبادله بين بلدين متفاوتين في كل شيء ؛ في الحجم والقوة والفكر والثقافة . . . إلخ .

* * * * *

وقد شهد عام ١٩٢٩ تطوراً أكثر أهمية ، فرضته تغيرات سياسية في لندن وفي المنطقة ؛ ففي لندن أسفرت الانتخابات العامة عن وصول حكومة رمزي ماكدونالد James Ramsay Macdonald إلى الحكم ، التي شغل فيها آرثر هندرسون A. Henderson منصبي وزير الخارجية ووزير المستعمرات . وكان لذلك أثره الحميد في التقريب بين وجهتي نظر الوزارتين ، لصالح تدعيم العلاقات الدبلوماسية وقنواتها بين البلدين .

وفي المنطقة ، في نفس الوقت تقريباً ، كانت الأزمة حادة بين الملك عبدالعزيز والاخوان ، وقد دفعته هذه الأزمة إلى : توطيد علاقاته ببريطانيا ، وتطوير قنوات الاتصال بها إلى مستوى أرفع من مستوى «الوكالة السياسية»[١٣] ، وفوق ذلك ، إنشاء تمثيل دبلوماسي سعودي مقيم في لندن . وتعتبر رسالة فؤاد حمزة إلى بوند ، في ١٨ يونية ١٩٢٩ ، أول مناسبة يفصح فيها مسئول سعودي عن رغبة الملك عبدالعزيز في أن يرى وزيراً مفوضاً أو سفيراً لبلاده في عاصمة الامبراطورية البريطانية[١٤] .

لم ينتظر الملك عبدالعزيز رد بريطانيا على رغبته في تطوير التمثيل الدبلوماسي البريطاني إلى مستوى المفوضية وتبادله ، فبدأ يعد لترشيح شخص مناسب ، ووقع اختياره على الشيخ حافظ وهبه ، ليكون أول سفير له في لندن ، وكان حافظ وهبة نفسه متحمساً لشغل منصبه الجديد الذي رشح له . وحافظ وهبة مصري الأصل ، له ماض سياسي طيب ، وهو من أنشط مؤيدي حركة الجامعة الإسلامية ، وله مواقف جادة في مواجهة الاستعمار الغربي لبلاد العالم الإسلامي ، وضعته المخابرات البريطانية في قائمتها السوداء ، لأنها وجدت فيه داعية لتجميع المسلمين ضد بريطانيا . وكان الملك عبدالعزيز قد اختاره في بداية حياته السياسية مستشاراً له ، وأوفده في عدد من المهام الرسمية خارج نجد ، كما بعثه مندوباً عن الحجاز ونجد إلى أوروبا في بعض المؤتمرات الدولية[١٥] .

وفي حماس شديد ، سافر حافظ وهبه إلى لندن في يونية ١٩٢٩ ، وفاجأ المسئولين في وزارة الخارجية بوجوده ، فاستقبله أوليفانت ، مساعد وكيل وزارة الخارجية[١٦] ، بشيء من الاندهاش والحيرة ، عندما علم أنه قدم ليمثل بلاده في لندن ، وأنه سعيد لأن يكون أول «سفير لمملكة الحجاز - نجد في عاصمة الامبراطورية البريطانية» . وعقب اللقاء بينهما ، سجل أوليفانت في يوميات الوزارة اعتراضاً صريحاً على طموحات حافظ وهبه فكتب يقول «على كل حال ليس من الوارد أن يكون لبريطانيا سفير في جدة» . وتعني هذه العبارة أنه لن يكون للحجاز - نجد سفير في لندن . كانت تلك هي المرة الأولى التي تذكر فيها كلمة «سفير» في الرسائل المتبادلة بين الطرفين . إن الحماس لتبادل التمثيل الدبلوماسي لدى حكومة الحجاز - نجد ، في نظر أوليفانت ، كان أقوى من الحرص على اتباع التقاليد المعروفة في مثل هذه المواقف . ويفسر أوليفانت موقفه من هذه الفكرة بأن مملكة الحجاز- نجد «ليست متحضرة ، ولا هي واقفة على التقاليد الدبلوماسية ، ومهما يكن من أمر ، فلا يجب أن نكون قاسين على الشيخ (حافظ وهبة) ولكننا نريد أن نزيل الوهم الذي لديه»[١٧] .

لقد دفع حافظ وهبة الاتهام عن نفسه وعن حكومته ، وأكد أن حكومته كانت على اتصال بالوكيل السياسي البريطاني في جدة حول ذات الموضوع ، في ١٨ يونية ١٩٢٩ ، أي قبل تسعة أيام من لقاء وهبة بأوليفانت[١٨] . هكذا لم يكن وجود حافظ وهبة في لندن مفاجأة ، ولكن المفاجأة كانت في اقتراحه بأن يكون «سفيراً» لبلاده في لندن .

لم نعثر على ما يفيد بأن الشيخ حافظ وهبة كان يعني فعلاً كلمة «سفير» التي رددها أمام أوليفانت ، كما لم نعثر على ما يفيد تصحيحه لها ، إن كان يقصد غيرها ، ككلمة «وزير» مثلاً . ولكننا وجدنا هذا التصحيح في حوار مسجل بين فيلبي Philby وكل من دالتون Dalton (المسئول عن الشئون الشرقية في وزارة

الخـارجية) ، وهنـدرسـون Henderson (وزير الخـارجية) . وقـد بعث فيلبي بمضمون هذا الحوار إلى فؤاد حمزة في نوفمبر ، لأنه وجد من المناسب أن يصحح لكـل من دالتـون وهنـدرسـون ما وقع فيه الشيخ حافظ وهبه من «خطأ» غير مقصـود ، حينـما عرض المـوضـوع من قبـل ، واقترح تبادل «السفراء» وليس «الوزراء» . وقد تحمل فيلبي مسئولية التصحيح هذه دون أن يطلب منه[١٩] . وذلك لأنه كان سيستفيد من توطيد أواصر العلاقات البريطانية - السعودية في المجال الاقتصادي .

لم يكن أوليفانت رافضاً لفكرة رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ، ولا لتبادل الممثلين ، ولكنه كان يبحث عن الأسلوب المناسب لتحقيق ذلك ، فوجد في سير جلبرت كلايتون G. Clayton مستشاراً يعتمد عليه في هذه المسألة ، لأنه كان -في نظر كثير من المسئولـين- حجة في الشئون العربية . كان كلايتون يرى «إن علاقاتنا مع ابن سعود الآن ، تختلف كثيراً عن تلك التي كانت قائمة منذ سنوات قليلة مضت ، وليس من المعقـول أن نناقش ما إذا كان لنا أن نساعد الملك عبدالعزيز ونقوي مركزه ، ولكن علينا أن نفعل ذلك كلما كان ممكناً»[٢٠] . كان كلايتون يدعو حكومته إلى تخطي كل التفاصيل وصولاً إلى إدراك أهمية دعم مركز الملك عبدالعزيز وضرورته .

أثرت كلمات كلايتون ، الذي كان عائداً لتوه من زيارة للملك عبدالعزيز ، في توجيه قرار الحكومة البريطانية ، ورأى أوليفانت أن تتصدى وزارة الخارجية بكـامل ثقلها لدعم العلاقات البريطانية - السعودية ، من خلال تطوير تمثيل دبلوماسي يتناسب وهذا الهدف . ووجد أن على وزارةالخارجية أن تقنع وزارتي المستعمرات والهند بأن «الوقت أصبح مناسباً لتحويل الوكالة البريطانية في جدة إلى بعثة دبلوماسية»[٢١] .

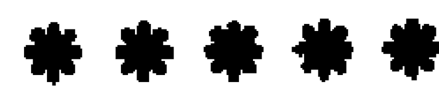
بنى أوليفانت قراره السابق على أسس سياسية ، فعبدالعزيز آل سعود كان

دائماً صديقاً لبريطانيا ، وظهوره كأقوى حاكم في شبه الجزيرة العربية يعد «عاملاً ذا أهمية قصوى في الشرق الإسلامي ، وعلاقاتنا معه سيكون لها أثر مباشر على مركزنا في الهند وغيرها من بلاد الشرق» . وأضاف أوليفانت أن شبه الجزيرة العربية تمثل موقعاً متميزاً على طريق الملاحة البحرية بين الشرق والغرب . كما أن جهود بريطانيا لإنشاء طريق جوي جديد على طول الساحل العربي للخليج ، إنما تعتمد في نجاحها على حسن علاقاتها بالملك عبدالعزيز ، الذي تجاور بلاده مناطق الانتداب البريطاني ، ومناطق النفوذ البريطاني في الخليج . وفوق ذلك كله هناك عدد كبير من المسلمين المتمتعين بالجنسية البريطانية يزورون مكة كل عام ، ولا يمكن المحافظة على سلامتهم إلا من خلال القنوات الدبلوماسية . «إن تحقيق السلام والأمن على حدوده يعتمد بالدرجة الأولى على علاقة الصداقة معه ومع حكومته . . . لقد دعم مركزه في معظم أركان شبه الجزيرة على مدى السنوات الثلاث الماضية ، ولم يعد هناك سبب وجيه واحد للتشكيك في قدراته أو في نظام حكمه» . وأضاف أن الموضوع الذي يجب أن يناقش فوراً هو : «تأسيس علاقات دبلوماسية عادية ، بأسرع ما يمكن لإنهاء حالة العلاقة غير الطبيعية القائمة»[٢٢] .

بناء على ما سبق ، طلبت وزارة الخارجية ، في يوليو ١٩٢٩ ، إلى كل من وزارة الهند ووزارة المستعمرات أن تبدي رأيها في الموضوع[٢٣] ، وذلك بعد أن أبلغت حافظ وهبة ، في أواخر يونية ، أن الموضوع قيد الدراسة[٢٤] . ولم تتردد وزارة الهند في مساندة وزارة الخارجية فيما ذهبت إليه ، وفي ١٩ يوليو نصحت بأن «الوكالة البريطانية في جدة يجب أن تتحول إلى بعثة دبلوماسية بطريقة طبيعية ومنظمة مع الملك عبدالعزيز»[٢٥] . أما وزارة المستعمرات فقد رفضت تلك الأفكار ، دون إبداء الأسباب .

رأت وزارة الخارجية أن رفض وزارة المستعمرات يعني أنها ترغب في مواصلة

التدخل في شئون شبه الجزيرة العربية ، وخصوصاً في مسائل الحج والحجاج ، وهو أمر سيؤلب المسلمين على الحكومة البريطانية ، فضلاً عن عدم ارتياح الملك عبدالعزيز للتعامل مع لندن إلا من خلال وزارة الخارجية . أما إذا كان رفض وزارة المستعمرات مردوداً إلى حالة عدم الاستقرار في نجد نتيجة لتمرد الاخوان ، الذين تحدوا الوجود البريطاني في مناطق الانتداب بالغارات المفاجئة على مراكز القوات البريطانية ، فقد رأت الخارجية أن التغلب على مثل هذه المشاكل لا يمكن أن يتم إلا من خلال قنوات الاتصال المناسبة ، التي تضمن التحكم في كل الخيوط الدبلوماسية ، حتى لا تصطدم اتجاهات الوزارات المختلفة ببعضها ، وحتى لا تبدو السياسة البريطانية متناقضة . على كل حال ، وافقت وزارة المستعمرات في أول أغسطس ١٩٢٩ على خطة وزارة الخارجية[٢٦] . وفي واقع الأمر ، لم تكن مناقشة هذه المسألة متروكة للجهات الرسمية وحدها ، وإنما ساهمت بعض الجهود غير الرسمية في تيسير الوصول إلى هذه النتيجة ، ومنها جهود فيلبي .



لقد سعى فيلبي في سبيل إقامة مفوضية بريطانية في جدة ، وأخرى سعودية في لندن ، بالرغم من أنه كان خارج إطار العمل الرسمي في الحكومة البريطانية ، منذ عام ١٩٢٤ ، ولكن حرصه على تطوير مشروعاته الخاصة ، وتأمين رأسماله في جو من الاستقرار ، وصداقته للملك عبدالعزيز ، كل هذا دفعه لأن يستخدم نفوذه القديم ، لدى بعض أصدقائه ، من بين الذين لا يزالون في الخدمة ، كي يدفعوا بعملية تطوير التمثيل الدبلوماسي دفعاً . وفي نفس الوقت كان فيلبي يقدر تماماً حالة القلق التي يعانيها الملك عبدالعزيز وحكومته ، ويقف على ذلك من الملك نفسه ومن مدير خارجيته (فؤاد حمزه) الذي يعد في نظره من «أكفأ الشباب العربي الناهض» خاصة وأن إهمال الحكومة البريطانية تلبية رغبة الملك -فيما سبق- أغضبه كثيراً[٢٧] .

نقل فيلبي هذه الأفكار في رسالة إلى دالتون ، في ٧ نوفمبر ١٩٢٩ ، وأضاف أن كلاً من الملك عبدالعزيز وفؤاد حمزة يلاحظ أن بريطانيا مشغولة بقضايا أخرى عن أن ترد على رسائلهما ، وأن بريطانيا تتعامل معهما ببرود شديد في تسوية عديد من المشكلات المعقدة ذات الأهمية الكبرى لها ، ويرجع ذلك إلى أنه ليس للملك عبدالعزيز تمثيل دبلوماسي في لندن على الإطلاق ، ومن الجهة الأخرى فإن التمثيل البريطاني في جدة «ضعيف للغاية ، لأنه لا يتخطى درجة القنصل ، وهذا يعوق عمليات التسوية في حالة وجود خلاف بين البلدين»[٢٨] . لقد أهمل فيلبي في هذه الرسالة وجود وكيل سياسي ، وذكر فقط كونه قنصلاً ، وربما قصد من وراء ذلك إظهار أن صفته القنصلية تطغى على صفته الدبلوماسية .

وفي الشهر نفسه ، أكد فيلبي لدالتون على ما ورد في رسالته السابقة له وأوصى «أن تحقق لندن -بدون تأخير- التطوير الضروري للتمثيل البريطاني لدى ابن سعود ، فليس هناك أدنى شك في صداقته ووده نحو بريطانيا ، ولا يجب أن يكون هناك شك في أهميته باعتباره أعظم حاكم عربي في أيامنا هذه . . . يجب أن تمثَّل (بريطانيا) تمثيلاً مناسباً في بلاده ، ولا نعجب لامتعاضه من مجرد وجود وكيل أو قنصل لنا في بلاده . . . ومن ناحيتي ، فلن أضيع وقتاً حتى أقنع الحكومة البريطانية برفع وكالتها إلى مستوى المفوضية ، وأن ذلك يجب أن يتبعه تعيين وزير مفوض لها في جدة في أقرب فرصة»[٢٩] .

الواقع أن فيلبي كان قلقاً من احتمال تزايد نفوذ الاتحاد السوفييتي وتركيا وفرنسا لدى الملك عبدالعزيز ، فقد رفعت الدول الثلاث تمثيلها إلى مستوى المفوضية ، وقد ينتج عن ذلك إضرار بالمصالح البريطانية بعامة ، ومصالح فيلبي بصفة خاصة . ولهذا نراه حين يكتب لدالتون ، يؤكد له أن مسألة التمثيل الدبلوماسي والقضايا الأخرى المعلقة بين البلدين «يجب أن تعالج بالسرعة

المطلوبة ، وعلى أسس معقولة ، ومن المناسب لبريطانيا أن تطلب إلى ابن سعود أن يرسل وفداً إلى لندن لمناقشة هذه القضايا وتسويتها» . ويضيف فيلبي «إنني مقتنع أن مناقشة كل هذه المسائل في جو بريطانيا البارد معك (دالتون) ومع المستر هندرسون (وزير الخارجية) سيكون مناسباً جداً وبعيداً عن المتناقضات المحلية هنا»[٣٠] .

واضح من أوراق فيلبي الخاصة (المحفوظة في كلية سانت أنتوني بجامعة أكسفورد) أن مسألة التمثيل الدبلوماسي قد نالت اهتمامه ، وأنه وجد -أثناء زيارته للندن في خريف ١٩٢٩- كلاً من دالتون وهندرسون مستعدين لاتخاذ الموقف المناسب ، فور وصول طلب الملك عبدالعزيز من خلال القنوات الرسمية العادية . وكانت هذه فرصة طيبة لحافظ وهبة كي يتقدم بطلب فوري لرفع مستوى التمثيل الدبلوماسي وتبادله . ولكن وهبة كان مريضاً وملازماً المستشفى ، ولم يكن سكرتيره ذا كفاية تسمح له بعرض الموضوع . وحين خرج من المستشفى كان دالتون وهندرسون قد سافرا إلى هولندا وسويسرا في جولة أوروبية ، وحينما عادا كان وهبه قد غادر إنجلترا[٣١] .

من الواضح أن الأمور الإجرائية لم تكن تسير على ما يرام ، فلا وهبة كان منظّماً لبرنامج زيارته ، ولا وزارة الخارجية كانت متعجلة للأمر . وحين نقل فيلبي صورة ما جرى في لندن خلال صيف وخريف عام ١٩٢٩ إلى فؤاد حمزة ، طمأنه بقوله «إن دالتون أكد لي أنه ليس هناك مانع لدى الحكومة (البريطانية) من إنشاء مفوضية في جدة فور إعادة عرض الموضوع ، من جديد ، من خلال القنوات الرسمية» ، وأضاف فيلبي أنه جرى التفكير في إسناد مفوضية جدة -عند تأسيسها- إلى السفير البريطاني في القاهرة ، على أن يعين هذا نائباً عنه في جدة بدرجة وزير مفوض . ولكن مثل هذه المسألة قد تولد حساسية لدى حكومة الحجاز - نجد . وحين اعتزمت لندن أن تطلب إلى حافظ وهبة أن يستشير

حكومته ، كان قد غادر إنجلترا . وخلاصة القول أن فيلبي أراد أن يُطمئن فؤاد حمزة على أن قضية التمثيل الدبلوماسي لم تعد مسألة مبدأ ، وإنما صارت مسألة وقت[٣٢] .

تطورت الأمور بسرعة خلال الخريف نتيجة لجهود كل من حافظ وهبة وفيلبي ودالتون . وطلب هندرسون إلى الخزانة Treasury سرعة تدبير المبالغ اللازمة لإجراء التطوير المطلوب[٣٣] .

وصار من الممكن ، في ٣ سبتمبر ، أن يتحاور ممثلو البلدين من خلال القنوات الرسمية للبدء في الإجراءات التنفيذية لتعيين ممثل لكل منهما لدى الطرف الآخر[٣٤] .

واكتملت في ١٢ ديسمبر جميع الخطوات الرسمية في لندن فيما عدا خطوتين : الأولى : إخطار الملك عبدالعزيز بما تم التوصل إليه . والثانية : الاتصال بأحد أعضاء البعثة الدبلوماسية في الشرق لشغل الوظيفة المقترحة .

* * * * *

أخطرت الحكومة البريطانية الملك عبدالعزيز في ١٧ ديسمبر ١٩٢٩ بموافقتها على رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ، وتبادله معه . ولكن نظراً لأن مسألة اختيار موظف دبلوماسي بدرجة وزير مفوض يقبل وأسرته الإقامة الدائمة في جدة ، قد يستغرق بعض الوقت ، فقد تقرر تكليف بوند ، الوكيل السياسي والقنصل في جدة ، بتحمل المسئولية ، إلى حين تعيين الشخص المناسب لهذا المنصب الجديد . وبعد ثلاثة أيام من ذلك تحمل بوند مسؤلياته كقائم بالأعمال Chargé d'Affairs[٣٥] .

إن التجارب التي خاضتها وزارة الخارجية فيما مضى ، جعلتها تعتقد في صعوبة الحصول على موظف تتوافر لديه «الخبرة الكافية والاستعداد» لقبول الإقامة في شبه الجزيرة العربية . فقد واجهت الخارجية ذلك في عام ١٩٢٥(٣٦) ثم في عام ١٩٢٨(٣٧) ، ولم تستطع حسم هذه المسألة إلا في عام ١٩٢٩ . ففي بداية أغسطس كانت كل الدلائل تشير إلى ضرورة أن يكون شاغل هذه الوظيفة الدبلوماسية أحد الموظفين العاملين بالفعل في الشرق ، لما لديهم من دراية بأمور المنطقة ، وتكييف مع ظروفها المناخية الحارة .

وقع الاختيار على سير أندرو ريان Sir Andrew Ryan ، القنصل العام بالمغرب ، ليكون «مندوباً فوق العادة ووزيراً مفوضاً في جدة Envoy Extraordinary and Minister Plenipotentiary اعتباراً من يوم ٢٢ ابريل ١٩٣٠ . ويشير ماضي ريان في مجال الخدمة الدبلوماسية والقنصلية إلى أنه من أكفأ العناصر التي يمكن أن تشغل مثل هذا المنصب ، فهو ينتمي إلى مدرسة الليفانت Levant Diplomatic Service وسبق له أن عمل نائباً للقنصل Vice Consul في استانبول سنة ١٩٠٣ ، ثم قنصلاً بها في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة . وإبان الحرب نقل إلى وزارة الخارجية للاستفادة من معلوماته عن الأتراك ، ولكنه عاد إلى استانبول بعد الحرب في عام ١٩١٨ . وفضلاً عن ذلك عمل في المغرب في المجال القنصلي عام ١٩١٢ ، وعين قنصلاً عاماً هناك في عام ١٩٢٤ ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن نقل إلى جدة في وظيفته الدبلوماسية الجديدة(٣٨) .

أخطرت لندن حكومة الحجاز - نجد بترشيحها لريان في ١٨ يناير ١٩٣٠(٣٩) ، فرحبت به ترحيباً شديداً في رسالة بعث بها الأمير فيصل بن عبدالعزيز إلى بوند في ٢٧ يناير(٤٠) . وعبر فيلبي عن سعادته لأن جهوده في هذا المجال قد كُللت بالنجاح ، وكتب إلى صديقه دالتون في ١٧ يناير ١٩٣٠ ، أي قبل أن تخطر حكومة الحجاز - نجد بيوم واحد ، مقدماً كل خبراته وتصوراته لما

يجب أن تكون عليه المفوضية ، وما يجب على الوزير المفوض الجديد أن يفعله ، كي يكسب ثقة الملك عبدالعزيز ومساعديه . يقول فيلبي :

«إن قرار إنشاء مفوضية هنا في جدة خلق انطباعاً مريحاً ، إن نفوذ هذه المفوضية وأهميتها لا يمكن أن يقاس بالكلمات ، إنها واحدة من الأعمال البسيطة التي تحقق الكثير في إظهار حسن النوايا . إن اختيار ريان اختيار موفق لما لديه من تجربة طيبة في الشرق ، ولكن يؤخذ عليه أنه لا يعرف العربية ، وهذا أمر خطير ، ولكن لعل الميزات التي لديه تحقق التوازن المطلوب . إنني آمل أن تلح عليه (ريان) بأن المظهر العام للمفوضية في حاجة إلى تغيير جوهري بحيث يبني على أسس جديدة ، لأنه قائم الآن على كونه وكالة . إن عليه (ريان) أن يستثمر وقته في المهام الدبلوماسية الأساسية ، تاركاً المسائل الأقل أهمية لمساعده ، مع وضعه تحت الإشراف التام ، وعليه أيضاً أن يصرف بعض الوقت في عمل اتصالات طيبة مع الأعيان من أهل البلاد ، وفي تطوير العلاقات الودية والصداقات الشخصية ، صحيح أن العمل القنصلي يقتضي عدم التداخل إلا فيما يتصل بالعمل ، إلا أن مثل هذا الأسلوب لا يتفق والمألوف هنا ، لأن المهم أن تجعل نفسك محبوباً»[٤١] .

لقد قدم فيلبي إلى ريان -دون أن يطلب منه- كامل خبرته في التعامل مع الملك عبدالعزيز وحكومته . فما هي دوافعه إلى ذلك ؟

في رسالته السابقة إلى دالتون يقدم فيلبي جانباً من الرد على هذا السؤال ، فهو يطلب من دالتون أن يقوم بمهمة الوساطة في أن يرسم لدى ريان صورة طيبة عنه ويقول :

«إذا أمكن أن تنبهه (ريان) إلى أنني (فيلبي) لم أعد الشخص الناكر للجميل Persona ingrata وأنه (ريان) لن يخطيء إذا استشارني ، لأنني سأضع تحت

تصرفه كل ما لدي من معلومات ، ولن أدخر جهداً في مساعدته . إنني لا أسعى إلى الحصول على أية مكافأة أو وظيفة من وراء ذلك ، فقد وضعت كل أوراقي أمامك فيما يتعلق بإظهار حسن النوايا مع العرب ، وإذا كان لي من مهمة مقدسة في حياتي فهي أن أحقق إنسجاماً كاملاً بين بريطانيا وشبه الجزيرة العربية»[٤٢] .

ربما كان فيلبي يطمع في أن يعود إلى الخدمة في الحكومة البريطانية كما كان حتى عام ١٩٢٤ ، باعتباره من أكثر البريطانيين كفاية وعلماً بشئون شبه الجزيرة العربية ، ولعله أراد أن يقول أنه أكثر الناس كفاية لتحقيق الإنسجام المطلوب في العلاقات البريطانية - العربية وبالتالي فإنه يقلل من شأن ريان الذي سيكون من الضروري عليه أن يستشير فيلبي في كثير من الأمور الهامة بطريقة غير رسمية .

ولا يتردد فيلبي في أن ينتقد بوند (القائم بالأعمال) بسبب تجاهله للوزير السوفييتي (عميد الدبلوماسيين في جدة) وبسبب إقامته لناد أوروبي في مدينة إسلامية ، محرم فيها الشرب والموسيقى والرقص ولعب الورق ، فهو يضرب بكل ذلك عرض الحائط دون أن يستأذن لندن . وينهي فيلبي خطابه إلى دالتون بالتأكيد على أنه نصح بوند بما يكفي لإصلاح الأمر ، ولكنه لم يعمل بالنصح[٤٣] .

لقد انقطع فيلبي عن الكتابة إلى دالتون في الفترة من منتصف يناير إلى منتصف أبريل ١٩٣٠ ، وهي الفترة التي أعقبت تعيين ريان مباشرة ، ولكنه حين يعود إلى الكتابة يوجه نقداً مغلفاً لكل من بوند وريان ، ويركز على جوانب القصور فيهما . ويبدو فيلبي قلقاً للغاية ، إلى حد أنه كتب إلى دالتون رسالتين مستقلتين في يوم واحد . وفي إحداهما يقول «ليس لدي ما أكتبه خلال الشهرين الماضيين» . لقد استشعر فيلبي الضرر والإهمال من لندن ، ويتضح ذلك من هذه الرسالة التي يخاطب فيها دالتون بقوله :

«إن زوجتي كانت رشحتني -أثناء لقائها بك في مصر- لشغل إحدى الوظائف التابعة لإدارتك ، ولكنني لم أطلب منها ذلك ، ففكرة أن أكون وزيراً بريطانياً في جدة ليست مغرية لي على الإطلاق ، ولست مستعداً لقبولها إلا في حالتين : الأولى أن ترجوني لندن أن أقبلها على أنها مهمة خاصة ، والثانية أن تسوى مسألة سكة حديد الحجاز بالأسلوب الذي اقترحته . أعتقد أنني أخدم المصالح البريطانية لو بقيت حراً ، لأنني سأتمكن من تقديم النصح كما كنت أفعل مع كلايتون . أنا الآن أقدم معلوماتي إليك مجاناً ، ولي مطلب واحد هو أن يعاملني المسئولون البريطانيون هنا على أني حليف . أنا لم أتوقع ذلك في ظل حكومة المحافظين السابقة . إن العرب ينظرون إليّ الآن على أنني ممثل الحكومة البريطانية أكثر من القائم بالأعمال. . . آمل أن يكون ريان شخصاً مختلفاً عن سابقيه في التعامل معي ، كما أن الصراحة معي ستكون مفيدة نظراً لعلاقاتي الطيبة بالملك وبوزارة الخارجية»(٤٤) .

هل كان فيلبي يسعى لكسر حاجز العزلة الذي فرضه عليه المسئولون البريطانيون السابقون ؟ أم أنه كان يريد أن يدفع عن نفسه سوء الظن ، بعدما فشل في أن يشغل وظيفة القائم بالأعمال ، أو الوزير البريطاني في جده ؟ أم أنه أراد أن يهيء ريان إلى حسن معاملته ؟ أياً كانت الإجابة على هذه الأسئلة ، فإن فيلبي لا يعنينا هنا إلا بقدر ما يمكن أن يُيسر أو يُعقد أعمال الوزير الجديد في جده . وعلى كل حال ، فقد انتهى دوره كوسيط في مسألة تطوير التمثيل الدبلوماسي وتبادله .

ومهما يكن من أمر ، فقد وصل ريان إلى جده في ٦ مايو ١٩٣٠ . وتعكس الطريقة التي استقبل بها من المسئولين ، مشاعر الارتياح الشديد ، لوصول وزير بريطاني إلى الحجاز . وقد يكون من المناسب أن نترك كلمات ريان تصف لنا استقبال المسئولين له في جدة :

«خرج المسئولون يعبرون عن اهتمامهم وترحيبهم بوصولي . وأرسل حاكم جدة قائد الحرس لاستقبالي على ظهر السفينة Dahlia ثم نزل هو نفسه لاستقبالي على الرصيف . ومع عبارات الترحيب الخاصة بي سلمني رسالة ترحيب من الملك عبدالعزيز ، تضمنت اعتذاره عن عدم مقابلتي لسفره الضروري (للحج) وأنه سيلقاني بعد أداء الحج ، وبعد أن أديت التحية للجميع بأسلوب مناسب ، توجهت إلى المفوضية في سيارة بعث بها حاكم جده. . . إنني لسعيد أن كل شيء يتعلق بوصولي قد سار في طريق تكوين انطباع جيد»[٤٥] .

ورحب الملك عبدالعزيز بريان يوم وصوله تليفونياً ، وهنأه بسلامة الوصول . وفي اليوم التالي بعث ريان برسالة شكر للملك ، حملها إليه حاكم جدة ، عندما كان في طريقه لأداء الحج . وانتهز ريان فرصة لقائه بحاكم جدة ، وتحدثا معاً عن الحج والتسهيلات التي يلقاها الحجاج ، ومدى حرص الملك عبدالعزيز على تقديم مزيد من التسهيلات ، حرصاً منه على توطيد علاقاته ببريطانيا ، التي ترعى أعداداً كبيرة من المسلمين . وفي هذا اللقاء عبر ريان عن مدى استعداده للعمل في انسجام مع الملك عبدالعزيز وحكومته[٤٦] .

وفي ١٧ مايو ، وبعد انتهاء موسم الحج ، استقبل الملك عبدالعزيز سير اندرو ريان ، واحتفل به -كما هو مألوف- في القصر الأخضر بجدة[٤٧] ، حيث قدم ريان أوراق اعتماده . وقد وصف ريان اللقاء في رسالة إلى هندرسون كما يلي :

«وصلت بصحبة قائد حرس جدة ومعي زملائي في سيارتين متواضعتين ، وأديت لي التحية العسكرية في القصر بدون نشيد قومي ، وربما كان ذلك لأن الوهابيين يكرهون الموسيقى. . . واستقبلني الشيخ فؤاد حمزة والشيخ حافظ وهبة ، الوزير المفوض (المرشح) للندن فضلاً عن مسئولين آخرين . وبعد فترة قصيرة توجهت ومعي مستر بوند ، القائم بأعمال المفوضية ، والمترجم إلى حجرة

الاستقبال ، حيث كان الملك في موضع متميز ينتظرنا وحوله ضباطه . وبعد أن سلم عليّ باليد ، ألقيت خطبتي التي كنت أعددتها ثم سلمتها وأوراق اعتمادي إلى جلالته . وعندما قرأ مترجم المفوضية الصيغة العربية ، أجاب الملك بكلمة قرأها سكرتيره الشيخ يوسف ياسين ، ثم قرأها في إنجليزية ممتازة الشيخ فؤاد حمزة . عندئذ قدمت أعضاء المفوضية ، وهم مستر بوند ومستر ويكلي wikeley ومنشي إحسان الله Munshi Ihsanullah نائب القنصل الهندي - البريطاني ، والمترجم»[٤٨] .

وبعد هذا اللقاء الرسمي جلس الملك وضيفه ، يتجاذبان أطراف الحديث ، وهما يحتسيان القهوة والليمون» . وبعد تبادل هذه الأحاديث طلبت (ريان) من الوفد الانصراف ثم خطوت خطوات إلى الخلف ، منحنياً تجاه الملك ، طبقاً للأسلوب الأوروبي في الإتيكيت»[٤٩] .

كان ريان حريصاً على أن يصف كل شيء في اللقاء الأول بينه وبين الملك عبدالعزيز ، وقال في تفسير ذلك ، هذه هي أول مرة تطأ فيها قدما وزير بريطاني أرض الحجاز ، وهو حريص على أن يسجل كل تفاصيل هذا الموقف الجديد ، ولذلك نراه يهتم بكل شيء فيصف الملك ، ملبسه ومظهره والمكان الذي ينزل به . يقول ريان :

«كان الملك عبدالعزيز متسامحاً كما كنت أتوقع ، وكانت طريقة استقباله ودية . . . وكان مظهره محترماً في عباءته الفضفاضة والمصنوعة من خامة جيدة ، وهي الزي العربي المألوف . . . أما غرفة الاستقبال فهي معقولة المساحة ومفروشة بالسجاد ، ولكن يعيبها أنها مفروشة بأثاث فرنسي»[٥٠] .

خرج ريان من القصر الأخضر مودعاً بنفس طريقة استقباله . وفي مساء ذات اليوم دعاه فؤاد حمزة إلى العشاء في وزارةالخارجية ، وحضر العشاء أربعة

عشر شخصاً من الأعيان ، من بينهم مستر فيلبي ، وحافظ وهبة ، الذي كان يستعد للسفر إلى لندن ، ليكون أول وزير مفوض لبلاده في بلاط ملك بريطانيا العظمى[٥١] .

* * * * *

سار تأسيس أول مفوضية سعودية في لندن على قدم وساق مع تأسيس نظيرتها البريطانية في جدة ، مع فارق واحد هو : أن المفوضية السعودية كانت تأسيساً لتمثيل دبلوماسي لم يكن موجوداً في أية صورة من قبل ، أما المفوضية البريطانية في جدة فكانت تطويراً لتمثيل دبلوماسي قنصلي قائم بالفعل .

كان الملك عبدالعزيز قد رشح حافظ وهبة ليكون أول وزير مفوض له في لندن ، وجاء هذا الترشيح مفاجأة للبريطانيين من حيث شخص المرشح ومن حيث التوقيت . أما التوقيت فكان سابقاً لأوانه - كما عرفنا من قبل . وأما حافظ وهبـة ، فإن مواقفه السياسية السابقة تجاه الاستعمار بصفة عامة ، والاستعمار البريطاني على وجه الخصوص ، ومناصرته لحركة الجامعة الإسلامية ، ونشاطه القيادي فيها ، كل ذلك كان يشكل رصيداً ضاراً به لدى الحكومة البريطانية ، التي رأته شخصاً غير مرغوب فيه كممثل دبلوماسي لبلاده في لندن . ولكن زيارته للندن في مايو ١٩٢٩ ، لحضور مؤتمر البريد الدولي[٥٢] . ثم مشاركته في نشاط جمعية آسيا الـوسطى Central Asian Society في لندن بمحاضرة عن الوهابية في جزيرة العرب ، حيث رأس لورد اللينبي Lord Allenby الجلسة في حضور جمع غفير من المهتمين بتاريخ شبه الجزيرة العربية والإسلام ، وعدد كبير من مسلمي الهند . وكان من بين الحضور سير بيرسي كوكس Sir Persy Cox السياسي البريطاني الشهير في العراق والخليج ، وجورج رندل مسئول شئون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية .

ومع أن المحاضرة كانت ذات طابع فكري وعقائدي ، إلا أن الجزء الأخير منها كان ذا طابع سياسي ، وقد سجل رندل في مذكرة أعدها في اليوم التالي للمحاضرة قوله :

«أن الشيخ حافظ وهبة انتهز الفرصة وأعلن -باعتباره الممثل الرسمي لابن سعود- تصريحاً رسمياً يتعلق بموضوع الخلافة ، فالخليفة كان زعيم العالم الإسلامي حينما كان يشمل الوحدة القومية. . . أما الآن ، فإن معظم المسلمين يقعون تحت احتلال قوى أجنبية ، وأن الخليفة في هذه الحالة لن يكون شيئاً أكثر من شبح ، وأن ابن سعود ليست لديه النية أو الرغبة في أن يشغل منصباً يكون فيه شبحاً»(٥٣) .

إن حرص حافظ وهبة على تأكيد عدم سعي الملك عبدالعزيز للخلافة الإسلامية ، لأنها صارت بلا مضمون ، يعني أن الملك عبدالعزيز لم يكن على استعداد لأن يتزعم الرأي العام الإسلامي المعارض لبريطانيا ، وهذه بالطبع نقطة إيجابية من وجهة النظر البريطانية يمكن أن تدفع بريطانيا إلى توثيق علاقاتها به . ولكن المهم هو أن التصريح في هذه المناسبة يصدر على لسان حافظ وهبة الداعية السابق لحركة الجامعة الإسلامية المناهضة لبريطانيا . إن حافظ وهبة على هذا النحو لم يعد عدو بريطانيا التقليدي ، وبالتالي فليس هناك مانع من التعامل معه ، عند تمثيله للحكومة السعودية .

تأكدت النتيجة السابقة في ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، عندما نشرت صحيفة الديلي تليجراف -نقلاً عن وكالة رويتر- أن الشيخ حافظ وهبه صرح بأن موقف الملك عبدالعزيز تجاه المسألة الفلسطينية يتلخص في :

«أن فلسطين هي الأرض المقدسة للديانات الثلاث : المسيحية واليهودية والإسلام ، وإنها لرغبة قوية لدى ابن سعود أن تعيش هذه العقائد الثلاث معاً

في صداقة وود في الأرض المقدسة . . . إن الملك عبدالعزيز - فيما يتعلق بجيرانه . . . صديق بالضرورة لبريطانيا العظمى ، وإنه لن يحاول أن يخلق لها مصاعب جديدة فوق تلك التي تواجهها الآن في فلسطين أو في مكان آخر. . . إن الملك صديق لبريطانيا . . . وهو يثق في صداقتها وفي عدالتها ، وهو على يقين أنها كدولة منتدبة ستحقق فيما يجري في فلسيطن ، وستقيم العدالة بين (أصحاب) الديانتين ، وإنه لمن السخف -على أية حال- الاعتقاد بأن الملك سيفعل كل ما تريده إنجلترا»[٥٤] .

كانت تصريحات وهبة في معظمها تروق للإنجليز ، وخصوصاً أنها صدرت عن رجل عُرف بتعصبه ضد سياسة بريطانيا الشرقية ، فهو عضو مؤسس في جمعية «خدام الكعبة» في دلهي ، وهو صاحب مؤلف عن الجامعة الإسلامية ، صادرته الحكومة المصرية في العشرينيات من القرن العشرين ، وقد وضعته المخابرات البريطانية في قائمتها السوداء ، واعتبرت جمعية خدام الكعبة جمعية «خطيرة»[٥٥] .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن هذا الماضي الحافل للشيخ حافظ وهبة ، حال -في بداية الأمر- دون قبوله وزيراً مفوضاً للملك عبدالعزيز في لندن . إلى أن أظهر مواقف جديدة في مؤتمر البريد الدولي ، وفي جمعية آسيا الوسطى ، وما تبع ذلك من تصريحات ، فتحولت وزارة الخارجية عن موقف الرفض السابق ، ورحبت به ليكون أول وزير سعودي مفوض في لندن . وفي نفس الوقت أخطرت بوند (القائم بالأعمال في جدة) بهذه الخطوة ، ولكن الإجراءات التنفيذية تأجلت حتى مطلع العام التالي ، وفي ٤ فبراير ١٩٣٠ ، تم ترتيب كل شيء كما أراد الملك عبدالعزيز[٥٦] ، الذي أظهر سعادة بالغة لدى علمه بقبول الحكومة البريطانية لشخص حافظ وهبة وزيراً مفوضاً له في لندن[٥٧] .

غادر وهبة الحجاز إلى لندن في أول يوليو ١٩٣٠ ، بعد أن شارك في استقبال

الوزير البريطاني إلى جدة (أندرو ريان) ، الذي كان قد تلقى تعليمات من لندن بمـراقبـة وهبـة جيداً ، وإبراق كل ما يراه من ملحوظات ، قد تفيد الحكومة البريطانية ، عندما تبدأ في التعامل معه لدى وصوله ، وقد طلب نفس الشيء من المندوب السامي بمصر ، عند مرور وهبة بها[٥٨] .

أفصح وهبة لريان على مائدة الغذاء قبل سفره «أنه سيكون سعيداً بتوطيد العلاقات السعودية - البريطانية» . وعلم ريان أن «وهبة غير مستريح للعناصر السـورية» المحيطة بالملك عبـدالعزيز ، وخصوصاً فؤاد حمزة ويوسف ياسين . ولكن الملك لم يكن على استعداد للتخلي عن أي من العناصر السورية في ذلك الوقت ، «ربما لأن طموحاته الكبرى تهدف إلى تأمين عرش تلك البلاد (سوريا) لأحد أبنائه» . وعلم ريان أيضاً أن الملك يحترم آراء حافظ وهبة ، بينما يرى وهبة أن الملك ليس سهلاً[٥٩] .

واصـل وهبـة رحلتـه من مصر إلى لندن في ٤ أغسطس ، فوصلها في ٧ نوفمبر ، واستقبله الملك جورج بعد ثلاثة أيام[٦٠] ليبدأ عمله كأول وزير مفوض للملك عبدالعزيز في بريطانيا ، وليكون أول وزير مفوض على الإطلاق يبعثه الملك عبدالعزيز إلى أي مكان في العالم .

وبتعيين حافظ وهبة في وظيفته الدبلوماسية بلندن ، صار في إمكان الملك عبدالعزيز أن يخاطب وزارة الخارجية البريطانية مباشرة ، سواء من خلال وزيره المفـوض هنـاك ، أو من خلال الوزير المفوض البريطاني في جدة . ولكن هل حدث ذلك فعلاً ؟ وهل قامت أي من المفوضتين بالدور المرجو منها في توطيد العلاقات بين الطرفين ؟ لقد حاول الطرفان ، ولكن المعوقات كانت أكبر من أن تزاح عن الطريق في يسر .

لم يمض شهر على ريان في جدة حتى أدرك «حجم الصعوبات التي يجري

من خلالها العمل الدبلوماسي. . . إن هذه الصعوبات يشعر معها الشخص المسئول بمرارة ، حين يحاول أن يؤسس تمثيلاً بريطانياً قوياً في الحجاز. . . وهي تنجم عن وجود المفوضيةالبريطانية في جدة. . . فليس من اليسير الوصول إلى الملك. . . وهو في الواقع المسئول عن الشئون الخارجية ، كما أن وزارةالخارجية مقرها مكة ، والقائم بالأعمال يستطيع أن يناقش المسائل المشتركة فقط ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع قراراً. . . وهو موزع الجهد بين الطائف ، حيث يجب أن يمثُل أمام الملك ، وبين وزارة الخارجية في مكة (وبين المفوضية في جدة)»[61] .

وتعتبر هذه المشكلات قضية أخرى ، لا تعنيا هنا الآن ، حيث أفردنا لها بحثاً آخر . ولكن المتتبع لتطور العلاقات بين الطرفين ، يلاحظ أن الفترة التي أعقبت تبادل التمثيل الدبلوماسي ، كانت من أسوأ الفترات في العلاقات البريطانية - السعودية ، ولعل هذه الفترة كانت مسئولة عن تغلغل النفوذ الأمريكي إلى المملكة العربية السعودية فيما بعد .



كانت إقامة المفوضية السعودية في لندن[62] ثمرة جهود متواصلة ، بدأت مع بداية العلاقات البريطانية - السعودية . ولكن إقامتها تأخرت بسبب معوقات رأت بريطانيا أنها تحول بينها وبين تدعيم علاقاتها بعبدالعزيز آل سعود . ومن ناحية أخرى لم يكن لدى بريطانيا دوافع قوية لإزاحة تلك المعوقات . وكانت في حاجة دائمة لمن يذكرها بأهمية تأسيس علاقات دبلوماسية مع الملك عبدالعزيز ، وفي كثير من الأحيان كان هو نفسه قادراً على تذكيرها ، بالإلحاح أحياناً ، ويفرض سياسة الأمر الواقع عليها أحياناً أخرى .

أما المفوضية البريطانية في جدة ، فقد فرضت إقامتها روح التنافس بين بريطانيا وعدد من الدول الكبرى مثل الاتحاد السوفييتي وفرنسا ، هذا فضلاً عن

حرص الملك عبدالعزيز الشديد على أن يكون لبريطانيا تمثيل قوي في بلاده ، فقد استفاد كثيراً من التناقضات بينها وبين منافساتها في شبه الجزيرة العربية ، وساعده على ذلك مهاراته الخاصة في استثمار الظروف المحيطة به جيداً .

ولم يكن سير أندرو ريان شخصاً سهلاً ، بل كان متعجرفاً في كثير من الأحيان ، اصطدم بالملك عبدالعزيز في أكثر من مناسبة ، وأساء إلى العلاقات البريطانية - السعودية أكثر مما أفادها ، ويلاحظ المتتبع لتطور العلاقات بين البلدين ، أن إقامة التمثيل الدبلوماسي لم يخدم هذه العلاقات ، وإن أفاد أسلوب الاتصال ويسره .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لإقامة تمثيل دبلوماسي بين البلدين ، في عام ١٩٣٠ دلالات الهيبة والاحترام في الأوساط الدولية .

الحواشي

(١) أنظر : جمال محمود حجر ، «المد والجزر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية ، ١ - ملامح التغير في العلاقات البريطانية - السعودية ، ١٩١٠ - ١٩١٥» ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر ، العدد ١ (١٩٨٩) .

(٢) أنظر : جمال محمود حجر ، «المد والجزر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية ، ٢ - بريطانيا بين الشريف حسين وعبدالعزيز آل سعود ، ١٩١٥ - ١٩٢٠» (مقبول للنشر) في : مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر .

(٣) أنظر : جمال محمود حجر ، «مشروع جوبر لإعادة تنظيم الإدارة البريطانية في الشرق الأوسط عام ١٩٢٠» ، في كتاب المؤلف : القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين ، (الأسكندرية : دارالمعرفة الجامعية ، ١٩٨٩) ، ص ١٥٩ - ١٨٩ .

(٤) فؤاد حمزة من أصل سوري تعلم في كلية البعثة التبشيرية في بيروت ولديه معرفة جيدة باللغة الإنجليزية فضلاً عن العربية ، اتهم بالتآمر على الإدارة البريطانية في فلسطين عام ١٩٢١ ، وهرب منها إلى مصر . وفي عام ١٩٢٦ دعاه الملك عبدالعزيز - بناء على توجيه من الشيخ يوسف ياسين القائم بإدارة الشئون الخارجية وقتئذ - للعمل في خدمة حكومة الحجاز - نجد . ساهم منذئذ في كل المفاوضات التي جرت بين بريطانيا والملك عبدالعزيز . وفي عام ١٩٢٩ تحمل مسئولية إدارة الشئون الخارجية ، ولم تحل الشكوك السياسية التي دارت حوله في الماضي من جهة بريطانيا دون التعاون معه .

ويعتبر من أنجح العناصر التي أدارت الشئون الخارجية للملك عبدالعزيز آل سعود ، أنظر :

Ryan to Warner, 15 July, 1930; High Comm. (Palestine) to C. O., 4 Sept. 1930, E5169/4191/91, F.O. 371/ 14482.

(٥) يعتبر بيرد Stonehewer - Bird من العارفين بشئون منطقة البحر المتوسط ، فهو ينتمي إلى مدرسة الليفانت الدبلوماسية ، وخدم في بوخارست وبلجراد في الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٢٣ ، ثم نقل إلى الرباط قائماً بأعمال القنصل هناك ، وفي عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ شغل منصب القنصل العام ، وظل كذلك إلى أن نقل إلى جده في أبريل ١٩٢٧ ، حيث عمل وكيلاً سياسياً وقنصلاً حتى عام ١٩٣٠ ، حين نقل إلى الدار البيضاء . أنظر :

The Foreign Office List.

6. Jeddah Report, Dec. 1928, E489/94/91;
Jeddah Report, Jan. 1929, E1028/94/91, F.O. 371/13728

7. The Foreign Office List.

8. Minute by Rendel, 14 May 1928, E2271/317/91, F.O. 371/13008.

(٩) شغل جاكينز H. G. Jakins منصب قائم بأعمال الوكيل والقنصل في جدة في فترات ثلاث متقطعة من سبتمبر إلى نوفمبر ١٩٢٧ ، ومن أكتوبر إلى ديسمبر ١٩٢٨ ، ومن مارس إلى مايو ١٩٢٩ .

(١٠) ينتمي بوند W. L. Bond إلى مدرسة الليفانت الدبلوماسية ، عمل نائباً للقنصل البريطاني في كريت ١٩١٨ - ١٩١٩ ، ثم نائباً للقنصل في استانبول في العام التالي ، ثم نائباً للقنصل كذلك في المغرب ١٩٢١ -

١٩٢٣ ، ثم في طنجة ١٩٢٣ - ١٩٢٥ ، ثم رقي إلى درجة القنصل ، فالقنصل العام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ . وحين نقل إلى جده في ١٣ يونية ١٩٢٩ ، عين قائماً بأعمال الوكيل السياسي والقنصل . ولكنه صار في ديسمبر ١٩٢٩ أول قائم بالأعمال لبريطانيا إلى أن تم تعيين الوزير البريطاني في جدة . أنظر : The Foreign Office List.

11. Memo. by G. Rendel, 7 May 1929, "Appointment of Mr. Bond and Credentials for H.M. Agent at Jeddah", E2404/821/91, F.O. 371/13734.

12. "Address delivered to Ibn Saud by Mr. Bond on 16 June 1929", Bond to Hederson, A., 19 June 1929, E3456/821/91, F.O. 371/13734.

13. Memo. by Rendel, 12 Dec. 1929, "Proposed raising of Status of H. M. Agency at Jeddah to that of a Legation", E6497/821/91, F.O. 371/13734.

14. Bond to F.O., 19 June 1929; Fuad Hamza to Bond, 18 June 1929, E3459/821/91, F.O. 371/13734; Hafiz Wahba to F.O., 24 June 1929, E3252/821/91. F.O. 371/13734.

15. Exract from Eastern Mediterranean Special Intelligence Bureau, Black List relating to Sheikh Hafiz Wahba, War Office to Foreign Office, 6 Oct. 1930, E5402/151/91, F.O. 371/14464; F.O. Memo. by C.F. Warner, 28 Aug. 1930, E4713/433/91, F.O. 371/14468.

(١٦) عمل أوليفانت L. Oliphant كاتباً في وزارة الخارجية اعتباراً من عام ١٩٠٣ ، ثم رقي إلى وظيفة القائم بأعمال السكرتير الثالث في السلك الدبلوماسي عام ١٩٠٥ . ثم عمل في استانبول وطهران في الفترة من ١٩٠٦ - ١٩١١ ، وفي عام ١٩٢٠ عمل مستشاراً بوزارة الخارجية . وفي عام ١٩٢٨ عمل مساعداً لوكيل وزارة الخارجية ، وقد ساهم في صنع أحداث هذا البحث عندما كان يشغل الوظيفة الأخيرة ، أنظر :

The Foreign Office List.

17. Minute by Oliphant, 27 June 1929, E3252/821/91, F.O. 371/13734.

18. E3459/821/91, F.O. 371/13734.

19. Philby to Hamza, 12 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 4).

20. Minute by Opliphant, 27 June 1929, op. cit.

21. Ibid.

22. Ibid.;

وأنظر تطور هذه الأفكار في المذكرة التالية التي أعدتها وزارة الخارجية البريطانية :

- Memo. by F.O. "Propsed establishment of full diplomatic relations between Ibn Saud and Great Britain", 13 Nov. 1929, E5909/821/91, F.O. 371/13734.

من المفهوم أن كلًا من هندرسون وأوليفانت وراندل قد شارك في إعداد هذه المذكرة .

- Documents on British Foreign Policy, (D.B.F.P.) No. 485. pp. 817-818, Vol. VI.

23. F.O. to C.O., 9 July 1929, E3252/821/91, F.O.371/13734.

24. Minute by Oliphant, 27 June 1929, op. cit.

25. I.O. to F.O., 19 July 1929, E3643/821/91, F.O. 371/13734.

26. Minute by F.O., 1 Aug. 1929, E3857/821/91, F.O. 371/13734.

(٢٧) من بين القضـايا التي أهملت الحكومة البريطانية أن ترد فيها على الملك عبدالعزيز ، ذكر فؤاد حمزة هذه المواقف :

(أ) في يونية ١٩٢٩ طلب حمزة رسمياً ونيابـة عن الملك رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي في جدة إلى مستوى المفوضية ولم يتلق رداً حتى نوفمبر ١٩٢٩ .

(ب) في مايو ١٩٢٩ عقد مؤتمر مشترك لمناقشة قضايا الخليج ولم تفعل بريطانيا شيئاً .

(جـ) في يناير ١٩٢٩ لم ترد إنجلترا على طلب الملك عبدالعزيز بشأن عقد معاهدة تجارية بين بريطانيا والحجاز - نجد .

28. Philby to Dalton, 7 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 1).

29. Ibid.

30. Ibid.

31. Philby to Hamza, 12 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 4).

32. Ibid.

33. Memo. by Rendel, 12 Dec. 1929, E6497/821/91, F.O. 371/13734.

34. F.O. Memo. 16 Sept. 1929, E4451/2137/91, F.O. 371/13736.

35. Note by Rendel, 13 Dec. 1929; F.O. to Bond, 17 Dec. 1929, E6349/821/91; Henderson to Bond, 20 Dec. 1929, E6626/821/91, F.O. 371/13734.

36. K16647/2735/216/1925, F.O. 371/13008.

37. Minute by Rendel, 14 May 1928, E2271/317/91, F.O. 371/13008.

38. The Foreign Office List.

39. Bond to Hamza, 18 Jan. 1930, E874/334/91; F.O. Minute, 3 Feb. 1930, E595/334/91, F.O. 371/4468.

40. Faisal to Bond, 27 Jan. 1930, E874/334/91; F.O. 371/4468.

41. Philby to Dalton, 17 Jan. 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1)

42. Ibid.

43. Philby to Dalton, 14 April 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1)

44. Philby to Dalton, 14 April 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1).

تختلف هذه الرسالة في مضمونها عن سابقتها بالرغم من أنها تحمل نفس الرقم ونفس التاريخ ، ولذلك أشرنا إليها بكامل تفاصيلها دون اختصار .

45. Ryan to Henderson, 9 May 1930, E2695/334/91, F.O. 371/14468.

46. Ibid.

(٤٧) لم يكن للملك عبدالعزيز حتى ذلك الوقت بيت مناسب في جدة ، وكان ينزل ضيفاً على الأعيان لدى وصوله إليها . وقد حصل على هذا القصر الأخضر من أحد موظفي الجمارك ، الذي يقال أنه جمع مالاً وفيراً من وظيفته .

48. Ryan to Henderson, 18 May 1930, E3039/334/91, F.O. 371/14468.

49. Ibid.

50. Ibid.

51. Ibid.

52. Lord Llyod to F.O., 26 April, 1929; Memo. By Rendel, 2 May 1929, E2137/2137/91, F.O. 371/13735.

53. Memo. By Rendel, 6 July 1929, E3490/2137/91, F.O. 371/13736.

54. The Daily Telegraph, 3 Sept. 1929.

55. Extract from Eastern Mediterranean Special Intelligence Bureau, Black List Relating to Shaikh Hafiz Wahba, War Office to F.O., 6 Oct. 1930, E5402/151/91, F.O. 371/14464; E4713/334/91, F.O. 371/14468.

56. Bond to F.O., 28 Jan. 1930; F.O. to Bond, 4 Feb. 1930, E523/334/91, F.O. 371/14468.

57. Jeddah Report, Feb. 1930, E 1955/92/91, F.O. 371/14460.

58. F.O. to Sir P. Loraine (Cairo), 2 July 1930, E3494/334/91, F.O. 371/14468.

59. Ryan to Henderson, 1 July 1930; Ryan to Henderson, 28 July 1930, E4049/334/91, F.O. 371/14468.

60. F.O. Memo. 28 Aug. 1930, E4713/334/91; Loraine (Cairo) to F.O. 5 Aug. 1930, E4184/334/91, F.O. 371/14468.

61. Ryan to Henderson, 22 July 1930, E4309/4309/91, F.O. 371/14483.

(٦٢) كان أعضاء البعثة الدبلوماسية في المفوضية السعودية بلندن هم : حافظ وهبة - وزير مفوض ، ومحمود أفندي رياض - سكرتير أول ، والدكتور يوسف سلامة - سكرتير ثان . أنظر : فؤاد حمزة ، البلاد العربية السعودية (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٩٣٦) ، ص١٢٢ .

صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر لأحمد لطفي السيد «دراسة وتحليل»

الدكتور أحمد زكريا الشلق
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

- **تعريف بالكاتب .**
- **الخلفية السياسية والاجتماعية .**
- **نظرة تحليلية .**

صاحب هذا الكتاب هو أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذي اشتهر بهذا اللقب بين تلاميذه ومريديه ، باعتباره كان رائداً من رواد المثقفين المصريين منذ مطلع هذا القرن ، وقد عاش لطفي السيد حياة ثرية طويلة ، رأى خلالها تلاميذه وقد انتشروا في قنوات الثقافة والتعليم لأكثر من نصف قرن ، يبشرون بأفكاره ويطورونها بالفكر والممارسة . . وقد ولد لطفي لأب كان عمدة لقريته (برقين بمحافظة الدقهلية) وتلقى تعليمه الأولي الديني في القرية ، وعندما أتم تعليمه النظامي ارتحل إلى القاهرة ليدرس بمدرسة الحقوق الخديوية التي كانت آنئذ مدرسة لتفريخ الخطباء والمحامين والقادة السياسيين وكانت بطبيعة الحال محط أنظار الأعيان المصريين لضمان مستقبل أبنائهم . وانتماء لطفي السيد «لطبقة» الأعيان المصريين ، أمر له دلالة سوف يظهر أثرها في تشكيل وعيه وقناعاته . بل سينعكس على مواقفه وآرائه السياسية على نحو ما سنرى ، فسوف تتحدد حركته فيما بعد من معسكر «صفوة» المصريين وأغنيائهم .

أتم لطفي دراسة الحقوق عام ١٨٩٤ ، وقضى عدة سنوات من عمره في وظائف الحكومة ، بدأها كاتباً في النيابة العمومية ، ثم أصبح سكرتيراً للافوكاتو العمومي ، فمعاوناً للنيابة في بني سويف ، ثم وكيلاً للنيابة عام ١٨٩٦ ، وظل في وظيفته الأخيرة حتى استقال منها عام ١٩٠٥ لخلافه في بعض المسائل القانونية مع النائب العمومي آنذاك . واشتغل لطفي بعد ذلك بالمحاماه بعضاً من عام ١٩٠٦ ، تفرغ بعدها للاشتغال بالصحافة والسياسة .

وسـوف نرى أن دراسـة لطفي الأولية الـدينية ، والتي تركهـا منذ البداية وانخرط في مدارس الحكومة ذات الطابع المدني ، لم تتعمق في داخله أو تتغلغل كثيراً في تكوينه العقلي ، كما أكسبته فيما بعد دراسة القانون ذهنية دقيقة ومتأنية ، صقلتها الدربة والخبرة العملية من خلال سلسلة الوظائف التي انخرط فيها ، وكانت هذه هي الروافد الأولى في تكوينه العقلي ، ثم تلتها روافد أخرى استقاها من تعـرفه على جمال الدين الأفغاني وصداقته لمحمد عبده ، فالتقى بالأول في استـانبـول واستمـع إليه وأعجب به وإن لم يتجاوب بعقليته الهادئة مع حماسة الأفغـاني وثـوريته ، واختلف إلى حلقات دروس محمد عبده وتشرب كثيراً من أفكاره ومبادئه ، ليصبح من صفوة مريديه .

أما الرافد الأكثر أهمية بعد ذلك فقد استقاه لطفي من اطلاعه على كتابات المستشرقين والفلاسفة الأوروبيين ، وعلماء الآثار والحضارة ، فبالإضافة إلى أنه تلقى دروسـاً غير نظامية بجـامعـة جنيف عام ١٨٩٧ ، درس فلسفـة النشوء والارتقاء وأصل الأنواع لداروين - كما ترجمها شبلي شميل عام ١٨٩٨ ، وآمن بأفكـار كونت وستـوارت مل ودوركايم حول التقدم والحرية الفردية ، كما تأثر بأفكار جيرمي بنتام عن مذهب المنفعة ، وبكتابات روسو وأرسطو -وترجـم الأخير فيما بعد- في الفكر السياسي ، ثم بأفكار هربرت سبنسر في التربية . . ولن يخفى على قارئـه مدىَ تأثـره بتلك الثقـافة الأوروبية الواسعة والعميقة ، وكيـف أنها تغلغلت في صميم تفكيره وتشكيل قناعاته السياسية والاجتماعية فأصبح من دعاة

الفكر التحرري (اللبرالي) .

يضاف إلى كل ما سبق أن لطفي تمرس منذ البداية بالكتابة الصحفية في مجال الثقافة والفكر والقانون منذ اكتمل وعيه السياسي ، وقد روى في مذكراته المنشورة تحت عنوان (قصة حياتي)[1] كيف أنه كان يحرر في مجلة «الموسوعات» التي كان يصدرها زميل دراسته محمد فريد ، إلى جانب أنه أنشأ صحيفة أسماها «الشرائع» ليحرر بها طلبة الحقوق كما أنه كان يكتب بشكل غير منتظم في صحيفة «المؤيد» وغيرها من الصحف التي كانت تصدر في مصر قبل عام ١٩٠٧ . وسوف تظهر آثار دراسته وممارساته بشكل واضح في مقالاته وخطبه وأحاديثه التي بين أيدينا ، الأمر الذي سيعطي انطباعاً واضحاً بأن عقيدته الفلسفية لم تعد تمتد بجذورها إلى التربة العربية الإسلامية ، بقدر ما أصبحت تستمد غذاءها من تربة غربية ، مدنية[2] .

وبرغم انقطاع لطفي السيد عن حياة الوظيفة منذ عام ١٩٠٥ ، واشتغاله بتأليف حزب الأمة وتحريره لصحيفته الشهيرة «الجريدة» إلا أنه عاد مرة أخرى عام ١٩١٥ إلى حياة الوظيفة ، بعد أن اعتقد أنه قال «كلمته» خلال هذه السنوات الزاخرة الخصيبة من حياة مصر والمصريين (١٩٠٧ - ١٩١٤) ، تلك السنوات التي حملت خلالها مصر جنين الثورة الكبرى عام ١٩١٩ في أحشائها . عاد لطفي هذه المرة مديراً لدار الكتب المصرية ، وظل بها حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فجذبته الحياة العامة والحركة الوطنية إلى صفوفها من جديد ، فانخرط حيناً في تأليف «الوفد المصري» وفي نشاطاته الأولى ، ثم انصرف عنه عندما انقسم ، وتصدع بناء الحركة الوطنية ليعود بعد ذلك عام ١٩٢٢ فينشغل في تأليف حزب الأحرار الدستوريين وصياغة مبادئه واتجاهه السياسي ويصبح عضواً منتسباً مشاركاً في بعض نشاطات الحزب وفي عام ١٩٢٥ اشتغل لطفي أستاذاً بالجامعة المصرية . وكان قد ساعد على تأسيسها في السنوات الأولى من القرن العشرين ، حين كانت «جامعة أهلية» وعندما أعيد تنظيمها

وتولتها الحكومة عام ١٩٢٥ أصبح لطفي أستاذاً للفلسفة بها ثم صار رئيساً لها .

واستكمالاً للتعريف بمسيرته نشير إلى أنه أصبح وزيراً للمعارف في وزارة محمد محمود الأولى -وزارة القبضة الحديدية- (١٩٢٨ - ١٩٢٩) ، كما شاركه أيضاً وزارتيه الثانية والثالثة (١٩٣٨ - ١٩٣٩) وزيراً للدولة ثم للداخلية ، حتى عاد ثانية مديراً للجامعة المصرية ، وظل بها إلى أن فرغ من أعباء الوظيفة وتكاليفها نهائياً في أوائل الأربعينات .

***

أما عن كتابات لطفي السيد ، فبالرغم من أنه لم ينشر كتاباً «مؤلفاً» طوال حياته الرحيبة ، كما لم يترجم شيئاً وينشره قبل عام ١٩٢٤ ، عندما نشر ترجمته لأرسطو ، إلا أن حياته ذاتها تظل دائماً كتاباً مفتوحاً يستفاد منه للتأريخ لمرحلة من مراحل مصر ، إلى جانب أن أفكاره ومبادئه ظهرت بشكل أكبر من خلال تلاميذه ، كما أن مقالاته الفياضة والغزيرة ، التي سودت افتتاحيات صحيفة «الجريدة» كل صباح ، ولثمان سنوات متصلة (١٩٠٧ - ١٩١٤) تبقى معيناً لا ينضب كتراث له ، عبر من خلاله وشارك في الحركة الوطنية المصرية ، من منطلق حزبي ، وشارك به في تحديث الفكر السياسي والاجتماعي لمصر في مطلع القرن العشرين ، كما بثت مقالاته دوراً تنويرياً ، من خلال وجهة نظر معينة ، في بث الأفكار التحررية (الليبرالية) والديمقراطية وناقشت مذاهب الحكم وفلسفاته ، وانتقدت الاشتراكية ، وحاولت تأصيل الفكر القومي (الإقليمي) ، ومناهج التربية الحديثة ، وأسهمت في قضايا الإصلاح الاجتماعي من منطلق الفلسفة التحررية التي آمن بها ودعا إليها .

ولانشغال لطفي المستمر في الحركة السياسية وكتابة المقالات اليومية وأحاديث وخطب المناسبات والأحداث المتوالية ، من خلال مسئوليته كرئيس تحرير ، ابتعد عن «صناعة التأليف» المتأنية الهادئة ، مما دعا بعضاً من تلاميذه

إلى جمع بعض مقالاته ونشرها في عدة مصنفات هي :

١ - المنتخبات جـ١ ، جـ٢ جمعهما إسماعيل مظهر ونشرا عام ١٩٣٧ ، ١٩٤٥ .

٢ - صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ، من مارس ١٩٠٧ - مارس ١٩٠٩ ، عصر الانقلاب الفكري في السياسة الوطنية ، جمعها إسماعيل مظهر ، ونشرت ١٩٤٦ ، وهي المجموعة التي بين أيدينا .

٣ - تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع ، جمعها إسماعيل مظهر ، ونشرت عام ١٩٤٦ أيضاً .

٤ - قصة حياتي ، وهي ذكريات لطفي السيد التي أملاها على طاهر الطناحي ، الذي رتبها وقدم لها ونشرها عام ١٩٦٢ .

٥ - مبادىء في السياسة والأدب والاجتماع ، وقد جمعها طاهر الطناحي ، ونشرها عام ١٩٦٣ .

أما ترجمات لطفي السيد فهي :

١ - كتاب أرسطو طاليس : علم الأخلاق ، إلى نيقوماخوس ، وقد طبعته دار الكتب المصرية عام ١٩٢٤ .

٢ - كتاب أرسطو طاليس : السياسة ، وقد طبعته دار الكتب المصرية عام ١٩٤٧ وأصدره لطفي السيد بمقدمة مستفيضة عن أرسطو وفكره وعصره ورحلته إلى المعرفة .

وينبغي أن نشير إلى أن هذه المصنفات لم تعتمد خطة معينة أو تصنيفاً موضوعياً محدداً ، وإنما مجرد مختارات دارت حول بعض آرائه في بعض قضايا عصره السياسية والاجتماعية والفلسفية والأدبية ، كما هو واضح من عناوينها ، فهي إذن «منتخبات» من «مبادئه وتأملاته» كما نلاحظ أنها جمعت من صحيفة الجريدة وحدها وفي الفترة من ١٩٠٧ - ١٩١٤ ، باستثناء محاضرة عامة ألقاها عن دور الجامعة في المجتمع نشرت ضمن مجموعة (مبادىء في السياسة . . .)

وهذا يوضح لنا أن إسهام لطفي السيد قد انحصر ، وبشكل مكثف خلال هذه السنوات وحدها وأنه لم يكتب شيئاً بعدها ، بل اكتفى بالانخراط في الحركة الوطنية وفي سلك الإدارة والوزارة ، مما يعني أن لطفي السيد توقف عن الكتابة مبكراً وباستثناء ترجمته لأرسطو - فإنه توقف ولما يبلغ من العمر اثنان وأربعون عاماً وأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من نصف قرن ، لم يكتب خلالها شيئاً تقريباً .
ولعل هذا يجعلنا نتساءل هل كان لطفي السيد صاحب رسالة أو كلمة قالها من خلال صحيفته ثم مضى ، ولم تكن الكتابة «هماً» دائماً بالنسبة له ؟ أم لعله كفر مبكراً بالكتابة السياسية فراح يعمل لخدمة وطنه في مجال التعليم والترجمة ، مكتفياً بدفع تلاميذه في قنوات الكتابة والتعبير ليتقدموا الصفوف بآرائه وأفكاره ، وقد فعل ذلك أيضاً الشيخ مصطفى عبدالرازق والدكتور إبراهيم بيومي مدكور .

- ٢ -

ولهذه المجموعة من المقالات التي بين أيدينا خلفية تاريخية وسياسية ، أدت إليها ، وساعدت هذه المقالات وغيرها ، في إثراء الحركة السياسية والفكرية ، وإحداث ذلك «التحول» الذي ولدته الحركة الوطنية المنبعثة في ليل الاحتلال البريطاني الرهيب . ويقتضينا هذا بطبيعة الحال أن نعود إلى الخلف قليلاً ، حيث الأصول التاريخية التي هيأت المناخ لظهور هذه الكتابات .

لقد شهدت مصر ما بعد الاحتلال البريطاني طوراً جديداً من أطوار حركتها الوطنية ، في ظل جيل جديد ، بدأ وعيه السياسي والوطني ينضج ويكتمل خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، في ظل سياسات الاحتلال ، بينما لا تزال آثار اخفاق الثورة الوطنية (العرابية) ماثلة في الأذهان ، وبرغم ذلك كله كان الشعور الوطني يتحرك متأججاً تحت رماد اليأس والإخفاق ، فكانت الجمعيات السرية والعلنية والمنتديات والصحف (جماعة لطيف سليم ، وصالون نازلي

فاضل ، وصحيفة المؤيد) هي خمائر الحركة الوطنية الجديدة ، تجتذب طلائع هذا الجيل ، ومن خلالها تبرز أسماء سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفي السيد وقاسم أمين. . . وغيرهم . وكان أمراً طبيعياً أن ينبذ رواد الحركة أسلوب الثورة ، وتزداد الحركة قوة بتأييد الخديوي الشاب الطموح عباس حلمي فيعضدهم بالمال والتأييد لإصدار صحف جديدة وتأليف جميعات سرية لتحرير البلاد ، كما استعان بالنابهين منهم في وظائف الإدارة وأرسل بعضهم إلى أوروبا للدعاية للقضية الوطنية . ولم يكن اللورد كرومر - الحاكم الفعلي لمصر والمعتمد البريطاني - غافلاً عن الطموح الوطني للخديوي الشاب . فتحداه وأثار معه عدة أزمات ، استناداً إلى قوة الاحتلال كادت أن تفقده عرشه .

وكانت هذه الحركة تعتقد أن حل القضية الوطنية وتحرير مصر في يد أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، ولعل هذا كان وراء اتصال الخديوي بمصطفى كامل وطلبه إليه أن ينشيء مع لطفي السيد وعبدالعزيز فهمي جمعية سياسية هدفها تحرير مصر ، كما قرر إيفاد لطفي السيد إلى سويسرا ليحصل على جنسيتها ، ثم يقوم بتحرير صحيفة ، تحميها الامتيازات الأجنبية ، ولكن تركيا ، صاحبة السيادة على مصر لم توافق على ذلك . بينما كانت الحركة الوطنية لا تزال تأمل في تركيا خيراً .

وقد أبعدت العلاقات الاستعمارية فرنسا عن الاهتمام بالمسألة المصرية ثم جاء الوفاق الودي بينها وبين إنجلترا عام ١٩٠٤ صفقة استعمارية بين البلدين ، ليقطع أمل الوطنيين المصريين في مساعدة فرنسا لهم ، كما فقدوا إحساسهم بأهمية ودور الدولة صاحبة السيادة عليهم ، التي استبان عجزها ، تواكب ذلك كله مع يأس الخديوي واستسلامه ثم تقربه من الإنجليز .

أثرت هذه التطورات في الحركة الوطنية الوليدة تأثيراً خطيراً وبدأت تنشأ بينها الخلافات ، وتتصدع عوامل تجمعها وترابطها ، وانفسح المجال لبروز أكثر من

اتجـاه ، وخلال هذه الفترة ابتعد مصطفى كامل عن صحيفة المؤيد ، والتقى لطفي السيد بالشيخ محمـد عبده وتأثر بأفكاره الاصلاحية ، وبعدائه للخديو والأتراك ، وتيقن أن مصر لن تستقل إلا بجهود أبنائها ، وأنه لا أمل في فرنسا أو تركيا ، وكتب بذلك للخديو وذكر له أن المصلحة الوطنية تقتضي أن يرأس الخديو حركة شاملة للتعلمي العام[٣] .

وبدأت تبرز إلى الحياة العامة جماعة محمد عبده ، والتي كانت تضم صفوة تلاميذه ، ممن اشتغلوا معه في تحرير «الوقائع» وتعرفوا على اللورد كرومر وقادة الإنجليز في الصالـونات ، واشتغلوا في مناصب الإدارة وغيرها . وكانت هذه الجماعـة تتلقى أفكـار الشيخ محمـد عبـده ومبـادئه . وتتأثر بمواقفه وعلاقاته السياسية ، وقد برزت من بينها أسماء سعد زغلول وأخيه فتحي ، ولطفي السيد وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوي وطلعت حرب وحسن عبدالرازق . وتأثروا بأفكار الإمـام الإصلاحية ، ونبذوا أسلوب التحريض والثورة وأيدوا قناعاته بضرورة تهيئة البلاد بأدوات الاستقلال أولاً ، وعلى رأسها التربية والتعليم ، قبل المطالبة بالاستقلال ذاته ، الذي سيجيء بعد حين .

والأهم من ذلك كله أنهم لم يروا بأساً من التعاون مع سلطات الاحتلال في الإدارة وإقرار النظام ، على أن يتولى الإنجليز الوظائف الفنية والعسكرية . كما تأثرت هذه الجماعة بعداء اللورد كرومر للخديو ومن ثم اقتنعوا بضرورة تجريده من كل سلطة حقيقية . وكان أمامهم على خلاف مستمر مع الخديو ، بلغ مداه عام ١٩٠٤ حين استقال الشيخ محمد عبده من الأزهر ، ثم توفى بعد ذلك بعام .

وورث أنصار الشيخ محمد عبده هذه الأفكار والمواقف وشكلوا اتجاهاً خاصاً في السياسـة المصرية ، فأشاد بهم اللورد كرومر في تقاريره الأخيرة . وبالذات باتجاهاتهم «الإصلاحية والمعتدلة» ذكر أنهم أحرى بتسميتهم بالحزب الوطني من

جماعة المتطرفين دعاة الجامعة الإسلامية ، أنصار مصطفى كامل ومحمد فريد . ورأى اللورد كرومر أن أنصار المفتي الراحل الشيخ محمد عبده هم أمل القومية المصرية ، ومعقد الرجاء في التعاون مع الأوروبيين لإصلاح البلاد ، وأنهم «جيروند» الحركة الوطنية ودعا إلى تأييدهم وتشجيعهم بكل قوة .

وشهدت البلاد خلال العامين التاليين لعام ١٩٠٥ موجات من الاضطرابات والاعتصابات منددة بسياسة الاحتلال ومظالمه ، ومطالبة الخديو بالدستور وانضمت بفضل هذه النشاطات قطاعات جديدة للحركة الوطنية ، من الحرفيين والمحامين والطلاب وغيرهم . وكان على الأعيان ممن يعتبرون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد أن يبحثوا في هذا الخضم - عن صيغة جديدة يدافعون بها عن مصالحهم من خلال الاشتغال بالسياسة من منطق خاص ، يتصل بواقعهم الاجتماعي وبعلاقاتهم السياسية .

ثم وقعت حادثة طابا عام ١٩٠٦ حين أراد السلطان العثماني اقتطاعها من حدود مصر الشرقية ، وتحدته بريطانيا ولعبت دور المدافع عن مصالح مصر وحدودها ، بينما وقف قطاع من الحركة الوطنية في صف السلطان مستنكراً تدخل بريطانيا ، وكان على رأس هذا القطاع مصطفى كامل ومحمد فريد ، في حين وقف فريق آخر من أبناء الأعيان من جماعة محمد عبده وقفوا في الاتجاه المقابل مدافعين عن ممتلكات مصر ، فبدوا في معسكر الإنجليز . وجاءت حادثة دنشواي ، التي اتخذها مصطفى كامل وأنصاره ذريعة لفضح بربرية الإنجليز ووحشيتهم أمام الرأي العام ، بينما وقف نفر من شيعة محمد عبده يعاونون سلطات الاحتلال عند محاكمتها للفلاحين المصريين المحاكمة الجائرة الشهيرة . وفي خضم ذلك كله عانت البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة (١٩٠٦ - ١٩٠٧) مع موجات العنف والتطرف . فأضيفت بهذه العوامل أسباباً جديدة لفريق من الأعيان المثقفين المصريين لكي يؤلفوا حزباً سياسياً ، وبالفعل كان عام ١٩٠٧ هو عام مولد الأحزاب السياسية ، فظهر حزب الأمة ، ثم أعلن الحزب الوطني

عن تأليفـه وبـرنامجه ، وأعقبها حزب السلطة الخديوية (حزب الاصلاح على المباديء الدستورية) .

وكان على سلطات الاحتلال أن تواجه ما أسمته بموجات العنف والتعصب من قبـل الشبـاب المتـطرف ، ودعـاة الجـامعة الإسلامية . وذلك بالاستعانة بالعناصر المعتدلة من الأعيان ، ومن يعايشهم من المثقفين وإبرازهم ليلعبوا دوراً في السياسـة من خلال موقفهم «المعتـدل والإصـلاحي» وتـدعيمهم لإصـدار صحيفة تنطق بلسانهم ، فتهيأت الفرصة لأنصار محمد عبده ، في ظروف تاريخية ملائمـة ، لإصـدار صحيفـة «الجـريدة» لطرح أفكارهم واتجاهاتهم السياسية ولكسب قطاعات من الحركة الوطنية إلى صفوفهم ومذهبهم في السياسة الوطنية .

وكان لطفي السيد أبرز مثقفي هذا التيار . ولسان حاله والمعبر عنه ووالت الجماعة اجتماعاتها في أواسط عام ١٩٠٦ لوضع قانون الجريدة ، بتشجيع من اللورد كرومر[٤] ، وقد نسب لطفي السيد فكرة إصدار الجريدة إلى نفسه وذكر أنه تحدث بها إلى صديقه محمد محمود باشا ابان حادثة طابا ، ولكن التطورات التي أدت إلى إصدار الجريدة أكدت أن الفكرة جالت بأفكار الكثيرين من أصدقائه السياسيين من تلاميذ الإمام ، وإنه إنما ساعد على إبرازها وإخراجها إلى حيز التنفيذ وتأسست بالفعل شركتها واختير لطفي السيد مديراً لتحريرها[٥] ، وصدر العدد الأول منها في ٩ مارس ١٩٠٧ . وفي ٢١ سبتمبر من نفس العام تحولت شركـة الجريدة أو جمعيتها العمومية إلى جمعية عمومية لحزب سياسي هو حزب الأمة ، الذي ترأسه محمود باشا سليمان ، وذلك بعد أن اعتقدت جماعة الجريدة أنها هيأت الرأي العام من خلال الجريدة ، لقبول اتجاهها السياسي والحزبي الجديد .

وأعلن حزب الأمة مبادئه ، التي يمكن تلخيصها في عبارةواحدة هي إعداد الأمة بالكفاءات العلمية والاقتصادية ، ومشاركة الحكومة بعض اختصاصاتها .

وتوسيع اختصاصات الهيئات التمثيلية القائمة . وطبيعي أن هذه هي من وجهة نظر الحزب ، مقدمات الاستقلال ، الذي لم ينص عليه البرنامج ، لأنه سيجيء بعد ذلك ، وقد رفع الحزب منذ البداية شعار «الاعتدال» في مطالبه ، كما تبنى أسلوب «التدرج» على ما يظهر في برنامجه ، من منطق أن الظروف التي تمر بها البلاد لا تسمح بغير ذلك ، واعتبروا أنفسهم بذلك واقعيين وعمليين يشتغلون في حدود الممكن .

- ٣ -

وكتاب صفحات مطوية بالرغم من كونه مجرد مقالات مجموعة من افتتاحيات لطفي السيد اليومية لصحيفة «الجريدة» ومن ثم تبدو لأول وهلة أنها ليست موضوعاًمدروساً لكتاب . ولكونها نشرت «حسب المناسبة» فهي لا تتسم بصفة الدراسةالمتأنية ، التي تصل بموضوعها إلى غاية محددة وتقدم وجهة نظر جديدة ، بالرغم من ذلك كله فان عقلية لطفي السيد ذاتها ، الدقيقة المتأنية ، تصدر في آرائها عن قناعات ومباديء واضحة . ويؤيد ما ذهبنا إليه أن المقالات جميعها ، على اختلاف تواريخ نشرها وعدم ترتيبها ، ورغم محاولة التصنيف الشكلية لها قام بها الأستاذ إسماعيل مظهر ، فهي تتناول آراء لطفي السيد السياسية حول عدد معين من الموضوعات تتمثل فيما يلي :

- موقفه من الجامعة الإسلامية ، والاطار السياسي لها الممثل في دولة الخلافة العثمانية وسيادتها على مصر .
- موقفه من الخديو ، صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، ومفهومه لحدود سلطاته وممارساته .
- نظريته في استقلال مصر والجلاء البريطاني عنها ، أو مذهبه بشكل عام في حل القضية الوطنية .
- رأيه في المسألة الدستورية والحكم النيابي .

- وظيفة الحكومة وصلاحيات السلطة التنفيذية .
- قضية التربية والتعليم .

بالنسبة لموقفه من الجامعة الإسلامية ، فيتضح من ملاحظاتنا أنه كان من دعاة القومية المصرية أو الجامعة المصرية ، في مقابل أو كبديل «للجامعة الإسلامية» وان ذلك انعكس بطبيعة الحال على موقفه من السيادة العثمانية على مصر ، وكم من مرة تعجب من أولئك الذين يعلقون آمالهم في استقلال مصر على تركيا ، فكتب بسخرية «. . إننا بقينا ننتظر نتائج ما يعمله لنا الأتراك فلم ننل من وراء ذلك شيئاً . . »(٦) . وقد هاجم لطفي السيد فكرة قيام وحدة على أساس الدين «واتخاذ وحدة الاعتقاد في القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية ، التي يجب أن تبنى على المنافع ، لا على المعتقدات . فهل من يقول بأن مسلماً مصرياً يفضل منفعة تركيا على منفعة مصر ، أي على منفعته هو ؟»(٧) .

وقد نفى لطفي السيد وجود كلمة جامعة إسلامية (بانيسلا مزم) في اللغة ، وأفاد أن ذلك من ابتداع السياسة التي تخلق ما تشاء «أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجوداً حقيقياً أو إنها مقصد من المقاصد التي يسعى إليها المسلمون ، فهذا لا دليل عليه مطلقاً ، كما أنه لو حوول ايجادها لاستحال ذلك على طلابه . وان أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم أيام خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . . »(٨) .

ثم يحدد علاقة مصر بتركيا بما حددته الفرمانات التي وسعت من استقلال مصر ، التي جعلت لتركيا عليها السيادة في المسائل الخارجية وحدها ، «وأن المصريين إذا سعوا لأكثر من هذا ، كانوا كمن يعرض عن الاستقلال» ولذلك عارض بشدة الفكرة التي روجتها بعض دوائر الحزب الوطني عندما قامت الثورة الدستورية في تركيا ، وهي أن يكون لمصر نواب في البرلمان التركي (مجلس المبعوثان) ، وذكر لطفي السيد أن ذلك يضيع على مصر استقلالها وسيادتها

الداخلية ، وأنه لا ينطبق على مركز مصر الدولي ولا يتفق ومصلحة المصريين لأن «الحكومة التركية الحرة تعتبر مصرفاً رأساً ، فهل نعتبرها نحن ذنباً ؟ هل يجوز لنا أن نسلب مصر حقها ، فنجعلها خاضعة لمجلس المبعوثان ، في حين أن الدولة العلية ذاتها تحترم استقلالنا ، ولا تطالبنا بشيء من ذلك ؟»[٩] .

وهكذا اعتبر لطفي السيد الجامعة الإسلامية وهماً وخيالاً مثيراً للسخرية وكان جريئاً بدرجة خطيرة ، في مواجهة التعاطف الفطري السائد ، مع دولة الخلافة ودعوتها إلى الجامعة الإسلامية . وسوف يكرس لطفي السيد بعد عام ١٩٠٩ مقالات عديدة ليطرح فيها أفكاره عن القومية المصرية أو الجامعة المصرية ، متمثلاً المنفعة وحدها كأساس للرابطة القومية «فعلى المنفعة تبنى الأوطان» حيث لا مكان للعاطفة الدينية ، وقد اعتبر ذلك تطويراً لأفكاره في هذا المجال وهو أمر أثار جدلاً واعتراضاً شديدين .

أما بالنسبة لموقفه من صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، الخديو عباس حلمي ، فربما كان لطفي هو أول من استخدم تعبيرالسلطة الشرعية (الخديو) والسلطة الفعلية (الاحتلال) ليؤكد فكرة أن سلطة الخديو مجرد سلطة شرعية إسمية . ويمكننا أن نفسر موقف لطفي السيد العدائي من هذه السلطة باعتباره نابعاً من موقعه الاجتماعي ، كابن لطبقة الأعيان المصرية الذين يعتبرون أنفسهم كبراء الأمة ورؤساؤها والذين رفعوا شعار «سلطة الأمة» في مواجهة السلطة الخديوية كما ينبع هذا الموقف أيضاً من موقف جماعة محمد عبده ككل ، المعادي للخديو . بالإضافة إلى أن قراءات لطفي السيد في الفكر السياسي وخاصة ما يتعلق بسلطات الحاكم وحدودها وممارساتها ، جعلته يقف موقفاً واعياً من هذه السلطة . وقد كتب «ان الحقوق التي يكسبها الملك أو الأمير إنما يكسبها لقومه ، لا لنفسه ، لأنه أما وكيل ، أو فضولي أصبح بالإجازة في حكم الوكيل ، وليس له إلا حق الملك أي حق التاج فقط»[١١] .

وقد نادى لطفي السيد بجرأة شديدة بمحاسبة الحاكم ، إذا لم يكن دستورياً «فليس لأحد أن يقول أن الملوك والحكام هم فوق المسئولية لأن الذي يريد أن يكون منهم فوق المسئولية ، يجب أن يعطي قومه دستوراً ويكف هو عن العمل بالذات ، والدستور كفيل ببيان مسئولية كل عامل فيه . . »[١٢] وأكثر من هذا لا يتورع لطفي السيد عن غمز السلطة الخديوية ومهاجمتها بشكل غير مباشر ، حين هاجم «الحكـومـة الشخصية» على اعتبـار أنها منحصرة في شخص الخـديو ووزرائـه» . وليس للأمة في أمرها لا باليمين ولا بالشمال ، وأن لهذه الحكومة الشخصية محركاً أو مشرفاً هو سلطة الاحتلال الإنجليزي . . »[١٣] .

ويضيف أن المصريين يحبـون أمـيرهم ويحـترمـونـه ، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون الرضى عن حالتهم السياسية الحاضرة ، إلا إذا أخذ سموه في أسباب إشراك الأمة وإياه في الحكم على صورة تجعل مجموع الأمة حاكماً ومحكوماً ، لا سيداً وعبداً[١٤] . ثم تطالبه بأن يكف يده عن التدخل في شئون الحكم مادامت الأمة لم تحصل على الدستور بعد ، ثم يستحثه على ذلك بقوله «ان المصريين جميعاً متفقون بأن مقاصد أميرهم أن يوافقهم على جعل الخديوية المطلقة ، خديوية مقيدة بإرادة الأمـة»[١٥] وهكـذا يبدو موقف لطفي السيد من صاحب السلطة الشرعية واضحاً منذ البداية أو يكتفي بأن يملك ولا يحكم ، كما أنه لم يمالئه أو يهادنه ، إلا فيما اقتضته الكياسة أو حركات السياسة ، وظل مدافعاً عن حقوق الأمة وسلطتها التي ستؤول إلى كبرائها وأعيانها من وجهة نظره .

أما قضية الوجود الاحتلالي واستقلال مصر فقد نالت اهتماماً واضحاً من لطفي السيد ولكن من منطلق جماعته واتجاهها الحزبي . ويستند هذا المنطلق على أصول منها علاقة هذه الجماعة الطيبة مع المعتمد البريطاني اللورد كرومر ، ومنها

إقـرارهم بسياسـة الأمـر الواقع واعتبار الاحتلال نازلة من السماء لا يملك لها المصريون دفعاً «ومن ثم التصرف في ضوء هذا الاعتبار ، مع ما يجره هذا من «الثقة» في وعود ساسة الاحتلال ، ثم «التعاون» معهم على أمل تحقيق استقلال مصر . وفي هذا الصدد يذكر لطفي السيد أن سياستنا مع الإنجليز لا تخلو من أحد وصفين أما سياسة معاندة وعداء ، أو سياسة مسالمة ، لا استسلام ، وقد علم العقلاء وجربوا سياسة المعاندة بضع عشرة سنة جرت بنا إلى هذا الحال . . ولا شك أنها سياسة عقيمة . فلم يبق سوى سياسة المسالمة والمحاسنة ، المقرونة بالمحاسبة ، وأول مظاهرها المجاملة . . » ولذلك وصف المحتفلين باللورد كرومر عند رحيله بأنهم «عقلاء الأمة» ، ثم حاول تقييم سياسته ، فاعترف بفوائدها الاقتصادية والمالية حتى لقد وصفه بأنه «أعظم الاقتصاديين» بالرغم من اعترافه بأنه «حرم مصر حياة سياسية تطمح إليها كل أمة حية . . ان جناب اللورد كرومر ينظر في كل أمر إلى مصلحة دولته قبل كل شيء . . »[١٦] . وهو تقييم فيه تخبط واضح .

وقد حاول لطفي السيد أن يؤلف كتاباً يرد به على كتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» الذي كال فيها للمصريين الاتهامات بالتعصب والعمى ونكران الجميل للاحتلال ، وأنشأ لطفي لذلك مقالاً تمهيدياً . منتوياً أن يسمى كتابه «الإنجليز في مصر» يترجمه للإنجليزية بعد أن يتمه ، لتوزيعه في أوروبا . ولكنه نكص عن ذلك ، مضيعاً بذلك فرصة ثمينة كان بوسعه خلالها فضح السياسة الاستعمارية لانجلترا في مصر .

وعندما جاء جورست خليفة كرومر ، بسياسة الوفاق مع صاحب السلطة الشرعية ، التي أضرت كثيراً بكل قطاعات الحركة الوطنية انتقد لطفي السيد هذه السياسة في مقالات عديدة ، وذكر انها أدت إلى فتور عام في فكرة الاستقلال وتراخ في مفاصل الوطنية ، كما زادت من حقوق الخديوي الشخصية المقدسة . وأضاف ان سياسة الوفاق قد جردت الأمة من سلطتها ، والحكومة من مهابتها ،

فامن المصريون أن الإنجليز طامعون لا مصلحون . .[١٧] .

هكذا آمن لطفي السيد في النهاية وأيقن أخيراً أن سلطات الاحتلال -كما ذكر- إذا كانت مسئولة تمسك بيدها كل السلطات وتتدخل في كل الأمور ، فإن ذلك سيقف في حد ذاته عقبة كؤودا في سبيل حرية العمل ، التي لا يمكن بدونها تمرين المصري على الحكم وتعويده على الاستقلال ، ثم استنتج من ذلك أن تأهيل الإنجليز للمصريين وتدريبهم لهم على الحكم الذاتي ، مع تدخل الإنجليز بشكل تام في الإدارة ، أمران لا يجتمعان .

وعلى ذلك أدرك لطفي السيد كذب دعوى «الإصلاح» التي ضلل بها الإنجليز حزبه ، كما أيقن كذب دعواهم بأنهم إنما جاءوا ليدربوا المصريين على حكم أنفسهم ، وبالتالي اكتشف فشل هذه السياسة «العملية» التي اعتقدت بصدق نوايا الإنجليز ودعواهم بالإصلاح ، وهي السياسة التي اعتنقها حزبه ودافع عنها منذ البداية .

لقد حظيت المسألة الدستورية والحكم النيابي باهتمام واسع من كل قطاعات الحركة الوطنية ، ولكنها من زاوية حزب الأمة لم تكن مطلباً راديكالياً ملحاً ، وإنما يتطلب الوصول إلى دستور كامل ومجلس نيابي تام السلطات ، تدريب المصريين على ذلك ، تدريجياً بتوسيع اختصاصات الهيئات التمثيلية أو شبه النيابية القائمة (مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ومجالس المديريات) أو كما قال لطفي السيد «ليكن طلبنا لأهونها على أولى الأمر ، وأقربها لارتياح نزلائنا الأوروبيين وهو توسيع اختصاصات الهيئات النيابية الحاضرة توسيعاً جوهرياً لنصل إلى المجلس المنشود» ، ثم يطور لطفي أفكاره أحياناً فيقترح مجلساً للتشريع ، لا يتعدى أثره إلى غير المصريين «نطلب سلطة الأمة على الأفراد ، نطلب أن نحكم أنفسنا ، لا أن نحكم غيرنا ، فهل نحن ظالمون ؟ إن الحكومة النيابية هي الحكومة الوحيدة اللازمة لترقية الأمة»[١٨] ولا يخفى بطبيعة الحال

مفهـومـه لسلطة الأمـة ، ممثلة في صفوتها التي سوف تمارس الحكم من خلال المجلس الذي اقترحه .

وكان لطفي السيد من المؤمنين بالدستور . وطالما امتلأت مقالاته بالمطالبة به «لأنـه هو الذي يحمي صفات الحرية والاستقلال وينميها ولا يجعل بعد ذلك للاستبداد عليها سبيلاً ، الدستور يخلق حق مراقبة الأمة على حكومتها ، لأن هذا الحق طبيعي صرف موجود في طبائع الأمم وفي طبائع الحكومات ، ولكن الـدستور يقر هذا الحق ، ويجعل الحكومة تعترف به اعترافاً صريحاً»[١٩] . وفي مناسبة أخرى يهاجم القانون النظامي المعمول به ويصفه بأنه «شبه دستور أو رائحة دستور ، وهو محض هبة قابلة قانوناً للرجوع فيها ، وأنه يجوز قانوناً العدول عنـه ، لأنـه لم يقيد السلطة التشريعية التي يملكهـا سمـو الخـديو إلا تقييداً واهياً . . »[٢٠] . لكنا نلاحظ أن لطفي السيد لم يطلب لمصر دستوراً كاملاً إلا بعد أن طلبه أعضاء مجلس الشورى وكذلك أعضاء الجمعية العمومية جميعاً .

وقد قدم لطفي السيد للسير جورست المعتمد البريطاني مشروعاً يقترح فيه تعديل القانون النظامي القائم منذ عام ١٨٨٣ ، نص فيه على إبقاء النصاب المـالي للترشيح ، مع إعفاء العلماء والمحامين والأطباء منه ، مما ينقص بطبيعة الحال من معنى النيابة عن الأمة ويقصرها على فئة القادرين والمثقفين ، كما طالب بتوسيع اختصاصات مجالس المديريات ، بزيادة أعضائها وزيادة فاعليتها ، أما بالنسبـة لمجلس شورى القـوانـين فقد طالب بمضاعفة عدده وإبطال التعيين بمعرفة الحكومة . وأن يكون علني الجلسات ، كما يصبح رأيه قطعياً في قوانين المحـاكم الأهلية والـري ولـوائـح الأمن العـام والضرائب واستشارياً فيما عدا ذلك[٢١] . ولكن ذلك كله كان دون المطالب الوطنية ، كما كان يتفق وفلسفة حزبـه المـطالبة بالتدرج . وعندما استجابت الحكومة وقدمت مشروعاً بتوسيع اختصاصات مجالس المديريات أدرك لطفي السيد أن تلك كانت سياسة عقيمة

فذكر «أنه لا يجوز لحكومة تحترم نفسها وتحترم أمتها أن تجود بعد طول الوعود بمثل هذا المشروع التافه . الذي لا يستحق المناقشة فيه . . »[٢٢] وهكذا كانت مطالب لطفي السيد الدستورية متواضعة قياساً إلى مطلب الحركة الوطنية الحاسم بدستور كامل ، وبمجلس نيابي تام السلطات .

وقد حظيت السلطة التنفيذية والوزارة المصرية بقسط وافر من اهتمامات لطفي السيد . وكان دائماً يصفها بأنه «وزارة شخصية» ثم يصف هذا النوع من الحكومات بأنه أحط أنواعها ، لأنها لا تستمر في أمة إلا باستمرار صفات الذل والعبودية في قلوب أفرادها . كما أضاف أن الحكومة الشخصية مستمدة من رغبة المنافقين في بقائها ، والمنتفعين باستبدادها ، ومن غفلة شعور الأمة . وفي تشخيص هام راح لطفي يحدد العناصر التي تستمد منها الحكومة الاستبدادية قوتها : وأولها إكبار الشعب لها ، واحترامه لكل ما يتعلق بها من أشياء ، وثانيها ان إسم الحاكم فيها لا يذكر إلا مقروناً بألفاظ التبجيل والعبودية والنسب الكاذب ، وثالثها أن الجندي فيها يتبختر في الطرقات ويرى كل الأفراد دونه مهما علت أقدارهم ، ماداموا لا يلبسون الكسوة العسكرية ، ورابعاً ترى فيها كل موظف كبير له عباد يستجدونه الخير ، ويستدفعون به السوء[٢٣] .

وفي تحديد صارم يقرر لطفي السيد أن الحكومة وكيلة عنا ، نصبناها للقيام بأعمالنا ، نحن الذين نرزقها بأموالنا وندافع عنها بأولادنا . ثم يحلل ظاهرة كراهية الناس للسلطة ويفسر عداءهم لها ، ومن مظاهر هذا العداء بكاء الأهالي عندما يدعى أحد الأبناء لأداء الخدمة العسكرية واجتهاد الناس في القرى لحجب المتهمين عن أعين السلطات والإحالة بينهم وبين إثبات التهم عليهم ، وقد فسر ذلك كله ليس بجبن الناس أو بتفضيلهم للظلم على العدل ، ولكن بعدم ثقتهم بالحكومة ، واعتقادهم أن التجنيد في مصلحة الحاكم دون المحكومين وأن الحكومة وأعوانها لا يسعون لمصلحة الأمة .

وكان لطفي السيد يستخدم مصطلحات سياسية تبدو جديدة على أذهان قرائــه ، فهـو يصف الحكـومـة المصرية بأنها أوتـوقـراطية ، ثم يحدد مظاهـر أوتوقراطيتها ، واعراضها عن إشراك الناس في حكم بلادهم وتجافيها عن مطالب الأمة من الرقي السياسي ، وأنها لا تهتم إلا بمصلحة الحكام لا المحكومين ، وأنها قد زاد عليها القدر سلطة الاحتلال الإنجليزي ويضيف ان بقاء الوزارة في الحكم موقوف على رضى السلطة عنها ، بينما نجاحها موقوف على رضى الأمة عنها ، وان الوزارة التي فضلت البقاء في كراسيها على النجاح في أعمالها واكتفت برضى السلطة عن رضى الأمة لا تستحق إسمها[٢٤] .

وعنـدمـا تغـيرت الوزارة القائمة (وزارة مصطفى فهمي) وسارت الوزارة الجديدة (وزارة بطرس غالي) على نفس السياسة ، ذكر أن تغيير الوزارة لا يعني تغيير أشخـاص الـوزارء بآخرين ، وإنما تغييرها يكون بسياسة جديدة حقيقية ومسئولة . وقد تعجب من الطريقة التي تؤلف بها الوزارات في مصر ، وكتب أن «الطريقة المعقولة هي أن يسمي أولاً رئيس الوزارة ، فيضع خطة سيره فإذا قبلت أخذ في انتخاب زملائه ، فيعرض على أحدهم محفظة إحدى الوزارات ولكن النظار في مصر يعينون كما يعين الموظفون والقضاة والمديرون وغيرهم لأن وظائف الوزراء فيها ، من الوجهة السياسية ، ليس لها قانون»[٢٥] . وكتب لطفي السيد كثيراً عن مهام الوزراء وحريتهم في ممارسة شئون وزاراتهم وكرامة المنصب. . . إلـخ مما يدخـل في باب المقـالات التنـويرية الاصلاحية ، التي كان لطفي ، بالاستعـانة برصيد قراءاته في الفكر السياسي ، قادراً على اثارة قضاياها بخبرة وحيوية ، فلعبت مقالاته دوراً تنويرياً سياسياً بالنسبة للرأي العام . وكان ممن كرســوا استعـمال مصـطلحـات الـديمقـراطية والارستقـراطية والأوتـوقـراطية والاستبدادية وغيرها من مفاهيم ومصطلحات الفكر السياسي الحديث .

وأخـيراً حظيت قضية التعليم بقسط وافـر من اهتـمامات وكتابات لطفي

السيد ، فرسم سبل إصلاحه ، وانتقد فكرة اقتصاره على الاهتمام بتعليم الإنسان لجعله مجرد آلة في ماكينة الحكومة ، وكذلك انتقد أسلوب التعليم الذي لا ينمي في الإنسان سوى ملكات الحفظ والتقليد ، دون قدراته على التفكير والإبداع والاختراع .

وأبدى اهتماماً خاصاً بمسألة اختيار المعلمين والأساتذة ، وتعجب من مسألة الاكتفاء بالأساتذة الإنجليز في المدارس ، واعتبر ذلك عملاً سياسياً «وأن السياسة ما دخلت إلى التعليم إلا أفسدته»[٢٦] . وأبدى لطفي السيد اهتماماً خاصاً بالتعليم العام ، واعتبره الطريق الوحيد للاستقلال واجلاء المحتل ، وانتقد الحكومة لأنها لم تفطن إلى ضرورة جعل التعليم وطنياً أو بعبارة أخرى «إدخال قواعد آدابنا القومية وأخلاقنا إلى المدارس . فالغرض من التعليم العام لكل أمة هو صبغ أبنائها بصبغة واحدة ، حتى يصبحوا بقدر الإمكان متشابهين في الأخلاق والميول والعادات ، فإذا ضاقت الفروق بينهم ، سهل عليهم أن يكونوا مجموعاً متشابه الأجزاء ، وفي ذلك معنى الوحدة القومية[٢٧] .

ومن الملاحظ كذلك أن لطفي السيد قدم أفكاراً في البيداجوجيا وفنون التربية ، برزت فيها ثقافته الواسعة وقارن بشكل صارم بين التربية والتعليم ، وأبدى اهتماماً خاصاً بالتعليم الفني ، والاهتمام بتعليم البنات على نطاق أوسع .

* * *

الهوامش

(١) أحمد لطفي السيد : قصة حياتي (صفحة ٣٧) وبها ترجمة كاملة لحياته يمكن الإفادة منها بشكل أوسع .

(٢) يمكن الإفادة في هذا الشأن بكتابات :

- ليفين : الفكر السياسي والاجتماعي الحديث (صفحة ١٩٧) - البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة (صفحة ٢١٠) .
- لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي ، (جـ١ ص٧٧ - ٧٨) .

Safran N. "Egypt in Search of Political Community" p. 90.

(٣) أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ، (صفحة ٣٩ وما بعدها) .

(٤) عن قيام الأحزاب ونشأتها يمكن الافادة بكتاب أحمد زكريا : حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية (ص٤٢ - ٤٣) ونفس المرجع (ص٥٩ - ٦٠) عن مساعدة كرومر لجماعة الجريدة ، (ص٥٥ - ٥٦) حول فكرة إصدار الصحيفة .

(٥) لم تكن رئاسة لطفي لتحرير الجريدة منصباً دائماً له . فقد تولاها عنه في فترات انقطاعه أو إبعاده كل من إبراهيم رمزي ومحمد حسين هيكل وعبدالحميد حمدي ، حتى ترك لطفي الجريدة نهائياً في أواخر عام ١٩١٤ وظل عبدالحميد حمدي رئيساً لتحريرها حتى توقفت نهائياً في أواخر يونيو ١٩١٥ .

(٦) صفحات مطوية ، ص٧[*] .

(*) أرقام الصفحات التي نستخدمها هنا ترجع إلى الطبعة الأولى التي نشرها إسماعيل مظهر عام ١٩٤٦ .

(٧) صفحات مطوية ، ص٣٧ .

(٨) صفحات مطوية ، ص٩٩ - ١٠١ .

(٩) صفحات مطوية ، ص٣٧ - ٣٨ .
وأنظر دراستنا بحولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتاعية ، جامعة قطر ، العدد العاشر ، سنة ١٩٨٧ .

(١٠) Safran, N., op. cit., p. 95.

(١١) صفحات مطوية ، ص٣٧ .

(١٢) صفحات مطوية ، ص١٢٢ .

(١٣) صفحات مطوية ، ص١٢١ .

(١٤) صفحات مطوية ، ص١٣٨ .

(١٥) صفحات مطوية ، ص٢٤٣ .

(١٦) صفحات مطوية ، ص ٧٧ ، ٧١ - ٧٣ مقالاته عن اللورد كرومر وتقييم سياسته في مصر .

(١٧) المرجع السابق ، ص١٤٣ ، ص١٤٤ .

(١٨) المرجع السابق ، ص٢٤ ، ٥٠ - ٥٦ .

(١٩) المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص٢١١ .

(٢١) المرجع السابق ، ص١٩٧ - ٢١١ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص٢١٤ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص١٣٣ .

(٢٤) الاقتباسات المتعلقة بالوزارة والحكم من نفس المرجع صفحات ١٧٥ - ١٧٦ و ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٤ .

(٢٥) صفحات مطوية ، ص٢٤٧ ، ٢٦٦ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص٢٠ .

(٢٧) نفس المرجع ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

* * *

مراجع مختارة

١ - أحمد زكريا الشلق : حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

٢ - أحمد لطفي السيد : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ١٩٠٧ - ١٩٠٩ ، جمعة إسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٤٦ .

٣ - أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ، كتاب الهلال ، عدد ١٣١ ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٢ .

٤ - أحمد لطفي السيد : تأملات في الفلسفة والأدب والاجتماع ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

٥ - أحمد لطفي السيد : مباديء في السياسة والأدب والاجتماع ، كتاب الهلال ، عدد ١٤٩ ، أغسطس ١٩٦٣ .

٦ - أحمد لطفي السيد : المنتخبات ، الجزء الأول ، دار النشر الحديث ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٧ - أحمد لطفي السيد : المنتخبات ، الجزء الثاني ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩٤٥ (جمعها إسماعيل مظهر) .

٨ - حسين فوزي النجار : أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل ، أعلام العرب ، عدد ٢٩ ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٩ - حسين فوزي النجار : لطفي السيد والشخصية المصرية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٣ .

١٠ - عبداللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء السادس ، لطفي السيد في الجريدة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١١ - لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي ، الجزء الأول ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية بالقاهرة .

١٢ - ليفين ، ز. ك. : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة بشير السباعي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٣ - Ahmed, J. M., "The Intellectual Origins of Egytpian Nationalism", London, 1960.

١٤ - Safran, N., "Egytp in Search of Political Community", Harvard, 1961.

مسوغات القبول في صور المجاز

الدكتور توفيق الفيل
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

تقديم :

لا يهدف هذا البحث إلى التأريخ لنشأة مصطلح المجاز بأنواعه . كما لا يعني بنشأة هذا الفن ، ومتى استخدم ، وما مراحل التطورالتي مر بها حتى تحددت أشكاله ، وامتازت أنواعه ، فهذا كله على الرغم من أهميته لا يشكل لحمة هذا البحث الذي يعني بالدرجةا لأولى بمحاولة الكشف عن المسوغات التي تجعل هذه الصورة أو تلك من صور المجاز مقبولة ، وتجعل غيرها محل نقد ومؤاخذة ، أو محل نفور ورد .

ومع تسليمنا بأن العصور تختلف فيما بينها من حيث النظر إلى هذه الأشياء ، كما تختلف الآراء والأذواق في العصر الواحد حول ما يقبل من صور المجاز وما يرد . وذلك بسبب تباين الثقافات ، واختلاف وجهات النظر ، فإننا نجد بعض الصور تكاد تكون محل اتفاق سواء في القبول أو الرد ، ولهذا نحاول أن نجد المعيار أو المعايير التي يتم الاستناد إليها في بناء هذه الصور ، ولعل من أهم ما يدفعنا إلى هذه المحاولة أن بعض الكتاب في زماننا قد أخذوا يستخدمون اللغة بطرق فيها قدر كبير من الاعتساف مما أدى إلى التعقيد والتعمية .

اللغة والتعبير عن المعاني :

وربما كان من أول الأمور التي تصادفنا وتبين أن اللغة مهما كان اتساعها تظل محدودة في مواجهة المعاني المتجددة ، وأنها على الرغم مما يتهيأ لها من الاشتقاق والنحت والاقتراض تظل في حاجة إلى سبل تمكنها من الإحاطة بهذه المعاني والتعبير عنها .

ولقد كانت إشارة الجاحظ في هذا الشأن صائبة حين ذهب إلى أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي ، والحضري والقروي ، وأن العبرة في التعبير عن هذه المعاني . لقد كان الجاحظ يشير بذلك إلى إشكالية التعبير بالمحدود عن غير المحدود . أو بالألفاظ المحدودة عن المعاني الكثيرة المتجددة . ويبدو أنه قد نسب الفضل إلى من يستطيع التوفيق بين متطلبات المعنى وقدرة اللفظ وما فيه من طاقات . وهذا لا يتهيأ لغير الموهوبين من الشعراء والأدباء .

ولقد حاول الأدباء من جانبهم الخروج من هذا المأزق فحوروا في الاستخدام وقدموا وأخروا وحذفوا وذكروا . . وسلكوا طرقاً شتى من النظم .

وقد أدرك الباحثون المحدثون . والنقاد القدماء ذلك ، فالقاضي الجرجاني يبين لنا أن لغة الشعر مبنية على التوسع ، وأنها لا تقوم على التحقيق والوقوف بهذه اللغة عند التحقيق يفسد لغة الشعر ، لكنه يضع الضوابط التي تحكم التصرف حتى لا يتحول إلى فوضى تفسد اللغة ، أو يصبح قيوداً تفسد الشعر[١] .

وعبدالقاهر الجرجاني[٢] يرى أن للشعر لغة خاصة أيضاً ، ويصف هذه اللغة بأنها ذات حركة خفية كالهمس ، وكسرى النفس في النفس ، وفيها ما فيها من اللطائف التي لا يمكن أن تظهر إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر .

وكما ذهب القدماء إلى خصوصية لغة الشعر وتميزها ذهب بعض المحدثين ، فقال : «ان الأدباء بوجه عام والشعراء منهم بوجه خاص ، يستعملون اللغة على نحو خاص ، وهم يعتمدون كل الاعتماد على ما في الألفاظ والتراكيب من قوة إيحاء ، وهم بطبيعة الحال ليسوا على قدر واحد من السيطرة على اللغة وتراكيبها ، ولهذا يتسع البون بينهم في إثارة المشاعر ، ونقل الأحاسيس . ولعل ذلك من الأسباب التي تجعل الشعر حمال أوجه في تفسيره والوقوف على معانيه ، وذلك أمر

---

(١) القاضي : علي عبدالعزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ط٤ ، ص٤٢٩ ، ت أبو الفضل .

(٢) الجرجاني : عبدالقاهر : أسرار البلاغة ، ص٢٨٠ ، ت النجار ، صبيح .

طبيعي لأننا حين نبحث عن المعنى في الشعر ، لا نبحث عن المعنى المعجمي لكل لفظ على حدة ، ولا يمكن أن يكون ذلك ما يهدف إليه من الشعر ، فللشعر طبيعة خاصة ، تعتمد اعتماداً كبيراً على الألوان والظلال المختلفة التي تثيرها الكلمات»[٣] .

ولما كانت الألوان والظلال والإيحاثات المختلفة من الأمور التي يعتمد عليها الشعر ، واللغة لا يمكن أن تحققها بأصل وضعها كان على الشعراء أن يتصرفوا فيها على نحو لا يخرج بها عما استقر من قواعدها . وفي الوقت نفسه يحققون من خلالها ما يريدون تحقيقه . ولقد كانت نظرة الشعراء تختلف عن نظرة علماء اللغة . فإذا كان الأخيرون يهمهم أولاً صحة اللغة ، وسلامة تراكيبها وجريانها على القياس والشروط ، فإن الأدباء كان همهم ينصرف إلى نقل مشاعرهم وأحاسيسهم ، وتحقيق الغايات الجمالية المنوط بالفن تحقيقها ، ولهذا خرجوا عن المألوف . وكان خروج بعضهم عن قصد وبينة ، وكانت غاياته الجمالية واضحة أمامه -كما سنشير- وخروج بعضهم لعدم قدرتهم على تحقيق أي من الغايتين . وأياً كانت الأمور فإن صراعاً وقع بين اللغويين والشعراء . يصبح من نافلة القول إعادة ما حدث من ردومهاجاة بين الفرزدق وابن أبي اسحاق الحضرمي . وقد عبر عمار الكلابي عن هذا الصراع في قوله :

ماذا لَقِيتُ مِنَ المستعْربين ومِنْ ... قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
ان قلت قافية بكرا يكون لها ... معنى خلاف الذي قاسوه أو زرعوا
قالوا «لحنت» وهذا الحرفُ منخفضٌ ... وذاك نَصْبٌ ، وهذا ليس يَرْتَفِعُ
وحرضوا بين عبدِ اللّهِ واجتهدوا ... وبين زَيدٍ فطالَ الضربُ والْوَجَعُ
كم بين قومٍ قد احتالوا لِمنطِقِهم ... وبين قومٍ على إعْرَابِهِم طُبِعُوا
فقلت واحدةً فيها جَوَابُهُم ... وكثرةُ القولِ بالإيجَازِ تَنْقَطِعُ
ما كلُّ قَوْلِيَ مشروحاً لكم فَخُذُوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

(٣) د. محمود السعران : علم اللغة : مقدمة ، ص٦٩٥ - ٦٩٦ ، دار المعارف ، مصر .

حتى يصيرَ إلى القوم الـذين غُذُوا بِمَا غُذِيتُ به والقولُ يَجْتَمِعُ
لأن أَرْضِيَ أرضٌ لا تشَبُّ بها نَارُ المَجُوسِ ولا تُبْنَى بِهَا الْبِيَعُ

فالهجوم والسخرية ، واتهام اللغويين بعدم الوقوف على أسرار الشعر وخفاياه ، والإحساس بما فيه من شحنات عاطفية ، وخلجات نفسية ، كل هذا يعكس ضيق الشعراء بموقف اللغويين ، المتتبع لما قد يقع فيه الشاعر من خطأ في الإعراب -حسب رؤيته- وعجزهم في نفس الوقت عن معرفة ما للشعر من طبيعة خاصة ، ووظيفة يسعى الشاعر إلى تحقيقها . لقد مكث الشعراء في كل وقت ينظرون إلى اللغويين بارتياب وشك ، ويعتقدون أنهم غير مؤهلين لتذوق الشعر والنظر فيه والحكم عليه ، فكل همهم ينصرف إلى اللغة ومعاني الألفاظ ومحاولة الوقوف على الغريب . يقول بذلك الجاحظ ، كما يقول به أبو نواس والبحتري ، ونجده عند غير واحد من النقاد(1)

وعلى أية حال لم يكن الخروج على المألوف من قواعد اللغة هو السبيل الوحيد الذي لجأ إليه الأدباء لتحقيق ما يريدون . ولئن كان ذلك السبيل محفوفاً بالمخاطر ، ويترصد خطاهم فيه علماء اللغة فإن لهم سبلاً أخرى أوسع مدى ، وأرحب أفقاً ، ويأتي في طليعتها :

الاستخدام المجازي :

ولقد أدرك القدماء ما يناط بالاستخدام المجازي في مجال الأدب ، وما يهيئه هذا الاستخدام من إمكانات .

فعبد القاهر الجرجاني : يقول عن أحد نوعي المجاز وهو ما أطلق عليه المجاز العقلي ، ذلك المجاز الذي يكون في إسناد أمر إلى غير ما هو له كإسناد فعل إلى غير فاعله ، أو خبر إلى غير مبتدئه : «وهذا الضرب من المجاز على جدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طريق البيان ، وأن يجيء الكلام مطبوعاً مصنوعاً ، وأن يضعه بعيد

(1) ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، جـ٢ ، ص١٠٤ - ١٠٥ .

المـرام ، قريبـاً من الأفهـام» ، وهو يحذر من عدم وضع هذا الفن من المجاز موضعه ، أو أن لا يقدر حق قدره ، حين ينظر إلى بعض صوره التي شاعت وكثر استعمالها فابتذلت أو فقدت طاقتها الإبداعية ، وأصبحت ضعيفة التأثير لقربها من الاستخدام الحقيقي ، فليست كل صور المجاز العقلي على هذا النحو . إذ أن فيه «مـا يدق ويلطف حتى يمتنـع مثله إلا على الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها ، والنادرة تأنق لها»[1] .

وليس الدور الفني وقفاً على هذا النوع من المجاز دون غيره ، لأننا نجد مثله في فن الاستعارة التي كانت أحد أبواب البديع ، ولوناً من ألوانه الساحرة التي لفتت الشعراء إلى جمالها.فيما وردت فيه من الشعر ، فعمدوا إلى محاكاتها والإكثار منها - إضافة إلى الألوان الأخرى ، كما عبر عن ذلك عبدالله بن المعتز . ولعله لا يغيب عنـا ما ذهب إليه أبـو عثـمان الجاحظ من خصوصية لغتنا في البديع -حسب تصوره- أي بالمعنى العام للبديع[2] .

والقاضي الجرجاني يعد الاستعارة : «أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول في التوسع والتصرف ، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر»[3] .

أمـا عبدالقاهر فيقرر أن الاستعارة : «تبرز البيان في صور مستجدة تزيد قدره نبـلاً ، وتـوجب له بعـد الفضـل فضلاً» وهي تخرج الأشياء عن صورها المألوفة ، وتبرزها في حلى جديدة : «فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحـاً ، والأجسـام الخـرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية»[4] . وتسمو الاستعارة ويعلو قدرها عنده حين تتجاوز المحسوسات ، وتأتي في صور عقلية ، فالمبدع حين يتجاوز الأشياء التي تقع تحت حسه ويلج هذا الباب تتفتح أمامه سبـل القـول وتتاح له مجالات واسعة ، والاستعارة حينئذ تستعصي على غير الأفذاذ

(١) الجرجاني : عبدالقاهر : دلائل الإعجاز ، ت خفاجي ، ص٢٨٧ - ٢٨٨ .
(٢) أنظر مفهوم البديع في كتاب من قضايا النقد والبلاغة ، توفيق الفيل ، م الشباب ، ١٩٨٠م ، ص١٨٩ وما بعدها .
(٣) الوساطة : ص٤٢٨ .
(٤) أسرار البلاغة : ص٤٦ ، ٤٧ .

من المبدعين . يقول عبدالقاهر عن الاستعارة فيما بين الأمور المعقولة «إنها تبلغ غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها ، وهنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب . ولهاهنا أساليب كثيرة ومسالك مختلفة»[1] .

مقتضيات الصنعة الفنية :

ورد عن القدماء قولهم «أعذب الشعر أكذبه» ومن المؤكد أن هذا القول لم يكن يعني حسن الشعر الذي يجافي الحقيقة . ويتناقض معها وإنما كان قصدهم من هذه العبارة ، ما يقوم عليه الشعر من الصنعة الفنية ، وما يتطلبه من التوسع والتخييل . وهو ما يريد أن «يثبت فيه الشاعر شيئاً غير ثابت أصلاً ، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى»[2] . ولهذا في الشعر مسالك متعددة ، وطرق كثيرة . بل هو ، كما يقول عبدالقاهر[3] : «لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه» ، فمنه ما يجيء على نحو قول أبي تمام :

إن رَيْبَ الزَّمانِ يحسنُ أن يهدي ... الرزايا إلى ذوي الأحسابِ
فلهذا يَجِفُّ بعد اهتزازٍ ... قبل روضِ الوهادِ روضُ الروابي

وقوله :

لزموا مركزَ النَّدَى وذُرَاهُ ... وَعَدَتْنا عن مثلِ ذاك الْعَوادِي
غير أن الربى إلى سبلِ الأنواءِ ... أدنى... والحظُّ حَظُّ الوِهَادِ

ولا أريد الاستطراد بذكر محاسن هذا اللون ، وحسبنا أن نذكر ما يضفي

(١) أسرار البلاغة : ص٦٥ .
(٢) السابق : ص٢٥٢ .
(٣) السابق : ص٢٥٣ .

التخييل والصنعة على الفن من خلال ما رآه عبدالقاهر الجرجاني الذي يقول في شرحه للعبارة التي تقول إن أعذب الشعر أكذبه : «فالصنعة إنما يمد باعها ، وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها حيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم ، والوصف والبث ، والفخر والمباهات ، وسائر المقاصد والأغراض . وهناك يجد الشاعر سبلاً لأن يبدأ ويزيد ، ويبديء في اختراعه الصور ويعيد ، ويصيب مضطرباً كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعاني متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي»[٤] :

الضوابط والمسوغات :

وإذا كنا قد عرفنا من خلال ما سبق ما يمكن أن يبلغه المجاز سواء في جمال التصوير وجدته ، أو الإسهام في نقل المشاعر والأحاسيس ، أو فتح السبل أمام المبدعين للتعبير ، فهل يتم ذلك في كل صورة من صور المجاز ؟

إن الجواب عن ذلك نجده عند نقادنا القدامى الذين وجدناهم يقبلون بعض صور المجاز ويشيرون إلى ما تضمنته من الحسن ، وما أضافته إلى المعنى ، كما نجدهم يردون صوراً أخرى ويرونها عبئاً على التصوير وإضعافاً للمعنى .

إن الكلمة الواحدة قد تنقل عن معناها لتعبر عن معنى آخر ، وقد يتم ذلك في غير موضع لكنها تحسن في واحد منها ، ولا يتم لها مثل هذا الحسن في غيره . وعلى سبيل المثال كلمة «أعين» يستخدمها ابن نباتة في قوله :

حتى إذا بَهَرَ الأباطحَ والرُّبَا ... نظرت إليكَ بِأَعْيُنِ النُّوارِ

وهو كما نرى يجعل الأعين للنوار ، وقد وقعت موقعاً حسناً ، ويستخدمها أبو تمام في قوله :

---

(٤) السابق : ص٢٥٠ .

قَرَّت بِقَـرَّانَ عينُ الـدِّينِ وانتشرت   بالأَشْـتَرَيْنِ عُيـونُ الشِّرْكِ فاصْطَلمَا

لكنها لا تحظى بما حظيت به في بيت ابن نباتة . بل إن ابن سنان الخفاجي يعدها من أقبح الاستعارات ، «وذلك لعدم وجود الوجه الذي لأجله جعل أبو تمام للدين والشرك عيوناً»[1] .

وسوف نجد صوراً أخرى لهذا اللون وذاك . . .

وقضية قبول الاستعارة وحسنها ، أو قبحها وردها ، من القضايا التي ظهرت مع ظهـور ما أطلق عليه مذهب التجديد في الشعر أو مذهب الصنعة . وهو المذهب الذي أسسه بشار بن برد ، وأبو نواس وزاد فيه مسلم بن الوليد ، ونماه وغـالى فيه أبـو تمام حتى ظنـه البعض من اختراع المحدثين . وكان ذلك من الأسباب التي دفعت ابن المعتز إلى تأليف كتاب البديع ، ليبين من خلاله وجود الاستعارة وصور البديع الأخرى قبل بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد . ومن سار على دربهم ، كما يبين أن هؤلاء ليس لهم سوى الإكثار من هذه الصور «قال عبـدالله بن المعتـز : قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن وغيره ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الإسم ، فأعرب عنه ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الـطائي من بعدهم شُغِفَ به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف»[2] .

وقد تتبع بعض النقاد ما اسْتُجِيدَ من صور الاستعارة ، وما قُبُحَ منها . وكانوا يقدمون بعض التعليل لما يتناولون من الصور أو يتبعون حديثهم بالأساس العام في حسن الاستعارة وقبولها .

(١) سر الفصاحة : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) البديع : ت كراتشقو فسكي : المقدمة .

ولقد كان أبو تمام بما أحدثه في الشعر من خرق لأصول المجاز ، وما يقوم عليه من الأسس ، من أوائل الشعراء الذين تعرضوا للوم -وإن لم يسلم منه مسلم بن الوليد- الذي قيل عنه «إنه أول من أفسد الشعر» ولم يكن هذا القول إلا بسبب إكثاره من صور «البديع» بمفهومه العام - وعلى نحو ما أشار إليه ابن المعتز ، ومن بينه الاستعارة . لكننا لا نجد ناقداً من النقاد القدامى لا يتوقف عند بعيد الاستعارات ومستغلقها عند أبي تمام . وإذا أحصينا مؤاخذات النقاد للشعراء من هذه الناحية نجده في الصدارة ، ويأتي بعده أبو الطيب المتنبي . ولما حدث من أبي تمام شاع في شعره الغموض الذي يجعل الوقوف على معانيه عسيراً حتى قيل له : «لم لا تقول ما يفهم» ؟

لكن قد يكون من المغالاة نسبة هذا الغموض في المعنى عند هذا الشاعر إلى أخذه بهذا اللون من ألوان البديع أو غيره . فهناك عوامل أخرى تدفع بشعره نحو التعقيد ، أدركها النقاد القدامى ونصوا عليها . فأنصار البحتري في المناظرة التي عقدها الآمدي بينهم وبين أنصار أبي تمام يردون بأن النقص لا يلحق عالماً من أمثال ابن الأعرابي لأنه لم يفهم شعر أبي تمام . «ولا يلزم ابن الأعرابي من الظلم والتعصب ما ادعيتم ، ولا يلحقه نقص في قصور فهمه عن معاني شعر شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة[1] ، كما أن الآمدي نفسه يقرر مذهب الشاعر» وأنه من أصحاب الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكر» وتعمد إلى ذلك . بل تجعله غاية مبتغاها . ولعل أسلوب أبي تمام في بناء صوره المجازية ، ونهجه فيها طريقاً غير معروف من الأمور التي دفعت ابن الأعرابي إلى القول في شعره : «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»[2]

ويسوق الآمدي عدداً من الأبيات قام أبو تمام ببناء صور مجازية استعارية فيها من أمثلتها قوله :

---

(١) الموازنة بين الطائيين : ت السيد صقر ، ص ٢٣ .

(٢) السابق : ص٢٠ .

يا دهـرُ قَوِّم من أخـدَ عيـك فقـد أضججت هذا الأَنـام من خُرَقـك

وقـولـه :

سأشكـر فرجـةَ اللببِ الـرَّخِيِّ ولـينِ أَخَـادعِ الـدهـرِ الأَبِيِّ

وقـولـه :

تروحُ علينـا كل يومٍ وَتَـغْـتَـدِي خطوبٌ كأن الـدهـرَ مِنْهُنَّ يُصْرَعُ

وقـولـه :

تحل يفـاعَ المـجْـدِ حتـى كأنها على كِلّ رأسٍ من يدِ المجْدِ مغْفَـرُ
لها بينَ أبـوابِ المـلوكِ مزامـرٌ من الـذكـرِ لم تنفـخْ ولا هي تُزْمِـرُ

وغير ذلك من الأمثلة التي بلغ بها الآمدي أربعة وعشرين مثالاً . وعقب عليها قائلاً : «وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته كثيراً»[٣] .

ثم بين أنه جمع بين سوأتين : غثاثة اللفظ وقبح الاستعارة ، حيث جعل للدهر أخدعا ، ويدا تقطع من الزند ، وكأنه يصرع ، ويشرق بالكرام ويفكر ويبتسم وأن الأيام بنون له . فقد جعل الدهر شخصاً . كما فعل مثل هذا في المدح حين جعل له يداً ، ولقصائده مزامير إلا أنها لا تنفخ ولا تزمر . وعلى الجملة فقد شخص المعنويات وجسدها على نحو لم يكن مألوفاً قبله . مما جعل الآمدي يعلق على الأمثلة التي ساقها بقوله : «وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد عن الصواب»[٤] .

ثم يتبع الآمدي تعليقه هذا بأول الأسس التي وضعت لقبول المجاز بصفة عامة ، والاستعارة من بينه بصفة خاصة . وذلك حين يقول : «وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي

(٣) السابق : ص٢٦١ - ٢٦٥ .
(٤) السابق : ص٢٦٥ - ٢٦٦ .

استعيرت له ، وملائمة لمعناه نحو قول امريء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ولسنا نسلم بأن مجرد تشخيص المعنويات من أمثال الدهر ، والقصائد ، والمجد وغيرها كان السبب الوحيد في دِرِ المجاز وعدم قبوله واستحسانه . فمن صور المجاز التي جاءت على هذا النحو وقبلت ، بل كانت موضع الإعجاب من النقاد على اختلاف طبقاتهم قوله تعالى : «والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس» . وقوله تعالى : «إذا أُلْقُوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكاد تميز من العيظ» إلى غير ذلك من الاستعارات .

ولقد تردد هذا القول عند النقاد حين وجدوا أمثلة شخّص فيها الشعراء الدهر عن طريق الاستعارة . وَقُبِلَ ذلك منهم . وقد استعرض القاضي الجرجاني أمثلة لذلك ، وهو يعتذر للمتنبي عن بعض الاستعارات التي أخذت عليه . يقول : «وقد كان بعض أصحابنا يجاريني أبياتاً أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة ، وخرج عن حد الاستعمال والعادة . فكان مما عده منها قوله :

مسرةٌ في قلوبِ الطيرِ مفرقها وحسرةٌ في قلوبِ الْبَيْضِ والْيَلَبِ

وقوله :

تجمعت في فُؤَادِهِ هِمَمٌ ملءُ فؤادِ الزمانِ إحْدَاهَا

فقال : «جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً ، وللزمان فؤاداً . وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد» ثم يقارن القاضي الجرجاني بين قول المتنبي وقول ابن أحمر :

وَلِهَتْ عليه كلُّ مُعْصِفَةٍ هوجاءَ ليس لِلُبِّهَا زَبْرُ

فقد جعل للريح لبا . فما الفرق بينه وبين من جعل للطيب والبيض واليلب قلوبا ؟ «وأبو رميلة» يجعل للدهر ساعداً حين يقول :

هُمْ ساعدُ الدهرِ الذي يُتَّقى بِهِ ... وما خيرُ كَفٍّ لا تنوءُ بِسَاعِدِ

والكميت يجعل للدهر ظهراً وبطناً ، ويجعله يتمرغ في الرمل ، أو يتقلب كما يتقلب الرجل . وشاتم الدهر العبقى يمضي في نفس الاتجاه . فيقول :

ولما رأيت الدهرَ وعرا سَبيلُهُ ... وأبدى لنا ظهراً أَجَبَّ مُسَمَّعَا
ومعرفةً حصّاءَ غيرَ مُفاضَةٍ ... عليه ، ولوناً ذَا عَثَانِينَ أَجْدَعا
وَجَبْهَةِ قِرْدٍ كالشراكِ ضئيلةٍ ... وصَعَّرَ خَدَّيه وأنفًا مُجَدَّعَا

فهؤلاء الشعراء الذين سبقوا قد جعلوا الدهر شخصاً متكامل الأعضاء كما يقول القاضي الجرجاني ولم يؤاخذهم أحد بذلك[1] ومعنى ذلك أنهم أوغلوا في الصور المجازية أكثر مما أوغل أبوالطيب المتنبي . لكن أحداً لم ينكر عليه ذلك . ولئن كان ذلك الناقد الذي أجرى الحوار مع القاضي الجرجاني لم يجد علة ظاهرة يرجع إليها قبوله للصور المجازية التي بناها هؤلاء الشعراء غير إحساسه بالتفاوت بينها وبين استعارات أبي الطيب المتنبي . فإن القاضي الجرجاني يحاول الكشف عن هذه العلة من خلال بيان المناسبة التي مهدت للمجاز عند هؤلاء الشعراء وافتقادها عند أبي الطيب المتنبي . فهو يبين المسوغ الذي جعل تشخيص الريح مقبولاً في بيت ابن أحمر : وهو «أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة» وزالت عن الترتيب شبهت بالأهوج الذي لا مُسْكَةَ في عقله ، ولا زبر للبه ، ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل ، حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلاً» كما يبين المسوغ لقبوله الصورة المجازية في بيت أبي رميلة :

هم ساعد الدهر الذي يتقي به

(١) الوساطة : ص٤٣٠ .

على أن المراد بالدهر أهله . وأخيراً يبين مسوغ قبوله الصورة في أبيات «شاتم الـدهر العبقى بما جرت عليه العادة ، وأن هذا القول خرج مخرج الهزل «فأما أبيات شاتم الدهر فإنما صدرت مصدر الهزل - وجرت على عادة من الاستعمال متـداولـة وذلك أنهم لما ابتذلوا اسم الدهر ، واعتمدوا على صرفه في الشكاية والشكر ، وأحالوا عليه باللوم والعتب ، وألفوا ذلك واعتادوه حتى صار أغلب على كلامهم ، وأكثر في شعرهم وخطابهم من ذكر أهله وأبنائه ، ومن تقع هذه المحـامـد والملاوم عنه ، ويحدث أسبابها من جهته ، صار كالشخص المحمود المذموم ، والإنسان المحسن المسيء ، فوصف بأوصافه ، وحلي بحلاه ، وجعل له أعضاء تعد وتنعت ، وتستكرم وتستهجن»[1] .

العلة إذن في قبول بعض صور المجاز ، ورفض بعضها لا يعود إلى الإيغال في تجسيد المعنويات ، بل يعود في الدرجة الأولى إلى الغرض الذي توظف الصور للكشف عنه ، ومدى لصوق التصوير بما ألفه الناس في الاستخدام ، وجرت به عادتهم . ولعـل عبـدالقـاهـر الجرجاني كان أكثر إدراكاً للارتباط بين الصورة المجازية والموضع الذي جاءت فيه من جهة ، وارتباطهما معاً بالمعنى الذي جاءا ليعبرا عنه من جهة أخرى .

لقد جعل عبدالقاهر حسن الاستعارة يتوقف على تهيئة الكلام لها ، وإعداده لتقبلها . فحسن الاستعارة وغرابتها في قول الشاعر :

سالت عليه شعابُ الحيِّ حين دعا ... أَنْـصَـارَهُ بوجـوهٍ كالـدَّنَـانِـيرِ

إنما جاء عن طريق ما توخاه الشاعر في النظم من التقديم والتأخير . وهو يؤكد صحـة ما ذهب إليه بالنظر إلى الكلام بعد تغيير نظمه ، وإزالة كل من الجار والمجرور والظرف عن موضعه . كأن نقول : سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير حين دعا أنصاره» ونقارن بين حسن الكلام هنا ، وما جاء عليه في قول الشاعر ،

(١) الوساطة : ص٤٣١ .

ولا شك أننا سنكتشف الفرق الواضح بينهما . وسيكون الأمر كما قال : «ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم أريحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها»[1] .

ويزيد من وضوح أهمية إعداد الكلام وتهيئته لتقبل الاستعارة ، وإلقاء الأضواء الكاشفة عليها ما نجده من استعارة اللفظ الواحد في أكثر من موضع سبقت الإشارة إلى ذلك . ونحن نجد له من الحسن في موضع ما لا نجده له في آخر . فأبو تمام يستعير كلمة الجسر» في قوله :

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها ... تنال إلا على جسر من التعب

وفي قوله :

لا يطمع المرءُ أن يَجْتَابَ لجَّتَهُ ... بالقولِ ما لَمْ يكنْ جِسْرَاً له العملُ

وحسنها في البيت الأول أكثر منه في الثاني .

«وربيعة الرقي» يستعير نفس الكلمة في قوله :

قولي : نعم . ونعم إن قلت واجبةٌ ... قالت عسى ، وعسى جسرٌ إلى نَعَمِ

وهي في هذا البيت لا تصل إلى ما وصل إليه أبو تمام في بيتيه السابقين . ولا نجد ما نرجع إليه هذا التفاوت في الحسن والخلابة ، غير إعداد الأسلوب وتهيئة الكلام لتمكين الاستعارة ، وخلق المناخ الملائم لها»[2] .

ويحدثنا عبدالقاهر الجرجاني في غير موضع عن أهمية النظم في قبول الاستعارة والمجاز العقلي ، فيقول : «واعلم أن سبب اللطف في ذلك أنه ليس كل شيء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمي بسهولة ، بل تجدك في كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيء الشيء وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه في النظم وإن أردت مثلاً في ذلك فانظر إلى قوله :

تناسَ طلابَ العامرية إذ نأت ... بأسْجَعَ مرقالِ الضُّحَى قَلِقِ الضَّفْر

(١) دلائل الإعجاز : ص١٣١ .
(٢) السابق : ص١١٥ .

إذا ما أحسته الأفاعي تَحَيَّزَت شواة الأفاعي من مثلمة سمر
تجوب له الظلماءَ عينٌ كأنها زجاجةُ شربِ غير ملأى ولا صِفْرِ

فالمجنون يصف ذلك الجمل الذي رحلت عليه ليلى العامرية ، وجاب بها الصحاري والقفار في ظلمة الليل التي تشبه السد . وساعده على السرى وسير الظلمة عينه التي تخترق الظلام . وقد حدث تجوز في إسناد الفعل «تجوب» إلى «عين» وهذا ما يطلق عليه المجاز العقلي ، أو الحكمي . وقد هيأ الشاعر الأسلوب وأعده لهذا المجاز «فأنت تعلم أنه لولا أنه قال : تجوب له . فعلق له «بتجوب» لما صلحت العين لأن يسند إليها «تجوب» . ولكان لا تتبين جهة التجوز في جعل «تجوب» فعلاً للعين»[1] .

وينتهي عبدالقاهر إلى القول بوجوب النظر إلى هذه التهيئة واعتبارها في كل من المجاز العقلي ، والاستعارة التي هي مجاز في الكلمة . لأنها - ككل مجاز تحتاج إلى أن تقدم في الكلام ما يبين الجهة التي بنيت العبارة عليها . أو كما يقول : «وأنت تحتاج في الأمر الأكثر إلى أن تمهد لها ، وتقدم وتؤخر ما يعلم به أنك مستعير ومشبه ، ويفتح طريق المجاز إلى الكلمة» ثم يمثل على ذلك بما اتبعه الشاعر في قوله :

وصاعقة من نصله ينكفي بها على أرؤس الأعداء خمس سحائب

فحين أراد استعارة «السحائب» للأصابع . مهد الكلام لذلك ، «ولم يأت بها دفعة ، ولم يرمها إليك بغتة ، بل ذكر ما ينبيء عنها ، ويستدل به عليها ، فذكر أن هناك صاعقة ، وقال من نصله ، فبين أن تلك الصاعقة من نصل سيفه ثم قال : أرؤس الأعداء . ثم قال خمس فذكر الخمس التي هي عدد أنامل اليد . فبان من مجموع هذه الأمور غرضه»[2] . وقد يطول بنا الحديث إذا رحنا نتتبع ما جاء به عبدالقاهر من الأمثلة التي يكشف من خلالها أهمية النظم في حسن المجاز أو الاستعارة وقبولها في قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا» . فهو لا

(١) دلائل الإعجاز : ص٢٩٠ . (٢) السابق : ص٢٩١ .

يرى ما رآه غيره من نسبة الحسن إلى استعارة «اشتعل» للشيب . بل الحسن عنده يرجع إلى نظم الكلام على النحو الذي جاء عليه . فالفعل في الآية لا يسند إلى الشيب . بل يسند لما هو من سببه ، أو بعبارة أخرى حدث تحويل في العبارة . فقدم المضاف إليه ، وجعل فاعلاً . وأخر المضاف ونصب على التمييز . ولهذا يقول النحاة عنه إنه تمييز محول عن الفاعل . وهم بذلك يشيرون إلى وضعه الأصلي في الكلام . والتبادل في الموضعية بين المضاف والمضاف إليه كانت السبب في كثير من الجمال الذي نحسه في الآية ، كما كانت السبب في ذلك المعنى الذي لا يشير إليه الكلام قبل هذا التحويل . وهذا ما يتضح من السؤال الذي طرحه عبدالقاهر الجرجاني وأجاب عليه . فقال : فإن قلت : «فما السبب في أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذاالوجه كان له الفضل ، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى «الشمول» وأنه شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه استقر به ، وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به»[1] .

الأمر الثالث الذي يتوقف عليه حسن الاستعارة وقبولها . ما أطلق عليه النقاد : «مناسبة المستعار منه للمستعار له» والقاضي الجرجاني يسلط بعض الأضواء على هذه المسألة . فالاستعارة عنده «ما اكتفى فيها بالإسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه»[2] ، وهو يعود في مكان آخر ليبين صحة الاستعارة وحسنها فيقول : «وإنما تصح الاستعارة وتحسن ، على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة»[3] . ومعنى ذلك أن صحة الاستعارة تتوقف في جانب منها على وجود الشبه بين المستعار منه ، والمستعار إليه . فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه . وهم يطلقون عليها هذا المصطلح ويقولون إن كل استعارة تشبيه وليس كل تشبيه استعارة . وعند تحليل أي صورة من صور الاستعارة نعود بها إلى الأصل ، ونظهر المشبه والمشبه به ، ثم

(١) السابق : ص١٣٢ - ١٣٣ . (٢) الوساطة ، ص٤١ . (٣) السابق : ص٤٢٩ .

نبين كيفية الانتقال بينهما . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا النقل والتبادل بين المشبه والمشبه به لا يتم في كل صورة من صور التشبيه ، لأن من هذه الصور ما يكون مبناه على التشبيه فإذا حاولنا المبالغة فيه ، وإخراجه إلى الاستعارة لم يتم لنا هذا فلا يمكننا أن نقوم بهذا النقل في قوله تعالى : «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء» لأننا حينئذ سنقول : إنما الحياة ماء أنزلناه من السماء ، أو الماء ينزل من السماء وذلك كلام لا وجه . ومثل ذلك تجاهل التشبيه في قول الشاعر :

فإنــك كالليــل الــذي هو مدركي وإن خِلْت أن المنتـأى عنـك واسعُ

فإن حذف الكاف يخرج إلى غير المعنى المراد : «إنك تجد الاسم في الكثير وقد يوضع موضعاً في التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه من ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة والمبالغة ، وجعل هذا ذاك لم ينقد لك . كالنكرة التي هي (ماء) في الآية الكريمة . وفي الآي الآخر نحو قوله تعالى : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعـد وبرق» فلا يصح القول هن صيب دون إضمار أداة التشبيه لأن الموضع الذي تعبر عنه الآية لا يصح أن يجعلوا فيه صيباً .

ومادام الأمر كذلك فما الأصل الذي يمكن الرجوع إليه فيما يمكن صرفه إلى الاستعارة وما لا يمكن فيه ذلك .

لا يقدم عبدالقاهر الجرجاني قولاً قاطعاً في ذلك ، وإن كان يشير إلى شيء يمكن الاعتـماد عليه في هذا الصـدد . وهـو ما يتوقف عليه وضوح الشبه بين المستعار منه والمستعار له . يقول(١) : «فإن قلت فلابد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه للاستعارة والمبالغة ، وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصدر وجهك عنه متى أردته عليه . فالجواب : أنـه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن هنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها . وهي أن الشبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء . قد جرى العرف

(١) أسرار البلاغة : ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلاً فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس ، أو الاشتهار والظهور ، وأنها لا تخفي فيها أيضاً . وكالطيب في المسك ، والحلاوة في العسل ، والمرارة في الصاب ، والشجاعة في الأسد ، والفيض في البحر والغيث ، والمضاء في السيف إلخ فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تأتي سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة : وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف كونها أصولاً فيها ، وأنها أخص ما توجد بها . فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد»[1] .

الشرط إذاً وضوح الدلالة وعدم خفاء المراد ، لأن ذلك الخفاء يؤدي إلى اللبس والتعقيد في الكلام ، وذلك ما يتنافى مع المقدمات الضرورية التي وضعها النقاد للبلاغة في الكلام .

لكن يحق لنا أن نتساءل إلى أي مدى يتفق هذا الكلام مع ما ذهب إليه عبدالقاهر الجرجاني من الإعجاب بما كان التباعد فيه موجوداً بين المشبه والمشبه به من جهة ، وما يكون الوجه فيه خفياً من جهة أخرى .

لقد وجدنا عبدالقاهر يشيد بالتشبيه الذي يتم بين الأشياء المتباعدة . وهو يذكر لنا في هذا الصدد تلك الحادثة التي وقعت بين عدي بن زيد وجرير ، وما كان من إشفاق جرير على عدي حين افتتح التشبيه في قوله :

تُـزْجِـي أغـنَّ كـأن إبـرةَ رَوْقِــهِ

إذْ ما عساه يكمل به هذه الصورة . ثم تحول الإشفاق إلى حسد عندما أتمها فقال : قلم أصاب من الدواة مدادها .

ويتساءل عبدالقاهر : «فهل كانت الرحمة في الأولى والحسد في الثانية إلا لأنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر له في أول الفكرة وبديهة الخاطر وفي القريب من محل النظر شبه . وحين أتم التشبيه وأدّاه ، صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف»[2] .

---

(١) أسرار البلاغة : ص٢٣٠ - ٢٣١ . (٢) السابق : ص١٤٦ - ١٤٧ .

كذلك وجدنا عبدالقاهر يعلي من شأن التمثيل ، ويبين ماله من قيمة فنية في تصوير الأشياء ، وماله من قوة تأثير في متلقيه . ووجه الشبه في هذا النوع من التشبيه مما يحتاج إلى نظر واستنباط .

وهذا الأمر يزداد وضوحاً من خلال نظرته للاستعارة ووضعها في مراتب من حيث ظهور وجه الشبه من جهة . ومن حيث القيمة من جهة أخرى . فمما يجعل الاستعارة تعلو في سلم البلاغة مجيء الوجه فيها مما يدرك بالعقل ، ويحتاج إلى نظر وهو يبين أن الاستعارة تقع بين أمور متقاربة ، كما تقع بين أمور متباعدة . وهي حين تكتمل تكون فيها تباعد أعلى منزلة منها فيها تقارب . وأقل المراتب في سلم البلاغة . هي المرتبة الأولى تلك التي يكون المستعار منه والمستعار له من جنس واحد . أي أن التبادل يتم في دائرة محدودة هي دائرة الجنس الواحد ومن ثم يسهل الانتقال بين المستعار منه والمستعار له . وعلى سبيل المثال يشترك «السير والسباحة ، والعدو والطيران» في جنس الحركة . لكن هذه الحركة تختلف من حيث القوة والضعف . فإذا استعرنا الطيران لنعبر به عن السير السريع . فقلنا طار الجندي إلى المعركة . وكما جاء في حديث الرسول ﷺ «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيعة طار إليها» وقول الشاعر :

لو يشا طار به ذو مَيْعَةٍ لا حِق الأطال نَهْدٍ ذو خُصَلْ

فإننا قمنا بالنقل والتبادل بين الألفاظ في دائرة الجنس الواحد الذي يشتركان فيه . ولهذا تعد الاستعارة في هذا الصنف قريبة التناول وقريبة من الحقيقة ، إذ لا تحتاج إلى كبير عناء في ردها إلى أصلها ، والوقوف على حقيقتها .

ومن الاستعارة التي يشترك فيها المستعار والمستعار له في الجنس قوله تعالى : «ومزقناهم كل ممزق» فالتمزيق في الآية مستعار لتفريق الجماعة . والأصل فيه التفريق في الثوب .

وتجـدر الإشـارة إلى أن قرب الاستعارة في هذا الضرب ، أو فيما يأتي من الضروب الأخرى لا يعني أن غيرها أفضل منها في الموضع الذي عبرت عنه . فلكل مقام مقال . وقد يكون التعبير بالحقيقة . أو بأي وسيلة من الوسائل أبْيَنُ وأدل على المراد من غيره . إن بلاغة الأدوات الفنية رهن بالموقف الذي تعبر عنه واستجابتها لما يراد منها تصويره ووضوح دلالتها عليه .

كما تجدر الإشارة إلى أن أياً من مراتب الاستعارة تقع في طبقات ، وتتفاوت كل طبقة عن الأخرى في الأداء الفني .

المرتبة الثانية لا تبعد كثيراً عن الأولى ، أو لا يتصف الوجه بالخفاء فيها إلى الحد الذي يحتاج إلى نظر . فجهة الاشتراك بين المستعار منه والمستعار له موجود فيهـما ، وإن اختلفت درجتها . وتلك المرتبة هي التي يشترك فيها الطرفان في الصفة ، وان اختلف جنسهما ، وذلك كاستعارة البحر للرجل على معنى كثرة العطاء في كل منهما . أو الأسد للرجل على معنى الشجاعة في كل منهما .

المـرتبة الثالثة ، لا يكون بين الطرفين اشتراك في الجنس أو الصفة . بل الاشتراك يتحقق بينهما في لازم الصفة ، وذلك كاستعارة العسل للكلام . فليس بين الكلام والعسل التقاء في الجنس أو الصفة . ولكنهما يلتقيان فيما يترتب على حلاوة العسل من اللذة ، وما يترتب على حسن الكلام من اللذة . إن الاشتراك بين المستعار منه والمستعار له يتم في لازم الصفة .

ومن الواضح أن الدائرة التي يلتقي فيها الطرفان تتسع في كل مرحلة عن الأخرى ومن ثم تحتاج في الانتقال بين المستعار منه والمستعار له إلى ما لا تحتاج إليه في المرحلة التي تسبقها .

أما المرحلة التي يوليها عبدالقاهر الجرجاني اهتمامه ، ويتحدث عن قيمتها الفنية وآثارها في تفتيق مجالات القول . والتي يجعلها أرفع منازل الاستعارة لأنها

-كما يقول- «التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تصرفها وتفننها ، وهنا تبلغ لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب[1] ، وهو يجعلها الصميم الخالص من الاستعارة . وبين أنها «ماكان الشبه فيها مأخوذاً من الصور العقلية . وذلك استعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للريب : كما جاء في التنزيل من نحو قوله تعالى : «واتبعوا النور الذي أنزل معه» واستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم» ، «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم» فأنت لا تشك في أنه ليس بين النور والحجة اشتراك في جنس أو صفة أو لازم لها . «وليس الشبه الحاصل من النور في البيان والحجة ونحوهما ، إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة ، صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ، ووجهت طلائعه نحوه ، وجال في معارفه ، وانتشر ، وانبث في المسافة التي يسافر فيها طرف الإنسان . وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل في الخلقة ، وإنما هو صورة عقلية»[2] . أما إعجاب عبدالقاهر بما يكون التباعد قائماً بين طرفيه . فوجه الحسن فيه أن يتم التقريب بين هذين المتباعدين عن طريق التماس وجه الشبه الواضح ، والذي يقرر عبدالقاهر أنه موجود في الواقع على نحو ما نجد في تشبيه عدي بن زيد ولكن يحسب للأديب دقة الخيال ، وقوة الملاحظة التي جعلته يكتشف هذا الشبه بين المتباعدات ، ويقرب بينها على أشد ما يكون التقريب .

ودقة الوجه وخفاؤه . وحاجته إلى النظر والاستباط مما يدل على قوة القلب وقدرته على النفاذ إلى عمق الأشياء ، واكتشاف الشبه بينها ، وقدرته على الربط فيها . وليس يكفي في هذه الأمور مجرد اكتشاف الشبه ، أو القدرة على إحكام الربط بين الأشياء ، بل يتحتم تهيئة الأسلوب على نحو ما سبقت الإشارة إليه

(١) أسرار البلاغة : ص٥٨ - ٦٥ .   (٢) السابق : ص٦٤ - ٦٥ .

ويجب أن نقرر أنه كلما تباعد الطرفان ، أو خفى الوجه بينهما كلما اقتضى ذلك مزيداً من الأضواء على الأسلوب لكشف المجاز .

ومن الأمور التي تلقى ضوءاً على المجاز ، وتقربه من الحقيقة ، ومن ثم تجعله مقبولاً ، إضافة ما يطلق عليه «التجريد» وهو ذكر صفات تتعلق بالمستعار له ، وذلك كقول الشاعر :

يؤدون التحية من بعيد ... إلى قمر من الإيوان باد

ويلاحظ أن الشاعر قد جاء بشيء يتعلق بالمستعار له «الممدوح» وذلك بعد أن استوفت الإستعارة قرينتها . وهي قوله «من الإيوان باد» ودل بذلك القول على أنه لا يتحدث عن القمر المعروف ، وإنما يتحدث عمن يشبه القمر رفعة وعلو منزلة .

وإذا كانت «القرينة» في المجاز من الأمور الأساسية في بنائه . لأنها أول ما يدل عليه . فإن التجريد «تكون له أهميته الكبيرة في بعض صور المجاز وقد أشار «جار الله الزمخشري» إلى ذلك عند تناوله لقوله تعالى : «واضرب لهم مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[1] .

فقد اشتملت الآية على استعارتين ، وإحداهما موقعة على الأخرى . وحين يأتي الكلام على هذا النحو يشتد فيه الغموض . ويقتضي الكلام كثيراً من المعالجة ليتم . وهذا ما أدركه الزمخشري وعلل له حين قال : «فإن قلت ، الإذاقة واللباس استعارتان . فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة ، موقعة على اللباس المستعار . فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الشر والألم ، بما

(١) سورة النحل : آية ١١٢ .

يدرك من طعم المرو البشع . وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، فأغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث . وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة أذاق عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف[1] . والزمخشري بذلك يبين ما سوغ الاستعارة في كل من الإذاقة واللباس . وما سوغ حمل إحداهما على الأخرى ، مع ما قد يسببه حمل استعارة على غيرها من الغموض . وقد أظهر أن المسوغ في ذلك كله ما جرت عليه العادة في الاستعمال اللغوي لكل منهما .

ومما سبق يمكننا القول ، بأن المجاز والاستعارة جنوح بالكلام عما هو مألوف فيه من الاستعمال . وأن هذا الجنوح باب من أبواب التوسع في التعبير عن المعاني التي لا تتسع ألفاظ اللغة للتعبير عنها .

وقد ولج الأدباء في القديم والحديث هذا الباب . لما وجدوه يهيء لهم من طرق الإبداع . إلا أنه باتساع استخدامه ، وتنويع الأدباء في طرقه وخروجهم عما كانت تمليه الفطرة اللغوية . كان لابد من بيان الحدود التي يمكن أن تقبل فيها الاستعارة .

وأول ما نجده في ذلك :

(١) وجود ما يسمى بالقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي ، فاللفظ المستعار إذا ذكر دون أن يوجد في الكلام دلالة من اللفظ أو الحال يشير إلى نقله . لم يعبر إلا عن المعنى الموضوع له .

(٢) لابد من وجود علاقة واضحة تسوغ الانتقال . وهي في الاستعارة شبه واضح صحيح . وقد وجدنا القاضي الجرجاني يشترط صحتها وحسنها في

---

(١) الزمخشري : محمود بن نصر : تفسير الكشاف ، جـ٢ ، ص٤٣١ .

قوله[1] : «إنما المقارنة تصح وتحسن على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة» ومثل هذا يقوله ابن سنان الخفاجي[2] . الذي يجعلها على قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح . والقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح .

(٣) انه من خلال قبول القدامى لبعض الاستعارات ، ورفضهم لبعضها على الرغم من أن الألفاظ كانت واحدة . يمكننا القول بأنه لابد من إعداد الكلام وتهيئته لقبول الاستعارة . وقد تحدث عبدالقاهر الجرجاني عن ذلك صراحة على نحو ما أسلفنا .

(٤) أن المراد بوضوح العلاقة . أن يكون الشبه الذي ينقل من أجله اللفظ وصفاً معروفاً فيه . وأنه قد أصبح أصلاً في معناه يقاس عليه كالشجاعة في الأسد . والاشتهار والحسن في الشمس . والحرارة في الصلب . والعطاء في البحر .

(٥) إن الوضوح في العلاقة الذي أشرنا إليه يستند إلى عادة أو عرف . على نحو ما عرف عندنا من استعارة الظبية للجميلة .

(٦) بعض المجازات التي لم يقبلها النقاد القدامى لم يكن السبب في ردها تجسيدهم للمعنويات وتشخيصها ، إذ ورد في القرآن الكريم وفي الشعر القديم ما فيه من الإيغال في تجسيد المعنويات . وعلى الرغم من ذلك كانت حسنة مقبولة . ولعل السبب في عدم قبولها عدم تمكن الشعراء من إلقاء الضوء الكافي عليها .

---

(١) الوساطة : ص٤٢٩ .

(٢) سر الفصاحة : ص١٣٦ .

(٧) إن من سبل الإنارة التي توضح المجاز ما يطلق عليه «التجريدة على نحو ما بينا .

(٨) إن وضوح الشبه لا يتنافى مع ما ذهب إليه عبدالقادر الجرجاني من دقة الشبه أو اختلاف جهة المستعار منه عن المستعار له . فالمعول على تهيئة الأسلوب ، والوقوع على الوجه الذي تتم الاستعارة عليه ، والتقريب بين الطرفين إلى الحد الذي يسوغ أن يحل أحدهما محل الآخر .

* * *

مصادر البحث

١ - أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني ت محمد عبدالعزيز النجار ، صبيح ، ١٩٧٧ .

٢ - الإيضاح : الخطيب القزويني - دار الجيل - لبنان .

٣ - التصوير البياني : محمد أبو موسى - وهبة - القاهرة ١٩٨٠ .

٤ - تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضى - ت محمد عبدالغني حسن ١٩٥٥ .

٥ - دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني - ت محمد عبدالمنعم خفاجى ، ١٩٦٩ .

٦ - سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ، ت عبدالمتعال الصعيدي ، ١٩٥٣ .

٧ - شرح ديوان أبي الطيب المتنبي : أبو البقاء العكبري ، المعرفة ، بيروت ، ت - السقا - الأبياري ، ١٩٧٧ .

٨ - علم اللغة - مقدمة : محمود السعران - دار المعارف - مصر .

٩ - العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق - أبو محمدالحسن - ت محمد محيي الدين عبدالحميد ، ١٩٦٣ .

١٠ - الفصاحة - مفهومها - قيمها الجمالية : توفيق الفيل ، حوليات كلية الآداب ، الرسالة ٢٧ .

١١ - كتاب البديع : ابن المعتز ، ت كراتشقوفسكي ، ١٩٧٩ .

١٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل : جار الله الزمخشري - ت محمد الصادق قمحاوي ، ١٩٧٢ .

١٣ - الموازنة بين أبي تمام والبحتري : الآمدي - ت سيد صقر ، ١٩٧٢ .

١٤ - الوساطة : القاضي الجرجاني : ت البجاوي ، ط٤ ، ١٩٦٦ .

نظرية ريبيرا
حول عروبة الأندلس

الدكتور عدنان مصطفى
مدرس بقسم اللغة العربية

مقدمة :

إنه موضوع قد يثير استغرابنا للوهلة الأولى ، إذ من يشك في صحة حقيقة الانتماء العربي لأهل الأندلس . وهم إذا لم يكونوا عرباً في أنسابهم ، فماذا نعتبرهم إذن . . ؟

المستشرقون الإسبان ، ابتداءً بـ «خوليان ريبيرا» وحتى آخر متخصص في مجال الدراسات الإسلامية أو السامية ، يجعلون الأندلسيين إسباناً . وأنه ليس يذكّرهم بالأصل العربي البعيد الذي انحدروا منه سوى عاطفتهم الدينية التي تجعلهم ، بين الحين والآخر ، يولون وجوههم شطر بيت الله الحرام .

وضع هؤلاء جملة من البحوث ، عرضوا فيها لقضية الاستعراب ، واللغة المنطوقة ، والأجناس البشرية التي كَوّنت المجتمع الأندلسي . فاتّسمت كتاباتهم بالتعصب الشديد لقوميتهم ، والتعصب الأعمى لمسيحيتهم . ثم استندت على افتراضات خاطئة يرفضها المنطق . وقد حاول بعضهم تشويه الحقائق وتزييف النصوص العربية عن طريق ترجمتها إلى الإسبانية بمقتضى أهوائهم .

رأينا أن ننهض لهذا الأمر ، وننفض عنه الغبار . يحفّزنا إلى ذلك أيضاً ، أن عدداً غير قليل من الباحثين العرب ، المشتغلين في مجال الدراسات الأندلسية ،

يجهلون اللغة القشتالية ، وبذلك تتعذر عليهم معرفة الموضوعات التي تكتب بها .

وللأمانة العلمية ، حرصنا على تسجيل آراء الإسبان بدقّة ، فيستفيد الدارس من النصوص المترجمة ، ويكوّن صورة صحيحة عن الموضوع والملابسات التي تحيط به .

إن جوهر القضية بالنسبة إليهم ، يتبلور في محورين رئيسيين . أولهما : أنهم يعتقدون أن الأندلسيين ، ابتداءً من الجيل الثالث أو الرابع على الأكثر ، لم يعودوا عرباً . وثانيهما : أن إسبانيا تأسلمت ، ولكنّها لم تتعرب . .

وفيما يتعلق بالمحور الأول : فإن خوليان ريبيرا ، يُعتبر صاحب أول نظرية تطرح في هذا المجال . وتقوم نظريته أساساً على دراسة سلسلة النسب الأبوي ، وإبراز أهمية الدور الذي يلعبه دم الأم في تكوين الأبناء . ولكي يثبت أن الأندلسيين لم يعودوا عرباً ابتداءً من الجيل الثالث ، يدرس موضوع زواج المسلمين الفاتحين من النساء الإسبانيات . ثم يركّز على إظهار أثر الدّم من جهة الأم في التكوين العرقي للأجيال المولدّة . وممّا يقوله في هذا المضمار : «إن الطفل ليس مخلوقاً يتفرد الأب في التأثير في تكوينه . بل للأم شأن كبير في ذلك أيضاً . وربما ، أو بدون ربما ، يكون للأم الدور الأكبر . فكم من الوقت تحمل الأم إبنها بين أحشائها . وكم من أشهر يكون غذاؤه خلالها من صدرها . ولو شئنا تتبع سلسلة نسب الطفل ، وإبراز الدور الهام الذي يلعبه دم الأم ، لخرجنا بانطباع يختلف تماماً عن أي توقع منتظر»(1) .

والأستاذ خوليان ريبيرا ، لا يعدم الوسيلة التي تمكّنه من دعم نظريته . فهو يفطن إلى أن أمراء وخلفاء الأسرة الأموية التي حكمت الأندلس ، ابتداءً بـ

(1) Julian Ribera : Disertaciones y Opusculos, Vol I. pp. 12 ff.

عبدالرحمن الداخل ، كانوا أبناء لأمهات غير عربيات . فيجري تجربته على هذه الأسرة ، ويجعلهـا محور نظريتـه . يقـول : «كان عبدالرحمن الداخل إبناً لأمَةٍ بربرية ، وكان هشام الأول إبناً لأمَةٍ إسبانية أهدتها لأبيه ابنة يوسف الفهري . . وعلى نفس الطريقة يتوالى جميع أفراد هذه الأسرة . .»[1] .

ويجري بعد ذلك تحليلاً حسابياً ، فيقول : ونتيجة لذلك ، أننا إذا أردنا حسـابياً تأكيد النوع العرقي ، آخذين بعين الاعتبار سلسلة النسب من جهة الأم ، مع مراعـاة سلسلة النسب من جهة الأب . فالنتيجة سوف تكون على الشكل الآتي : إن عبدالرحمن الأول كان يحمل نصف دم عربي ونصف دم بربري (على افتراض أنه لم يحصل امتزاج لأفراد عائلته من قبل مع أجناس غير عربية) وهذا يعني أن نسبة الدم التي يحملها تكون بالأرقام ٥٠ بالمائة دماء عربية ، و٥٠ بالمائة دماء بربرية . وكذلك ، فسوف يحمل إبنه هشام الأول ، لكونه من أمّ غير عربية ، ٥٠ بالمائة من دماء الأم ، و٢٥ بالمائة دماء بربرية ، ويحمل فقط ٢٥ بالمائة من الدم العربي .

وهكذا إذا مضينا في هذا الدرب المنحدر ، فإننا نجد أن الحكَم الأول ليس له من الدم العربي سوى ١٢,٥٠ ، وليس لعبدالرحمن الثاني سوى ٦,٢٥ ، وأن الأمـير محمد ليس له سوى ٣,١٢ ، وأن ولديه المنذر وعبدالله ليس لهما سوى ٠,٣٩ ، والحكم الثاني ليس له سوى ٠,١٩ ، وأخيراً فإن هشام الثاني ليس له سوى ٠,٠٩ بالمائة من الدم العربي[2] .

ويضيف ريبيرا قائلاً : «لو تأملنا ، من الوجهة الخارجية ، سلسلة نسب الخليفة هشام الثاني ، لوجدناها تكتظ فعلاً بأسماء عربية كثيرة لآبائه وأجداده . ولكننا إذا راعينا العملية الحسابية التي أجريناها ، نتبينّ أن الدم العربي الذي

(1) Julian Ribera : Disertaciones y Opusculos, Vol I. pp. 16.
(2) Disertaciones y Opusculus, Vol I. pp. 16.

يحمله هذا الخليفة أقل من جزء واحد من الألف»[١] .

ونتيجة لتلك النظرية ، فإن أهل الأندلس يصبحون عند ريبيرا إسباناً ينتمون إلى الشعب الأوروبي أكثر من انتمائهم للشعوب السامية في المشرق . ولهذا فإنه يهمل في دراساته استخدام مصطلح «أندلسي» أو «أندلسيون» حين يتحدث عن حضارة الأندلس . وبالتالي فإنه حين يدرس النصوص العربية ، فيترجم مباشرة كلمة أندلس «إسبانياً» وهذا ما فعله غرسية غومس أيضاً . ثم أصبح الأمر عادياً عند الباحثين الأسبان . ولم يشأ أحد منهم الإقرار بخطورة ذلك .

ومن جهة أخرى ، فإن ريبيرا يتأمل المظاهر المختلفة للحياة الاجتماعية والعملية لأهل الأندلس ، ثم يؤكد على إسبانيتهم بأنهم : «كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية - «كعيد يناير» و «عيد القديس يوحنا» - ويسيّرون أعمال زراعتهم وغيرها ممّا تمس إليه حاجاتهم بمقتضى التقويم الأوروبي . ثم أنهم كانوا يتحدثون لغة أوروبية ، ويديرون أغانيهم حول مواضيع أوروبية»[٢] .

ولكن كيف تبدو الحقيقة من وجهة نظرنا نحن . . ؟

المتّفق عليه أن المسلمين الذين افتتحوا الأندلس ، كانوا من الجند المحاربين . وكانت طبيعة الحروب وانتقال الجيوش من مكان إلى آخر لا تسمح بأن يصطحب الجند نساءهم معهم ، فيدفعهم بُعدهم عن أوطانهم وأسرهم إلى مصاهرة أهالي البلاد المفتوحة . وهكذا لم يجد العرب بأساً في الزواج من النساء الإسبانيات . نتج عن ذلك ظهور جيل مولّد يشعر بعاطفته نحو أمه أكثر من

---

(1) Disertaciones y Opusculus, Vol I. pp. 16.

(2) Historia de la Literatura Arabigo – Espanola, pp. 29.

أنظر أيضاً : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢١ .

شعـوره نحو أبيه . ومنشأ ذلك ، أن الظروف لم تكن بعد قد أتاحت الفرصة للعـرب في إثبـات وجـودهم الثقافي والحضاري . وكانت تنتظرهم مسؤوليات جسيمـة ، أهمّهـا ، العمـل على استتباب أمن البلاد على الصعيدين الداخلي والخـارجي . ثمّ العمـل على صَهر الكِتل البشرية المختلفة الأجناس في بوتقة اجتـماعية واحدة ، تحمل طابع الأندلسية ، وتتعرّب بجعل العربية لغة البلاد الرسمية ، واللغة التي توّحد أَلْسِنَتهم في ميادين الحياة الخاصة والعامة . ولم يكن تحقيق ذلك بالأمر اليسير .

وليس علينا أن نظن ، أن أمر الوجود العربي اقتصر على من دخل منهم مع الجيوش الفاتحة ، وإنّما نؤكد أن تيار الهجرة من المغرب والمشرق إلى الأندلس لم يتوقف ، لا على شكل جماعات كثيرة العدد ، ولا على شكل عائلات مهاجرة ، بما فيها من النساء والشيوخ والأولاد . وقد استمر تيار الهجرة طويلاً . وبمرور الوقت كان زواج العرب من الأجانب يتلاشى شيئاً فشيئاً . خاصة أن الطبقة المحـافـظة شديدة الحـرص في الحفـاظ على أنسابها العربية ، تجد فيها فخرها وعـزتها . أضف إلى ذلك أن النساء الإسبانيات كنّ يساهمن في محاربة الوجود الإسلامي ، ديناً ولغة . وكانت الكنيسة تدفعهم إلى الاستشهاد عن طريق حرق أنفسهن بالنار ، بعد القذف بالإسلام والمسلمين .

إن جرثومة العصبية القبلية ، كانت متأصلة في نفوس العرب ، تبعث فيهم روح التضامن مع القبائل التي ينتمون إليها ، وحصر النسب فيها . فلسنا ندري كيف نسي خوليان ريبيرا ذلك ، وكان يعلم أن العصبية القبلية تسّبب في إضعاف نفوذ العرب في أزمنة مختلفة .

فمن العبث إذن ، أن نزعم أن العـرب كانـوا طوال العصر الأندلسي لا يتزوجون إلّا إسبانيات ، ولا ينجبون إلّا الذكور ، ليتزوجوا بدورهم من النساء العجميات فتضمحل بذلك الدماء العربية ، ولا يبقى غير العنصر المولّد . . !

أما عن استشهاد ريبيرا بالأسرة الأموية ، كدليل على اضمحلال الدم العربي من الأندلس . فإنه أمر يحسن الوقوف عنده قليلاً . فهو وإن صحّ من جهة ، فإنه لا يصح من جوانب عدة . أولاً : إن ما لاحظناه في موضوع الأسرة الأموية ، يكاد يكون ظاهرة وحيدة لا نعثر على مثيل لها طوال عهد المسلمين في الأندلس . ثانياً : إننا لا نعرف أن امرأة «أموية تزوجت إسبانياً» . بينما نعثر في صفحات المصادر على أسماء كثيرة لنساء أمويات متزوجات من رجال عرب من ذوي المراتب العلمية أو غيرها . ومن جهة أخرى ، فإن ابن حزم حين يتحدث عن قبائل بَلي يقول[1] : «ودار بَلي في الأندلس : الموضع المعروف باسمهم بشَمالي قرطبة ؛ وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ؛ لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم» .

إنه نصّ صريح يوضّح أن الرجال والنساء الذين يتحدث عنهم ابن حزم ، جميعاً من العرب الذين يحافظون على أنسابهم ، ويحافظون على لغتهم العربية ولا يكترثون باللغة اللطينية ، التي هي لغة الإسبان سكان البلاد الأصليين . فيبدو أن المسلمين لم يجدوا بأساً في معرفة تلك اللغة لِيتمّ لهم التفاهم مع النصارى ، وهو أمر طبيعي ، وكان هذا في بداية الأمر .

وأخيراً ، فإن إحساس الأندلسيين بعروبتهم ، لو تعرض للتلاشي ، فإن إحساسهم بالحفاظ على أنسابهم كان تلاشى أيضاً ، لأن العجم لا تكترث بهذه الظاهرة ؛ وما كان ابن حزم يُعنى بوضع كتاب «جمهرة أنساب العرب» ؛ ولو كان ابن حزم إسبانياً كما يدّعي خوليان ريبيرا وغرسية غومس ، لوجب عليه في أقل تقدير أن يضع كتاباً يسميه : جمهرة أنساب الإسبان . . !

وبعد هذا ، فهل يجوز للأستاذ ريبيرا ، أن يسمّي أهل الأندلس

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، ص٤٤٣ .

«إسبـاناً» . . ؟ . فهو على سبيل المثال ، حين يتحدث عن النهضة الفكرية في الأندلس في العصر المرابطي ، يقول :[1] : وصل الإسبان من أهل الجنوب إلى أعلى درجات الإزهار الأدبي ، بل كان لهم أدب شعبي يجري على أساليب أوروبية» .

إن الباحث المنصف سوف يدرك خطورة هذا التحوير في التسمية . فلفظ «الإسبـان» سوف يُوهم أن حضـارة الأندلس من صنع الإسبان سكان البلاد الأصليين ، أي النصارى ؛ والنص يرد بلغته الأصلية هكذا[2] :

El pueblo espanol de las regiones del Medio

ونحن لابد لنا من توضيح ما يلي : أولاً : إنه لم يكن للإسبان سكان البلاد الأصليين أيّة مشاركة فعلية أو إسهاماً في صنع حضارة الأندلس ؛ والشخصيات التي برزت بين المستعربين من النصارى أو اليهود على حدّ سواء ، كانت محدودة جدّاً . ونحن حين نتحـدث عن حضـارة الأندلس ، إنّما نتحدث عن أولئك العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة والفقهاء وغيرهم ، وهم في غالبيتهم العظمى من العرب . ومن كان ينتمي منهم إلى البربر ، كإبن دراج وغيره ؛ فإن البربر بعد الفتح الإسلامي للمغرب تعربوا باتخاذ اللغة العربية لساناً لهم ، وأنها أصبحت عندهم لغة الفكر والحضارة ؛ ولا تزال هكذا حتى يومنا هذا .

إن لفظ «إسبان» يجب أن يستخدم كنعت للنصارى فقط ؛ ولابدّ من التنويه أيضـاً أن شبـه جزيرة إيبـيريا في ذلـك الـوقت كانت تشتمل على دولتين ، أو مملكتين ؛ الأولى : دولة النصارى الإسبان ؛ تتكلم اللغة القشتالية ؛ وشعبها شعب أوروبي . والثـانية : دولـة الأنـدلس ؛ دينهـا الإسـلام ؛ ولغتها اللغة

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢١ ، أنظر أيضاً .

– Historia de la Literatura Arabigo – Espanola, pp. 28.

٢ - أنظر Historia de la Literatı ra Arabigo – Espanola, pp. 28

العربية ؛ وشعبها من أصل عربي ، إلى جانب البربر المسلمين الذين تعربوا لغة وفكراً .

فلا يجوز أن يقال إذن : حضارة الإسبان من أهل الجنوب . فهي حضارة أولئك العرب الذين عُرفوا باسم أهل الأندلس ، أو الأندلسيين ، لاتخاذها وطناً لهم ، وأصبحت نسبتهم إليها تميّزهم عن الإسبان سكان البلاد الأصليين ، وهم لم يتنكروا قط لأصلهم ، وظل إحساسهم بعروبتهم مصدر فخرهم وعزهم حتى آخر يوم لهم في الأندلس .

أما قول ريبيرا أنه كان للأندلسيين أدب شعبي يجري على أساليب أوروبية . فإنه يشير إلى الموشحات والأزجال ، وقد أثبتنا في كتابنا «الجديد في فن التوشيح»[1] .

إن تلك الأساليب الشعرية الأوروبية التي يتحدث عنها ظهرت في أوروبا بعد ظهور فن التوشيح بقرنين على الأقل ، وكانت محاكاة للموشحات وليس العكس .

وأخيراً ، فإن ما يذكره ريبيرا أن الأندلسيين كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية ، ويسيّرون شؤونهم وفق التقويم الأوروبي . فهو كلام عليه تعليق كثير . لقد نسي هذا المستشرق شهرة زرياب وتعاليمه التي استطاع أن يغيّر بها ملامح المجتمع الأندلسي في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة ؛ في المأكل والملبس ، والاعتناء بالمظهر العام للفرد ، وشيوع الموسيقى والغناء . فهو الذي علم الأندلسيين طرائق مختلفة في صنع الطعام وطريقة تناوله التي لا تزال قائمة في أوروبا حتى اليوم ؛ وهو الذي نبّه الأندلسيين على ضرورة الإعتناء بالملبس واختيار الثياب المناسبة بحسب الفصول ، واستحدث طرائق

---

١ - الجديد في التوشيح ، ص ٧٠ .

مبتكرة في تصفيف الشعر ، وقد انتقلت تلك التعاليم إلى أوروبا مباشرة .

وإذا احتفل أهل الأندلس بأعياد غير إسلامية ، فهو جزء من التفاعل الحضاري الذي تمّ بين طوائف الأندلس المختلفة .

وربما استخدم أهل الأندلس التقويم الأوروبي في تسيير شؤون أعمالهم في مجال الزراعة وغيرها ، مع علمنا أن جميع المصادر التي تؤرخ للأندلس تستخدم التاريخ الهجري فقط . وقد يكون استخدام التقويم الأوروبي بين المسيحيين في مناطقهم ، أو بينهم وبين العرب في المدن التي سقطت مثل مدينة طليطلة .

وعلى كل حال ، فإن التقويم الأوروبي في ذلك الحين ليس هوالمعروف اليوم ، بل كان يعرف باسم «تاريخ الصفر» . فقد وصلتنا مجموعة كبيرة من الصكوك التي تمثل طريقة البيع والشراء وإجراء جميع المعاملات العامة ، في مدينة طليطلة بعد سقوطها سنة ١٠٨٥م . فقد جاء في أحد الصكوك[١] : «اشترى عبيد بن أسد من خلف بن عبدالله جميع الكرم الذي له في أول منزلة رزين.. . في شهر نوفمبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر» . و«تاريخ الصفر هو تاريخ كان مصطلحاً عليه في إسبانيا من قبل دخول الإسلام ، بل من قبل المسيح . وكان مبدأه في أول يناير سنة ٣٨ قبل المسيح لعهد أغسطس قيصر ، وبقي هذا التاريخ معروفاً في إسبانيا إلى القرن الخامس عشر للمسيح»[٢] .

أما قول ريبيرا ، أن أهل الأندلس كانوا يتكلمون لغة أوروبية ، فشأنه في ذلك شأن جميع الباحثين الإسبان . فهم يزعمون أن اللغة العربية كانت منحصرة ضمن الدوائر الرسمية وفي مجالات التعليم فقط . أما على مستوى

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص٣٦٨ .
٢ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص٣٦٨ .

الحياة الاعتيادية ، فكانت اللطينية أو الرومانثية ، ويقصد بها عامية اللغة القشتالية .

ونحن نؤكد بدورنا عدم صحّة هذا الرأي ، ونؤكد أن اللغة العامة المستخدمة من قبل جميع الطوائف ، كانت عامية العربية المطعّمة بمفردات أجنبية : إسبانية ، بربرية ، وعبرية . ودليلنا على ذلك ، فن الزجل ، وهو فن شعبي يصور الأندلسيين في حياتهم الاجتماعية الأكثر ابتذالاً . ويمكننا أخذ صورة واضحة عن اللغة العامية المنطوقة ، بإلقاء نظرة عابرة على ديوان ابن قزمان وعلى أزجال غيره من الشعراء .

ومع هذا ، فهناك حقيقة هامة لا ينبغي على الباحث المنصف إهمالها ، وهي أن الطوائف الأندلسية كانت تعيش حياة تشبه حياة المعسكرات . ويجتمع أفراد كل طائفة في ضاحية معيّنة تُعرف باسمهم ، كضاحية الربض ؛ فقد كان سكانها من البربر فقط . وكذلك كان الحال مع نصارى الأندلس . ولسنا نستغرب أن يتكلم هؤلاء فيما بينهم بلغتهم الأصلية ، ولكنهم عندما يخرجون إلى المجتمع ، يستعملون عامية العربية التي تعارفت عليها جميع الأجناس . فإننا نعثر في مواضع مختلفة من المصادر عن حوار يتم برطانة البربر بين البربر أنفسهم ، ونفس الشيء يتم عند الآخرين . وقد ذكرنا سابقاً أن قبائل بَلِي كانت لا تتكلم غير العربية .

أما أن يكون شيوع العربية بين الناس مرهوناً بعدد العرب الداخلين إلى الأندلس . فإننا نعترف أن العنصر العربي كان أقل من البربر وأقل من المسيحيين سكان البلاد الأصليين . ولكن ليس علينا أن نبالغ في ذلك . فلو تناولنا كل مدينة بمفردها وأحصينا عدد العرب فيها ، لَتَبيّنَ لنا أن عدد العرب لم يكن قليلاً ، كما نظن . ثم علينا أن ندرك شيئاً آخر بالغ الأهمية ، وهو أن الحضارة الأندلسية تدين للعرب دون سواهم .

ونحب أن نُنبّه ، أخيراً ، أن نظرية ريبيرا لقيت صدى واسع الانتشار بين البـاحثـين الإسبـان المتخصصـين في مجال العلوم السـامية ، أو الـدراسـات الإسلامية ، وتبنّوا جميع آرائه واعتمدوا عليها في بحوثهم التي خصّصوها في دراسة الأندلس حضارة ولغة وشعباً . فالمستشرق أنخل غونثالث بالنثيا ، على سبيل المثـال ، يستشهد بآراء ريبيرا فيقول في إحدى دراساته : «أصبح من الواضح نتيجة للأبحاث التي وضعها الأستاذ خوليان ريبيرا . أن أهل الأندلس الإسلامي كانـوا يستعملون العـربية الفصحى كلغـة رسمية يتعلمهـا الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها ، أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم بعض ، فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية el romance . وليس ذلك بغريب ، لأننا إذا ذكرنا أن عدد العرب الخلّص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلاً جداً ، تبيّنـا أننـا لا نستطيع اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشارقة ، ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع بعد الفتح ، ولنضف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلغة ، وأن ناسها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات أعجمية romance مختلفة مشتقة من اللاتينية»[1] .

ويقـول في موضع آخر : «بعد انقضاء بضعة سنوات ، أصبحت نظرية خوليان ريبـيرا مقبـولة وشائعة لدى الباحثين . تلك النظرية التي وضعها سنة ١٩١٢ ، أكّد فيها أن اللغة الرومانثية كانت اللغة المنطوقة عند مختلف طبقات المجتمع الأندلسي ، وأن ذلك المجتمع قد أصبح بأسره تقريباً من العرق الإسباني»[2] .

ولكي يؤكّـد غرسية غومس فكرة إسبانية الأندلسيين ، فإنه يستشهد على

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص١٤٢ .
٢ - أنظر : Moros y Cristianos en Espana Medieval pp. 46

صحّة إسبانية ابن حزم من خلال بيت شعر له ، يقول فيه[1] :

ويـا جوهـر الصين : سحقاً ! فقد غَنِيـتُ بيـاقـوتـةِ الأنـدلس

ويترجم البيت هكذا :

Vete en mal hora, Perla de la china!

me basta a mi Con mi rubi de Espana.

فقد اطمأن تمام الاطمئنان ، واقتنع تمام الاقتناع بجواز ترجمة «الأندلس» «إسبانيا» ، ثمّ أكدّ على إسبانية ابن حزم فقال : «وكان ابن حزم إسبانياً خالصاً» .

والحقيقة أن الذي جعل غرسية غومس يدّعي ذلك ، أنه استغل قضية اختلاف الروايات في أصل ابن حزم ، واعتمد على رواية ابن حيان ، وهي الرواية الوحيدة التي يُذكر فيها أن ابن حزم مُوَلّد الأرومَة من عَجَمِ لَبْلَة[2] . والثابت إنه من أصل فارسي كما يَروي الحميدي تلميذه . وابن حزم نفسه يذكر نسبته إلى الفرس ، وقد افتخر بذلك في إحدى قصائده ، فقال[3] :

سَما بِيَ ساسـانٌ ودارا وبَـعْـدَهُـمْ قُرَيْشُ العُـلَى أعيـاصُهـا والعَنـابِسُ
فما أخّـرَتْ حَربُ مراتـبَ سُؤدَدي ولا قَعـدتْ بي عن ذُرَى المجـد فارس

وهكـذا نلاحظ فشل الباحثين الاسبان في جعل الأندلسيين من العرق الإسبـاني ، ونـلاحظ عدم أمـانتهم العلمية في تنـاول الحقـائق وفي ترجمـة النصوص ، واعتماد الضعيف منها في دراساتهم ، ثم تعميم الأحكام من خلال قضايا جزئية .

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٧٦ . أنظر أيضاً :

Historia de la Literatura Arábigo – Espanola pp. 65.

٢ - الذخيرة ، ق١ م١ ص١٧٠ .

٣ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص٣٠٤ .

فلم يكن ابن حزم إسبانياً خالصاً ، ولو كان كذلك ، لوجب عليه أن يتعصب لاسبانيته كما فعل ذلك عدد من المُولّدين ، وكان عليه أن يتعصب أيضاً لِلُغة الإسبان ، فجميع مؤلفاته عربية اللّغة والفكر والإحساس . .

أما فيما يتعلق بالمحور الثاني : في أن إسبانيا تأسلمت ولم تتعرب . . فإن خوليان ريبيرا له شأن في هذا المجال أيضاً ، فهو حين يتحدث عن مسألة التعريب في الأندلس ، يثير الفكرة الآتية : إن استخدام قوم لِلُغة غيرهم من البشر ، لا يعني البَتّة أنهم ينتمون إلى نفس العرق . فهو يقول : «إن اللغة لا تستلزم وجود عنصر بشري معين . فاللّغة اللاتينية مثلاً ، كانت لغة النطق والكتابة عند السلت والغال والجرمان والصقالية . . وكذلك فإن اللّغات السامية استخدمت من قبل شعوب مختلفة كالفرس والهند والاسبان . . . فإذا كان أهل الأندلس ينطقون ويكتبون باللّغة العربية فإن هذا ليس كافياً لجعلهم شعباً سامياً»[1] .

نلاحظ هنا أن ريبيرا يعرض علينا شيئاً متفقاً عليه ولا خلاف فيه ، ويخفي عنا الحقيقة التي نحن في صددها . فنحن لسنا ندعي أن النصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، أو النصارى الذين تمسّكوا بعقيدتهم في ظل المسلمين ، وعُرفوا بالمستعربين ؛ أو اليهود . . أنهم أصبحوا عرباً لأنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية ويكتبون بها . بل ما نريد طرحه : إن الحضارة الأندلسية هي من صنع الجنس العربي وليس لبقية الأجناس من مشاركة إلاّ في القليل الذي يُمكن حصره . فقلّما «تجد في الأندلسيين شاعراً مُفْلِقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً ، إلاّ ونَسَبُه من قبيلة من تلك القبائل العربية ، فكان يحيى الغزال أول شعراء الأندلس الفلاسفة من بني بكر بن وائل ، وكان يوسف بن هارون الرمادي معاصر المتنبي من كندة ، وأبو بكر المخزومي هَجّاء

١ - Disentaciones y Opusculos, vol I. pp. 12.

الأنـدلس من بني مخزوم ، وكذلك أبو بكر بن زيدون ، وابنه أبو الوليد بن زيدون الشهير ، وكان أبو بكر بن عمار ينتسب إلى مهرة بن قضاعة وغير هؤلاء كثيرون ، فضلاً عمّن لم يعرف سبيل اعتزائهم من الآباء ، لأن الانتساب إلى العـرب كان محفوظاً بالأكثر في العلماء والفقهاء والأعيان ، متميزاً فيهم كبني سراج الأعيان من أهل قرطبة ، فينسبون إلى مُذَجح ، وبنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة إلى مرّة بن أود بن زيد بن كهلان. . . وبنوا عبّاد أصحاب إشبلية إلى لخم بن عدي ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة»[1] .

وقال أحد الباحثين الاسبان : «تأسلمت الجزيرة ولم تتعرب ، عدا أنها قبلت اللغة العربية في مجال التعليم . حقّاً أن سكان الجزيرة اعتنقوا الإسلام ، ولكن وفود العرب إليها كان ضئيلاً . وقد أثبت الدكتور بوش ، أن العرب لم يبلغ عددهم العشرين عنـدمـا .اجتـازوا لأول مرة مضيق جبـل طارق سنـة ٧١١م . والعرب الذين كانوا برفقة موسى بن نصير ، لم يتجاوز عددهم خمسة آلاف رجـل . أمـا أهل إفريقيا ، فكانوا أقل من عشرة آلاف أتوا في بداية الفتح ، ثم تزوجوا نساء إسبانيات ، الأمر الذي جعل النشأ الجديد في معظمه يخلو من النسب العربي أو المغربي»[2] .

والغريب في هذا الباحث ، أنّه بدأ بحثه قائلاً : «إن غالبية سكان جزيرة إيبـيريا ، خلال القـرون الوسطى اعتنقوا الدين الإسلامي ، ولهذا فإنه من المحال أن نعتبر العرب عنصراً غريباً عنّا : فبكل اطمئنان يمكننا أن نؤكد أن الجد الثلاثين لأي إسباني اليوم يحتمل على الأكثر أن يكون مسلماً وليس مسيحياً»[3] .

١ - تاريخ آداب العرب ، ٣/٢٦٨ .

٢ - Introduccion a la Historia de Espana p. 59

٣ - Introduccion a la Historia de Espana p. 57

ويقول في مكان آخر من كتابه : يُتجه دائماً إلى مزج ما هو عربي بما هو إسلامي ، في الوقت الذي نجد فيه اختلافاً ظاهراً بين المعنيين . فنحن نفهم من المصطلح «عربي» ما يتعلق بالعرق واللغة العربية في محيط العربية السعودية : إن أهل السعودية فقط عرب . وفي المقابل يجب أن يُطلق لفظ «مسلم» على كل رجل يعتنق دين محمد . ومن الواضح ، أن اعتناق الدين الإسلامي يمكن أن يقوم به عربٌ أو أي عرق آخر كالبربر واللاتين ؛ ولا يجب مزج العرق بالدين ؛ ولهذا لا يمكن أن نتكلم عن التعريب في إسبانيا ولا عن العرق العربي»[1] .

وقد تحمّس باحث آخر إلى فكرة حذف صيغة «مستعربون» كتسمية تطلق على المسيحيين الذين احتفظوا بعقيدتهم وعاشوا في المدن الإسلامية ، فقال : «يبدو لي أنه من المنطق أن نسمّي المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الأندلس : «مسيحيون يعيشون في الأندلس» . ولست أرى أيّ مبرّر على تسميتهم مستعربين . والمستعربون هم أولئك الذين كانوا يعيشون في مناطق لم تكن تابعة للمسلمين في شمال إسبانيا ، ذهبوا إليها خلال عصور متفاوتة . تلك الفئات تُعتبر المسؤولة عن انتشار الثقافة والعادات الإسلامية في الشمال من إسبانيا»[2] .

ويضيف قائلاً : «يجب أن نعلم أن صيغة «مستعرب» ، وكذلك الصيّغ المشتقّة الدّالة على التعريب ، كانت مجهولة في محيط مثل المحيط الأسباني العربي . والنتيجة الطبيعية لهذه القضية ، أن عبارة «مستعربون» لم تكن قد استخدمت إطلاقاً للدلالة على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الإسلام»[3] .

---

١ - Introduccion a la historia de Espana,p. 58

٢ - Andalucia Medieval, p. 150

٣ - Andalucia Medieval, p. 151

إن ما يشين أبحاث الإسبان أحياناً ، تعصّبهم الشديد لقوميتهم ومسيحيتهم . فهذا الباحث يدعو إلى حذف مصطلح «مستعرب» ويستنكر أن يكون قد استخدم كتسمية تطلق على المسيحيين الذين اتخذوا اللّغة العربية لساناً لهم . وكأنه لم يطّلع على الصكوك الكثيرة والوثائق التي عُني أنخل غونثالث بالنثيا بجمعها وترجمتها إلى الإسبانية . وهي تمثل طرائق التعامل ، بين سكان مدينة طليطلة بعد سقوطها في أيدي النصارى ، في البيع والشراء وغير ذلك ، وهي مكتوبة باللغة العربية لأن الاستعراب بقي في تلك المدينة واستمر حتى سنة ١٥٨٠ ميلادية ، ولم يندرس إلّا بعد أن تكرّرت الأوامر الصادرة من الحكومة بمعاقبة كل من يتكلم العربية أو يكتب بها .

والمهمّ في تلك الصكوك ، أنها إذا ذَكَرت الإفرنجي تنصّ عليه بأنه افرنجي وإذا ذكرت الأسبانيولي المتكلم بالعربية تنصّ عليه بأنه مستعرب ، وإذا ذكرت المسلم أشارت أنه مسلم ، وإذا ذكرت اليهودي أشارت إليه بأنه إسرائيلي . .

فمثلاً ، يأتي في أحد الصكوك : اشترى ربي بو اسحق بن نحميش اليهودي من جميلة بنت فرج[1] . . .

وفي صك آخر : اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبدالسلام جميع الدار التي له بحومة رحبة القشالي ، حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد ، وفي الغرب دار جلبارت الفرنجي[2] :

وفي صك آخر : اشترى يوان مستعرب ، لدون ملندة الدليل[3] . . .

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٧ .
٢ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٩ .
٣ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٨٧ .

ويعلق الأمير شكيب أرسلان في هذا المجال فيقول : وقد رأينا هذه اللفظة «مستعرب» مراراً في هذه الصكوك ، واستدللنا بها على أن نصارى طليطلة كانوا قسمين ، قسم يقال لهم المستعربون ، وهم الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم باللغة العربية ، وقسم آخر كانوا يتكلمون ويكتبون بالاسبانيولي ويقيمون صلواتهم باللاتينية ، وهذا هو السبب في أنهم عند كتابة الصكوك يميزون الأسبانيولي الذي لغته العربية بقولهم مستعرب[1] .

وخلاصة القول ، أن الأمر قد يبقى معلّقاً بين أخذ وردّ ، وتعصّب كل طرف إلى وجهة نظره . وتفادياً لتلك النتيجة ، فقد ارتأينا أن نستفتي أهل الأندلس أنفسهم في ذلك ، باعتبارهم أصحاب الشأن ، فإن مؤلفاتهم وإن كانت صامتة ، إلّا أنّها قد تُفصح عن كثيرٍ ممّا يتعلق بشؤون حياتهم وأحوالهم ، وإنّ كلمتهم سوف تكون الفيصل الحاسم .

ومن المهم هنا ، أن نشير إلى الطوالع العربية التي دخلت الجزيرة إبّان الفتح وبعده ؛ ولكن أحب أن أقول إنني لن أنظر إلى عروبة أهل الأندلس من خلال الكم البشري للجنس العربي ، والنسبة التي يشكلونها بين الأجناس الأخرى ، كثيرة كانت أم قليلة ، لأنني سأعتمد أساساً على مواقف الأندلسيين المعبّرة عن إحساسهم الصادق بعروبتهم وشعورهم العميق بالانتماء القومي إلى المشرق . وسأعتمد أيضاً على دراسة سلسلة النسب ، واستمرارية الدم العربي الأبوي والأمومي ، لإثبات استمرارية الدم العربي حتى تاريخ سقوط مدينة غرناطة . وسوف أبرهن في نفس الوقت ، أن الداخلين إلى الأندلس من العرب أكثر بكثير ممّا يظن الباحثون .

جاء في البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، أن المسلمين الذين عبروا

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٩٤ .

المضيق بقيادة طارق بن زياد ، كانوا من العرب والبربر ، وأنهم بنوا في جبل طارق سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب[1] . فتسمية السور توحي أن عدد العرب الداخلين مع طارق يزيد كثيراً عن العدد الذي يحدّده بعض المؤرخين .

ثم كانت طالعة موسى بن نصير في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وكانت تضم ثمانية عشر ألفاً أو أكثر من وجوه العرب[2] .

وفي شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين قدم الحر بن عبدالرحمن الثقفي والياً على الأندلس ومعه أربعمائة رجل من العرب[3] .

وكانت طالعة بلج بن بشر القشيري الذي دخل الأندلس في شهر ذي القعدة سنة ١٢٣هـ ، وكانت تضم نحو عشرة آلاف من عرب الشام[4] .

وفي شهر رجب سنة ١٢٥هـ ، قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقيا . ولكن المصادر لا تذكر عدد الرجال الذين أتوا برفقته[5] .

وقد وفد إلى قرطبة أيضاً سنة ١٤٠هـ ، رجال من المشرق ومن بني أمية فأنزلهم الأمير عبدالرحمن الداخل ، وأكرمهم وأحسن جوائزهم[6] .

ويوجد نصّ كبير الأهمية يؤكد أيضاً ، كثرة الداخلين من العرب ، فقد جاء في «البيان المغرب» ، أن أمية وقطناً ابني عبدالملك بن قطن حشدا في جهة

---

١ - البيان المغرب ، ٢/٩ .
٢ - نفح الطيب ، ١/٢٦٩ ، البيان المغرب ، ٢/٢٥ .
٣ - نفح الطيب ، ٣/١٤ البيان المغرب ، ٢/٣١ .
٤ - نفح الطيب ، ٣/٢٠ البيان المغرب ، ٢/٣١ .
٥ - نفح الطيب ، ٣/٢٢ ، البيان المغرب ، ٢/٣٣ .
٦ - البيان المغرب ، ٢/٤٩ .

سرقسطة ، وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها ، وجاءا إلى بلج طالبين بثأرهما ، وهما في نيّف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث ، فخرج إليهما بلج ، وهو في أقل من خمس عددهما ، فاقتتلوا قتالاً شديداً»[1] .

والحقيقة أنه من الخطأ أن نظنّ أن عدد العرب الداخلين إلى الأندلس اقتصر فقط على الطوالع . بل أن الهجرة من المشرق إلى الأندلس ظلت متواصلة دون انقطاع لفترة طويلة من الزمن ، فلقد دخلت منهم أعداد كثيرة تفوق كل إحصاء . وفي ذلك يقول المقري : إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم فضلاً عن غيرهم[2] .

ويقول في موضع آخر : «واعلم أنه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتتام فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هِممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية . . . وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلّهم في طليطلة وأعمالها ، ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين ابن جبير صاحب الرحلة .

وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير

---

١ - البيان المغرب ، ٢/٣٣ .
٢ - نفح الطيب ، ٣/٥ .

منهم . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة ، قال إبن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير . وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، قال في فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور بإسمهم بجَوْفيّ مدينة وادي آش . وقال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها . ومن الخزرج بالأندلس عُبَادة بن عبدالله بن ماء السماء من ولد سَعد بن عُبَادة صاحب رسول الله ﷺ ، وهو المشهور بالموشّحات ، وإلى قَيْس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطينُ غَرْناطة .

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْرَمَوْت ، منهم الحضرميون بمُرسية وغَرْناطة وإشبيلية وبَطَلْيَوس وقُرْطُبة ، قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس»[1] .

ومن الملاحظات الهامة التي ترد على لسان ابن سعيد الأندلسي في أثناء حديثه عن الأنصار ، أنه قال : والعجب أنّك تعدمَ هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذّ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلَم يجد إلّا شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس[2] .

وقد أفاض المقري في الحديث عن أنساب العرب والقبائل التي ينحدرون منها وختم حديثه بأن العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين فاتّسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس[3] .

وأخيراً ، فإن المطّلع على كتاب «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ، يستطيع أن يكوّن فكرة صحيحة وتامة عن عروبة أهل الأندلس ، وعن

١ - نفح الطيب ، ١/٢٩٠ - ٢٩٨ .
٢ - نفح الطيب ، ١/٢٩٤ .
٣ - نفح الطيب ، ١/٢٩٣ .

أنسابهم العربية التي تربطهم بجزيرة العرب . فقد أجرى ابن حزم إحصاءً دقيقاً للمواطن التي استقرّت بها قبائل العرب في الأندلس . وسوف نسوق بعض ما أورده ، لنؤكد على كثرة العرب وانفرادهم في السكنى عن غيرهم[1] :

- بنو كنانة : دارهم بالأندلس ، شَذُونَة والجزيرة .
- بنو أسد : دارهم بالأندلس ، البرَاجلة والبُشَرَّة من كورة إلْبيرة .
- بنو بُهدلة : نزلوا بقرية ضخمة تسمى الزَّبارِقة ، نسبت إليهم ، ثم غلب النصارَى عليها ، فانتقلوا إلى طلَبيرة ، فمَحَلّتُهم بها معروفة بحومة العَرَب إلى اليوم .
- بنو أَقْصَى : ودارُهم بالأندلُس : أَلْش وأعمالها وما حواليْها .
- بنو مُرَّة : دارهم بالأندلس : إلبيرة ، ولهم بإشبيلية أهلُ بيت واحد وهم بنو عوف بن مُرَّة .
- دار بني نُمَيْرة بالأندلس : البَرَاجلة .
- بنو قُشَيْر : دارهم بالأندلس : جَيَّان ، ومنهم بإلْبيرة عَدَدٌ .
- بنو خُوَيْلد : دارهم بالأندلس : جَيَّان ، ووادي آش .
- بنو النصر : دارهم بالأندلس : حِصنُ وَضّاح ، من عَمَل رَيَّة .
- بنو نمارة : دارهم بالأندلس : قَرْمُونة ولَبْلة .
- بنو عَكٍّ : ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم ، في الجوف في شمال قُرطبة .
- بنو بَجيلة : ودارهم بالأندلس : أربونة .
- بنو هَمْدان : دارهم بالأندلس : إلبيرة .
- بنو الأشْعَر : دارهم بالأندلس : رَيَّــة .
- بنو طي : دارهم بالأندلس : بَسْطَة ، وتَاجلة ، وغلْيَار .

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، ص ١٨٩ ، ١٩٦ .

- بنو عَنْس : دارهم بالأندلس : قلعة يَحْصِب ، غرناطة .
- بنو جُذام : دارهم بالأندلس : شَذُونَة ، والجَزيرة ، وتُدْمِير ، وإشبيلِيَة
- بنو لَخْم : دارهم بالأندلس : شَذُونة ، والجزيرة ، وإشبيلية .
- بنو تُجيب : دارهم بالأندلس : سَرَقَسْطة ، ودَرَوْقة ، وقلعة أيوب .
- ذو رُعَيْن : دارهم بالأندلس : الفحْص المنسوب إليهم برِيَّة .
- بنو هَوزن : دارهم بالأندلس : القريتان المذكورتان بهما بإشبيلِيَة ، وهم بنو الداخل من حمص
- بنو عُذْرة : دارهم بالأندلس : دَلاَيَة ، وبجَيَّان منهم ، وبالثَّغْر .
- بنو خلدون : دارهم بالأندلس : إشبيلية .

وهكذا ندرك من خلال الإحصاء الذي يَرِد في «الجمهرة» ، أن عدد العرب في الأندلس كان كثيراً . والذي يدل على كثرتهم أيضاً أنهم كانوا يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ[1] .

وبقى لنا في نهاية المطاف أن نستفتي الأندلسيين لِنَرى ما عندهم . فإننا لو أخذنا ابن دراج ، على سبيل المثال ، مع علمنا بنسبه البربري ، لوجدنا عدداً ضخماً من قصائده ، ينبعث منها الحس العربي ، وتمجيد الدولة العربية في الأندلس . «فهو لم يشعر قط بعصبيته لنسبه الصنهاجي البربري ، بل هو لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري زيري ابن عطية المغراوي حينما أعلن الثورة على المنصور إبن أبي عامر»[2] .

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، أنظر الصفحات : ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٦٠ .
٢ - نفح الطيب ، ٢٩٣/١ .
٣ - ديوان ابن درّاج ، المقدمة ، ص١٥ .

والمرجّح أن طوائف البربر التي دخلت الأندلس إبّان الفتح قد اندمجت كلية بالمجتمع الأندلس الجديد فما عادت تتعصب لغير أندلسيتها ، ولا تتذوق غير اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم . فقد انتشر التعريب بين سائر الطوائف ، وأصبحت اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، ولغة أهل الأندلس في حياتهم الخاصة والعامة على السواء . وكان التعريب أيضاً قد شاع في المغرب بين البربر كنتيجة حتمية لدخولهم الإسلام . وقد نبغ فيهم علماء وشعراء وأدباء ، حتى أن ابن الأحمر ، الأمير إسماعيل بن يوسف ، يُعجب من نباهة الفقيه الكاتب أبو العباس الجزنائي المتوفي سنة ٧٥٠هـ ، وهو فيلسوف وطبيب ، فقد أعجب من إجادته وبراعته في الشعر ، وقال فيه : «ولو كان من الأعراب ، لشمل في شعرائها وحمل راية الكلام في أمرائها . والبربر لا تقاس بالعرب ، والتبر لا يماثل بالترب والعجب من بربري الأصل ، يذري مدارك الاعراب ، ويأتي الفصاحة اليعربية بالإعراب[1] .

وابن درّاج في الأندلس مثال واضح على ذلك ، وقصائده التي يتضمنها ديوانه تكتظ فيها المصطلحات : عرب ، عروبة ، يعرب ، وهي ترد في مناسبات تدل على تمجيدالعروبة والدولةالعربية في الأندلس . «ولعل من أجلّ المناسبات التي رفع فيها ابن درّاج لواء شعره في الإشادة بعظمة الإسلام وعزّة الدولة العربية ، تلك الغزوة التي وجهها المنصور في جمادى الثانية سنة ٣٨٧هـ ، يولية سنة ٩٩٧ إلى شنتياقب Santiago de Compastela في منطقة جليقة Galicia [2] . قال في تلك الغزوة يمدح المنصور وابنه عبدالملك وعبدالرحمن[3] .

لكَ البُشْرى ودُمْتَ قريرَ عَيْنْ بشأْوَيْ كوكَبَيْكَ النّاقِبَيْنْ

---

١ - نثير فرائد الجمان ، ص٣٣٦ .

٢ - ديوان ابن دراج ، المقدمة ، ص٤٤ .

٣ - ديوان ابن دراج ، ص٣١٤ .

مليـكَـيْ حِمْيَرٍ نَشَـآ وشَـبَّـاَ بتـيـجـانِ السَّـنـاءِ مُتـوَّجَـينَ
صَفِـيـي ما نَمَـتْ عُلْيَـا مَعَـدٍّ وسِيـطَي يَعـرُبٍ في الـذِّرْوَتـينَ

وفي قصيدة أخرى يتعرض فيها للمسيحيين ، فيقول[1] :

عمـودُ شركِـهُم السَّـامي ذوائِبُـهُ والـرُّومُ والحُبْشُ والأفرَنْجُ من طُنُبهِ

فالإسبـان بالنسبـة للأنـدلسيين : إفرنج ، روم ، عجم ، أهل شرك . فشعورهم هذا لا يوحي بأنّهم ينتمون إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى المشرق .

ويقول ابن درّاج في قصيدة أخرى يمدح فيها المنصور[2] .

تلاقَـتْ عليـهِ من تَميـمٍ ويَعْـرُبٍ شُمـوسٌ تَلألأ في العُـلاَ وبُـدُورُ
مِنَ الحِمْـيَرِيّـينَ الـذيـنَ أكـفُّهُمْ سحـائِبُ تهمِي بالنَّـدى وبُحُـورُ

قال الحميدي : قال أبـو محمـد علي بن أحمـد -ابن حزم- الفقيه : كان المنصور بن أبي عامر معافري النسب من حِميَر ، وأمّه تميمية وهي بريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن البرطال . ولذلك قال فيه ابن دراج تلك القصيدة[3] .

وقال في قصيدة أخرى يمدح بها المنصور[4] :

فاسعَـدْ بِسِبْـطَيْ دولَـةِ العَرَبِ التي بسنـاهُـمَـا جَلَتِ الخـطوبُ ظلامَهـا

---

١ - ديوان ابن دراج ، ص ٣٧٤ .
٢ - ديوان ابن دراج ، ص ٢٥٢ .
٣ - الحلة السيراء ، ١/ ٢٧٥ .
٤ - ديوان ابن دراج ، ص٢٤٩ .

ويقول في قصيدة يهنيء المنصور في عيد الأضحى[1] :

همامٌ لهُ من فَخْـرِ يَعْـرُبَ في العُـلا ذُرى كلِّ سامي السَّبْك رابِي القواعِدِ

تلك الروح القومية التي نجدها عند ابن دراج ، نجدها أيضاً عند ابن حمديس الصقلّي . وقد وُلد هذا الشاعر في مدينة سرقوسة سنة ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م ، من أصل عربي أزدي ، ثم هاجر في ريعان شبابه إلى الأندلس ، وأقام بأشبيلية يستمتع بجمال منتزهاتها ، ولكنه لم ينسَ وطنه الأم أبداً . وعندما تعرضت صقلية لخطر الغزو النورماني ، أخذ في إنشاء القصائد التي يحثّ فيها قومه على الاتحاد والجهاد ينبعث منها حس قومي ، مثلما وجدنا في قصائد ابن دراج . فالصراع بين المسلمين والنصارى ، وإن كان يحمل طابعاً دينياً ، إلاّ أنّه في حقيقته صراع بين عرب وعجم ، أو عرب وروم . تلك النـزعـة نحو العروبة لم تتلاشَ أبداً ، ودامت حتى آخر يوم من الوجود العربي في الأندلس . جاء في قصيدة ابن حمديس التي يحرّض فيها بني قومه للدفاع عن الوطن[2] :

بني الثّغرِ لستمْ في الوَغى من بني أمي إذا لم أصُـل بالـعُـرْبِ منكم على الـعُـجـم

دعـوا النومَ إني خائفٌ أنْ تَدوسَكمْ دواهٍ ، وأنتمْ في الأمـاني مع الحُلْم

وكـأسٍ بأُمّ المـوتِ يَسْعى مُديـرُهَا إلى أهـلِ كأسٍ حَثّهـا بابنـةِ الكرم

فَرُدّوا وجـوهَ الخيـلِ نحـو كريهـةٍ مُصرَّحـةٍ في الـرّوم بالثّكـلِ واليُتْم

وابن خفّاجة شاعر الطبيعة في الأندلس ، يدرك أن القضية ، قضية عرب وروم ، فَمِمّا جاء في قصيدته التي يصف فيها حال مدينة بلنسية بعد استرجاعها من أيدي الرّوم[3] .

---

١ - ديوان ابن دراج ، ص٣٤٥ .

٢ - ديوان ابن حمديس الصقلّي ، ص٤١٦ ، أنظر أيضاً : ملامح الشعر الأندلسي ، ص١٨٢ .

٣ - ديوان ابن خفاجة ، ص٢٠٩ .

واقشَـعَ الكُفْـرُ قَسْراً عَن بَلَنْسِيَـةٍ فَانْجَـاب عَنْها حِجَابٌ كانَ مُنْسَدِلاَ
وَطَـهّـرَ السّيفُ مِنْهَـا بَلْدَةٍ جُنُبـاً لم يَجْزِهَـا غَيْرُ ماءِ السَّيْفِ مُغْتَسِلاَ
كأنّــني بعُـلُوجِ الــرُّوم سَادِرَةً وقَـدْ تَضَعْضَـعَ رُكنُ الكُفْرِ فاستَفَلاَ

على أن الإحساس بالعروبة يبدو صريحاً واضحاً في الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، يستحثه فيها على العبور لنجدته من الأذفونش ملك الروم ، فقد جاء فيها : «. . . . كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وأنه أيّد الله أمير المؤمنين ونصر به الدين ، فإنّا نحنُ العرب في هذا الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرّق جمعنا ، وتغيّرت أنسابنا بقطع المادة عنّا من صنيعتنا فصرنا فيها شعوباً لا قبائل ، واشتاتاً لا قرابة ولا عشائر ، فقلّ نصرنا وكثر شامتنا وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللّعين أذفونش ، وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه ، وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاعِ والحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحدٍ منّا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاؤا لفعلوا إلاّ أنّ الهواءِ والماء منعهم على ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيّدك الله سيّد حِمير ومليكها»[1] . .

فهل يقال عن ابن عبّاد وقومه أنّهم إسبان ، ينتمون إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى المشرق . . ؟!

إن عبدالله بن أحمد بن جمهور ، من أَئِمّة أهل الفقه في إشبيلية خلال القرن السادس الهجري ، يعبّر عن عروبته في قصيدة يمدح بها المسلمين بعد موقعة الزلاّقة ، فقد قال[2] :

---

١ - أنظر : بنو عباد بإشبيلية ، ص١٦٥ .
٢ - الحلّة السيراء ، ١٠١/٢ .

لم تَعلمِ العجُم إذ جاءت مصمّمةً   يومَ العَــروبــةِ إنّ اليــومَ للعــربِ

فمن يصدر عنه مثل هذا الإحساس بالعروبة ، لا يمكن أن يكون إسبانياً أو من الجنس الأوروبي .

وقد كتب القاضي أبو الحسن بن أضحي إلى الأمير عبدالله بعد انتصاره على ابن رذمير في سرقسطة يقول : (١)

والعَـربُ تَرفلُ فوقَ الغربِ سابحَةً   كالأســدِ ليس لَها إلاّ القَنَــا ظفــر

لم يكن سكان البلاد الأصليين ، بالنّسبة للأندلسيين ، سِوَى نصارى ، كفاراً ، مشركين ، افرنج . وفي المقابل نرى : عَرَباً ، حِميريين ، مسلمين . . .

جاء في قصيدة البصري التي مدح بها أمير المؤمنين يوسف بن عبدالمؤمن (٢) :

ألاَ لَيْتَ شعـري هل يمدّ لي المدى   فأُبْصرُ شمــلَ المشركــين طريــدا
وهل بعدُ يقضي في النّصارى بنصرةٍ   تغــادرهم للمُـــرْهفَــاتِ حَصِيــدا
ويغـزو أبـو يعقوبَ في شنتَ ياقب   يُعيــدُ عميــدَ الكــافـرينَ عميـدا
ويلقي على إفـرنجهم عبءَ كلكـلٍ   فيــتركـهـم فوقَ الـصّـعيــد جُودا

وقال بعض الشعراء يذكر تسلّط ملك قشتالة على العرب(٣) :

الــرومُ تَضْربُ في الـبــلادِ وتـغنمُ   والـعُــرْب تأخــذُ ما بَقِيَ المَغْــرَمُ
والمــالُ يُوردُ كلُّهُ قشــتــالــةً   فالــلّه يلطف بالـعِبَــاد ويــرحَــمُ

والمصــادر غنية جدّاً بالإشـارات والمـلاحـظات التي تؤكّـد عروبـة أهـل

١ - قلائد العقبان ، ص٢١٩ .
٢ - نفح الطيب ، ٤٧٨/٤ .
٣ - الروض المعطار ، ص١٦١ .

الأندلس ؛ ومن جملة الملاحظات التي نعثر عليها ؛ أنّ ابن سعيد الأندلسي قال[1] :

«يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة «العربيات» لمحافظتهن على المعاني العربية . .» .

وعندما يصف ابن الخطيب أهل مملكة غرناطة ، يقول[2] : أحوال هذا القطر في الدِّين وإصلاح العقائد ، أحوال سَنِيَّة . . . وألسِنَتُهم فصيحة عربيّة ، يَتَخَلَّلُها غَرْبٌ كثير ، وتغْلِب عليهم الإمالة ؛ وأخلاقُهم أبيّة في معاني المُنازعات ؛ وأنسابهم عربيَّة ؛ . . .

وأنسابُهم حسبما يظهر من الإشراعات ، والبَيْعات السلطانية والإجازات ، عربيّةٌ ؛ يكثر فيها القُرَشي ، والفِهْري ، والأُمَوي . . وكفى بهذا شاهداً على الأصالة . . ودليلاً على العروبيّةَ» .

ونحن نقول بدورنا ، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ، ودليلاً على العروبية . فأيّ إحساس بالعروبة أقوى من هذا . . . ؟

ونحب في النهاية أن نتوقف عند نقطة هامة ومفيدة نستوضح من خلالها المفهوم الذي يتضمنه مصطلح «العروبة» عند الأندلسيين . وتحقيقاً لذلك نرى أنه لابدّ من التذكير أن فكرة القوميات والأوطان ، كما نفهمها اليوم ، لم تكن قد ظهرت في تلك العصور . فصراع الأمم كان يتلخص في اقتتال الملوك من أجل العروش واستلاب الممتلكات عن طريق التوسع في الأراضي ، وكان مصير الشعوب يحدّده الملك الغالب . وقد اشتملت إسبانيا نفسها قبل دخول المسلمين

---

١ - نفح الطيب ، ٢٨٩/٤ .
٢ - الإحاطة ، الجزء الأول ، ص١٤٠ .

على أكثر من مملكة ، مثل : مملكة ليون ، ومملكة نافارا ، ومملكة غاليثيا ، ومملكة قشتالة وغيرها من الممالك ، عاش ملوكها في نزاع مستمر من أجل السيادة ، ولم يكن للسكـان المـواطنين رأي أو اعتبار . ومن هنا ندرك سبب تسميتنا دخول المسلمين إلى الأندلس «فتحاً» . فالشعب النصراني أخذ لأول مرَّة يتذوق معنى العدالة واحترام الإنسان .

وبعـد أن انتهى إلينـا الأمـر وأردنا تحديد هوية المجتمع الأندلسي ، أراد الإسبان جعل الأندلسيين إسباناً أوروبيين . ورفضنا نحن ذلك . وسعينا في هذا البحث للتعـرف على موقف الأنـدلسيين أنفسهم من هذا المـوضوع . فوجدنا العـروبة عندهم تتجلى في مظاهر ثلاثة : الدموي، الثقافي أو اللغة المنطوقة ، الحسي أو الشعوري .

فبالنسبة للأول : فقد بدا لنا واضحاً من خلال أشعارهم . وهو أيضاً أكثر وضوحاً في عبارة المعتمد إلى الأمير يوسف ابن تاشفين : فإنا نحن العرب في هذا الأندلس» . وفي عبارة ابن الخطيب كذلك ، عند وصفه لأهل الأندلس في عصر مملكة غرناطة ، حيث قال : « . . . . وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ، ودليلاً على العروبية» .

وبالنسبة للمظهر الثاني : فلم نعرف مثل الأندلسيين أشدّ حرصاً وتمسكاً بلغة دينهم وحفاظهم عليها حتى في أشد المحن عندما كانوا يتعرضون لطغيان محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس ، وأدب «الخميادو» شاهد عظيم على ذلك .

أما بالنسبة للمظهر الثالث : فقد ظل شعور الأندلسيين بالولاء إلى المشرق قائماً حتى آخر يوم لهم في تلك الجزيرة . وكان المشرق يبعث فيهم روح العزة والأصالة .

أما عن وجود عناصر غير عربية تشكل غالبية السكان ، كالبربر والنصارى

والمولّدين . فقد أبدينا رأينا بكل وضوح ، وقلنا إننا ننظر إلى عروبة الأندلس من خلال العنصرالبشري الـذي كان له الإسهـام الفعّال والحقيقي في وجود تلك الحضارة وصبغها بالصبغة العربية . والذين ننعتهم أنهم كانوا يشكلون الأكثرية فإن مشاركتهم في تلك الحضارة اقتصرت على بروز عدد ضئيل من الأسماء فقط .

وفيما يتعلق بالإشارات التي ترد في بعض الكتب عن معرفة الأندلسيين أو قضاة قرطبة لِلّغة «الرومانثية» أو عجمية أهل الأندلس ، وهي «اللطينية» . كما نجد في كتاب الخشنى وغيره . . ، فإن تلك المعلومات تؤكد حقيقة هامة ، أعني بها روح العدالة التي كان يتمسك بها القضاة المسلمون . فحين كان يَمثُل أمامهم رجـلاً نصرانياً لا يجيد العـربية ، كانـوا لا يجدون غضاضة من مخاطبته بلغته القشتـالية وإذا كان الأمر هكذا ، فلا ينبغي أن يُفسّر ذلك بأنّ القضاة تركوا لغتهم العربية وأصبحوا لا يتكلمون غير اللطينية . . ؟

وإذا كنا نشير أحياناً ، إلى تعصب الاسبان لقوميتهم ولغتهم ، فَلأن ذلك يظهر في كتاباتهم بشكل فاضح . ومن حقّنا حين نترجم أبحاثهم أن نشير إلى ذلك .

وأخيراً ، فإننا لا نريد في بحثنا هذا غير الفائدة .

والله سبحانه من وراء القصد

المصادر والمراجع :

أولاً : باللغة العربية

١ - الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق ، محمد عبدالله عنان ، المجلد الأول ، دار المعارف بمصر .

٢ - بنو عباد بإشبيلية ، عبدالسلام أحمد الصور ، مطبعة كريماديس ١٩٤٩ .

٣ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، للمراكشي ، تحقيق ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٤ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة - بيروت .

٥ - تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٦ - تاريخ الفكر الأندلسي ، أنخل غونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٧ - الجديد في فن التوشيح ، الدكتور عدنان مصطفى ، دار الثقافة ، الدوحة ١٩٨٦ .

٨ - جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٩ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلية ، الأمير شكيب أرسلان ، دار الحياة - بيروت .

١٠ - الحلّة السيراء ، لابن الأبّار القضاعي ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١ - ديوان ابن حمديس ، صحّحه وقدم له الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٠ .

١٢ - ديوان ابن خفاجة ، تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي ، الأسكندرية ، ١٩٦٠ .

١٣ - ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، المكتب الإسلامي ، ١٣٨٩ .

١٤ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ١٩٨١ .

١٥ - صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، للحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

١٦ - قلائد العقبان ومحاسن الأعيان ، لابن خاقان ، مكتبة بولاق -القاهرة ، ١٢٨٤هـ .

١٧ - ملامح الشعر الأندلسي ، الدكتور عمر الدقاق ، دار الشرق - بيروت ، ١٩٧٥ .

١٨ - نثير فرائد الجمان ، لابن الأحمر ، دراسة وتحقيق ، محمد رضوان الداية ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ .

١٩ - نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٨ .

ثانياً : باللغة الأجنبية :

1. Actas I. Congreso, Historia de Andalucía, Diciembre 1976. Andaluci Medieval Tomo I

2. La Civilizacion hispano - árabe, Titus Burokherdt. version espanol de Rosa Kuhne Barbat.

1. Actas I. Congreso, Historia de Andalucía, Diciembre 1976. Andalucía Medieval Tomo I

2. La Civilizacion hispano - árabe, Titus Burokherdt. version espanol de Rosa Kuhne Barbat.

3. Historia de la arquitectura espanol - edad antigua - edad media. Fernando Chueca, Madrid 1965.

4. Historia de los jueces de Córdoba, p. 184, j. Ribera.

5. Historia de los Mosárabe de Espana, Madrid, 1897, Francisco Javier simonet.

6. Iglesias mosárabes, arte espanol desde los siglos IX hasta el XI. Madrid 119, Manuel Gómez Moreno.

7. Introduccion a la historia de Espano Ubiento - Reglo, jover - seco. Barcelona 1972.

8. Los Mosárabes de Toledo en los siglos XII y XIII. Angel Gonzales Palencia.

9. Sobre los Iberos y su lengua, Madrid 1952. M. Gomez Moreno.

دور الأنظمة البلدية
في تنظيم الخدمات العامة في مدن مصر
مع إشارة خاصة لمدينة الأسكندرية

الدكتور محمد سيد حافظ فرحات
مدرس بقسم الاجتماع

من الحقائق التاريخية المألوفة أن المدن في مصر الإسلامية ، تعبر عن واقع تاريخي حضري ، مختلف تماماً عن ذلك الذي ساد مثيلاتها الأوروبية . فالقاهرة العثمانية خلال القرن السادس عشر ، إذا نظرنا إليها من زاوية إدارتها المدنية سوف نلمس أن من أبرز خصائصها ، الغيبة شبه التامة للمؤسسات النوعية سواء ما يمثل منها المنظمات الجماعية للشعب ، أو تلك التي تنشئها السلطات الحاكمة . وليس في ذلك ما يثير الدهشة ، فالقاهرة في زمن المماليك ، كانت -كذلك- خالية تماماً من أية تنظيمات لشئون البلديات . وحتى نهاية العصور الوسطى ، لم تكن مسئولية الخدمات العامة ، تدخل في اختصاص أية إدارة حكومية أو أية تنظيمات أهلية . فالملاحظ أن معظم كبار الموظفين ، كانوا من أصول حضرية[1] مما أتاح فرصاً عديدة للاتصال بالسكان ، دون الاستعانة بتنظيمات رسمية متطورة . وهكذا فإن أمراء المماليك (الحكام) حين كانوا يتصدون لأمور من هذا القبيل ، إنما كانوا يفعلون ذلك لمجرد اهتمامهم الخاص ، أو لشعور منهم بالواجب ، أو رغبة في اكتساب مسحة من الشرعية في عيون العلماء والأهالي .

والواقع أن عاصمة الأمبراطورية نفسها في العصر العثماني ، لم تكن بأحسن حالاً من القاهرة ، فقد ظلت تفتقد بالمثل إلى أية تنظيمات حقيقية لشئون البلديات أو المرافق العامة ، وكذا التضارب في الاختصاصات بين الحكومة المركزية وإداراتها[2] . أن هذه الظاهرة تمثل شيئاً موصولاً في تاريخ المدن الإسلامية ، فليس الأمر إذن قاصراً على مصر وحدها[3] . وإذا كانت هذهالمدن

قد عرفت صوراً مبكرة من التخطيط الحضري ، كالميادين الكبيرة ، والحدائق العامة ، فإن ذلك يعود إلى النزعات الخيرية لبعض الحكام ، أكثر مما يعود إلى اعتبارات بيئية وتنظيمية[٤] .

والمؤكد أن ثمة اتفاقاً كبيراً على المدن في مصر الحديثة ، قد اتسمت خلال القرن التاسع عشر ، بإدارة غير مستقلة ، ولم تظهر بها دلائل على وجود حكم ذاتي نابع من أهلها ، أو مجالس بلدية على نحو ما شهدته المدن الأوروبية في مستهل القرن الثامن عشر . ولم تكن كذلك تتميز عن المناطق الريفية المحيطة بها ، بأية حقوق أو امتيازات خاصة . . إلخ ، إذ كانت المدن في مصر تحكم حكماً مركزياً عاصمياً ، على نطاق واسع ، من خلال كافة المؤسسات الإدارية العليا التي أقامتها الحكومة ، أو من خلال كبار الموظفين الرسميين الذي تم تعيينهم أيضاً بواسطة السلطات المركزية للدولة .

ومن أسف أن نجد «العواصم الإقليمية» عاجزة عن تخفيف أعباء «المدينة العاصمية» التي يشتد عليها الضغط حتى تنوء بالعبء ، وتفقد كثيراً من كفاءتها ، ويصبح جهازها الإداري قاصراً عن تحقيق وظائفه الأساسية . فالمدينة ليست قادرة على رفع مستوى الإقليم لضعفها وعجزها المادي ، كما أن الإقليم عاجز عن تقوية مدينته وبعثها ، نظراً لأن فائضه وطاقاته المادية والبشرية ، تمتصها العاصمة المركزية الطاغية[٥] . ويكفي أن نذكر أن مصر المحروسة التي حققت تطورات واسعة النطاق في جهازها الإداري والخدمي -عقب الاحتلال البريطاني لمصر- قد ظلت طوال تاريخها مركزاً لبيروقراطية ضخمة ، فهي تضم أكثر من ثلث موظفي الدولة ، بالإضافة إلى توطن مؤسسات التنمية الرسمية (الحكومية) بها . كما أن المبادرة من جانب القطاع الخاص كانت تميل إلى تركيز أنشطتها في القاهرة التي تتمتع باتساع حجم السوق ، فضلاً عن الإفادة قدر الإمكان من التسهيلات والخدمات المتاحة ، على حساب المدن الأخرى في الأقاليم[٦] .

وليس من الصعب علينـا أن نتعـرف على تلك العوامل التي دعمت هذه المركزية الطاغية (أعني السلطة المركزية للدولة) . ومن بين تلك العوامل على ما يؤكد «بيير Baer » وجود تجانس نسبي بين السكان في مصر ، بالإضافة إلى عظم هيمنـة الـدولة ، واتساع دورها الاقتصادي والإداري في البلاد ، حيث تتولى الدولة بنفسها تنظيم المسألة الزراعية منذ عام ١٨٢٠ ، وإحلال الري الدائم محل الـري الحوضى ، واتباع سياسةمائية من شأنها ضبط وتنظيم الري بمياه النيل (ثـورة الري) . فبعد أن كانت مصر مزرعة شتوية قوامها الحبوب ، أصبحت حقـلاً منتجـاً طول العـام ، لعـدد من المحـاصيل التجـارية (القطن وقصب السكر) ، فتضاعف الدخل القومي ، وقفز سقف السكان إلى طاقات لا وجه لمقارنتها بالماضى الحوضى على الإطلاق ، وبدون ذلك كان من المستحيل على المدن أن تصمد وتنمو وتزدهر(٧) .

أضف إلى ذلك أن سهولة المواصلات ، وخصوصاً المواصلات الحديدية ، قد لعب دوراً مماثـلاً في هذا الخصـوص ، إذ أن المعـروف أن بدايات الطرق الحـديدية المصرية ترجـع إلى عام ١٨٥٤ ، حين دعى عبـاس ، «روبـرت استيفنسـون R. Stephenson «لإنشـاء أول خط حديدي مصري يربط القاهرة بالأسكندرية . واستكمل هذا الخط في عهد سعيد عام ١٩٥٦(٨) . والواقع أن مد هذا الخط الحـديدي كان البـداية الحقيقية لنمو مدينة الأسكندرية –سكناً وإسكـاناً– في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد ترتب عليه انعاش الحركة التجارية في ميناء مصر الأول ، بعد أن تم ربطها بالعاصمة ، وبعض المدن الدلتاوية ، بمواصلات سريعة ميسورة .

لم يكن للدولة إذن ، أية حاجة للشروع في إقامة مجالس للمدن تتولى مهمة الإشراف عليها ، واكتفت بأن تتولى الحكومة إصدار الأوامر إلى حكام ومأموري الأقـاليم ، بتـولي أمـور التنـظيم والعمـران في المدن والبنادر ، باستثناء مدينة

الأسكندرية ، التي شهدت تغييرات عديدة أهمها تحول المدينة إلى ميناء رئيسي للتجارة الخارجية بعد حفر ترعة المحمودية عام ١٨٢٠ ، بالإضافة إلى ما شهدته المدينة من نهضة صناعية وإصلاحات بحرية في عهد محمد علي ، والتي كان لها أكبر الأثر في نمو مدينة الأسكندرية ، وتحولها خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً ، من قرية صغيرة يشتغل أهلها بصيد الأسماك ، لتصبح ثاني أكبر مدينة في مصر كلها .

لقد أتى على مصر حين من الدهر ، لم يكن لأهلها فيه تمثيل ذاتي للمشاركة في السلطة السياسية أو التنفيذية ، ففي خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر ، كانت بعض المهام الإدارية في كل من القاهرة والأسكندرية تؤدى عن طريق ما يسمى «الدائرة البلدية» أو «مأمور الدائرة البلدية» ، ولم تكن هذه الدائرة سوى إدارة تابعة للحكومة المركزية ، أما مأمورها فهو موظف حكومي معين من قبل الحكومة المركزية[٩] . كما أن رؤوساء الوحدات الاقتصادية والإدارية التي كانت تضم سكان مصر ، كان يتم تعيينهم جميعاً بمعرفة الحكومة ، ولا يتم اختيارهم في انتخابات حرة عن طريق أعضاء الوحدات التي يرأسونها ، إذ كان رئيس القرية (العمدة - شيخ البلد) يمثل دائماً في مصر ، السلطات الحكومية أمام القرويين ، أكثر مما يمثل القرويين أمام هذه السلطات ، ومن ثم فقد كان يعين في القرن الثامن عشر عن طريق الملتزم (جامعي الضرائب) ، وطوال القرن التاسع عشر عن طريق الحكومة . ونفس الشيء كان يحدث بالنسبة لشيوخ الحارات (رؤساء الأحياء بالمدن) ، إذ كانوا يعينون عن طريق سلطات الحكومة المركزية ، اعتباراً من بداية القرن التاسع عشر حتى نهايته . وينطبق نفس الشيء على شيوخ طرائق الحرف ، ولو أن آراء كبار أعضاء الطوائف كانت توضع بالطبع موضع الاعتبار عندما تقوم الحكومة باختيار الشخص الذي ستعينه في وظيفة شيخ الطائفة . وهكذا فإن الأهالي الأصليين لم تنشأ بينهم نواة للحكم الذاتي ، قادرة على التطور لتأخذ شكل المجالس البلدية[١٠] .

وربما كان ديوان القاهرة (مجلس بلدي القاهرة) الذي أنشأه نابليون بونابرت في عام ١٧٩٨ بمثابة حدث هام في هذا المجال ، إلا أن إنشاء هذا الديوان قد لا يعتبر -لأسباب متعددة- بداية لظهور الحكم المحلي في مصر . فلم يكتب له الاستمرار إلا لفترة قصيرة للغاية ، وبالتالي لم يترك تأثيراً يذكر على مجريات التطورات المستقبلية عند التفكير في إنشاء أول مجلس بلدي مصري .

وتؤكد بعض الكتابات التاريخية ، استناداً إلى ما ورد في المحفوظات والوثائق القومية ، أن مجلس «الأورناطو» Ornato الذي أنشيء في مدينة الأسكندرية عام ١٨٣٤ هو أول المؤسسات البلدية التي لعبت دوراً أساسياً في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، فقد كان يضم الوطنيين من أهل البلاد ، مع القناصل الأجنبية لكل من بريطانيا واليونان وفرنسا والسويد ، بنسب تتعادل مع عدد الجاليات الأجنبية في مصر ، وقد تعددت اختصاصات هذا المجلس ، والتي وردت في مصادر مختلفة : إعطاء أسماء للشوارع ، بحث التعديات على التنظيمات الخاصة بالمباني ، الإشراف على أنشطة البناء والتشييد بوجه عام ، تنظيم شبكة الشوارع . . إلخ .

ولم يكن مجلس أورناطو الأسكندرية في بداية الأمر وليداً لرغبة الأهالي ، بقدر ما جاء تلبية لأوامر الحكومة في استحداث مجلس يتصدى لشئون البلديات سواء في مجال التوسع العمراني ، أو العناية بالصحة العامة ، أو إعفاء الأجانب من دفع الضرائب ، ولم يكن ذلك ممكناً أيضاً في المدن والبنادر الأخرى التي يوجد بها جاليات أجنبية[11] . وجدير بالذكر أن حركة التجارة الداخلية والخارجية كانت تتطور بدرجة كبيرة منذ عصر محمد علي ، وأن نشاط واستمرار هذه الحركة التجارية كان يقضي بضرورة العناية بالطرق والميادين لتسهيل مهمة الوصول إلى الميناء ، لذلك شغلت مسألة شق الطرق وتوسيعها ، وإقامة الميادين ، اهتمام مجلس الأورناطو منذ الوهلة الأولى ، وخصوصاً بعد تزايد مصالح الأجانب

التجارية . ففي الفترة من عام ١٨٢٢ إلى عام ١٨٣٨ ، ازداد عدد الشركات الأوروبية التي تدير أعمالاً تجارية حرة من ١٦ إلى ٤٤ شركة[١٢] . وأصبحت الأسكندرية مركز «المجتمع الأوروبي» في مصر أو هي عاصمة للأجانب في مصر أكثر من كونها مدينة مصرية ، حيث كان الأجانب المقيمون بها ، يمثلون غالبية الأجانب الذين يقيمون لفترة طويلة ، ولابد أن عددهم فيما يذكر لوتسكي قد وصل في عام ١٨٤٠ إلى ٥٠ ألف أجنبي يؤلفون ربع سكان المدينة ، ويعطي بيير تقديراً لعددهم يصل إلى ما بين ٣٠ ألف و٤٠ ألف في عام ١٨٦٠ ، وإلى ما بين ٥٠ ألف إلى ٦٠ ألف في منتصف الستينيات ، حتى أن نسبتهم إلى المجموع الكلي للسكان بالأسكندرية تقدر ما بين ربع وثلث السكان ، كما كان لكثير منهم اهتمام اقتصادي واجتماعي كبير ، في مجال تنمية التسهيلات الحضرية ، وخصوصاً خدمات المجلس البلدي في الأسكندرية[١٣] .

وبطبيعة الحال ، فقد كان هذا المجلس يعمل بتوجيه من الحكومة المركزية ، وأن اختصاصاته وقراراته تكشف عن غياب الاستقلال الذاتي على نحو ما أوضحنا قبل قليل ، غير أن ذلك لم يؤثر قط على دوره ونشاطه ، فقد انجز الكثير من المشروعات في مجال الخدمات والعمران ، كما لعب دوراً أساسياً في نمو وازدهار مدينة الأسكندرية ، وتحويلها إلى مركز تجاري دولي منذ منتصف القرن التاسع عشر ، إلى الحد الذي يجعلنا أن نرجح أن هذا المجلس كان أقدم المجالس البلدية في مصر ، التي بحثت شئون مدينة الأسكندرية في مجال الخدمات العامة .

غير أن «الوجود الأجنبي» على هذا النحو في المجتمع السكندري ، يتطلب منا بعض التأمل ، فلقد مثلت فيه الجاليات الأجنبية انعطافة خطيرة ازاء تشكيل مجلسه البلدي ، وقد استغرق الأمر الكثير من الوقت قبل أن يقوم مجلس بلدي الأسكندرية في يناير ١٨٩٠ ، الذي ضم إلى عضويته أغلبية من الأجانب ، وقلة

من الوطنيين ، الأمر الذي جعل هذا المجلس يسير وفق رغبات الأجانب في معظم الأحوال ، ويتسم بالصبغة الدولية ، ويتخذ من لغة غير العربية لغة تخاطب وكتابة ، بل واعتبرت (أي هذه اللغة) في كثير من الأحيان من أهم شروط التعيين في الكثير من الوظائف الهامة . ومن الحقائق التاريخية المألوفة في هذا الصدد أن الأوروبيين في مصر -بوجه عام- كانوا يتولون خلال القرن التاسع عشر ، وظائف الطبقة الوسطى المتصلة بالإدارة والتجارة ، كما كانوا يميزون تلك المدن التي اختاروا الإقامة بأقسام معينة منها ، بنهج غربي متسق : شوارع عريضة ومتقاطعة ، حدائق ومتنزهات ،مياه نقية وكهرباء وغاز ، خدمات بلدية عامة مثل نظافةا لطرق ، وجمع النفاية ، وإنشاء النوادي ودور السينما وغيرها من الأنشطة الترويحية . وأخذت هذه الأقسام أسماء مختلفة مثل «المدينة الجديدة» أو «الحي الأفرنجي» تمييزاً لها عن أقسام المدينة الوطنية القديمة ، التي لم تحظى بنفس العناية والتطور ، وظلت على حالها ، بل وتدهورت نتيجة للاكتظاظ السكاني ، الذي سببته الزيادة الطبيعية لسكانها من ناحية ، والهجرة الريفية من ناحية أخرى . باختصار ، أصبحت هذه المدن تنقسم إلى عالمين متمايزين في كل شيء وان كانا متجاورين . ولعل هذه الازدواجية الحضرية ، تحمل سمات خاصة ، وتمايز طبقي ووظيفي داخل تلك المدن التي اختار الأوروبيون التمركز فيها ، وتعبر بشكل جلي عن تأثير تلك الهجمة (الهيمنة) الامبريالية ، واسعة النطاق ، التي لحقت بالمجتمع المصري ككل[١٤] .

لقد أحدثت هذه التطورات تأثيراً بالغاً على المهام الأساسية لمجلس بلدي الأسكندرية ، فعلى الرغم من تشكيل المجلس من أغلبية من الأجانب (مارس ١٨٩٠) ، تكونت اللجان البلدية التي بدأت تنظر في كافة الأمور المتعلقة بالمدينة ، وخصوصاً العمل على تنمية الموارد البلدية التي كانت تعاني من نقص شديد ، وتخصيص هذه الموارد لانفاقها في عدة وجوده أساسية مثل إدارة التنظيم ، وبحث التعديات ، وتنظيم شبكة الشوارع والحواري الوطنية ،

والمستشفيات والجمعيات الخيرية ، والعناية بالصحة العامة ، ونظافة المدينة وخدمتها ، وكذا الانفاق على تطهير مجاري المياه القذرة ، ووضع حنفيات مجانية في مناطق سكن المواطنين للاستعاضة عن الآبار. . إلخ .

وعلى الرغم من هذه العناية التي أولتها البلدية للخدمات العامة وخصوصاً في النواحي الصحية ، فإن شكوى الأهالي كانت تتزايد من بطيء سير الإنجازات من جانب البلدية ، وعدم عنايتها بالشوارع والأحياء الوطنية ، وظهرت انتقادات عديدة لخطة البلدية في الإصلاح ، وعزى البعض هذا الإهمال إلى سيطرة ممثلي الجاليات الأجنبية ، وعجز ممثلي السكان الوطنيين في البلدية عن التأثير في قرارات المجلس البلدي ، وتردد أن الأعضاء الأوروبيون هم أغلبية داخل المجلس ، وأنهم أصحاب المصلحةا لأولى في قيامه ، وأن الوطنيين لا يؤبه بهم على الرغم من كونهم دافعي الضرائب[١٥] . ويذكر «بيير» أن تلك الامتيازات الخاصة التي تمتع بها الأجانب في مصر خلال تلك الفترة كانت من أهم العوائق التي عرقلت نمو وتطور المجالس البلدية في مصر بوجه عام ، وفي حالة مجلس بلدي الأسكندرية ، فإن نسبة تمثيل الجاليات الأجنبية المقيمة بالأسكندرية جاءت مبالغ فيها ، وغير متناسبة مع عددهم في المدينة ، الأمر الذي دفع بلجنة مجلس شورى القوانين عام ١٨٩٣ إلى تقديم اقتراحاً بإلغاء مجلس بلدي الأسكندرية ، استناداً إلى أن القانون الانتخابي لهذا المجلس من شأنه أن يجعل العضوية فيه في قبضة الأجانب فقط ، ولا يتيح للوطنيين تمثيلاً حقيقياً في إدارة مجلس بلدي مدينتهم[١٦] . وشبه البعض بناية البلدية بأنها أشبه ما تكون بنظارة خارجية لندن في الأسكندرية ، وبدأ الوطنيون ينظرون إلى البلدية باعتبارها رمز للاحتلال والسيطرة الأجنبية ، ويوالونها بالنقد ، وينظرون إليها بعدم الارتياح ، باعتبار أنها تحمي نفوذ وسيطرة الأجانب ، وتردد بينهم الرغبة في حلها ولم يمض على قيامها سوى فترة قصيرة .

وهكذا يمكننا تحليل ملامح السنوات الأربعة الأولى (١٨٩٠ - ١٨٩٣) من تاريخ مجلس بلدي الأسكندرية ، في ضوء ثلاثة أبعاد أساسية ، يتصل أولها بزيادة نفوذ الأجانب وسيطرتهم على البلدية ، واصطباغ النظام السائد فيها بصبغة دولية ، أما ثاني هذه الأبعاد فيتعلق بتضاؤل الوجود الوطني داخل المجلس البلدي ، إلى حد يجعلنا أن نرجح القول بأن البلدية كانت بمثابة برلمان أجنبي على أرض مصر ، ممثل فيه أعضاء من كل الدول الأوروبية تقريباً ، ويشير البعد الثالث إلى أن مدينة الأسكندرية ذاتها ، كانت تواجه خلال تلك السنوات ، العديد من المشكلات المزمنة في مجال الخدمات الصحية ، والتنظيم وغيرها ، وأن إيرادات المجلس البلدي تعجز دائماً عن الوفاء بانفاقات هذه المشروعات ومستلزماتها ، وهي مشروعات وخدمات تتصل بتحسين الأوضاع الصحية والبلدية بالمدينة .

وقد أثارت هذه المآخذ العديدة ، وخصوصاً سيطرة العناصر الأجنبية على مجلس بلدي المدينة ، استياء شديداً بين المصريين ، وأن السلطات الممنوحة لمجلس بلدي الأسكندرية محدود للغاية ، وان قرار استبعاد الشرطةمن مجالات أنشطة المجلس البلدي ، لم يكن قراراً محموداً . كما أشار أحمد لطفي السيد في عام ١٩١٣ إلى أن المجالس المحلية المنتخبة ، يمكن أن تكون أفضل الهيئات التي تشرف على المؤسسات التربوية في البلاد[١٧] . ولكن من أين لها تحقيق ذلك ؟

وإذا كان لنا أن ناقش بعض الاهتمامات الأساسية التي عمل من أجلها مجلس بلدي الأسكندرية ، فإننا نستطيع أن نفعل ذلك على نحو أفضل ، إذا ما تتبعنا نشاط المجلس بعد إعادة تشكيله في نوفمبر ١٨٩٣[١٨] . لقد ظلت غالبية أعضائه أيضاً من الأجانب . وكان على رأس موضوعاته ، الاهتمام بالمسألة الصحية ، وخصوصاً بعد أن تردد أن المدينة سوف تتعرض لوباء الكوليرا المنتشر في المدن الحجازية وبلاد الشام ، فاتخذت الاحتياطيات اللازمة ، والتدابير

الصحية للوقاية من المرض ، كما أولى المجلس عناية كبيرة لنظافة الأحياء الوطنية التي تفتقر إلى الخدمات الحضرية إلى حد كبير ، ولا تتصل بالمرافق الصحية إلا في أضيق الحدود ، وقد استلزم العناية بالأحوال الصحية ، حماية مياه الشرب من التلوث الناجم عن إلقاء المخلفات في ترعة المحمودية ، فقامت البلدية في عام ١٨٩٤ بإجراء تجارب لإنشاء مصفاه لتقطير المياه بجوار ترعة المحمودية ، وإزالة القاذورات المتراكمة فيها . ويتصل بمسألة العناية بالصحة أيضاً ، إقامة مشروع للمجاري (الصرف الصحي) بالمدينة ، وقد اعتمد لها في عام ١٨٩٦ مبلغ وقدره ٢٢٠٠٠ من الجنيهات ، كما نظر المجلس أيضاً في مسألة تزويد مدينة الأسكندرية بالمياه النقية ، بالاتفاق مع شركة «ادوارد استون» الإنجليزية عام ١٨٩٧ .

ولعل مشروع الترامواي كان كذلك من أهم المشروعات التي نظرها المجلس البلدي وناقشها (١٨٩١) ، وبدأت بالفعل شركة الترامواي في مد الخطوط اعتباراً من عام ١٨٩٦ ، ليشمل ثلاث مسارات : (المنشية - المكس - شارع الميدان) ، ومن وسط هذه المسارات يتجه مسار آخر إلى الجمرك . وقد احتفلت الأسكندرية في سبتمبر ١٨٩٧ بتسيير الرحلات الأولى لخطوط الترامواي ، والتي تزايدت تدريجياً ، وقد اتفق مدير البلدية مع شركة الترامواي ، على الرسوم التي سيتقاضاها المجلس على كل خط ، وكذا تعريفة الركوب . والمعروف أن البلدية كانت تحصل على عائد تسيير الترامواي في المدينة بلغ في عام ١٨٩٨ حوالي ٢٠٠٠ جنيهاً سنوياً .

أما في مجال الأشغال العمومية فقد قرر المجلس البلدي في نوفمبر ١٨٩٦ ، بناء رصيف على شاطيء الميناء الشرقي ، وتحصل المجلس على موافقة الحكومة على المشروع ، غير أن النفقات اللازمة لإنشائه لم يتم تدبيرها دون فرض ضرائب جديدة على بعض الواردات (الدخان مثلاً) ، كما تقرر أيضاً تحصيل ضرائب

بلدية على المجزر الجديد بالمكس ، مما أثار حفيظة القصابين وشكوى الأهالي .

لقد تحولت المدينة في أواخر القرن التاسع عشر إلى سوق عالمية ، يشرف على إعداده وتجهيزه مجلس بلدي له صفة عالمية ، ممثل فيه أصحاب المصالح من كل دول أوروبا تقريباً ، فالعناية بالصحة يستفيد منها الأجانب قبل الوطنيين على الرغم من أن الأخيرين هم دافعي الضرائب ، وعددهم يفوق عدد الأجانب . ومد خط الترامواي يهدف إلى تنشيط حركة التجارة في اتجاه الجمرك . ومشروعات الأشغال العامة تتركز في الميناء على وجه التحديد ، حتى أصبح المجلس البلدي في خدمة الأجانب بصفة خاصة ولم يكن هناك أية منافسة من الوطنيين وخصوصاً في اختيار أعضاء المجلس ، حيث فاز الأجانب بجميع المقاعد باستثناء مقعد واحد فاز به أحد الموطنيين .

وفي ذات المجال (أعني قطاع النقل والمواصلات) ساهم المجلس في تنشيط الحركة التجارية عن طريق الاهتمام بوسائل المواصلات ، وإصلاح بعض الطرق داخل المدينة (طريق الرمل - الطرق الواقعة في مناطق البلقراطية ، سوق السمك ، المغاربة) ، هذا فضلاً عن اهتمام المجلس بأحياء الأجانب (شارع شريف ، شارع توفيق ، شارع المسلة ، شارع باب شرقي . . . إلخ) .

وفي مجال مقاومة الأوبئة ، والمحافظة على الصحة العامة ، اتخذت البلدية اجراءات عديدة للوقاية من وباء الطاعون الذي داهم المدينة في مايو ١٨٩٩ ، مثل تبخير الركاب في محطة الأسكندرية ، وملاحظة تلاميذ المدارس والعناية بنظافة الكتاتيب وتطهيرها ، ومعاينة البضائع والمأكولات الموجودة في حوانيت البقالة ، أو عند باعة الخضار ، وغسيل بعض الشوارع مثل السبع بنات ، والعطارين ، والمسلة ، وتوفيق ، والورشة ، والبوستة . . إلخ ، وتنقية مياه الشرب وإرشاد الأهالي ، وإقامة المحاجر الصحية لعزل المصابين ، كما حذرت البلدية أهل المتوفى من الاقتراب من الجثة قبل حضور الطبيب ، وألغت

الاحتفالات الدينية بمولد سيدي جابر ، وسيدي بشر دفعاً لخطر العدوى من الازدحام . وامتداداً لهذه الإجراءات الوقائية قررت البلدية رصد مبلغ ٢٠٠٠ جنيه لبنـاء مساكن صغيرة بدلاً من العشش التي قامت بهدمها اتقاء لمخاطرها الوبائية ، واستبدلت الميضات في المساجد بحنفيات مياه جارية ، وقامت بالعديد من المحاولات لتطهير المنازل من الطاعون ، فكونت الفرق المتكاملة التي تضم الأطبـاء والمسـاعـدين بالتعاون مع مجلس الصحة البحرية ، ومشايخ الأقسام ومشـايخ الحارات ومساعديهم ، وجماعات التبخير والتطهير وتبييض البيوت ، والكناسين . . إلخ ، حتى تمكنت بالفعل من محاصرة الوباء في سبتمبر ١٨٩٩ .

والحق أن البلدية قد حققت بالفعل انجازات كبيرة في مجال الصحة فتمكنت من السيطرة على الأوبئة التي كانت تداهم المدينة في مطلع كل صيف ، واتخذت الإجراءات الوقائية اللازمة ، وانفقت في سبيل ذلك أموالاً طائلة .

ولعل أبلغ جهود المجلس البلدي ، ما وجه للنظر في ارتفاع ايجارات المنازل بالمدينة ، وتكوين لجنة تتبنى إقامة الدعاوى ضد أصحاب الأملاك للدفاع عن حقوق المستأجرين ، على أن ترفع اللجنة اقتراحاتها للمجلس البلدي الذي رأى على لسان رئيسه «أن إقامة منازل بأجره زهيدة للعمال الفقراء تعتبر من المسائل الدقيقة» ، وقدمت «لجنة المدافعة عن حقوق المستأجرين» مشروعاً إلى البلدية نظره المجلس في يناير ١٩٠٦ ، واستصـــدر قراراً بتشكيل لجنـة يرأسهـا مدير البلدية ، للانتهاء من وضع مشروع أطلق عليه إسم (مشروع المساكن الاقتصادية) .

غير أن تلك الجهود لم تسفر عن حل مشكلة ارتفاع إيجارات المساكن لأن

أسبابها كانت موجودة برمتها ، حيث المضاربة على الأراضي ، والرغبة في امتلاكها بقصد إعادة بيعها ، لا بقصد استثمارها في بناء وحدات سكنية جديدة ، لذا فقد قامت البلدية بتخصيص مساحة من الأرض لبناء منازل رخيصة الأجر ، غير أن

هذا الحل الأخير لم يؤدي إلى وضع حد لتفاقم أزمة الإسكان في المدينة ، أو إيقاف موجة ارتفاع إيجارات المنازل بها .

ونظراً لتفاقم المشكلة وعجز البلدية عن القضاء عليها أو التخفيف منها ، استحكمت التظاهرات في أنحاء المدينة (مارس يونيو ١٩٠٨) ، وحاولت البلدية دون جدوى أن تتفادى الأزمات الناشئة عنها ، بطرح بعض المشروعات الجديدة ، غير أن ذلك أيضاً لم يلق قبولاً حسناً .

وهناك شواهد تاريخية توضح كيف تعرضت المدينة لمجموعة من السياسات الاحتكارية (١٩٠٤) ، وخصوصاً من قبل قومبانية المياه وشركة سكة حديد الرمل ، وتحكمها في الاحتياجات الأساسية لجماهير الأسكندرية ، حيث قطعت الأولى المياه عن أحياء المدينة (١٩٠٤) ، ومنعت الثانية تجديد اشتراكات الركاب بالسكك الحديدية (١٩٠٥) التي تربط سكان منطقة الرمل بباقي أنحاء المدينة . الأمر الذي كان له أثاراً سيئة على المواطنين ، وتبرمهم ، ومحاولتهم القيام بتظاهرات معادية ، احتجاجاً على استغلال هذه الشركات الاحتكارية التي أعلنت أن حق الامتياز الممنوح لها هو ملك لها ، وحدها ، ولا يقدر غيرها (أي الحكومة) على إلغائه ، كما أنها لا تقبل التدخل من أطراف أخرى (تعني البلدية) في حقوقها وشئونها ، أو الرقابة على أعمالها ، واتهمت البلدية بالعجز عن رفع الظلم عن الأهالي ، ووضع حد لتصرفات الشركات الاحتكارية ، بحجة أن أعضاء المجلس أنفسهم ، أعضاء في هذه الشركات[١٩] .

وازاء إصرار الشركات الأجنبية -صاحبة الامتياز- على السيطرة على مرافق الخدمات في المدينة ، وعلى رأسها مرفق المياه ، وقفت الحكومة متخاذلة ، على حين كانت البلدية عاجزة عن إملاء أية شروط تحمي مصالح سكان المدينة ، وتصون حقوق أبناء البلاد . وفي عام ١٩١٨ وافق مجلس الوزراء على بعض القرارات التي تتيح إحلال البلدية محل الحكومة في الاتفاقات المبرمة مع شركة المياه البريطانية ، وتأليف لجنة خاصة لدراسة تلك الاتفاقات[٢٠] . لقد كان على المصريين أن يبدأوا مرحلة من الكفاح الوطني ضد السيطرة الأجنبية على مرافق الخدمات في المدينة ، وعلى رأسها مرفق المياه .

وعلى أثر إعادة انتخابات المجلس البلدي في فبراير ١٩٠٦ ، وتشكيل المجلس الجديد في مارس من نفس العام ، نظر المجلس في بعض الموضوعات الهامة وعلى رأسها بيع أراضى الرصيف لحل أزمة الإسكان ، لقد حققت هذه البيوع عائداً كبيراً للبلدية في عام ١٩٠٧ يقدر بنحو ٢ مليون جنيه على ما ورد بتقرير اللورد كرومر عن الأوضاع المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان والمرفوع إلى نظارة الخارجية البريطانية في عام ١٩٠٦[٢١] .

وتحت تأثير الظروف التي مرت بها البلاد (١٩٠٩) حدث نقص كبير في الإيرادات البلدية ، وخلل في الميزانية ، حيث زادت المصروفات بالقياس إلى الإيرادات المتحصلة في الأعوام السابقة . الأمر الذي دفع بالبلدية إلى تعويض هذا الخلل عن طريق فرض الضرائب والرسوم الجديدة ، وعقد قرض مالي . كما فرضت في أكتوبر من عام ١٩٠٩ ما اطلق عليه «عوائد التحسينات» ، وهي رسوم تدفع على عوائد الأملاك ، غير أن فرض هذه الرسوم في ذلك الوقت ، كان موضع انتقاد شديد ، لأن هذه التحسينات كانت في واقع الأمر قاصرة على الأجانب وحدهم[٢٢] .

ولم يتيسر للبلدية أن تصلح أوضاعها المالية ، وأن يتوفر لها الأموال اللازمة لإدخال التحسينات المطلوبة ، وإنجاز مشروعاتها القائمة ، إلا بعد موافقة الحكومة على اقراضها مبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكذا موافقة الدول الأوروبية على منحها قرضاً مالياً بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه لتنفيذ بعض المشروعات الخاصة بالصرف الصحي ، واستكمال العمل بالرصيف في أواخر عام ١٩١٢ ، أما بقية الأعمال التي تدعو الحاجة إليها بسبب اتساع حدود المدينة ، خاصة الأراضى الجديدة التي تم بناء منازل عليها بمحاذاة شاطيء البحر ، وما تتطلبه هذه المساكن الجديدة من خدمات صحية ومرافق أساسية وطرق وغير ذلك ، فكانت بحاجة شديدة إلى تدبير مصادر مالية أخرى للانفاق عليها وصيانتها ، مصادر تعجز إيرادات البلدية عن تدبيرها في ظل تدهور أوضاعها ، وتخبطها في مشروعات غير ضرورية أوعديمة الفائدة لسكان المدينة . وقد كثر التذمر بين الوطنيين الذين شكلوا لجنة للدفاع عن مصالح الأسكندرية وأهلها ، والنظر في المظالم التي ارتكبتها شركات الاحتكار في المدينة ، أو تلك المشروعات غير الضرورية التي أقرتها البلدية على غير رغبة من أهالي الثغر .

هذا وقد تردت البلدية في الكثير من المشكلات وأجريت التحقيقات في العديد من التهم الموجهة إلى موظفيها وشاع الفساد بين جنباتها . . . إلخ . الأمر الذي دفع بنظارة الداخلية إلى استصدار القرار بتعيين رئيس قسم البلديات بها ، مديراً لبلدية الأسكندرية (١٩١٢)[٢٣] .

وقد لجأت الصحافة إلى مهاجمة البلدية بسبب المشكلات التي تعاني منها خلال تلك الفترة التي تعتبر من أدق فترات تاريخ بلدي الأسكندرية . وفي ابريل سنة ١٩١٤ ناقش أعضاء البلديات مسألة الصحافة ، واستقر الرأي بالأغلبية على إعطاء رئيس المجلس حق منع حضور أي من الصحافيين ، إذا تبين له ما يستدعي ذلك ، ومنح الترخيص بالحضور للذين يرى حضورهم جلسات

المجلس البلدي . وقد أثار هذا القرار حفيظة أعضاء البلدية الذين قدموا احتجاجاً على موقف الحكومة «الاستسلامي» لقرار البلدية ، والذي كان من شأنه إقرار لائحة للصحافة (في أول يوليو ١٩١٤) تعمل على تكميم أفواه الصحافيين[٢٤] .

وعشية الحرب العالمية الأولى ، نشأت الصعوبات : نقص المواد الغذائية ، وغلاء أسعارها ، تفشي البطالة . . إلخ ، وفي مواجهة تلك المشكلات توالت اجتماعات البلدية لمناقشة أوضاع الغذاء في المدينة ، ووضع حداً لموجة الغلاء ، وأشارت بعض الصحف إلى أن الأسكندرية يجتاحها الجوع ، وتملؤها النفايات ، وتستغلها شركات الاحتكار[٢٥] .

وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر في ديسمبر عام ١٩١٤ ، وفي يناير ١٩١٥ صدر بلاغ القائد العام للقوات البريطانية عن الأحكام العرفية في البلاد ، ولم تمنع ظروف الحرب من إجراء انتخابات البلدية في موعدها (مارس ١٩١٦) ، غير أن القائد العام للقوات البريطانية في مصر قد أعلن حرمان جميع الأشخاص التابعين للدول المعادية ، وكذا جميع المصريين الممنوعين من العودة إلى القطر المصري أو من الإقامة فيه ، حرمانهم من حق المشاركة في الانتخابات البلدية كناخبين أو مرشحين ، كما منحت السلطات العسكرية البريطانية أحد قوادها ، سلطات واسعة تخول له الاشراف على محلات تعبئة المياه الغازية والمعدنية ، وإغلاق المخالف منها دون محاكمة[٢٦] . ولنا أن نستنتج من ذلك عدم موافقة الناخبين على التوجه للإدلاء بأصواتهم (بلغ عدد الذين أدلوا بأصواتهم ٧٢٧ ناخباً فقط من ألفين ومائة صوتاً مدرجاً بكشوف الناخبين) ، واعتراض السلطة الرابعة (أعني الصحافة) على الطريقة التي أجريت بها الانتخابات ، واعتبارها على حد تعبير «البورص اجيبشيان» دليل على عدم اتفاقها ومصلحة الأهالي ، والمطالبة بإلغائها لما فيها من تلاعب ومخالفة للنظام الأساسي للبلدية ، كما نوهت صحيفة

الأهـالي بالنصيب الـذي يحصـل عليه الـوطنيون في الأنظمة التي تتحول فيها صبغتها الدولية إلى صبغة مصرية إنجليزية[٢٧] .

وعـلى أية حال ، فإن السلطات البريطانية في مصر خلال الحرب العالمية الأولى ، قد تمكنت من السيطرة التامة على البلدية ، سواء بإصدار أوامرها إلى مدير البلدية للاتصـال أو لمقـابلة رئيس الحكـومـة والمستشارين البريطانيين في العـاصمة ، أو لعزل البلدية عن ممارسة أية تقييمات للسياسة البريطانية ، كما طلبت من موظفي البلدية عدم التعامل (أو حتى استقبال) مع الصحفيين في مقر البلدية . . إلخ ، وتقلصت الكثير من المهام للمجلس البلدي ، حيث يمكن القول بالفعل أنه مجلس جاء في ظل الحماية ، وطوع أمر السلطات البريطانية .

على أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أن خدمات المجلس البلدي في خلال هذه الفترة قد اتجهت صوب الأحياء الأجنبية ، والاهتمام بفتح الطرق الجديدة (أو المشروعـات الكـمالية) التي لا تعود على أبناء البلاد بأية فائدة على حساب الاهتمام بالشوارع الوطنية والمشروعات القومية ، أو التصدي لمشكلة الصرف الصحي .

ومن الطبيعي أن تتجدد الدعوة إلى ضرورة حصول الوطنيين على عدد من المقاعد البلدية تتناسب مع عددهم في المدينة ، ومع ما يدفعونه من الضرائب ، في مقابل ذلك أيضاً تزايدت الحركة الوطنية في المدينة قوة واشتعالاً ، وحتى لا تتفـاقم الأمور في ظل أحداث الحرب ، رأت دار الحماية البريطانية في القاهرة تعيين أحد العسكريين البريطانيين مديراً للبلدية[٢٨] .

وعـلى حين قصـدت السلطات الـبريطانية بتعيين أحد العسكريين مديراً للبلدية ، امتصـاص الغضب الـدائـر في أوسـاط الأهالي ، وتجنب احتمالات الصدام بالقوى الوطنية المتطلعة إلى تحديد مسئوليات البلدية ، فإنها لم تجن من

وراء ذلك سوى مزيد من المعارضة والنقد لسياستها المختلفة ، وخصوصاً فيما يتعلق بفرض الضرائب وتأمين الغذاء .

والواقع أن الدور الاقتصادي الذي اضطلعت به البلدية خلال فترة القيادة العسكرية ، يتضح بجلاء في اهتمامها بالمشكلات الناجمة عن شركات الاحتكار الرأسمالية ، ونقص السلع الغذائية في الأسواق ، وارتفاع الأسعار بوجه عام ، لقد تمخض هذا الاهتمام عن تشكيل لجنة خاصة أطلق عليها «لجنة مراقبة التموين» ، وهي لجنة ذات فاعلية ، وتعتبر أوامرها وكأنها صادرة تحت نظام الحكم العرفي ، ومن يخرج عليها يحاكم أمام محكمة عسكرية(٢٩) . ولعل أهم قرارات لجنة التموين ، مواجهة النقص في المواد الغذائية عن طريق تسعير السلع ، وبخاصة القمح والدقيق والشعير والفول والعدس والزبد والسمن . . إلخ ، والتصدي كذلك لمحاولات بعض التجار تهرب الغلال واخفائها طمعاً في الغنى ، ومغالاة في أسعارها .

ومن بين العوامل الهامة التي أدت إلى إخفاق البلدية في مواجهة الاحتكار والمضاربة ، والحد من ارتفاع الأسعار ، والتخفيف عن كاهل الفقراء (الموظفين) ، زيادة أجور المساكن والتي بلغت نسبتها في بعض مناطق المدينة مائة بالمائة ، حتى أضحى أصحاب الإيرادات الثابتة يواجهون الأمرين : غلاء المواد الغذائية ، وارتفاع إيجار الوحدات السكنية . وعلى الرغم من الإجراءات التي اتخذتها لجنة مراقبة التموين ، ظلت الشكوى مرتفعة بين أهالي الأحياء الفقيرة ، من نقص المواد الغذائية ، حيث طالب هؤلاء بتوزيع الغلال كتوزيع البترول ، وأصبحت المجاعات تهدد قطاعاً واسعاً من السكان ، الأمر الذي لم تجد فيه البلدية بداً من افتتاح مطعم لفقراء المدينة ، يتناولون فيه الخبز والطعام بالمجان(٣٠) .

أما عن الأوضاع الاجتماعية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد تدهورت

إلى حد كبير ، ولم تفلح البلدية في مواجهة المحتكرين للغذاء ، كما أنها لم تتخلى عن سياستها في فرض الضرائب ، وقد ووجهت البلدية في هذا بمعارضة شديدة ، ونقد مستمر .

ويتعين علينا أخيراً الإشارة إلى أن نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، لم تكن إيذاناً بانفراج الأزمة ، فقد ظلت الأوضاع على ما هي عليه من تأزم في الظروف الاقتصادية ، وتدهور في الأحوال الاجتماعية ، وفكرت البلدية في تقرير إعانة حرب للعاملين ، كما لجأت إلى عقد قرض بحوالي نصف مليون جنيه ، غير أن ذلك لم يؤد في النهاية إلى تحسين أوضاع الفقراء مما أنذر بمزيد من التدهور في أجل قريب ، وقد حدث ذلك بالفعل فور قيام ثورة ١٩١٩ حيث اندلعت التظاهرات في الشوارع تطالب بمواجهة الاحتكار ، وأضرب عن العمل بعض الطوائف الحرفية الفقيرة ، إلى أن شمل التدهور البلدية ذاتها فيما بعد ، حيث طالب البعض بضرورة إلغاء البلدية لأنها تمثل رمزاً من رموز الاحتلال في مصر .

الخاتمة :

ان الحديث عن تجربة المجالس البلدية ، ودورها في تنظيم الخدمات العامة في المدينة المصرية ، يحوطه الكثير من الاعتبارات الخاصة مثل أوضاع الأجانب والامتيازات الممنوحة لهم ، فضلاً عن سيطرة الحكومة المركزية على جميع السلطات المحلية ، بل أن غياب هذا النمط من الحكم المحلي عن القاهرة نفسها رغم أن بها ما يزيد على ٤٠٪ من مجموع سكان الحضر قد يكون من بين هذه الاعتبارات التي تتطلب التفسير والتأمل .

والواقع أن محاولة مصر إنشاء مجالس أو مؤسسات بلدية في البلاد ، لم يكن سوى استجابة لمجموعة من التطورات التي حدثت في مناطق أخرى مجاورة . ففي بيرا وجالاتا باستانبول ، حيث عدد كبير من الأجانب ، أنشيء مجلس بلدي

تجريبي لبحث وتنفيذ كافة شئون النظافة والمرافق العامة والخدمات المتصلة بها . ولم يكن نقل تنظيمات استنبول إلى مصر (القاهرة - الأسكندرية) أمراً سهلاً ، فالأوضاع الداخلية لم تكن مهيأة بعد لقبول مثل هذا القدر من التنظيمات الجديدة ، وخصوصاً ان القناصل الأوروبيين قد عارضوا بشدة إدخال مثل هذه المؤسسات البلدية كما أن خوف الأهالي من فرض الضرائب أو الوقوع في الاستغلال من قبل هذه السلطات الجديدة ، قد دفع بهم إلى معارضة هذه المؤسسات البلدية واستمرت هذه الأوضاع حتى قيام الحرب العاليمة الأولى تقريباً .

وقد مر بنا كيف كن مجلس الأورناطو في الأسكندرية في بواكير القرن التاسع عشر ، يبت في كافة المسائل المتعلقة بالخدمات والمرافق وتطوير المدينة بشكل عام . صحيح أنه كان تابعاً للحكومة المركزية ، ويرجع إليها في كل قراراته ، لكنه قام بالفعل بدور ملموس في تطوير الأسكندرية خلال الفترة السابقة على ظهور المجلس البلدي .

وعلى أثر تكوين مجلس بلدي الأسكندرية في عام ١٨٩٠ ، ارتفعت أصوات الوطنيين احتجاجاً على فرض الضرائب عليهم ، وحرمانهم من كل الخدمات العامة (الرصف - الإنارة - المياه الصالحة للشرب ، الصرف الصحي . . إلخ) مقابل توجيه كل المشروعات والأنشطة والخدمات للأحياء الخاصة بالأجانب . حتى أضحت مناطق سكن الوطنيين مناطق موبوءة ، تنتشر فيها القاذورات والأوحال ، يكسوها الظلام ليلاً ، يفتقد سكانها فرص الحياة الإنسانية .

إن تجربة إدخال المجالس البلدية في مصر ، والتي تحمس لها الأجانب خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، كان الهدف منها هو تعمير وتطوير الأحياء الخاصة بالجاليات الأجنبية في مدينة الأسكندرية ، لتليق بسكناهم وبالدور الذي يؤدونه في ربط الميناء بالعالم الأوروبي للإفادة من موارد مصر الاقتصادية .

وقد تحقق لهم ما أرادوا ، حيث تعتبر نسبة تمثيلهم في عضوية هذه المجالس نسبة عالية ، تسمح لهم باتخاذ القرار والتأثير في صناعته .

يتبقى في هذا الاطار ، القول بأن المجالس البلدية في مصر لم تحقق النتائج التي كانت تَتَطلع إليها أو تُنتظر منها . ولعل ذلك يرجع إلى أنها لم تنطوي على أي شكل من أشكال الحكم المحلي ، بل ظلت تدور في فلك الحكومة . كما أن الموارد المالية -وهذا في حد ذاته سبب كافي- كانت ضئيلة ومحدودة لا تتناسب مع حاجة الأهالي ورغبتهم في تطوير مجتمعهم ، ولا مع حجم المشروعات التي كانت هذه المجالس تتطلع إلى انجازها .

على أن ذلك لا يعني قط التقليل من دور مجلس بلدي مدينة الأسكندرية فقد كان هذا المجلس وسيظل علامة أساسية في ازدهار المدينة ونموها ، وتحولها إلى مركز تجاري دولي . ويمكننا القول أن مظاهر التحديث قد عرفت الطريق إلى الأسكندرية ، من خلال مجلسها البلدي ، الذي أفاد كثيراً من جهود القناصل الأجانب والتجار الأوروبيون الموجودين بالمدينة . ويزيد من قَدرِه أيضاً أنه ظل المؤسسة البلدية الوحيدة في مصر ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، التي تمثل أول محاولة من نوعها لغرس الأنظمة الأوروبية الحديثة في مدن مصر .

* * *

المصادر والهوامش

1. More Berger, Bureaucracy and Society in Modern Egypt: A Study of Higher Civil Service, Princeton Univ. Press, 1975.

٢ - أندرية ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٧٤ ، ص ص ١٣-١٤ .

٣ - يذكر «برنارد لويس» ان المدينة الإسلامية تخلو من مؤسسات مدنية ، ويعضده من ذلك «بلانهول» و «كارديت» اللذان يقولان أن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات الإدارية ، ولم تكن تتمتع بالاستقلالية . وانتهت بعض الآراء إلى انعدام روح المواطنة لدى مواطن المدينة الإسلامية . أنظر كتابات :

- Jean Combair, Warner J. Cahnman, How Cities Grew, The Historical Sociology of Cities, New Jersey, 1965, 3rd ed. pp. 6–7.

- S.M. Stern, The Construction of the Islamic City, The Islamic City, Oxford 1972, p. 30.

- عبدالجبار ناجي ، المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية : دراسة نقدية معاصرة ، مجلة المورد ، مجلد ٩ ، العدد ٤ ، ١٩٨٠ ، ص١٧٠ .

- محمد المعتصم مصطفى ، المدن الإسلامية وخصائصها ، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، السنة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢١٧/٢٥٤ .

٤ - السيد الحسيني ، المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع ، الدوحة ، ط ٤ ، ١٩٨٦ ، ص ٢٤٦ .

٥ - جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٠٩ .

٦ - أنظر : عزت حجازي ، القاهرة : دراسة في ظاهرة التحضر ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ص ٣٥-٣٦ . هدى محمد صبحي ، حول الفوارق الإقليمية ومشكلة توزيع الاستثمارات بين الأقاليم ، في : بحوث ومناقشات المؤتمر العلمي السنوي الرابع للاقتصاديين المصريين ٣-٥ مايو ١٩٧٩ ، المركز القومي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٠١-٣١٠ .

٧ - محمد إبراهيم حسن ، مشكلات الري في دلتا النيل : تطور نظام الري في الدلتا ، في : مجلة كلية الآداب ، جامعة الأسكندرية ، المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ - ١٩٥٣) ، ص١٣٩ . جمال حمدان ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان ، الجزء الأول ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٨ - دافيد لاندز ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبدالعظيم أنيس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٦-٧٧ .

٩ - ج ، بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة عبدالخالق لاشين وعبدالحميد فهمي ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٦ ، ص٣٧٢ .

١٠ - حول دور نظام الطوائف ، والحرف في التاريخ الاجتماعي المصري الحديث ، أنظر : مجدي وهبة ، التنظيم الاقتصادي لقاهرة القرن الثامن عشر ، (عرض كتاب أندريه ريمون عن أصحاب الحرف والتجار

بالقـاهرة في القرن الثامن عشر) في : السياسة الدولية ، العدد ٤٠ ، القاهرة ، يوليو ١٩٧٩ .

١١ - ج . بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحرية ، مصدر سابق ، ص٢٦٦ ، أنظر كذلك - هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ .

١٢ - المصدر السابق مباشرة ، ص ص ٢٨٠ .

١٣ - يذكر «لوتسكي» أنه كان في مصر في عام ١٨٤٠ ، ٦١٥٠ أوروبياً ، مقابل ٨٠٠٠٠ أوروبياً في عام ١٨٧١ ، يضمون ٣٤ ألف يوناني ، ١٧ ألف فرنسي ، و١٤ ألف إيطالي ، و٦ آلاف إنجليزي ، ٧ آلاف ألماني . وكـان يقـطن في الأسكنـدرية ٥٠ ألف أجنبي (يؤلفـون ربـع سكـان المدينة) . أما القاهرة فلم تكن تضم سوى ٢٠ ألف أجنبي» .

أنظر : لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديثة ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص ١٩٦ . أما تقديرات «بير» فقد أوردها في دراسته سالفة الذكر ، ص٢٦٧ .

ويبدو أن الحكومة المصرية - فيما يؤكد «أنور عبدالملك» لم تتح لها خلال هذه الفترة فرصاً كافية للتغلب على عدم رغبة الدول الكبرى في التخـلي عن أي امتياز من الامتيازات الممنـوحة للأجانب ، في الوقت الـذي حرصت فيه الجـاليات الأجنبية ، الاستفـادة التـامـة من مبـدأ عدم التبعية الذي كان يشكل لائحة القوانين الخاصة بهم . ويتضمن هذا المبدأ فيما يعنينا أربعة حصانات هامة هي :

(أ) الحصـانـة المتعلقـة بالحرية الفردية . وهذه تستتبع حرية المسكن وحرية الإقامة .

(ب) الحصانة القضائية . وبموجبها لا يجوز للمحاكم المصرية محاكمة الأجانب الذين كانوا لا يمثلون إلا أمام محاكمهم القنصلية حتى عام ١٨٧٦ ، حيث أنشئت المحاكم المختلفة أو التي لا يدخل في اختصاصها الحالات الجنائية .

(جـ) الحصانة التشريعية . عن طريق رجال القضاء الأجانب القائمين في محكمة استئناف الأسكندرية ، والذين كانوا لا يشرفون على القوانين التشريعية للحكومة المصرية .

(د) الحصانة الضريبية . التي كانت تعفى الأجانب من دفع الضرائب المصرية ، إلا إذا كان هناك اتفاق سابق مع الحكومات الأجنبية المعنية .

أنظر : أنور عبدالملك ، نهضة مصر : تكون الفكر والأيديولوجية من نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥ - ١٨٩٢) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ ، ص٨٢ .

١٤ - سعد الدين إبراهيم ، حاضر المدن العربية ومستقبلها ، المؤتمر الإقليمي الثاني للسكان ، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ، الأمم المتحدة ، المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، دمشق ، ديسمبر ١٩٧٩ ، ص١٠ ، أنظر كذلك : جمال حمدان ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان ، مصدر سابق ، ٢٢٩ .

١٥ - حلمي أحمد شلبي ، الحكم المحلي والمجالس البلدية في مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩١٨ ، عالم الكتب ، ١٩٨٧ ، ص٩٨ .

١٦ - المصدر السابق مباشرة ، ص١٠٠ .

١٧ - بير ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، مصدر سابق ، ص٣٨٢ .

١٨ - اعتمدنا في رصد ومتابعة دور البلدية في تنظيم الخدمات العامة في مدينة الأسكندرية ، على المصدرين الأصوليين التاليين :

- حلمي أحمد شلبي ، الحكم المحلي والمجالس البلدية في مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩٨٨ (الفصل الخامس) ، مصدر سابق .

- ج . بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة (الفصل الحادي عشر) مصدر سابق .

١٩ - حلمي شلبي ، الحكم المحلي والمجالس البلدية في مصر ، مصدر سابق ، ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٢٠ - المصدر السابق مباشرة ، ص١٤٦ .

٢١ - نقلاً عن تقرير المالية والادارة والحالة العمومية في مصر وفي السودان عام ١٩٠٦ رفعه اللورد كرومر إلى ادوارد جراي ناظر خارجية بريطانيا (مترجم) ، استناداً إلى دراسة حلمي شلبي ص ١٣٥ .

٢٢ - حلمي شلبي ، المصدر السابق ، ص١٣٧ .

٢٣ - المصدر السابق ، ص١٤٨ .

٢٤ - نفس المصدر ، ص١٥٣ .

٢٥ - الأهالي في ١٩١٤/٨/٢٨ ، استناداً إلى حلمي شلبي .

٢٦ - المصدر السابق : ١٩١٦/٢/١٤ .

٢٧ - نفس المصدر السابق . أنظر كذلك دراسة علي بركات ، رؤية علي مبارك لتاريخ مصر الاجتماعي ، مؤسسة الأهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٢٨ - حلمي شلبي ، المصدر السابق ، ص١٦٣ .

٢٩ - الأهالي في ١٩١٨/٦/٤ استناداً إلى حلمي شلبي ، ص١٦٣ .

٣٠ - المصدر السابق مباشرة في ١٩١٨/٦/١٢ وكان المجلس البلدي في الأسكندرية قد نظر مشروع إنشاء مطابخ خاصة في المدينة في جلسة ١٩١٨/٤/٢٥ . واعتمد المبالغ اللازمة لهذا الغرض .

***

ترجمة التراث اليوناني
وأثرها على الحضارة الاسلامية

الدكتور فتح الله خليف

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

تتردد في أيامنا هذه عبارة ، أشعر بكثير من الاستياء لسماعها ، وأعني بها عبارة «فكر مستورد» . ووصف الفكر بأنه مستورد فيه تسوية بين الفكر والبضاعة التي يستوردها التجار . واستعارة كلمة «مستورد» من عالم التجارة إلى عالم الفكر شيء لا يقبله ذوق .

إن مثل هذه الألفاظ الغريبة على حياتنا الفكرية لم تخطر أبداً على بال المفكرين الإسلاميين الذين أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية ، إنما أطلقوا على تراث من سبقهم من الأمم عبارة في غاية التهذيب هي «علوم الأوائل»[1] . وهذه التسمية تحمل في طياتها تقدير المسلمين لكل فكر إنساني سبقهم . وهذا التقدير يتجلى في تلك الرعاية الفائقة «لعلوم الأوائل» ، وبالذات العلوم اليونانية من قِبَل خلفاء المسلمين ، وحرصهم على نقل «علوم الأوائل» إلى اللغة العربية . ومن المعروف أن النشاط الرسمي بدأ من قبل الدولة الإسلامية في ترجمة التراث اليوناني في عصر المأمون في نهاية القرن الثاني للهجرة .

ويذكر ابن النديم في كتاب الفهرست قصة طريفة في السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد . يقول ابن النديم إن الخليفة المأمون رأى فيما يرى النائم رجلاً أبيض اللون ، مشرباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أشهل العينين ، حسن الشمائل ، جالساً على سريره .

قال المأمون	:	وكأني بين يديه قد مُلئت له هيبة .
فسأله المأمون	:	من أنت ؟
قـــال	:	أنا أرسطو طاليس .
قال المأمون	:	فسررت به .
قال المأمون	:	أيها الحكيم أسألك .
قـــال	:	ســـل .
قـــال	:	ما الـحُـسْـن ؟
قـــال	:	ما حَسُن في العقل .
قـلـت	:	ثم ماذا ؟
قـــال	:	ما حسن في الشرع .
قـلـت	:	ثم ماذا ؟
قـــال	:	ما حَسُن عند الجمهور .

ويذكر ابن النديم أن هذا المنام كان من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ، وأن المأمون اتصل بامبراطور الروم يستأذنُه في نقل الكتب المخزونة المدخرة في بلاده فأجـاب ذلك بعد امتناع . فأرسل المأمون وفداً حمل إليه نفائس الكتب وأمرهم المأمون بنقلها . وكان بين هذا الوفد الحجاج بن مطر ، ابن البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وبنو شاكر المنجم ، وقسطا ابن لوقا البعلبكي ، وحنين ابن اسحق(٢) .

نقف عند هذه الرؤية لنتبين ما تنطوي عليه من دلالات :

أولاً : يذكر المأمون أنه امتلأ بالهيبة بين يدي أرسطو ؛ وذلك يدل على تقدير خلفاء المسلمين وحكامهم للعلم والعلماء . فقد كان للعلماء منزلةٌ رفيعة في العالم الإسلامي ، ولكن من المؤسف أن يضيع العلماءُ هذه المنزلة بعرض أنفسهم على الـولاة والحكـام ، فبعـد أن كان العلماءُ إذا طُلبـوا هربوا وأعرضوا ، أصبحوا

يتقربون من السلطة . وفي ذلك يقول الغزالي : أصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزةً بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم(٣) .

ثانياً : إن هذه الرؤية تدل دلالة قاطعة على أن المأمون كان مشغولاً متفكراً في فلاسفة اليونان وآثارهم . ومعنى هذا أن المأمون وقع تحت تأثير الفكر اليوناني قبل ترجمة هذا الفكر . إذن فتأثير الفكر اليوناني على الفكر الإسلامي أسبقُ من الترجمة ، ذلك لأنه كان يعيش بين المسلمين كثيرٌ من السريان والنصارى ممن لهم علم بالآثار اليونانية والثقافة اليونانية ، فكانوا ينقلون بعض ثمرات الفكر اليوناني نقلاً شفوياً .

بل إن الفلسفة اليونانية لم تكن جديدةً على البلاد التي غزاها المسلمون . فقد وجد المسلمون مراكزَ متعددة لدراسة الفلسلفة في الأسكندرية وفي بلاد الفرس . فمجلس التعليم الفلسفي والطبي بالأسكندرية لم يكن قد انتهى حين دخل المسلمون مصر . وكذلك وجدت مجالس للتعليم في البلاد الأسيوية في نِصِّيبين والمدائن وجُنْدَ يْشَابور وأنطاكية والرُّها وحَرّان .

وقد غزّت هذه المجالسُ المسلمينَ بكبار المترجمين وأقوم الكتب العلميةوالفلسفية وأنفعِها. . . . ففي الأسكندرية بدأت أول ترجمة في الكيمياء والطب دعا إليها خالد بن يزيد بن معاوية الذي يسمى بحكيم آل مروان . والكيمياء الإسلامية مستمدة في أغلبها من الأسكندرية ، والطب الإسلامي في أساسه جالينوسي أو بعبارة أخرى اسكندري ، ذلك لأن الأسكندرية قد احتفظت بمعظم مخلفات جالينوس . ومدرسة الأسكندرية في الفلسفة أي الأفلاطونية المحدثة ذاتُ أثر واضح في مختلف المدارس العقلية الإسلامية . فالأسكندرية هي بمثابةِ همزةِ الوصل بين أثينا وبغداد .

أمـا جنـديشابور فكانت مقر المدرسة الطبية المشهورة التي أسسها كسرى الأول ، ومنهـا استمـد المسلمـون الكثـيرَ من أطبـائهم ومترجميهم وخاصة آل بختيشوع الذين كان لهم شأن يذكر في تاريخ الترجمة والطب العربي .

أمـا حَران فكانت ملجأ الوثنيةَ اليونانيةَ بعد أن أغلق جوستنيان المدارسَ الفلسفية في الغـرب . وقـد أمـدت المسلمين بطائفة من العلماء والمترجمين على رأسهم ثابت ابن قرة(٤) .

ولم يلتفت المسلمون إلى جنس أو عقيدة في بحثهم عن مترجمين ينقلون إليهم ثمرات الحضارات الإنسانية . فقد استعانوا بالفرس والهنود والصابئة واليهود والمسيحيين(٥) .

وهناك عنصر آخر له وزنُه على التأثير الذي وقع تحتَه المأمون وإنشغالِه بالفكر اليوناني وهو أنه كان يعيش بين المسلمين كثيرٌ من الجواري الروميات ممن لهن حظُ كبيرٌ من الثقافة ، وكن يقمن بوظائف التربية والخدمة في بيوت الخلفاء والعظماء فكان لهن بلا شك تأثيرٌ في تعريف بعض الأوساط ببعض نواحي الفكر اليوناني . ولا شك أن دراسة حياة المأمون ومجتمع القصور في عصره يمكن أن تنير أمامنا الطريق للكشف عن هذاالتأثير والانشغال بالفكر اليوناني في اليقظة والمنام جميعاً .

ثالثاً : تدل هذه الرؤية على قوة تأثير المعتزلة على المأمون ، فالحسن يعرف بالعقـل أولاً ، ثم بالشرع ثانياً ، ثم بالإجماع ثالثاً . ونحن نعرف أن المعتزلة قدمت العقل على النقل ، وأخضعت النقل للعقل . فالعقلُ عند المعتزلة قادرٌ بقوته الذاتية وبغير معونة الشرع على الحكم بإيجاب ما يجب : وأول ما يجب على الإنسان في مذهب المعتزلة معرفةُ اللّهِ بالعقل ، وبعد ذلك يجب على الإنسان أن يأخـذ عن الرسول أو عن السمع ما لا يوافيه به عقلهُ من معرفة الله . بل إن

الإنسان الذي لا يعرف اللَّهَ بعقله ، ولم يتيسر له أن يتلقى معرفةَ اللَّهِ بواسطة الوحي ، هذا الإنسان مسئول ويستحق العذاب وغير معذور لعدم وصول السمع إليه ؛ وذلك لأن العقل كفيل بأن يعطيه من معرفة الله ما يدفع عنه هذا الجهل . كذلك فإن العقلَ قادرٌ بقوته الذاتية على التمييز بين الخير والشر أو الحُسْن والقبح من غير معونة الشرع . بل إن خيريةَ الأفعالِ وشريتَها أو حسنَ الأفعالِ وقبحَها لا ترجع إلى الأمر بها أو النهي عنها من قِبَل الشرع ، لكن الحسنَ والقبحَ صفتان ذاتيتان للأفعال في مقدور العقل الكشف عنها .

هذا التيار العقلي المعتزلي قدر له أن يظل من أنشط روافد الفكر الإسلامي المتدفق طوال خمسةِ قرونٍ كاملةٍ منذ القرن الثاني للهجرة حتى القرن السابع الهجري . ولم يتخلف أهلُ السنةِ والجماعةِ من الأشاعرة الذين جاءوا بعد الأشعري ونصروا مذهبَه عن متابعة هذا التيار . فالإمام فخر الدين الرازي المتكلم الأشعري يقرر صراحة في كتاب أساس التقديس :

«الفصل الثاني والثلاثون : في أن البراهين العقلية إذا صارت مُعَارضَةَ بالظواهر النقلية فكيف يكون الحال فيها ؟ أعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ، ثم وجدنا أدلةً نقليةً يُشعر ظاهرُها بخلاف ذلك فهنا لا يخلو الحالُ من أحد أمور أربعة : إما أن يصدق مقتضى العقلِ والنقلِ ، فيلزم تصديق النقيضين ، وهو محال . وإما أن يبطلَ فيلزم تكذيبُ النقيضين ، وهو محال . وإما أن تصدق الظواهر النقلية وتكذب الظواهر العقلية ، وذلك باطلٌ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحةَ الظواهرِ النقلية إلا إذا عَرفنا بالدلائل العقلية إثباتَ الصانعِ وصفاتِه وكيفيةَ دلالةِ المعجزة على صدق الرسول وظهور المعجزات على محمد عليه السلام . ولو جوزنا القدحَ في الدلائل القطعية صار العقلُ متهماً غير مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبولَ القول في هذه الأصول . وإذا لم تثبت هذه الأصولُ خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدةً . فثبت أن القدحَ في العقل لتصحيح النقل يُفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً ،

وأنه باطل . ولما بطلت الأقسامُ الأربعةُ لم يبق إلا أن يُقطع بمقتضى الدلائل العقليةِ القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية إما أن يقال إنها غيرُ صحيحةٍ ، أو يقال إنها صحيحةٌ إلا أن المراد منها غير ظواهرها»[٦] .

ولم يقف أهل السنة عند هذا الحد من الاعتداد بالعقل فذهبوا في الشوط إلى نهايته وأعلنوا صراحة أن المسلم لا يصح إسلامُه حتى يكونَ قبل بلوغه شاكاً غيرَ مصدقٍ ، واشترطوا في صحة الإيمان أن يكون قائماً على الاستدلال الذي ينبغي تدريبُ المسلم عليه فور أن يراهق البلوغ[٧] .

كل ذلك يدعونا إلى مراجعة شاملة للأحكام التي ألفناها عن هذه المذاهب ؛ لكي نُوقظ في أنفسِنا جذوةَ العقل ، لأن العقلَ أعدلُ الأشياء توزعاً بين الناس كما يقول ديكارت ، وهو النور أو الشمعة التي وهبها اللّهُ لنا «وقبيح بمن أُعطي شمعة أن يطفئَها ويمشي في الظلام» كما يقول ابن الجوزي[٨] .

وقد آن لنا أن نبدد هذا الظلام الذي خيم علينا زماناً طويلاً إن أردنا أن ندفع بتراثنا إلى النور . ولنا في رسول الله قدوةٌ . فإنه عليه السلام كان متعبداً بشريعة العقل قبل الوحي كما يقول بعضُ علماءِ أصولِ الفقه ، ولا شك أن التعبد على شريعة العقل كان جزءاً من الإعداد الإلهي للنبي ليصبحَ في مستوى تلقي الوحي والقيام بتبعات النبوة ، مثلما كان السمو الخلقي الرفيع الذي اتصف به قبل بعثة نبيا .

هذه بعض الملاحظات على رؤية المأمون التي كانت سبباً مباشراً لاتخاذ هذا القرار الخطير بترجمة الآثار اليونانية إلى اللغة العربية . لكن عناية المسلمين بالتراث اليوناني بدأت مبكراً في عصر الأمويين . فمن الثابت تاريخياً أن أول ترجمة أو نقل حصل في الإسلام كان بفضل طبيب اسمه ماسرجويه ، وهو سرياني عاش في العصر الأموي ونقل كتاباً يسمى بالعربية الكُنّاش لأهرُن ، وهو كتاب

في الميكانيكا أو كما كانت تُسمى في هذا الوقت «الحيل»[٧] . ويُروى أن عمر بن عبدالعزيز عندما عُرض عليه أمرُ الترجمةِ حَفِظَ الكتابَ عندَه عدةَ أيامٍ ، واستخارَ اللَّهَ في ذلك ، ثم أذن بنقله إلى اللغة العربية . فكان هذا بلا شك حدثاً مهماً في التقريب بين الأفكار وفي نقل معالم حضارة إلى حضارة أخرى .

وليس بين أيدينا كثيرٌ من هذه الأعمال المترجمة إلى العربية في عصر الأُمويين . ولكن مما لا شك فيه أن الترجمة ازدهرت في عصر العباسيين وتم نقل معظم الكتب الفلسفية لأرسطو وبعض محاورات أفلاطون وتاسوعات أفلوطين التي نسبت خطأً إلى أرسطو . هذا فضلاً عن ترجمة كتب الطب والفلك والهندسة .

ولم يكن هذا النقل هيناً فقد واجه المترجمون صعوبات كثيرة فاللغةُ العربية لم تكن ذاتَ عهدٍ بهذا النوع من العلوم على الإطلاق ، ولم يكن هناك أيُ تمهيدٍ لجعلها صالحةً لقبول هذه الأفكار التي هي من إنتاج شعب غريب ذي حضارة غريبة وعقلية مختلفة عن العقلية العربية كل الاختلاف . فاللغةُ العربيةُ لا تتصل باللغة اليونانية من أي جهة من جهات القرابة اللغوية . فكان عملُ المترجمين إذن عملاً ينطوي على جرأةٍ وشجاعةٍ يقل أمثالُها في تاريخ الحضارات . ذلك أن الرومان مثلاً قد سبقوا العرب ، وكانت لهم حضارةٌ عظيمةٌ ، وقد جاءوا بعد اليونان وأخذوا عنهم العلوم ، ولكنهم لم يترجموا الآثار اليونانية على نحو ما ترجمها العرب . وكان المثقفون منهم يعرفون الأفكارَ اليونانيةَ من أدب وفلسفة بعد أن تعلموا اللغةَ اليونانية . وكان من الصعب عليهم أن يتكلموا في الفلسفة والعلوم اليونانية بلغتهم أي باللغة اللاتينية . فتعلمَ الغالبُ لغةَ المغلوب ، ولذلك قيل بأن الرومانَ قد غزت اليونانَ حربياً ، ولكن اليونانَ قد غزتهم وأخضعتهم ثقافياً ، ذلك لأن الرومان كانوا يفاخرون بمعرفتهم لليونانية والحضارة اليونانية في لغتها . أما العرب فكانوا أجرأ من الرومان ، وبدلاً من حمل المثقفين منهم على تعلم لغة قديمة فإنهم نقلوا ما أنتجه السابقون إلى لغتهم .

وهنـاك صعـوبـاتٌ أخرى كانت تعترضُ المترجمين ، منها أن طبيعة اللغة العربية مختلفة في تراكيبها وفي طرقها الخاصة بالتعبير عن اللغة اليونانية . وأولُ اختلافٍ هو مثلاً طريقةُ الإسنادِ . فاللغةُ العربيةُ لا تحتاج إلى فعل للدلالة على الإسنـاد في القضية الخبرية البسيطة . ولهذا أهميةٌ كبيرةٌ ؛ لأن أداةَ الإسنادِ أو الرابطة كما يقال في المنطق لها وظائف مختلفة أهمها التعبير عن الوجود ، بينما تكاد تخلو اللغةُ العربيةُ من تعبير مشابه عن معنى الوجود .

انتبـه إلى هذه الصعـوبـة المترجمون فعمدوا إلى اختراع لفظة للدلالة على الرابطة هي ضمير الغائب ، فقالوا مثلاً : سقراط هو مائت ، في الإنجليزية Socrates is mortal . وقالوا عن مصدر الربط الهوية . فالهوية تساوي being أو être في اللغات الأوروبية .

أمـا الفرس فلم تعجبهم كلمة الهوية وفضلوا استعمال كلمة هستية وهي مصدر من هست أي وجود . فهستيةُ الشيء بمعنى وجوده .

وهناك صعوبات أخرى من صنف آخر غير اللغة ، ونعني بها الصعوبات الخـاصـة بالعقلية ، فالعقلية اليونانية كانت متعودة على فكرة تعدد الآلهة ، ومتعودة على تأليه بعض الموجودات . فمثلاً يكثر في اللغة اليونانية وصفُ النفس بأنها إله أو التعبير عن الموجودات ذات الرتب العالية بأنها آلهة . ولا حرج في اللغة اليونانية من مثل هذه التعبيرات ، لكن لا يمكن أن تُستساغ مثل هذه التعبيرات في اللغة العربية خصوصاً بعد ظهور الإسلام .

وكان للعرب في الترجمة طريقتان : طريقة الترجمة الحرفية وبمقتضاها كان ينقل المترجم النص اليوناني إلى اللغة العربية حرفاً حرفاً أو كلمة كلمة . وهي طريقةٌ بدائيةٌ وصعبةٌ جداً وعقيمةٌ ولا يمكن استساغتها . وتوجد نماذجُ كثيرة من هذه الترجمة أشهرها ترجمة بشر بن متى لكتاب الشعر لأرسطو . هذه الترجمة هي

من الـدقـة والأمـانـة بحيث سوغت للمهتمين بالآثار اليونانية وبكتاب الشعر لأرسطو على الخصوص أن يتمموا ما في النص اليوناني من نقص بواسطة هذه الترجمة العربية .

ثم عَرِف العربُ الترجمةَ بالمعنى ، أي قراءة النص ، ثم تحويله إلى فكرة ، ثم التعبير عن هذه الفكرة باللغة التي يُراد الترجمةُ إليها .

وقد وجد العربُ مؤلفاتٍ يونانية مكتوبة باللغة السريانية فنقلوها مباشرة من السريانية إلى العربية دون أن يمروا بالنص اليوناني . فقد كان يحدث أحياناً أن ينقل عالمٌ النصَ اليونانيَ من اليونانية إلى السريانية لمعرفته باليونانية والسريانية ، ثم يتولى عالم آخر النقل من السريانية إلى العربية لمعرفته بالسريانية والعربية .

ولذلك فإننا نعتبر اللغة السريانية واسطة ذات أهمية كبرى في نقل العلوم اليونانية إلى اللغة العربية .

كذلك وجد العرب مؤلفات يونانية باللغة الفارسية المتوسطة ، فترجمت هذه المؤلفات من الفارسية إلى العربية دون المرور على النص اليوناني .

وقـد نقلت عن الفـارسية المتوسطة كتب لأرسطو لا سيما بعض كتبه في المنطق . ويبدو أثرُ النقلِ من الفارسية إلى العربية واضحاً في الاختلاف حول المصـطلحات المنطقية مثلَ اصطلاحات المقولات مثلاً . فالناقل الفارسي كان يستعمـل كلمـةَ العـين بدل الجوهر . ومن الطريف أن العرب كانوا يفضلون استعمال كلمة الجوهر الفارسية بينما يفضل الفرس كلمة العين العربية . ويبدو أن السبب في ذلك أن العرب لم ترقهم كلمة عين لأنها من الألفاظ المشتركة ، فتقال على العين المبصرة وعلى البئر وعلى وجيه القوم وعلى الجاسوس ، وبذلك لا تدل نصاً على معنى معين ففضلوا استخدام كلمة جوهر الفارسية . على أن كلمة العين قد تسللت من المنطق إلى علم الكلام وظلت هي المصطلح المفضل لدى

علماء ما وراء النهر من أهل السنة من الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور الماتريدي[١٠] .

كذلك كان الناقل الفارسي يستعمل كملة الجِدَة بدل المِلْك أو مقولة له أي Avoir . وقد ظلت كلمة الجدة هي المفضلة لدى المناطقة العرب الذين اشتغلوا بالتأليف في المنطق الأرسطي من أمثال الإمام أبو حامد الغزالي ، فهو يستخدم الجدة للدلالة على مقولة الملك في كتابه معيار العلم في فن المنطق .

ومن المؤسف أن بعض المناطقة الذين يكتبون في المنطق ويشتغلون به اليوم تغيب عنهم هذه المصطلحات ، مع أن المصطلحات والصيغ جزء من المنهج العلمي ، ومن تاريخ العلم .

إذن فاللغة السريانية واللغة الفارسية من أهم وسائط النقل عن اليونانية إلى العربية . وهناك لغات أخرى أقل شأناً من السريانية والفارسية مثل اللغة القبطية إذ يقال أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان ببعض رهبان القِبْط في نقل كتب الصنعة أي الكيمياء من اللغة القبطية إلى اللغة العربية .

هؤلاء المترجمون لم يكونوا مجرد نقلة ، وإنما كانوا على علم بما ينقلون فابن النديم يسميهم بالعلماء المترجمين ، ويدخل الشهرستاني طائفةً منهم في زمرة الفلاسفة ، كما أطلق عليهم في العصر الحديث البارون كارا دي ڤو لقب الموسوعيين . وإن كنا نلحظ ميلاً خاصاً لكل واحد من المترجمين نحو لون من ألوان المعرفة . فحنين ابن اسحق مثلاً كان له شغفٌ خاص بالطب وبوجه أخص بمؤلفات جالينوس . وبلغ شغفُه بجالينوس ومؤلفاته إلى الحد الذي جعله يألف الأسلوب الجالينوسي في الكتابة ، بحيث كان يستطيع الحكم على مخطوط طبي ما بمجرد قراءته أهو من وضع جالينوس أم لا . أما ابنُه اسحق ابن حنين فقد

انصرف إلى الفلسفة وبالذات كتب أرسطو وشروحها ، فترجم ما يزيد على نصف ما عرف منها في العربية ، وأصبح حجة في هذا الميدان . وكان حنين وابنُه اسحق من أكبر المترجمين في الدولة الإسلامية . أما ثابت ابن قرة فقد اتجه إلى العلوم الرياضية وترجم لاقليدس كتاب العناصر[11] .

وكذلك كان المترجمون على معرفة تامة باللغات التي يترجمون منها وإليها . فمن المعروف أن حنين ابن اسحق مثلاً الذي تخرج على يديه أجيال عديدة من المترجمين سافر إلى بلاد الفرس لتعلم اللغة العربية على يد الخليل بن أحمد ثم عاد ليقرأ كتب الخليل على يد تلاميذ الخليل من أمثال سيبويه ليتمكن من اللغة العربية تمكناً لا مزيد عليه . فكان للترجمة شأن كبير في وضع المصطلحات الفلسفية والعلمية بلغتنا العربية . وطُوّعت هذه اللغة للتعبير عن أدق مصطلحات «علوم الأوائل» . «وإذا لم يجد المترجمون في العربية اللفظ الملائم مباشرة استعانوا بالنحت والاشتقاق لخلق ألفاظ تؤدي المعاني الجديدة . وكان لهم في المصادر الصناعية فسحة كبيرة ، فيُزاد على الكلمة ياء مشددة وتاء التأنيث كالهوية والماهية . وقد ساعد هذا المصدر على أداء بعض الحقائق العلمية والفلسفية ، وبخاصة في التعبير عن أسماء النظريات والمذاهب المنتهية بـ 'ism' في الفكر الأوروبي الحديث مثل Socialism اشتراكية ، Capitalism رأسمالية ، existentialism وجودية ، وغيرها . وقد يضمون «لا» النافية إلى كلمة ما ليكوّنوا منها لفظاً جديداً كاللا أدرية ، واللانهائية ، وهذا تركيب غير مألوف في اللغة العربية . فإن أعوزتهم الألفاظ العربية لجأوا إلى اللغات الأجنبية فعربوا بعض كلماتها . وكان نصيب الفلسفة من هذه الألفاظ غير قليل . فعن اليونانية أخذوا مثلاً هيولي ، اسطقس ، فنطاسيا ، ناموس . ومن السريانية نجد كلمة ميمر بمعنى باب أو فصل ، وسمع الكيان أو شمعاً كياناً ترجمة لعنوان كتاب الطبيعة لأرسطو ، وأما الألفاظ الفارسية المعربة فقد استُعمِل منها كثير كالهندسة والجوهر . يقول الخوارَزْمي : إن أكثر هذه الأوضاع أي المصطلحات أسام

وألقاب اختُرِعت ، أو ألفاظ من كلام العجم عربت»[١٢] .

وقد حرص المترجمون على أن يكون المصطلح أدخل في المعنى وأكمل في الأداء بصرف النظر عن كونه عربياً أو مُعرّباً[١٣] .

وما أن حل القرن الرابع الهجري حتى اكتملت لغة العلم في الإسلام ، واستقرت مصطلحاتها ، وتداولها الباحثون في المشرق والمغرب ، لا تختلف من قطر إلى قطر ، فكانت لغةُ العلمِ واحدةً في قرطبة والقيروان ، والفسطاط ودمشق ، وبغداد وأصفهان ، وبخاري وسمرقند . وبدأ تسجيل هذه المصطلحات في معجمات خاصة مِثل «مفاتيح العلوم» للخوارزمي ، «وكشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي .

ويوم أن ركد البحث العلمي في الإسلام ركدت لغتُه معه[١٤] . فنحن في حاجة إلى حصر المصطلحات القديمة ، والعلوم العربية ملأى بالمصطلحات التي لم تنشر ولم تعرف بعد على وجهها . وهذا تراثٌ لا يصح أن نهملَه أو نضيعَه . . . . فعند دراسة عالِم أو فيلسوف إسلامي نعني بمصطلحاته بقدر ما نعني بآرائه ونظرياته . وعند نشر مخطوط أو إعادة طبع كتاب قديم نأخذ أنفسنا بإبراز ما فيه من ألفاظ فنية ، ومصطلحات . إنا إذا فعلنا أحيينا معالم تراثنا القديم وكشفنا عما فيه من ثروة ويسرنا على المشتغلين بالعلوم الحديثة تخير ما يلائمها من مصطلحات[١٥] .

ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية كما ترجم العلم اليوناني من طب وهندسة وفلك وكيمياء ، فكانت الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني هما عماد الفلسفة الإسلامية والعلم الإسلامي . وقام فلاسفةُ المسلمين بشرح الفلسفة اليونانية وتفسيرها والتعليق عليها والتأليف في المسائل الخاصة بها ، وتركوا لنا آثاراً يحق لنا أن نعتز بها اليوم ونوليها أكبرَ الاهتمام ؛ لأن فلاسفةَ الإسلام لم يكونوا مجرد قارئين للفلسفة اليونانية وناقدين لها ومحتذين حذوها فحسب بل إنهم عالجوا

المسائل التي شُغِل بها اليونانيون في فلسفتهم ، وحاولوا أن يجدوا لها حلولاً بحسب اجتهادهم . وهؤلاء الفلاسفةُ كثيرون في المشرق والمغرب جميعاً .

كما تدارس المسلمونَ علومَ الطب والكيمياء والفلك والهندسة وأقاموا المعامل والمراصد وانتهوا إلى كشوف لم يُسبقوا إليها .

وعبرت الفلسفةُ الإسلاميةُ والعلمُ الإسلامي إلى أوروبا في العصر الوسيط فكانت عمادَ الفكرِ الغربي حتى بداية العصر الحديث .

وإلى جانب هذه العلوم التي قامت على أصول يونانية صرفة وجدت علومٌ أخرى في الملة الإسلامية بعيدة في نشأتها عن أي تأثير أجنبي كعلم الكلام والعلوم الدينية من فقه وأصول وتفسير، وإن كانت هذه العلوم قد اصطبغت بصبغة فلسفية في القرنين السادس والسابع للهجرة . فالإمام فخر الدين الرازي المتوفي عام ٦٠٦هـ والذي تفقه على مذهب الإمام الشافعي يعالج مسائل الفقه البسيطة الواضحة بروح المجادل الفيلسوف ، ويسلط عليها المنطق الأرسطي ومصطلحاته ، فتتحول مسائلُ الفقهِ العملية إلى مسائل نظرية معقدة تدق على فهم المسلم العادي الذي ينبغي عليه التفقه في أمر دينه . ولعل ذلك يفسر لنا لِمَ لم يأخذ فقهاء الشافعية بتفسير الرازي للآيات التي تتعلق بمسائل الفقه والتي عالجها في تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب . بل إن تفسير الرازي للقرآن الكريم يعتبر موسوعة فلسفية وكلامية بأدق معاني الكلمة[١٦] .

أما علمُ الكلام أو علمُ أصول الدين أو علمُ التوحيد فقد ظهر بين المسلمين في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الفلسفة ، ولم يكن بحال من الأحوال ناتجاً عنها ولا ثمرةً من ثمراتها . بل كان المسلمون في باديء الأمر يتكلمون في موضوعات فكرية انبثقت من صميم الديانةِ الإسلامية . فعند مقتل عثمان مثلاً أثيرت مسألة مرتكب الكبيرة ، أي القتل ، فذهبت الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة كافر ،

وقالت المعتزلة بأن مرتكب الكبيرة فاسق ، لا مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . أما أهل السنة فالمؤمن عندهم لا يخرج عن الإسلام بكبيرة يرتكبها من زنى أو قتل ، وليس بين الإيمان والكفر منزلةٌ بين المنزلتين ولا اسم بين الإسمين ، فإما مؤمنٌ وإما كافرٌ ، لقوله تعالى «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (سورة التغابن ٦٤ آية ٢) . ثم إن مرتكب الكبيرة وقت ارتكابها مصدِّقٌ غيرَ مكذِّبٍ ، يرجو عفوه ويخاف عذابه . وهذه مسائل انبثقت من واقع المسلمين وإن كانوا قد استعانون في تفكيرهم بالمنطق . ثم اتسعت هذه الثقافة الكلامية بدخول الفلسفة في العالم الإسلامي فاتسع بهذا علم الكلام حتى اضطر أصحابه في القرن الرابع للهجرة أن يدرسوا الفلسفة دراسة كافية فتغير بذلك منهجهم في علم الكلام . ثم غلبت الفلسفة بعد ذلك على مناهجهم فأصبح علم الكلام أشبه ما يكون بقسم الإلهيات من الفلسفة . على أنه مقيد بقيد مهم هو مطابقة الشرع والوحي . والواقع أن الفرق بين الفلسفة وعلم الكلام حين تصور بصورته النهائية هو في المنهج فقط ؛ إذ المتكلم يبدأ بالتسليم بالعقائد الإيمانية كوجود الله ووحدانيته وصفاته وأفعاله صحيحة من الشرع ثم ينادي الأدلة العقلية للبرهنة على ما جاء به الشرع ، بينما الفلسفة لا تسلم مقدماً بصحة قضية ما قبل أن يبرهن العقل عليها . وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : «إن نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد . وبالجملة فموضوع الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية»(١٧) .

فعلم الكلام إذن يحتوي على الفلسفة الحقيقية للمسلمين . ولم يستطع مفكرو الغرب أن ينكروا على المسلمين فلسفتهم الكلامية . فأولُ كتاب في تاريخ الفلسفة العربية كما كانت تسمى في الغرب وقتئذ ظهر في أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعنوان : رسالة في المذاهب الفلسفية للعالم الألماني

شمولدرز Schmolders ينتهي فيه المؤلف إلى أن الذي يحاول أن يبحث عن فلسفة حقيقية للعرب عليه أن لا يفتش عنها عند المشهورين من الفلاسفة الإسلاميين أمثال ابن سينا وابن رشد وغيرهما ، بل عليه أن يبحث عن هذه الفلسفة عند مفكرين آخرين غير معروفين في الغرب وهم المتكلمون . أما الفلسفة المسماه بهذا الإسم -أي الفلسفة الإسلامية- فهي ليست من خواص الإنتاج الفكري للمسلمين وإنما هي مسايرة للتفكير الفلسفي اليوناني تكاد تكون دون انحراف ولا اجتهاد .

هذه النتيجة التي خرج بها شمولدرز من دراسته لفتت أنظارَ فلاسفة الغرب المهتمين بالفلسفة الإسلامية إلى علم الكلام فبدأوا بنشر التراث في هذا الميدان . فنُشرت بعض أجزاء من كتاب المواقف للايجي ، ونُشر كتاب الملل والنحل للشهرستاني وترجم إلى اللغة الألمانية ، كما نشر نيبرج العالم السويدي بجامعة أبسالة كتاب الانتصار للخياط المعتزلي وهو أول كتاب يظهر ويحتوي على أقدم نصوص للمعتزلة . ويلي كتاب الانتصار في الأهمية كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري الذي نشره المستشرق الألماني ريتر. ثم توالى الاهتمام بنشر كتب علم الكلام إلى يومنا هذا في الغرب والشرق على السواء . ولعل من أعظم منجزات وزارة الثقافة في مصر نشر الموسوعة الفلسفية الكلامية للمعتزلة وهي كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار تحت إشراف الدكتور طه حسين . ومازال في تراثنا في هذا الميدان متسع لأجيال وأجيال لإحياء هذا التراث الأصيل . ولا شك أن إحياء التراث هو بداية النهضة الحقيقية للعرب ، تماماً كما كانت عودة الأوروبيين لإحياء التراث اليوناني والروماني هي بداية نهضتهم في العصر الحديث .

أما الشق الآخر من النتيجة التي انتهى إليها شمولدرز من دراسته وهي أن الفلسفةَ الإسلامية ليست من خواص الإنتاج الفكري للمسلمين وإنما هي مسايرةٌ للتفكير الفلسفي اليوناني تكاد تكون دون انحراف ولا اجتهاد ، فقد أخذ

بها من بعده غالبيةُ المستشرقين في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن . لكن هذه النظرة بدأت تخف رويداً رويداً مع تزايد أعداد الباحثين العرب في جامعات الغرب وكشفهم لمكنونات الفلسفة الإسلامية وما تنطوي عليه من أصالة وابتكار . ويأتي في مقدمة الرعيل الأولى في هذا الميدان مصطفى عبدالرازق وإبراهيم مدكور وأبو العلا عفيفي . هذا الجيل من الرواد الأوائل للجامعة المصرية عالج هذه النتيجة بحذر شديد وموضوعية تامة ووقف عند الحد الذي قام عليه دليل واقعي مباشر على أن الفلسفة الإسلامية ليست مجرد ترجمة للفلسفة اليونانية أو حلقة منفصلة في تاريخ الفكر الفلسفي . ولكنها فلسفةٌ التأمت فيها عناصرُ الفكر الشرقي والغربي القديم مع الوحي ، وتمثلت كل هذه العناصر وأضافت إليها أفكاراً جديدة لم تكن معروفة في العالم القديم شرقياً كان أم غربياً ، تقربها كل القرب من الفلسفة الحديثة والمعاصرة بقدر ما تباعد بينها وبين الفلسفة القديمة ، فمهدت بذلك للفلسفة الحديثة والمعاصرة وأمدتها بعناصر كثيرة أفاد منها الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين والمعاصرين(١٨) . فلم يقل ديفيد هيوم David Hume مثلاً في نقد مبدأ العلية كمبدأ أولي في الذهن شيئاً أكثر مما قاله من قبله بمئات السنين القاضي أبو بكر الباقلاني المتكلم الأشعري والإمام أبو حامد الغزالي . ومع ذلك فقد عُرِف هيوم واشتهر في تاريخ الفلسفة بمذهبه في نقد مبدأ العلية الذي أيقظ كنط Kant من سُباته الاعتقادي وحفزه إلى نقد العقل .

وليس اللُوم على طالعنا بل على أنفسنا لأن مفكري الإسلام لما يأخذوا مكانتَهم اللائقةَ بهم في تاريخ الفكر الفلسفي . يخفف من أثر هذا اللوم تلك الهمة الصادقة التي نشهدها اليوم للكشف عن مكنونات تراثنا . فلقد ظهرت دراسات وأبحاث متعددة حول مشاكل الفكر الإسلامي ومناهجه في علم الكلام والفلسفة والتصوف والأخلاق والمنطق في مختلف أرجاء العالم العربي ، وفطن المستشرقون إلى ما تنطوي عليه هذه الأبحاث -وبعضها تم تحت إشرافهم ونال درجات علمية رفيعة من أرقى جامعات الغرب- من أصالة وابتكار وإضافات

حقيقية إلى الفكر الإنساني فعدلوا من نظرتهم إلى تراثنا ، وظهر أثر ذلك في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية . وبدأ نوع من التلاحم الفكري والتقدير المتبادل بين الشرق والغرب فنظمت جامعة لندن عام ١٩٦٤ سلسلة من حلقات البحث تحت عنوان : The meeting of East and West أي التقاء الشرق والغرب .

ولم تكن الحضارة الإسلامية في نشأتها الأولى إلا ثمرة لهذا اللقاء وذلك عندما فتح المسلمون نوافذهم على العالم ونقلوا إلى لغتهم ثمرات الفكر اليوناني والفارسي والهندي .

ولم يتعصبوا ضد فكر غريب أو يرفعوا شعارات زائفة ولكنهم أخذوا من كل فكر ما ينفع الناس ، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه الكريم «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»[١٩] .

مراجع البحث ومصادره

(١) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص٤٣٨ ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .

- البيهقي ، ظهير الدين ، تاريخ حكماء الإسلام ، ص٥٥ ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، حققه ونشره محمد كرد علي ، دمشق ١٩٤٦ .
- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ، تاريخ الحكماء ص٤١٥ ، طبعة المثني ببغداد .
- إبن النديم ، الفهرست ، ص٣٣٥ ، المكتبة التجارية ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٣) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد ، إحياء علوم الدين جـ١ ص٧١ ، كتاب الشعب ، القاهرة .

(٤) مدكور ، إبراهيم بيومي ، في اللغة والأدب ، ص٨٥ ، بحث في «نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام» سلسلة «إقرأ» رقم ٣٣٧ ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، القاهرة .

(٥) المرجع السابق ، ص٨٥ .

(٦) الرازي ، الإمام فخر الدين ، أساس التقديس ، ص٢١٠ - ٢٢١ ، طبعة القاهرة .

(٧) ابن حزم ، أبو محمد علي الأندلسي ، الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ، جـ٤ ، ص٣٥ ، طبعة المثني ببغداد .

(٨) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ، نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس ص٧٩ ، طبعة القاهرة .

(٩) الفهرست ص٤١٣ .

(١٠) أنظر مثلاً كتاب البداية من الكفاية في الهداية للإمام نور الدين الصابوني ، تحقيق الباحث ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .
- مدكور ، في اللغة والأدب ، ص٩١ ، بحث في «نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام» .

(١١) المرجع السابق ، ص٨٨ .

(١٢) مدكور ، في اللغة والأدب ، ص٩٠ .

(١٣) المرجع السابق ، ص٦٦ .

(١٤) المرجع السابق ، ص٦٦ ، أبحاث في : «لغة العلم» ، «مدى حق العلماء في التصرف في اللغة» ، «نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام» ، المصطلحات العلمية المعاصرة .

(١٥) المرجع السابق ، ص٩٢ .

(١٦) فتح الله خليف ، فلاسفة الإسلام ، ص٣٠٠ وما قبلها ، دار الجامعات المصرية ، الأسكندرية .

(١٧) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ، المقدمة ص٤٦٦ ، طبعة دار الفكر .

(١٨) مدكور ، في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، ص١٧٢ - ١٩٤ ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

(١٩) آية رقم ١٧ سورة الرعد رقم ١٣ .

مرفولوجية مدينة العين والعوامل المؤثرة في ذلك

الدكتور فوزي عبدالمجيد الأسدي
أستاذ مساعد - قسم الجغرافيا
جامعة الإمارات العربية المتحدة

مقدمة :

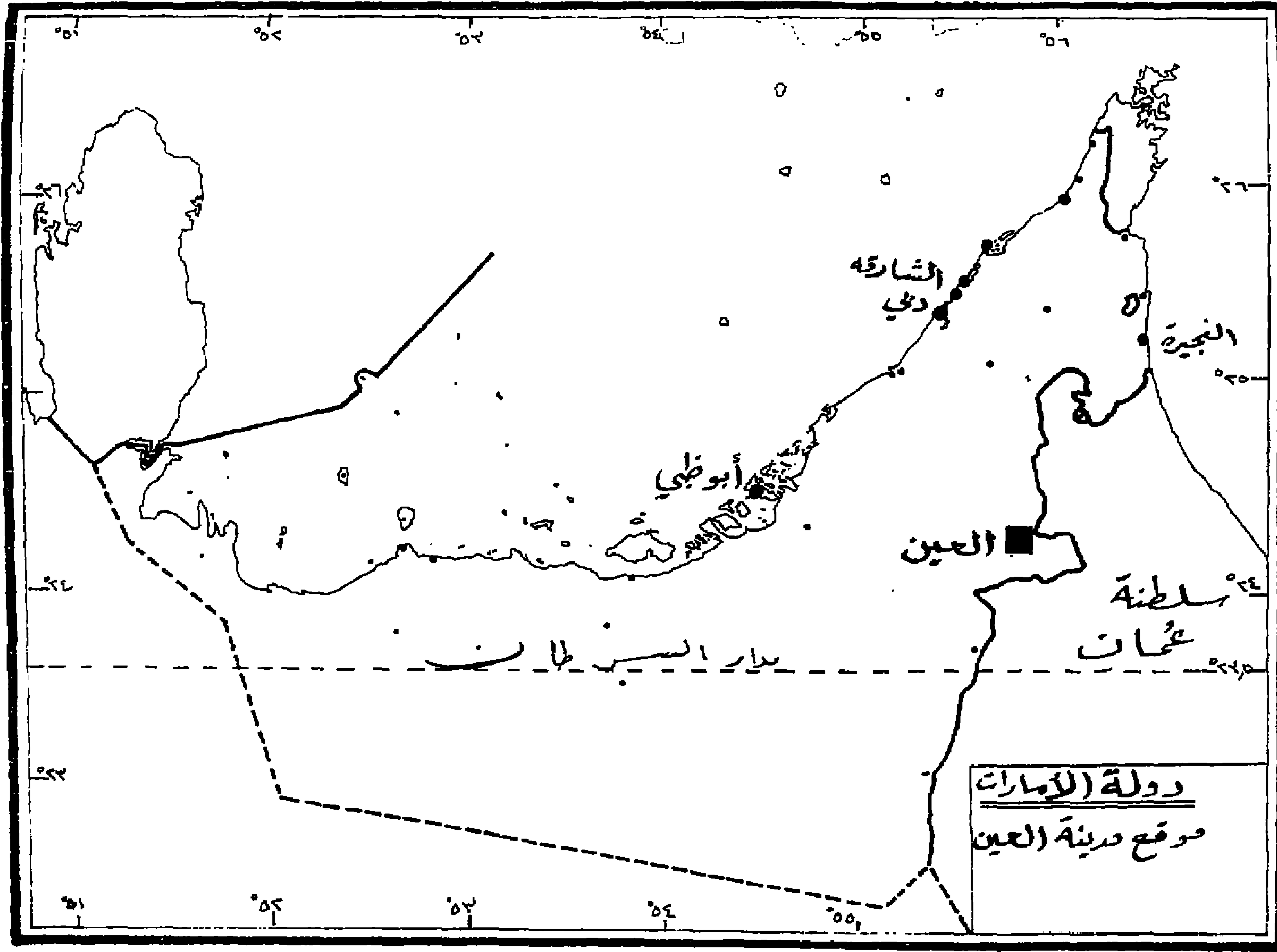
لقد شهدت معظم مدن دولة الإمارات العربية المتحدة نهضة عمرانية واسعة خلال الخمسة عشر عاماً الماضية وذلك نتيجة لتزايد دخل الدولة من تصدير النفط الخام ، وبسبب تصميم المسئولين في هذه الدولة على إعادة بناء مدن الدولة على أسس حديثة وعلمية - بعد أن كانت تلك «المدن» لا تختلف كثيراً في مظهرها عن قرى كبيرة ، ومعظم مبانيها كانت من الطين المجفف أو من سعف النخيل . كما كانت تلك المراكز تفتقر إلى الكثير من الخدمات والمرافق العامة والشوارع المعبدة . ومن بين مراكز الاستقرار التي شاهدت تغيرات كبيرة -بل قد تكاد تكون جذرية- هي واحة العين ، التي تحولت قراها إلى مدينة عصرية - تعد المدينة الثانية في إمارة أبـو ظبي ، والرابعة في دولة الإمارات العربية المتحدة . ونتيجة لهذا التغير فقد أصبح من الصعب على المـرء أن يجد مبنى واحـداً قديماً (عـدا بعض القصور والقلاع) يعكس الحياة السابقة في هذه المنطقة . (شكل رقم - ١) .

وقد كان التغير في مورفولوجية المدينة ووظيفتها سريعاً بحيث أن الكثيرين من سكان هذه المنطقة لا يستطيعون بعد استيعاب هذا التغير أو فهم إلى أين يتجه هذا التحول وعند أي حد يجب أن يقف . فهناك جزء من سكان هذه المدينة كان يقيم في هذه المنطقة من قبل ، ولكن الجزء الأكبر قد وفد إلى المدينة للعمل فيها . فبعد أن كان عدد سكان هذا التجمع السكاني حوالي (١٣) ألف نسمة في عام

١٩٦٨ ، نجد أن حجمها قد تضخم بأكثر من عشرة أضعاف - ليصل إلى حوالي (١٤٢) ألف نسمة في عام ١٩٨٥م .

وإن الهدف من هذا البحث هو محاولة إظهار أهم معالم هذا التغير الكبير - مركزين اهتمامنا على أهم التغيرات التي طرأت على شكل المدينة وتركيبها الداخلي ومدى تأثير هذا التركيب بالتغيرات التي أصابت وظيفة / وظائف المدينة منذ عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٨٧ . وسأحاول إعطاء بعض الآراء أو التوقعات لمستقبل هذه المدينة - معتمداً في ذلك على ما قمت به أنا وطلابي في جامعة الإمارات العربية المتحدة من دراسات ميدانية ومقابلات للعديد من المسئولين والمواطنين في هذه المدينة(**) .

(**) لقد عايش الباحث أهم معالم هذا التغير منذ عام ١٩٧٩ إلى الآن .


دولة الإمارات
موقع مدينة العين
أبوظبي
دبي
الشارقة
الفجيرة
العين
سلطنة
عمان
مدار السرطان

شكل رقم (١)

دراسة لمورفولوجية مدينة العين :

بعد مراجعة العديد من المصادر العربية والأجنبية في جغرافية المدن ، لم أجد اتفاقاً عاماً أو شاملاً لاصطلاح «مورفولوجية المدينة» (TOWN - MORPHOLOGY) - مع أن المعنى الدقيق لهذا الاصطلاح يشمل «دراسة للشكل والتركيب» .

فهناك بعض المصادر العربية لا تعطي اهتماماً كبيراً لهذه الناحية(١) ، وهناك من يلمح إليها دون أن يحدد معناها أو العناصر التي يجب أن تدخل ضمن دراسة مورفولوجية المدينة ، وتُترك كدراسة تحليلية للبيئة الحضرية ، أو ضمن دراسة التركيب الداخلي للمدينة(٢) . وهناك مصدر غربي يذكر تحت دراسة مورفولوجية المدينة : «الخطة ، أشكال النمو ، التركيب الداخلي للمدينة ، التجمع المدني»(٣) . ورغم أن هذا التعريف مقبول نوعاً ما ، إلا أنه أدخل في هذه الدراسة تحليلاً للمجتمع المدني الذي سيضيف بعداً جديداً قد يكون من الأفضل دراسته تحت موضوع «سكان أو مجتمع المدينة» .

وازاء ذلك وجدت أن الرجوع إلى المصادر الأجنبية قد يكون أكثر إيضاحاً . فالأستاذ «كارتر» (H. Carter) يذكر أن دراسة مورفولوجية المدينة تشمل(٤) :

(أ) دراسة المخطط العام للشوارع أو لشكل المدينة (Plan or Lay-out) .

(ب) دراسة استخدام الأراضي داخل المدينة (Architecture of The Buildings) .

كما أن الأستاذ «ميرفي» (R. Murphy) يذكر تحت هذا الموضوع «أن الدراسات المورفولوجية تهتم بشكل كبير بدارسة عناصر الشكل : كدراسة تنظيم الشوارع وخطوط السكك ، وأشكال الأبنية ، وبالحقيقة مجمل اللاندسكيب -المظهر- الحضري»(٥) . كما أن الأستاذ «ميرفي» يضيف أن دراسة مورفولوجية المدينة ووظيفتها وتطورها هي أمور لا يمكن فصلها عن بعضها البعض .

وأمام هذه الاختلافات في الرأي -ولو أنها بسيطة- سأقتصر في تعريفي ودراستي لمورفولوجية مدينة العين على دراسة «شكل المدينة» (أو مخططها العام)

«والتركيب الداخلي» لأنماط استخدام الأراضي ، مع متابعة تطور هذين العنصرين منذ نشأة المدينة (حوالي عام ١٩٦٤) إلى عام ١٩٨٧ . وهكذا فسأقسم البحث إلى جزأين : الأول يتعلق بدراسة تطور شكل المدينة ومخططها ، والثاني يشمل دراسة التركيب الداخلي لاستخدام الأرض وتطوره في المدينة ، واتبعه بتحليل لمستقبل المدينة على ضوء المعطيات الراهنة ، مع إعطاء شرح للعوامل التي تؤثر في ذلك .

أولاً : تطور شكل المدينة ومخططها :

لا شك أن شكل المدينة ومخططها قد تأثر بعناصر الموضع وخصائصه والبعض يتعلق بموقع المدينة بالنسبة للمناطق المحيطة به ، والبعض الآخر يتعلق بأمور بشرية / سياسية .

١ - عناصر الموضع :

ان اصطلاح «الموضع» في جغرافية المدن يقصد منه المكان أو البقعة التي تقوم عليها المدينة - بالمقارنة «بالموقع» الذي يشمل إقليم (أو ظهير) المدينة عادة . ومن أهم العناصر الموضعية التي تؤثر على شكل ومخطط المدينة طبوغرافية سطح الأرض ، والتركيب الجيولوجي ، والعوامل المناخية ، وأنواع التربة وتصريف المياه والموارد الطبيعية (خاصة موارد المياه العذبة) ، وطبيعة المواصلات المتوفرة في ذلك الموضع .

وسأحاول هنا دراسة أهم هذه العناصر بصورة موجزة لكي نترك مجالاً وافياً لبقية عناصر هذا البحث .

(أ) طبوغرافية السطح وتركيبه الجيولوجي :

تقع مدينة العين في الجزء الشرقي من إمارة أبو ظبي (ما بين خطي عرض ٤٥ ٢٣° و ٤٠ ٢٤°ش) محتلة جزءاً كبيراً من واحة واسعة تدعى «واحة

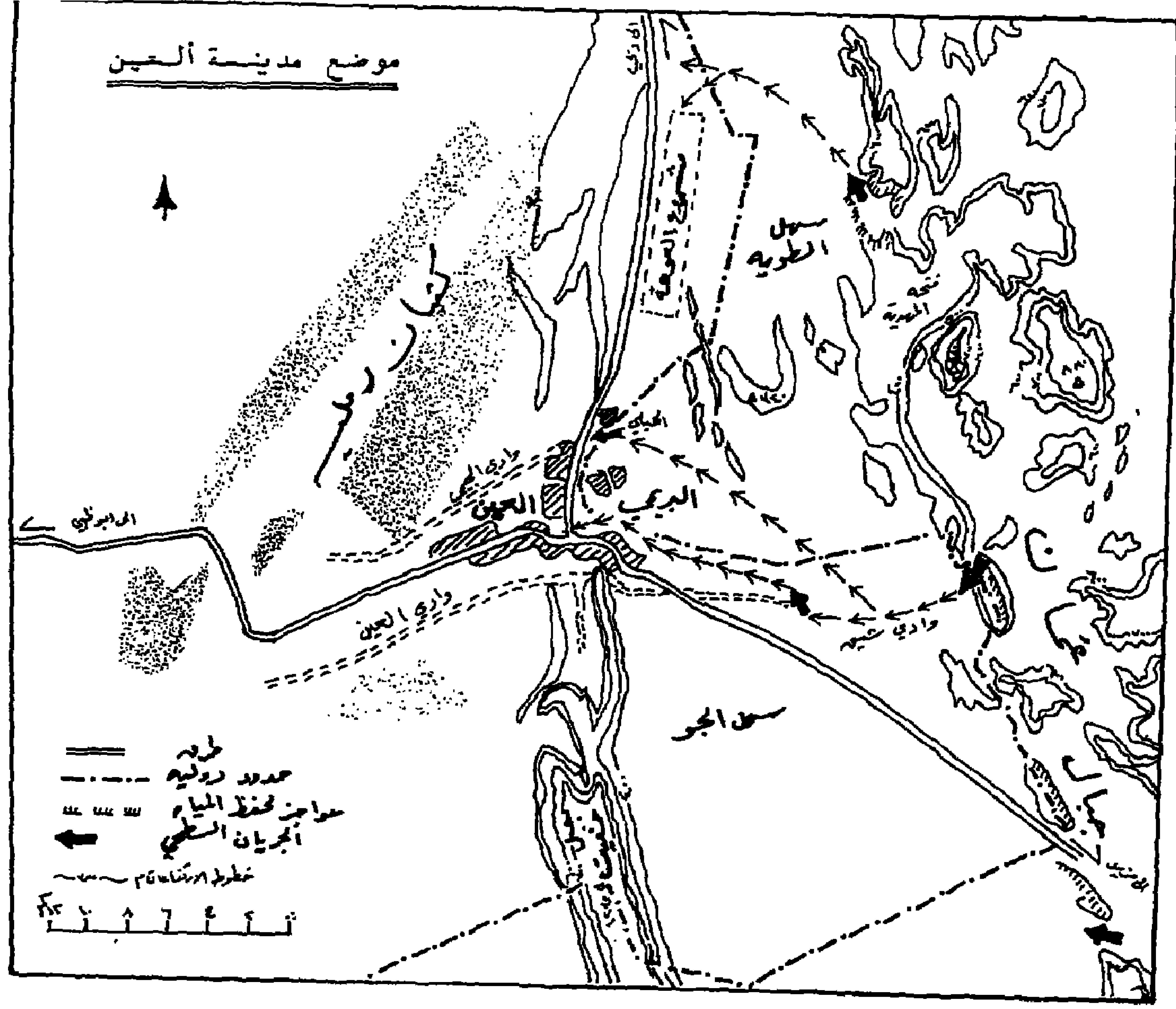
البريمي - العين» . ويحدها من الشرق حدود سلطنة عُمان ، ومن الجنوب جبل حفيت والتلال المتفرعة عنه ، كما يحد من اتساعها غرباً تلال وكثبان رملية عديدة . ويمكننا أن نميز في هذا الموضع أربعة أقسام فيزيوغرافية ، وهي : (شكل رقم - ٢) .

(١) سهل الجو :

يتألف هذا السهل بوجه عام من عدة مخاريط انصبابية اتحدت مع بعضها البعض لتغطي معظم سطح هذا السهل بترسبات رملية / صلصالية وحصوية - يتراوح سمكها ما بين ٢٠ - ٤٠م . ويخترقه عدة وديان جافة تنحدر من سلاسل جبال عُمان (مثل وديان العين والشيك والميخات) . ويلاحظ تكاثر التجمعات الحصوية / اللحقية المتماسكة (الكونغلوميرا) عند أطراف هذا السهل وبالقرب من التلال المحيطة بالمنطقة . كما نجد بعض الكثبان الرملية المنخفضة الارتفاع عند الأجزاء الجنوبية والغربية من هذا السهل (وقد أنشئت على أطراف هذا السهل من جهة الشرق أحياء النيادات والكويتات ومنطقة الدفاع ، كما أقيم عند أطرافه الشمالية أحياء مديرية العين والمعترض والجاهلي) .

(٢) مقدمات جبل حفيت :

تقع هذه المقدمات إلى الجنوب من المدينة ، وتتألف من تلتين رئيستين وشبه متوازيتين ، ذات صخور رملية وكلسية - تعود للعصر الجيولوجي الرابع - وتأخذان الاتجاه العام من الشمال إلى الجنوب ، وتحيطان بواد واسع تتخلله بعض التلال الصغيرة والكثبان الرملية التي تنتشر فوقها بعض النباتات الطبيعية . ونظراً لبروز الطبقات الصخرية على سطح الأرض ، فقد صُممت هذه المنطقة للصناعة وموقع لحديقة الحيوانات .



موضع مدينة ألعين
بحر رمل
العين
البريمي
وادي العين
سهل الجو
سهل الطويه
الى ابوظبي
طرق
حدود دولية
حواجز لحفظ المياه
الجريان السطحي

شكل رقم (٢)

(٣) منطقة الواحة :

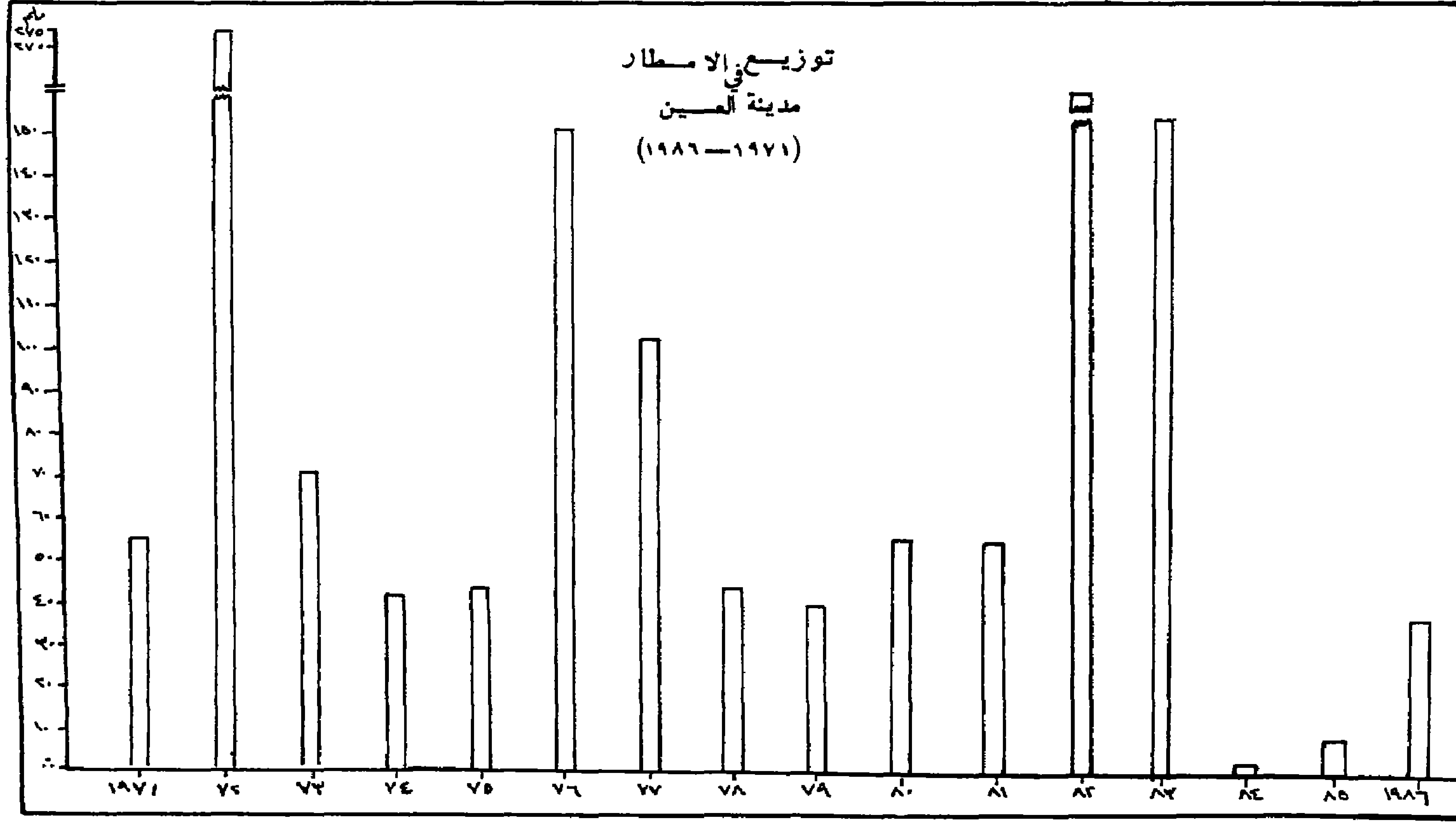
تقع هذه المنطقة على سهل منبسط بشكل عام يمتد من الشمال إلى الجنوب (كجزء من سهل واسع يعرف محلياً بسهل الطوية) . ويتألف من الصلصال وبعض التلال المجّزأة بالوديان . وقد نجد أحياناً تحت سطح هذا السهل (على بعد ٥ – ١٠ أمتار) طبقات صخرية من أصل رباعي وثلاثي ذات تركيب كلسي – يمنع تراكم المياه الجوفية فيها ، مما يدفع المزارعين إلى الابتعاد عنها أو الاضطرار لحفر آبار عميقة تحتها . إلا أن غالبية أراضي الواحة مستغلة بشكل كثيف بمزارع النخيل والخضروات . ولذلك فإن الأراضي غير الصالحة للزراعة هي التي استغلت للأعمال العمرانية – خاصة أحياء الجيمي والقطارة والمسعودي والخبيصي .

(٤) المنطقة السهلية الغربية :

تتألف هذه المنطقة في الغالب من أراض منبسطة مغطاة بالحصى والرمال وبعض النباتات الطبيعية المتفرقة . إلا أن الأطراف الغربية لهذا السهل تعلوه كثبان رملية عالية وعديدة ، تمنع التوسع العمراني عليها – ما لم تحصل عمليات تسوية باهظة التكاليف . وقد استغل جزء من هذه الترسبات الرملية لإنشاء المطار الجديد لمدينة العين (لقد انتهت المرحلة الأولى منه بعد عمل امتد من عامين إلى ثلاثة) .

(ب) المميزات المناخية لمنطقة العين : (شكل رقم – ٣) :

تقع منطقة العين ضمن المناخ المداري – الجاف ، حيث يكون فصل الشتاء معتدلاً (معدل شهر يناير ما بين ٥ – ١٨°م) ، بينما يمتاز فصل الصيف بكونه حاراً جداً (يتراوح معدل يولية ما بين ٣٣ – ٣٧°م) ، مع أن درجات الحرارة القصوى في فصل الصيف قد تصل إلى ما فوق ٤٥°م . أما الأمطار في هذه المنطقة فهي قليلة ومتذبذبة في كمياتها السنوية وبمواعيد سقوطها ، وهي تتراوح ما بين ٥٠ – ١٢٠ ملم سنوياً – يسقط معظمها في فصل الشتاء (خاصة في


توزيع الامطار في
مدينة العين
(١٩٧١—١٩٨٦)
ملم
٢٧٥
٢٧٠
١٥٠
١٤٠
١٣٠
١٢٠
١١٠
١٠٠
٩٠
٨٠
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
٠
١٩٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
١٩٨٦

شكل رقم (٣)

شهري فبراير / شباط ومارس / أدار) . كما أن الرطوبة النسبية تكون مرتفعة نوعاً ما خلال فصل الشتاء (إذ تتراوح ما بين ٥٠ - ٦٥ في المائة) ، بينما نجدها تنخفض قليلاً في فصل الصيف ، (حيث يصل معدلها إلى حوالي ٤٠ - ٤٥ في المائة) . ولكن التبخر يكون شديداً خلال فصل الصيف إذ يصل معدله إلى حوالي (٥٥٠) ملم في شهر يونية(٦) . ولهذا فإن الزراعة في هذه المنطقة تعتمد اعتماداً كلياً على الري .

وحيث أن نظام الأمطار هنا متذبذب ، فقد تمر عدة سنوات دون أن تسقط على هذه المنطقة كميات من الأمطار تستحق الذكر (كما حصل مابين عامي ٨٣ - ١٩٨٧) ، ولذلك فإن المدينة تضطر لسحب كميات كبيرة من مخزون مياهها الجوفية لتلبي احتياجات السكان : المنزلية والصناعة/ التجارية والزراعية . وسيبقى هذا العامل متحكماً في قضية نمو المدينة وتطورها - كما سنبين أدناه .

هذا ويمكننا أن نضيف عاملاً مناخياً آخر مهما في تخطيط المدينة ، ألا وهو هبوب الرياح . فإن الرياح السائدة في هذه المنطقة هي الرياح الشمالية الغربية ، ولذلك فقد أنشئت الصناعات الثقيلة (الأسمنت والسماد) في الجزء الجنوبي من المدينة (أي بعكس هبوب الرياح) . كذلك هناك رياح جنوبية تهب أحياناً على المنطقة قادمة من الصحراء ، محملة بالغبار وهي حارة ، فترفع درجات الحرارة فوق معدلاتها كثيراً وتضر بالمزروعات وتسبب زحفاً للرمال على المزروعات والشوارع الرئيسية (فيضطر المزارعون لزراعة مصدات رياح حول مزارعهم ومساكنهم - مما يزيد في استهلاك المياه في المدينة) .

مع ذلك نجد أن مناخ منطقة العين يبقى مفضلاً لكثير من مواطني هذه الدولة ، ولذلك فإننا نجد أعداداً كبيرة منهم تأتي خلال فصل الصيف لقضاء عطلهم هنا ، فتزدهر بعض الأنشطة الاقتصاديةالمتعلقة بالسياحة والترفيه - كما سنبين فيما بعد .

(ج) مصادر المياه في مدينة العين :

كانت هذه المنطقة تعتمد في الماضي على نظام الأفلاج (القنوات الجبلية للمياه الباطنية) ، وعلى سحب المياه من آبار «تقليدية» - قليلة العمق . ولكن مع تطور نمو المدينة أصبحت هذه المصادر غير كافية لاحتياجات السكان الآخذة بالتزايد . لذلك قامت دائرة المياه الجوفية في المدينة بالتنقيب عن مصادر مياه جوفية ، واضطرت إلى حفر العديد من الآبار العميقة ثم ضخ مياهها إلى أحياء المدينة . وقد بقيت حقول الآبار التي وجدت خارج حدود المدينة - في مناطق الخضر ، الهير ، والكراع ويدع بنت أحمد ، وغاشياً ، الساد ، وسويحان (شكل رقم - ٤) ، أهم مصادر المياه الجوفية لمدينة العين حتى عام ١٩٧٦ ، حيث وصل عدد الآبار إلى حوالي (٧٦) بئراً ، بلغ إنتاجها حوالي أربعة ملايين جالون يومياً .

ولكن نتيجة لزيادة الاستهلاك وزيادة السحب من هذه الآبار فقد تناقص معدل إنتاجها ، ولذلك اضطرت دائرة المياه لحفر آبار جديدة وصل عددها في عام ١٩٨٠ حوالي (٩٧) بئراً ، بلغ إنتاجها الكلي حوالي (١٦,٥) مليون جالون في اليوم . وبعد استحداث حقول آبار المياه الجديدة في مناطق بدع بنت سعود والحمام وشمال الهير وام غافا وبعض قرى العين ، فقد وصل عدد الآبار في نهاية عام ١٩٨٢ حوالي (٢٧٣) بئراً بلغ معدل إنتاجها حوالي (٢٤,٣) مليون جالون يومياً[٧] .

هذا وقد تم ربط مدينة العين ومدينة أبو ظبي بشبكة لنقل ما يقارب من خمسة ملايين جالون في اليوم وذلك من محطات تحلية مياه مدينة أبو ظبي (ويتوقع زيادة هذه الكمية في المستقبل القريب - بعد إنهاء مشروع محطة الطويلة) . وأمام هذا التزايد في استهلاك المياه في مدينة العين وسحب كميات ضخمة من مخزونها الجوفي - دون هطول كميات غزيرة من الأمطار في السنوات الخمس الماضية لتعويض هذا الضخ ، فإن تطور المدينة ونموها مرتبط بتوفر هذا «العنصر النادر» ، فلا يعقل أن يستمر استهلاك المياه بنفس المستوى الذي حصل في

العين

مصادر المياه الجوفية

حقول مياه جوفيه
مراكز عمران
انابيب مياه
مشاريع لزراعة القمح

شكل رقم (٤)

السنوات العشر السابقة - إذ أن نسبة الزيادة في استهلاك المياه ما بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٨٢ قد بلغت حوالي (٢,٧٦٨) في المائة ، كما يظهر من جدول رقم - ١ .

جدول رقم (١)

السنة	معدل الاستهلاك اليومي	الزيادة(*) ٪
١٩٧٥	٨٥٠	—
١٩٧٦	١,٨٢٥	١١٧
١٩٧٧	٣,١٠٠	٧٠
١٩٧٨	٥,٩٩٠	٩٣
١٩٧٩	٩,٨٠٨	٦٤
١٩٨٠	١٢,٧٩٣	٣٠
١٩٨١	١٥,٤٦٠	٢١
١٩٨٢	٢٤,٣٨٣	٥٨
١٩٨٤	٢٩,١٠٠	١٩

(**) المصدر : دائرة الماء والكهرباء - إمارة أبو ظبي ، الكتاب السنوي السادس ١٩٨٢ ، ص١٤٧ .
(*) المصدر : دائرة تخطيط مدينة العين ، ١٩٨٥ .
(*) من عمل الباحث .

ومن جدول رقم - ١ نلاحظ أن معدلات استهلاك المياه في مدينة العين آخذة بالتزايد عاماً بعد عام -ولو بنسب أقل- وإن هذه الكمية المستهلكة سنوياً تعادل أضعاف كميات الأمطار التي تسقط على هذه المنطقة (تقدر نسبة الأمطار التي تتسرب إلى الخزانات الجوفية لمنطقة العين بحوالي ١٠ - ١٥ في المائة) ، لذا يخشى من حصول نضوب لهذه الخزانات الجوفية في المستقبل القريب - ما لم

تسقط على المنطقة كميات كبيرة من الأمطار خلال السنوات القريبة المقبلة لتغذي هذه الخزانات الجوفية - وبالطبع سيتأثر نمو المدينة بتوفر هذا المصدر الهام كثيراً ، فحوالي ثلث الكمية المستهلكة تذهب للمساكن والمتاجر(٨) .

٢ - إقليم (ظهير) مدينة العين : (شكل رقم - ٥)

يقصد بإقليم المدينة في جغرافية المدن المنطقة المحيطة بالمدينة والتي تعتمد كثيراً على الخدمات التي تقدمها المدينة . فمدينة العين تقدم خدمات عديدة لإقليمها ، ففيها نجد أولاً مقر حاكم المنطقة الشرقية وجميع الدوائر الحكومية المتعلقة بإدارة هذه المنطقة - والتي تمتد إدارياً من حدود سلطنة عُمان من الشرق إلى بلدة الخزنة في الغرب (التي تبعد حوالي ٨٠ كم عن مدينة العين) ، كما تمتد المنطقة الإدارية للعين شمالاً إلى بلدة الفقع ، وجنوباً إلى بلدة أم الزمول - عند التقاء الحدود السعودية مع حدود دولة الإمارات . وتقدر مساحة هذا الإقليم بحوالي (٢٣) ألف كم٢ ، كما يقدر عدد سكانه بحوالي (١٧٢) ألف نسمة .

هذا وقد تم ربط هذه المدينة بجميع القرى الرئيسية المحيطة بها بطرق معبدة وجيدة ، كذلك تم ربط المدينة بكل من مدينة أبو ظبي ومدينة دبي بطرق من الدرجة الأولى ، كما ترتبط ببقية مدن الإمارات ببلدة الذيد . وهناك طرق أخرى تربطها بسلطنة عُمان وساحلها الشرقي أيضاً . وبذلك تعتبر مدينة العين «مركزاً متوسطاً» لهذا الإقليم الشرقي من الإمارة . ومن الاستبيانات العديدة التي جمعتها أثناء الدراسات الميدانية التي قمت بها برفقة طلابي ، تبين لنا أن معظم أهالي القرى المحيطة بالمدينة يأتون إلى مدينة العين للتسوق بشكل مستمر من مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع - عدا المزارعين الذين يأتون إلى أسواق مدينة العين مرة كل يومين وذلك لنقل منتوجاتهم الزراعية - خاصة الخضار في فصل الشتاء والتمور في فصل الصيف . أما السكان الذين يقطنون القرى التي تقع بالقرب من إقليمي أبو ظبي أو دبي فإنهم يذهبون إلى أحد المركزين مرة أو مرتين في الشهر لشراء بعض الأشياء الثمينة (كالمعدات الزراعية ، أو الأجهزة الكهربائية ، أو ملابس للسيدات أو المجوهرات أو الأثاث الثمين) .

اقليم مدينة العين

إمارة دبي

إمارة أبوظبي

سلطنة عُمان

حدود دولية

طريق مزدوج

حدود اقليم مدينة العين

طريق باتجاهين

قرى

شكل رقم (٥)

هذا وهنـاك خدمـات مركـزية أخـرى تقـدمهـا مدينة العين لسكان دولة الإمـارات بشكل عام ، ألا وهي الناحية التعليمية أو الثقافية . فنظراً لتمركز جامعة الإمارات العربية المتحدة في هذه المدينة ، فإنه يأتيها طلاب وطالبات من جميع أنحـاء الدولة (وبعض الوافدين أيضاً) . كذلك فإن الجامعة تزوّد مراكز الانتساب الموجه في بقية مدن الدولة بالأساتذة والكتب والنشرات التعليمية . ويوجـد في مدينة العين مستشفى «توام» المشهور بخدماته الطبية الواسعة التي يقدمها مجاناً . فيقصده العديد من سكان الدولة للاستشارات الطبية أو للمعالجة (يدار هذا المستشفى من قبل شركة أجنبية ومعظم أطبائه من المتخصصين الأجانب)(**) .

كذلـك أخـذت مدينة العين تقدم خدمات سياحية - خاصة بعد إنشاء «مـدينـة اللهـو والألعاب» ، واستراحات عديدة لجذب السوّاح للمدينة - كما سنبين فيما بعد .

٣ - تطور نمو سكان مدينة العين : (شكل رقم - ٦)

لقد كانت واحة العين حتى أوائل الستينات من هذا القرن (كما ذكرنا من قبل) مؤلفة من عدة قرى متجاورة يعمل معظم أهلها بالزراعة و/أو الرعي . ولكن خلال وجود الشيخ زايد حاكماً للمنطقة الشرقية من إمارة أبو ظبي عمل على دمج هذه القرى مع بعضها البعض لتشكل مركز استقراري واحد . وقد كانت أول خطوة قام بها بعد تحقيق هذا العمل هي ربط نواة كل قرية بالأخرى (وتلك القرى هي : الهيلي ، الجيمي ، المسعودي ، القطارة ، مريجب ، السليمي ، المويجعي ، المعترض والجاهلي) . ثم أمر الشيخ زايد باستبدال بيوت المواطنين القديمة بمساكن حديثة تبنى على نفقة حكومة إمارة أبو ظبي . وقد عرفت مثل هذه المساكن فيما بعد «بالمساكن الشعبية» وسمى هذا التجمع «بمدينة العين» .

(**) لقد وضع هذا المستشفى مؤخراً تحت إشراف دائرة الصحة ، إلا أن الإدارة بقيت كما هي .

وهكـذا مع ظهـور نتائج أول إحصاء عام لسكان إمارة أبو ظبي تبين أن سكان هذه «المدينة» قد بلغ حوالي (١٣) ألف نسمة – وذلك في عام ١٩٦٨[٩] . ومـع تزايد دخل الإمارة من تصدير النفط ، أخذت هذه المدينة تشهد نشاطاً عمرانياً كبيراً – خاصة بعد انتقال الشيخ زايد إلى مدينة أبو ظبي ليصبح حاكماً للإمارة (في عام ١٩٦٦) ، وبعد أن أصبح رئيساً لدولة الإمارات العربية المتحدة (في ٢ ديسمـبر عام ١٩٧١) وتصميمـه على خلق مدينـة ثانية مهمـة في إمارة أبوظبي . ولذلك فقد أخذ يفد إلى هذه المدينة أعداد كبيرة من الموظفين والعمال للمساهمة في أعمال التشييد والبناء . كما قدم إلى المدينة أعداد كبيرة أخرى من أبناء القبائل التي كانت تقيم خارج حدود هذه القرى التسع باحثين عن أعمال مناسبة ومطالبين بنفس الوقت بمساكن شعبية لهم .

وبعد إجراء الإحصاء العام الثاني للسكان في عام ١٩٧٥ ، تبين أن عدد سكان مدينة العين قد تضاعف حوالي أربع مرات – إذ وصل إلى (٥١) ألف نسمـة – أي بزيادة سنوية تقارب من (٤٢) في المائة خلال هذه الفترة ما بين التعدادين الأوليين . وقد بلغ عدد المواطنين في هذا التعداد حوالي (١٦,٥) ألف نسمة ، وأعداد الوافدين أكثر من ضعفهم (أي حوالي ٣٤,٢ ألف نسمة)[١٠] . ويعتقد أن معظم هؤلاء الوافدين قد جاءوا إلى المدينة بعد عام ١٩٦٨ – وبذلك أصبحت تحتل المرتبة الرابعة بين مدن الدولة .

ومـع تضـاعف دخـل الدولة من ارتفاع أسعار النفط بعد عام ١٩٧٣ ، أخـذت المدينة تشهد نهضة عمرانية ثالثة – خاصة بعد أن تقرر إنشاء جامعة الإمارات في هذه المدينة وتم افتتاحها في عام ١٩٧٧ . فبدأ يفد إلى المدينة أعداد متـزايدة كل عام من الأسـاتذة والإداريين والطلاب ، كما تقرر التوسع بإنشاء المـرافق العـامـة وبقية الخـدمـات التي لم يكن قد تم توفـيرهـا لجميع السكان (كـالمـدارس والمستـوصفات والشرطة ومكافحة الحرائق وشق الطرقات) . وقد ساهم كل ذلك في إعادة مضاعفة سكان المدينة ، حيث وصل عددهم إلى أكثر من (١٠٢) ألف نسمة في عام ١٩٨٠ – بلغ عدد المواطنين بينهم حوالي (٢٩,٥)

ألف نسمة وأعداد الوافدين حوالي (٧٢,٨) ألف وافد[١١] . وبهذا تكون نسبة عدد المواطنين قد ازدادت حوالي (٧٩) في المائة بينما أعداد الوافدين حوالي الضعف تقريباً (أي ١٥٩ في المائة) . ثم عاد عدد السكان فازداد حوالي (٤١) في المائة في تعداد عام ١٩٨٥ ، كما يظهر من جدول رقم – ٢ .

جدول رقم - ٢

تطور أعداد سكان مدينة العدين ما بين ١٩٦٨ – ١٩٨٥
ونسبة الزيادة السنوية(**)

السنة	عدد السكان (بالألف)	الزيادة السكانية		الزيادة السنوية (في المائة)
		العدد (بالألف)	النسبة (في المائة)	
١٩٦٨	١٢,٩	(غ . م)		
١٩٧٥	٥٠,٧	٣٧,٨	٢٩٣,٠	٤١,٩
١٩٨٠	١٠٢,٣	٥١,٦	١٠١,٨	٢٠,٤
١٩٨٥	١٤٢,٠	٤١,٧	٤٠,٨	٨,٢

غ . م = غير متوفرة

(**) المصدر : التعداد العام للسكان : أعوام ١٩٦٨ و١٩٧٥ و ١٩٨٠ – وزارة التخطيط ، أبو ظبي .

(*) المصدر : نتائج أولية لتعداد عام ١٩٨٥ – دائرة تخطيط مدينة العين ، ١٩٨٦ .

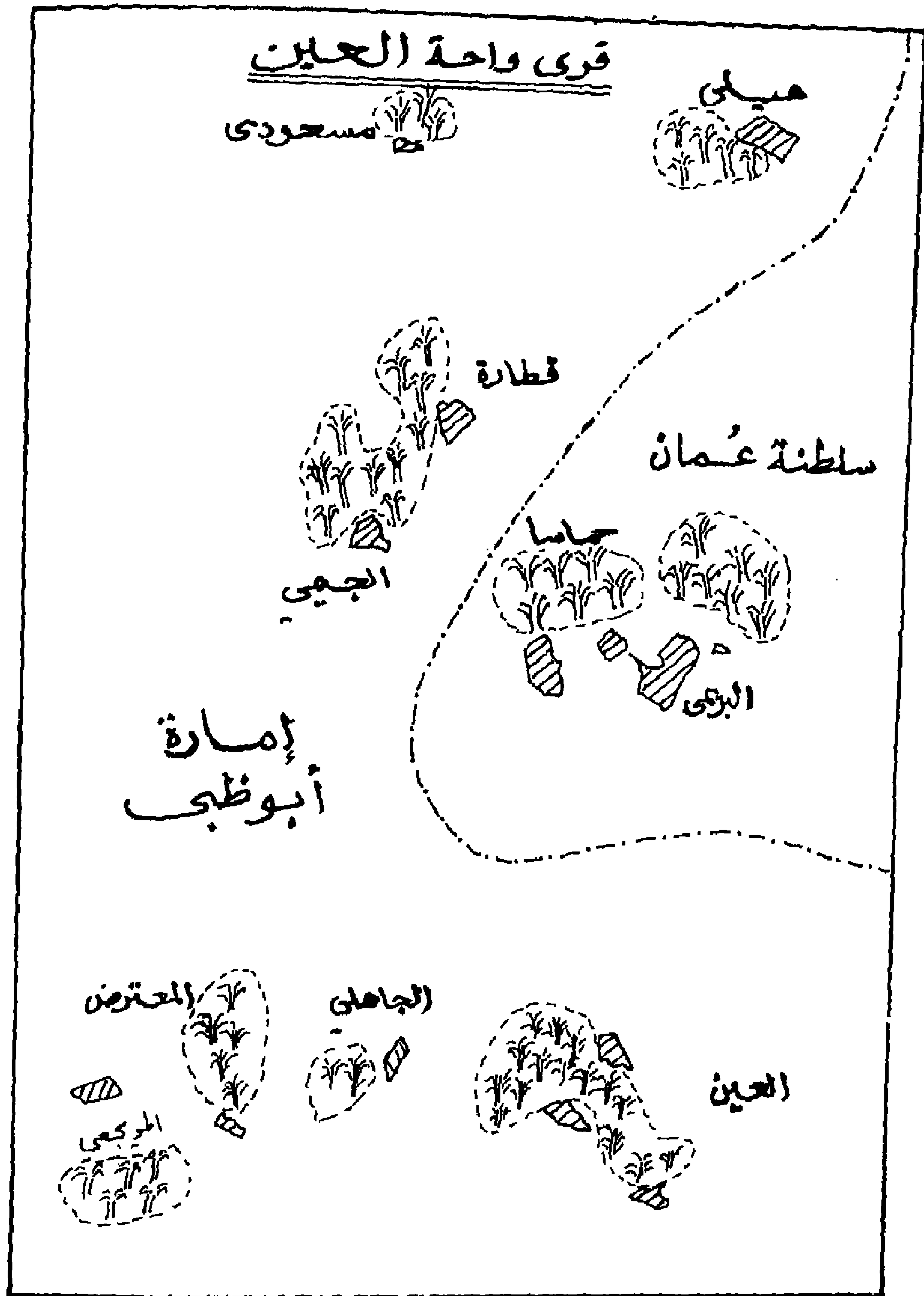
ويلاحظ من جدول رقم – ٢ ، أن نسبة تزايد السكان ما بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٥ في مدينة العين كانت حوالي (٤٢) في المائة ، ولكنها انخفضت إلى النصف بين ٧٥ – ١٩٨٠ ، رغم أن العدد الإجمالي للسكان قد ازداد حوالي (١٠٢) في المائة في هذه الفترة . ثم عادت نسبة النمو السكاني السنوية فانخفضت إلى أقل من النصف ثانية خلال خمسة أعوام ، رغم أن المجموع الكلي

للسكان قد ارتفع حوالي (٤١) في المائة . أي أن حجم المدينة آخذ بالتزايد ولكن بنسب أقل مما كان عليه الوضع في بداية نشأة المدينة . مع ذلك تبقى نسبة النمو عالية تفوق نسبة النمو الطبيعي في المدينة ، إذ يدخل في ذلك الهجرة الداخلية (من المواطنين والوافدين)[١٢] . ولا شك أن مثل هذا التزايد الكبير للسكان قد أثّر كثيراً على مخطط المدينة وتركيبها الداخلي كما سنرى فيما بعد .

٥ - مراحل التطور العمراني لمدينة العين :

ان عمر هذا التجمع الحضري - كما ذكرنا من قبل - حديث ، ولا يزيد عن ربع قرن من الزمن ، إذ كان يحتل موضع هذه المدينة أراض تابعة لتسع قرى متفرقة وهي : الهيلي ، المسعودي ، القطارة ، الجيمي ، مريجب السليمي ، الجاهلي ، العين والمعترض . (شكل رقم - ٦) وحيث أن أراضى الواحة التي تضم هذه القرى غنية بالمياه الجوفية والتربة الخصبة ، فقد كان يعمل غالبية السكان الأصليين في الزراعة المروية التقليدية (زراعة أشجار النخيل وبينها تزرع بعض الخضروات) ، والبعض الآخر كان يعمل بالرعي ويعود إلى الواحة في فصل الصيف لجني محصول التمور - كما كان يفد إليها سكان المدن الساحلية خلال فصل الصيف للاستجمام نظراً لاعتدال جوها بالمقارنة بطقس المناطق الساحلية على خليج العرب . وقد كان الاتصال مع الجزء الشرقي من الواحة الكبرى (واحة البريمي) قوياً ومرتبطاً باقتصاد يعتمد على الاكتفاء الذاتي (إذ أن الحدود السياسية قد سويت وثبتت في عام ١٩٧٤) .

وقد دلت الحفريات الأثرية التي أجريت في هذه المنطقة على وجود آثار يعود تاريخها إلى ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ سنة ق. م . وقد اكتشفت آثار أساسات ثابتة لمساكن ريفية قديمة تقع في منطقة الهيلي - حيث كانت الرمال قد غطتها بالكامل[١٣] . كما وجد في تلك المواضع أوان خزفية وحلي وبعض الأدوات المعدنية التي تشير إلى نوع من الاتصال (التجارة) مع مجتمعات أخرى تقيم حول الخليج العربي . وكذلك فقد عثر على أوان خزفية في كل من قرى العوهة والمسعودي والقطارة تعود إلى العصور الإسلامية - مما يشير إلى استمرار


قرى واحة العين
مسعودى
هيلى
قطارة
الجيمى
سلطنة عُمان
حماسا
البريمى
إمارة
أبوظبي
المعترض
الجاهلى
العين

شكل رقم (٦)

الاستيطان البشري في هذه المنطقة إلى ما بعد الفتوحات الإسلامية في شرقي شبه جزيرة العرب . ويعتقد رجال الآثار الذين نقّبوا في هذه المنطقة أن واحة البريمي - العين كانت تحوي مجتمعات تعتمد على اقتصاد زراعي / رعوي معتمدين على المياه الجوفية التي يستحصل عليها من الأفلاج أو الآبار الضحلة .

ويعتقد أن هذه الواحة الكبيرة كانت تشكل ملتقى طرق للقوافل التي كانت تعبر جنوب شرقي شبه جزيرة العرب وسواحل الخليج وبحر عُمان . إلا أن تلك الحفريات لم تتوصل بعد إلى تحديد حجم تلك التجمعات الريفية ، غير أنه يعتقد أن أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية بقيت سائدة إلى وقت قريب جداً - يمكننا أن نطلق عليه «عهد النـزاع السياسي» على هذه المنطقة . وقد صادف ذلك ابتداء ، اكتشاف النفط في إمارة أبوظبي مما أدى إلى زيادة الاهتمام بهذه المنطقة (إلا أن الخلافات على الحدود قد حُلّت فيها بعد سلمياً بين إمارة أبوظبي من جهة وكل من السعودية وسلطنة عُمان من جهة أخرى وذلك عام ١٩٧٤) .

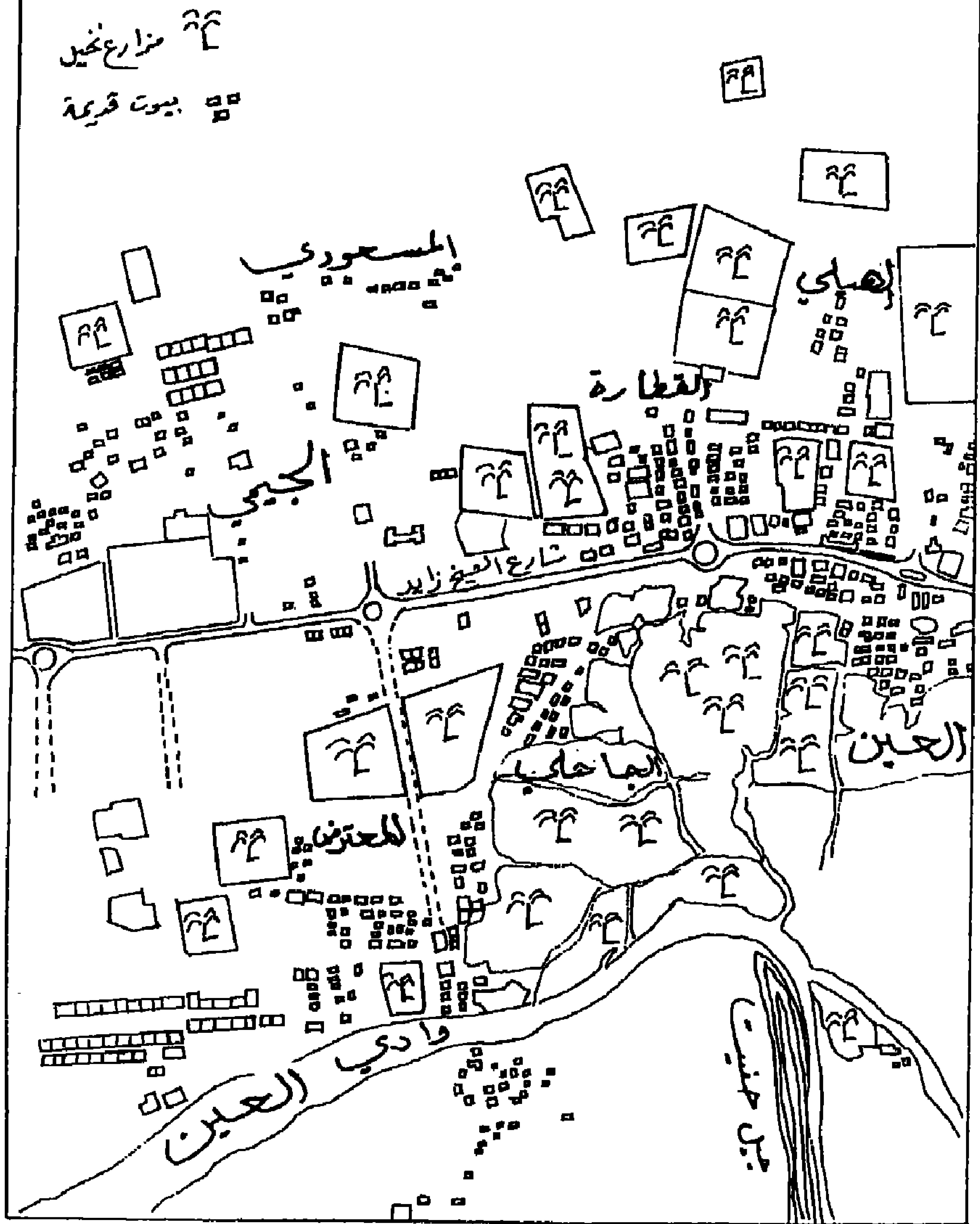
وهكذا مع اكتشاف النفط في هذه الإمارة وبداية تحسين دخلها العام من تصديره ، أخذت المظاهر العمرانية تتغير بشكل سريع لم تشهده المنطقة من قبل - حتى أصبح إيجاد بيوت قديمة تعود لسكان هذه المنطقة - عدا بعض القصور والقلاع - أمراً صعباً . وليسهل دراسة هذا التحول الكبير (أو الجذري) يمكننا أن نقسمه إلى ثلاث مراحل :

(أ) مرحلة النشأة والتكوين كمركز حضري : (ما بين ٦٤ - ١٩٧٤)

خلال الفترة التي كان يقيم فيها الشيخ زايد آل نهيان حاكماً للمنطقة الشرقية من إمارة أبوظبي (ما بين عامي ٤٦ - ١٩٦٦) أخذ الشيخ زايد يفكر في تحسين أوضاع معيشة سكان هذه المنطقة . ومع تحسن دخل الدولة من تصدير النفط ، استطاع أن يدمج هذه القرى معاً ويشكل منها مدينة حديثة تكون «القطب» الثاني في الإمارة . فأمر أولاً بشق الطرق لربط هذه القرى مع أكبر واحة وهي «العين» ، ثم أمر بإنشاء مساكن حديثة (أخذت تعرف فيها بعد بالمساكن الشعبية) لمواطني هذه القرى بالقرب من أماكن إقامتهم السابقة ومزارعهم .

ومع انتقال سموه ليصبح حاكماً لإمارة أبوظبي (في عام ١٩٦٦) واستلام الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان مقاليد إدارة المنطقة الشرقية أخذت عملية إنشاء المساكن الشعبية والمرافق العامة التي تخدم المواطنين تسير بخطى سريعة - إلا أن المظهر العام للمدينة بقي قريباً من الريفي حتى أواخر الستينات من هذا القرن . وكان المخطط العام للمدينة بسيطاً - يتألف من شارعين أو ثلاثة تربط القرى بمركز المدينة ، وتحيط بها بعض الأبنية الحديثة (يشبه شكل رقم - ٧) . وقد كان لانتقال الشيخ زايد إلى مدينة أبوظبي - التي كانت تمر بمرحلة تغير عمراني كبير أيضاً - حسنة أخرى ، إذ استطاع بمساعدة دائرة تخطيط مدينة أبوظبي وضع مخطط (أو تصور معقول) لمدينة العين ، كما كُلفت دائرة تخطيط أبوظبي بالإشراف على تنفيذ هذا المخطط (إذ أنه لم يكن قد أنشيء بعد مكتب للتخطيط في مدينة العين) . وقد روعي في هذا المخطط الأولي أن تكون الشوارع عريضة ، واتجاه السير مفصولاً بالأشجار والحدائق ، وأن تزوّد الشوارع العامة الرئيسية - خاصة تلك التي تحاذي الشارع الرئيسي لنواة المدينة - بمداخل ومخارج خاصة لتسهيل عمليات اصطفاف السيارات وحركة المرور في المدينة . كما روعي أن تساير الأبنية المقامة العادات والتقاليد العربية / الإسلامية للسكان .

وقد خططت المنطقة الوسطى (التي تحاذي قرية العين) منطقة أعمال مركزية ، وأقيم على جانبي الشارع الرئيس الذي يخترق هذه النواة (شارع الشيخ زايد) دائرة بلدية العين والمحاكم المدنية والشرعية ودائرة الماء والكهرباء ، وعلى الجانب الآخر أقيم قصر الحاكم . كما أقيمت بعض البنوك ومكاتب للشركات التي أخذت تفد إلى هذه المدينة لتساهم في هذه النهضة العمرانية الكبيرة . وقد أقيم هنا - وعلى امتداد هذه النواة نحو الشرق أيضاً - عمارات مؤلفة من ثلاثة طوابق إلى أربعة للأغراض التجارية - السكنية . ثم أقيم سوق مؤقت للخضار والفواكه واللحوم إلى الجنوب قليلاً من هذا الشارع الرئيسي ، واعتبر جزء من منطقة الأعمال المركزية .



(اعتمادا على مصادر دائرة التخطيط)

شكل رقم (٧)

وهكذا مع حلول عام ١٩٧٤ (عندما استلمت دائرة بلدية العين وتخطيط المدن قضايا تخطيط المدينة بدلاً من دائرة تخطيط مدينة أبوظبي) كانت نواة المدينة قد ثبتت وتم ربط الأحياء السكنية (القرى السابقة) بهذه النواة مع بعضها البعض بطريق جيدة - كما أقيمت نواة «للمنطقة الصناعية» عند الأطراف الجنوبية لحدود المدينة . وبذلك أصبح المخطط العام للمدينة يتألف من شارعين رئيسيين يمتدان من الجنوب إلى الشمال (حيث يلتقيان بطريق دبي - العين) ومن ثلاثة شوارع شبه متوازية ، تمتد من الشرق إلى الغرب (حيث يرتبط أطولها بطريق العين - أبوظبي) . وقد ربطت هذه الشوارع بشوارع أخرى متعامدة معها (وحيث شكلت نقاط التقاطع دوائر خضراء كبيرة تفصل حركات المرور عبر نقاط التقاطع) . ولذلك يمكننا أن نعتبر المخطط العام للمدينة بأنه قريب من المخطط «الشطرنجي» (مع وجود ثغرة في الجانب الشرقي منه) شكل رقم - ٨ .

(ب) مرحلة الشباب (٧٤ - ٨١/ ١٩٨٢) :

لقد كان النمو العمراني في مدينة العين مركزاً خلال المرحلة السابقة على المساكن «الشعبية» للمواطنين وتزويدها بالمرافق والخدمات العامة الضرورية للسكان - خاصة في المناطق التي كانوا يقيمون فيها من قبل . ولكن مع تضاعف دخل الدولة من ارتفاع أسعار النفط بعد عام ١٩٧٣ ، أخذت المدينة تشهد توسعاً عمرانياً كبيراً في كثير من أنواع العمران . فكما ذكرنا من قبل ، لقد تضاعف عدد سكان المدينة حوالي أربعة أضعاف ما بين عامي ٦٨ - ١٩٧٥ . وقد انعكس ذلك على عدد المباني التي أنشئت في هذه الفترة . فقد أنشيء في مدينة العين ما بين عامي ٦٠ - ١٩٧٠ حوالي (٣٤٨) مسكناً شعبياً ، ولكن هذا العدد تضاعف أيضاً بحوالي أربعة أضعاف ما بين عامي ٧١ - ١٩٧٧ ، حيث وصل عدد المساكن الشعبية التي أقيمت إلى حوالي (١,٢٣٤) مسكناً[١٤] .

أما التوسع في المساكن الخاصة (الفيلات) فقد كان بطيئاً خلال هذه المرحلة ، فقد أقيم ما بين عامي ٧٠ - ١٩٧٧ حوالي (٣٠٠) فيلا - أجّر منها حوالي (٩٩) فيلا[١٥] . ومع افتتاح جامعة الإمارات في هذه المدينة في عام

شكل رقم (٨)

١٩٧٧ ، أخذت المدينة تشهد نهضة عمرانية جديدة - تساير الوظيفة الجديدة التي أدخلت على هذه المدينة . فازداد الطلب على الفيلات والشقق لتسكين أساتذة الجامعة وموظفيها ، وإقامة مساكن خاصة لسكن كل من الطالبات والطلاب . فمع حلول عام ١٩٨٠ تضاعف عدد الفيلات السكنية بأكثر من ثلاث مرات - إذ وصل إلى حوالي (٩٥٣) فيلا - وارتفع عدد العمارات إلى (٣١٠) عمارة[١٦] .

وازاء التزايد في هجرة المواطنين إلى المدينة ، ازدادت أيضاً طلبات المواطنين للحصول على مساكن شعبية ، مما دفع دائرة التخطيط إلى إنشاء أحياء سكنية جديدة ، مثل شعبيات المقام ، والمرخانية وشعبيات زاخرة ، والنياذات والصاروج وغيرها (شكل رقم - ٩) . وبالطبع فقد تبع ذلك شق شوارع ثانوية وفرعية لربط هذه الأحياء الجديدة بالشوارع الرئيسية ونواة المدينة .

ولذلك فقد أخذ المخطط الجديد للمدينة ينتشر بشكل أفقي نحو الأطراف الغربية والجنوبية الشرقية والشمالية الغربية ، ومحتفظاً بشكله الشطرنجي السابق . وقد حاولت دائرة تخطيط مدينة العين تعبئة الأراضى غير المتطورة بين تلك الأحياء السكنية بمبان للخدمات والمرافق العامة ، والبعض منها أقيمت عليه حدائق عامة للسكان . ومع نمو الجامعة في أوائل الثمانينات ، أخذت تظهر أبنية جديدة تخدم الجامعة وطلابها ، مثل مساكن للطالبات وأخرى للطلاب ، ومراكز - لدمات وعلاقات عامة ومكتبات ومستودعات وفيلات خاصة لإقامة أساتذة الجامعة - خاصة المائة فيلا التي أقيمت في منطقة المرخانية - على جانبي الطريق الجديد الذي يربط منطقة الجيمي بطريق العين - أبو ظبي . وقد ساعد هذا المحور الجديد على خلق مناطق سكنية جديدة - يمكن اعتبارها من الدرجة الأولى كما سيظهر فيما بعد .

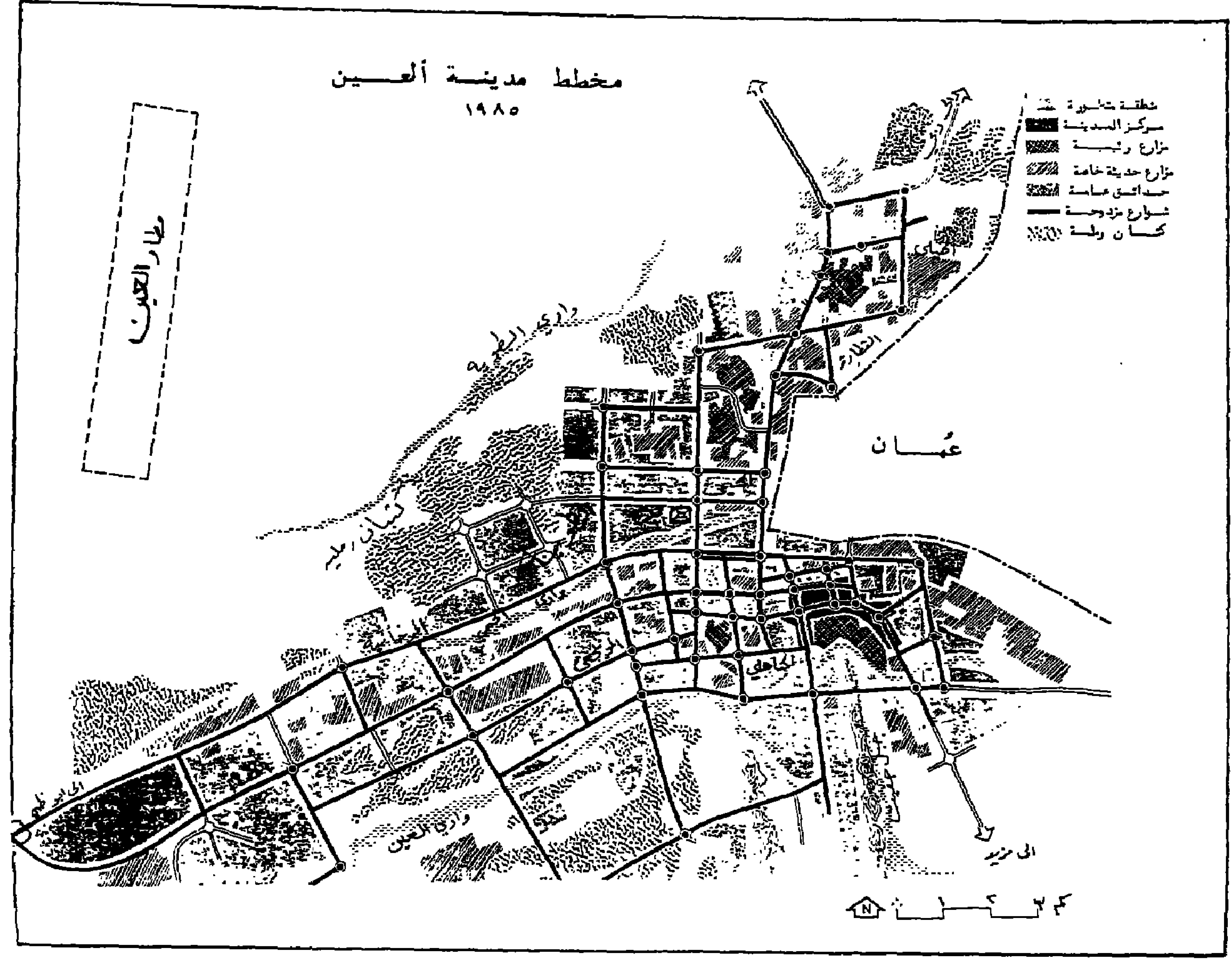
ومن الأمور أو التطورات التي حصلت خلال هذه الفترة أيضاً توجه بعض المواطنين إلى الاستثمار في إنشاء مبان سكنية - تجارية ، تتولى الإشراف عليها لجنة

خاصة - تعرف «بلجنة الشيخ خليفة للاستثمار» - فقد وزعت على بعض المواطنين قسائم أرض في مناطق معينة في المدينة لإنشاء وحدات سكنية ، من نوع «الفيلات المتلاصقة / المتجاورة» (Duplexes) ، وعلى أن تسدد القروض التي يستلفها المواطنون من إيجارات هذه الفيلات في المستقبل . فقد كان في مدينة العين في عام ١٩٧٧ حوالي (٧٧) مسكناً - تجارياً ، ولكن عددها ارتفع إلى حوالي (١٦٥) مسكناً في عام ١٩٨١ ، ومعظمها من طابقين[١٧] .

٣ - مرحلة النضج والتخطيط المنتظم : (٨٢ - ١٩٨٧)

نتيجة للتطورات السريعة التي شاهدتها المدينة خلال المرحلتين السابقتين ، فقد أخذت طلبات المواطنين تتزايد لإنشاء مساكن جديدة خاصة بهم - خاصة بعد تحسن أوضاعهم الاقتصادية في أوائل الثمانينات - إلا أن دائرة تخطيط مدينة العين لم تستطع استيعاب هذا الضغط ، وأخذت في بداية الأمر تعد مخططات آنية لا تراعي فيها الكثير من المباديء التخطيطية السليمة - سواء من حيث الشوارع أو قضية ربطها بمناطق العمرانالقائمة أو بمناطق العمل والأسواق والخدمات . وبعد تفاقم الأوضاع في المدينة فقد اضطرت دائرة تخطيط مدينة العين للاستعانة بإحدى شركات تخطيط المدن العالمية المشهورة (وهي شركة شاكلاند كوكس (.Shakland Cox, Co) . وقد كلفت هذه الشركة بدارسة تطور مدينة العين خلال العقدين السابقين ودراسة موارد المدينة ثم وضع «خطة شاملة» "The Master Plan" تنظم عمليات نمو المدينة حتى عام ٢٠٠٠م ، بحيث يحفظ للمدينة جمال منظرها ووظائفها الحالية ضمن العادات والتقاليد العربية الإسلامية .

وهكذا فقد قامت هذه الشركة بإجراء دراسات مفصلة لما يتطلبه مثل هذا العمل (منذ عام ١٩٨٢) مستعينة ببعض الاستشاريين المحليين لجمع الإحصائيات والمعلومات الضرورية عن سكان المدينة وعن توظيفهم ومهنهم والموارد الطبيعية المتوفرة في إقليم العين - خاصة ما يتعلق بالموارد المائية . وبعد تجميع كل هذه المعلومات وتحليلها ، تقدمت بخطتها الشاملة في عام ١٩٨٥ .


مخطط مدينة العين
١٩٨٥
مطار العين
عمان
الى مزيد
وادي العين
منطقة متطورة
مركز المدينة
مزارع رئيسية
مزارع حديثة خاصة
حدائق عامة
شوارع مزدوجة
كثبان رملية
كم

شكل رقم (٩)

وبعـد الموافقة عليه رسمياً من قبل دائرة تخطيط مدينة العين ومجلس بلديتها ، ارتبط تخطيط ونمو المدينة بهذه «الخطة الشاملة» إلى عام ٢٠٠٠ . وقد كان من أهم توصيات هذه الخطة ضرورة استغلال الفراغات الموجودة ضمن الحدود التي وضعت للمدينة ، وعدم السماح بالتوسع خارج تلك الحدود . (شكل رقم - ٩) .

مع ذلـك فقـد كان من أهم معـالم النمـو أو التغير خلال هذه الفترة هو «زحزحة» نواة المدينة بحوالي ثلاثة كيلومترات إلى الشمال الغربي من منطقة الأعمال المـركـزية السابقة . فبعد توسع المدينة ازدادات أعمال بلدية العين وبقية دوائر الحكومة ، مما دفع دائرة البلدية إلى إنشاء مبنى ضخم في منطقة تقع بين حيّي الجيمي والمعترض - وقد تم الانتقال إليه رسمياً في عام ١٩٨٤ ، حيث خصص الجزء الجنوبي من ذلك المبنى لدائرة تخطيط المدينة (بشكل مؤقت) - إلى أن يتم المبنى الخاص بتلك الدائرة إلى الجنوب قليلاً من مبنى البلدية . ولقد تبع هذا التشييد بنـاء عدة مبـان أخرى حديثة بقية دوائر الحكومة إلى الغرب من مبنى البلدية - وبذلك فقد تم انتقال معظم دوائر الحكومة إلى هذا الموقع الجديد .

وقـد لحقت بعض الأنشـطة التجـارية بهذا الموقع الجديد كافتتاح «سوق مركزي كبير» - من النوع الشامل (Dept. Store) ، كما أقيم مؤخراً سوق حديث مكيّف للخضـار والفـواكه واللحوم (يعرف بمركز المنطقة التجاري) وذلك إلى الغـرب قليلاً من موقـع دوائر الحكومة . ومما لا شك فيه أن أعداداً كبيرة من السكان (خاصة من ذوي الدخل المتوسط والعالي) سيتوجهون إلى هذه المراكز الجديدة وبذلك يخففون الضغط (أو العمل) عن منطقة الأعمال المركزية في وسط المدينة .

كذلك فقد انتقل قصر حاكم المنطقة الشرقية (قصر سمو الشيخ طحنون) بضعة كيلومترات إلى الغرب من موقعه السابق في وسط المدينة (وتحويل موقعه السابق إلى مصرف ضخم - مما يؤكد تمسك رجال الأعمال والتّجار بالنواة الأولى للمدينة) . كما أن دوائر المرور والتراخيص وفحص السيارات والسجن المركزي

قد انتقلت إلى الأطراف الجنوبية للمدينة - بالقرب من المنطقة الصناعية (إلا أن مديرية الشرطة ودائرة الكهرباء قد حافظتا على موقعهما السابقين في منطقة السليمي) .

ومن التطورات المهمة خلال هذه الفترة تزايد الطلب على بناء فيلات للمواطنين بالمقارنة إلى بناء المساكن الشعبية . فحتى عام ١٩٨٠ كان مجموع الفيلات التي شيّدت في مدينة العين قد وصل إلى حوالي (٩٥٣) فيلا ، ولكن بلغ مجموع الرخص التي منحتها دائرة التخطيط لإنشاء فيلات ما بين عامي ١٩٨١ - ١٩٨٥ حوالي (١,٢١٣) فيلا سكنية وحوالي (١٢٤) فيلا تجارية[١٨] . وقد أنشيء معظم هذه الفيلات على الأطراف الغربية من المدينة - كما سنبين فيما بعد .

وهكذا فقد أصبح شكل المدينة في الوقت الراهن قريباً من شكل المثلث المتساوي الساقين ، قاعدته تحاذي الحدود الشرقية للمدينة (مع وجود نتوء من سلطنة عمان متوغل فيها) ورأس المثلث عند مفترق طريق العين - أبوظبي . وبالطبع يتخلل هذا الامتداد أراض زراعية واسعة وعدة منتزهات عامة وبعض الأراضي غير المستغلة . مع ذلك يبقى المخطط العام للمدينة شبكياً (أو شبه شطرنجي) خاصة في القسمين الشرقي ووسط المدينة - حيث نجد أن معظم الشوارع الرئيسية تتعامد مع بعضها البعض - غير أن معظم نقاط التقاطع تتمثل بدوائر واسعة خضراء تبعد عن بعضها البعض بحوالي ٢ كيلومتر ، عدا في وسط المدينة حيث تكون المسافات أقل من ذلك . (راجع شكل رقم - ٩) .

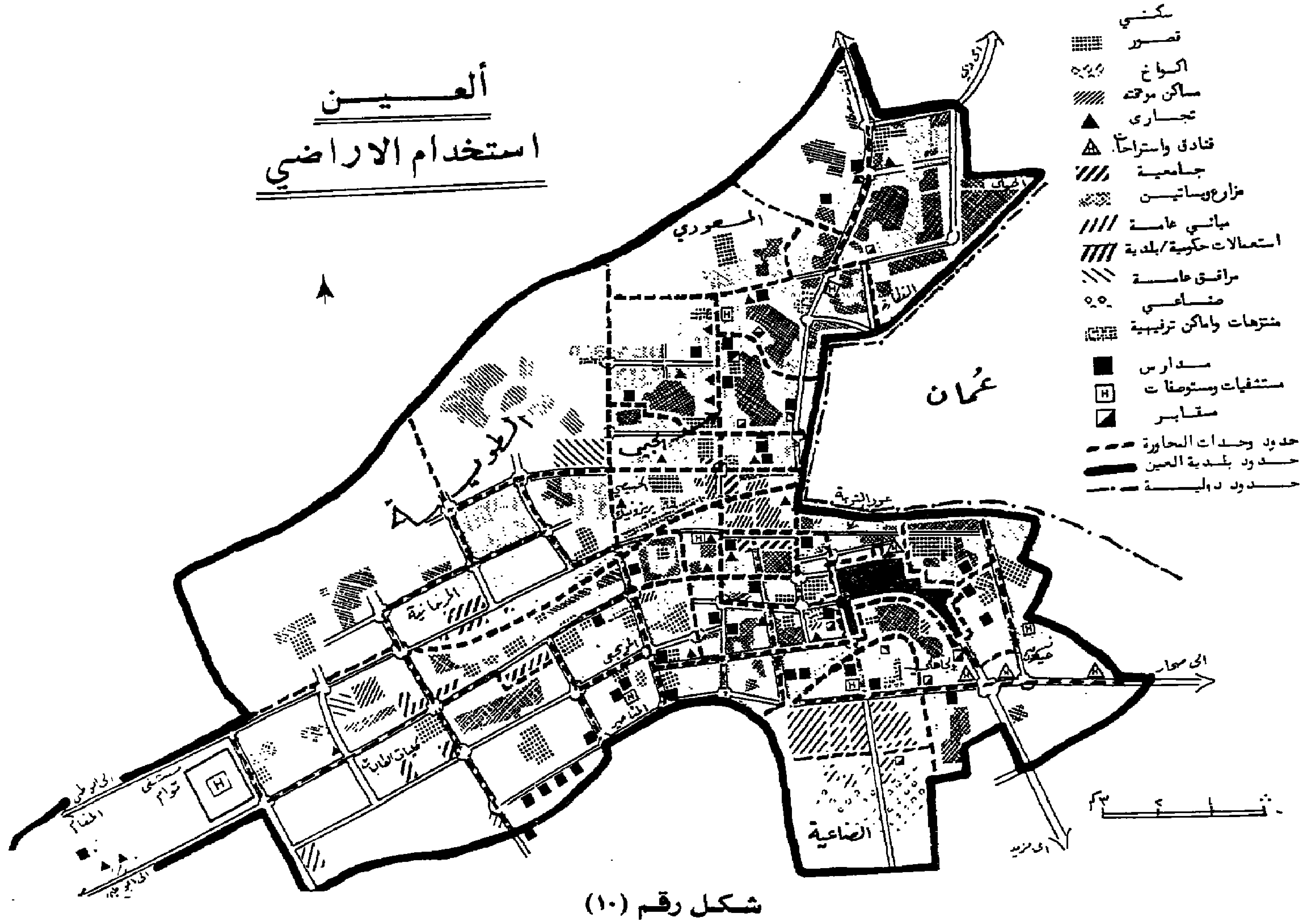
ثانياً : التركيب الداخلي وأنماط استخدام الأرض في مدينة العين : (شكل رقم - ١٠)

إذا حاولنا تحليل التركيب الداخلي لمدينة العين ومقارنته بإحدى نظريات تركيب المدن المعروفة في جغرافية المدن ، فإننا نجد أن هذه المدينة قد نمت بصورة «غير طبيعية» - خلافاً لمعظم المدن ، إذ أن التركيز الأولي لإجمالي بناء

مساكن للمواطنين بالقرب من أماكن إقامتهم السابقة أو من زارعهم . ولذلك فقد نشأت المدينة على شكل «نويات» حول هذه القرى ثم حاولت دوائر التخطيط ربطها بنواة إقامتها في مكان متطرف نوعاً ما - ولكنه يقع بالقرب من أكبر قرية آنذاك . وقد لعب عامل آخر في تركيب المدينة وهو ان معظم أراضي المدينة تعود لإمارة أبوظبي وهي التي تقوم بتوزيعها على المواطنين وتحدد نوع استخدام (استعمال) الأرض على تلك القسائم . (خاصة بعد أن دفعت الحكومة تعويضات سخية للمواطنين عن عقاراتهم السابقة) .

لذلك فقد خُططت تلك النواة لتشمل معظم دوائر الحكومة والمتاجر ومكاتب الشركات والأعمال - فأصبحت «منطقة الأعمال المركزية» في المدينة (Central - Business District) ثم تبع ذلك (أو صحبه) إنشاء العديد من المساكن (أغلبها من النوع الشعبي - المتشابه تقريباً) للمواطنين . ولم تراع السلطات المحلية إنشاء مناطق سكنية خاصة بالعمال أو صغار الموظفين (مع العلم أنها طلبت من المقاولين الذين يجلبون أعداداً كبيرة من العمال أن يبنوا لهم مساكن مؤقتة خارج حدود المدينة) . لكن سرعان ما ظهر العديد من العمال الوافدين الذين يعملون في منطقة الأعمال المركزية أو في دوائر الحكومة بدون أماكن لسكنهم ، مما ساعد بعض المواطنين على إجراء بعض التعديلات على مساكنهم الشعبية وتأجير قسم منها لهؤلاء العمال / الموظفين الصغار - في باديء الأمر . وبعد أن تزايد عدد مثل هذه الحالات وظهرت مشكلة اجتماعية في المدينة - وهي إقامة العديد من العمال الآسيويين بين المواطنين ، قامت دائرة التخطيط بإنشاء حوالي (١,٢٠٠) مسكن خاص لذوي الدخل المحدود من هؤلاء العمال الآسيويين ، وذلك عند الأطراف الغربية من المدينة ، بعيداً عن مساكن المواطنين وعن المنطقة الصناعية والمركزية .

كذلك فقد أقام بعض المواطنين الميسوري الحال فيلات كبيرة في «ضواحي» المدينة وذلك في أوائل الثمانينات ، ولكن مع نمو المدينة زحفت مناطق المساكن الشعبية إلى هذه الضواحي وأحاطت بمناطق الفيلات (مساكن من الدرجة


ألعين
استخدام الاراضي
سكني
قصور
اكواخ
مساكن موقتة
تجارى
فنادق واستراحات
جامعية
مزارع وبساتين
مباني عامة
استعمالات حكومية/بلدية
مرافق عامة
صناعي
منتزهات واماكن ترفيهية
مدارس
مستشفيات ومستوصفات
مقابر
حدود وحدات المجاورة
حدود بلدية العين
حدود دولية
عُمان
المسعودي
الجيمي
الجاهلي
الصناعية
المويجعي
توام
الى صحار
الى مزيد
كم

شكل رقم (١٠)

الأولى) ، فأصبحت تلك الضواحي أحياء جديدة ضمن حدود المدينة ذات مساكن مختلطة (خاصة في أحياء الجاهلي والمرخانية والخبيصي) . ثم عاود المواطنون الميسورو الحال فأخذوا يقيمون فيلات ضخمة خارج حدود هذه المناطق «المختلطة الاستعمالات» ، مما دفع دائرة تخطيط المدينة إلى وضع حدود ثابتة للمدينة لا يجوز البناء خارجها - في الوقت الراهن - أو إلى عام ٢٠٠٠م ، حسب توصيات الخطة الشاملة الموضوعة للمدينة . (شكل رقم - ١٠) .

هذا وقد كانت دائرة تخطيط مدينة أبوظبي قد أوصت - منذ نشأة المدينة - أن تخصص المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من المدينة للأعمال الصناعية . فأصبحت «نواة» أخرى تجذب إليها العديد من الورش والصناعات ، فاتسع نطاقها وامتدت حالياً إلى مقدمة سفوح جبل حفيت . وقد أقام الكثير من أصحاب تلك الورش وعمالها في تلك المنطقة - لعدم توفر أماكن سكنية رخيصة قريبة من أماكن عملهم . ثم جاءت أعداد جديدة من الوافدين الآسيويين (خاصة من الباتان والبالوش) فأقامت «أكواخاً» لهم خارج حدود هذه المنطقة الصناعية وفي موقع جبلي معزول نسبياً .

كما أن لتدخل السلطات المحلية في نقل معظم دوائر الحكومة إلى موقع آخر خارج منطقة الأعمال المركزية قد ساعد على خلق «نواة» جديدة للأعمال الإدارية والرسمية - مع دفع بعض الأنشطة التجارية في ذلك الاتجاه (والتي يمكن اعتبارها تخدم ذوي الدخول المتوسطة والمرتفعة) . ويمكننا أن نضيف أن إنشاء مستشفى «توام» عند الأطراف الغربية للمدينة قد عمل على جذب استغلال معين إلى تلك المنطقة وهو إقامة فيلات متوسطة الحجم لإسكان أطباء المستشفى وبعض الإداريين الكبار العاملين فيه .

وهكذا فإن مثل هذه العوامل قد ساعدت على جعل نموذج تركيب مدينة العين قريباً كثيراً من نموذج «النويات المتعددة» (أو ما يعرف بنظرية العالمين أولمان وهاريس) ، وسيظهر ذلك بشكل أوضح عند دراستنا لأهم خصائص أنماط

استخدام الأراضي في مدينة العين وما طرأ عليها من تغيرات منذ عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٨٧ ، حسب توفر المعلومات . ومما تجدر الإشارة إليه قبل تحليل أنماط استخدام الأراضي في المدينة أن هناك مزارع عديدة تقع ضمن حدود المدينة ، وقد أصاب العديد منها التغير من حيث نوع الاستغلال الزراعي أو الإسلوب المتبع في الزراعة . ولذلك سوف لا نتعرض لخصائص تلك المزارع أو ما طرأ عليها من تغير -ما لم يؤثر ذلك على الاستغلالات الأخرى القريبة منها- مع العلم أنه لا يجوز قطع الأشجار المثمرة من أجل التوسعات العمرانية في هذه المدينة ، بل على العكس من ذلك فإن السلطات المحلية تشجع المواطنين على غرس الأشجار المثمرة حول مساكنهم أو على الأراضي الزراعية الجديدة التي يستصلحونها .

أنماط استخدام الأراضي في مدينة العين : (راجع شكل رقم - ١٠)

لقد كانت مساحة المدينة صغيرة جداً في الستينات من هذا القرن ، ولكنها قاربت من حوالي (٤٠) كم٢ في أواسط السبعينات ، ثم عاودت التوسع في أواسط الثمانينات ، حيث تضاعفت مساحتها بحوالي أربعة أضعاف لتصل إلى حوالي (١٣٣) كم٢ .[١٩] .

وقد كانت مساحات استخدام إراضي ونسبها في عام ١٩٨٤ كما يظهر من جدول رقم - ٣ :

جدول رقم - ٣
أنواع استخدام الأراضي ومساحاتها ونسبها المئوية في مدينة العين (في عام ١٩٨٤)[*]

الاستعمال	المساحة (هكتار)	النسبة المئوية من مساحة الأراضي المتطورة
١ - مركز المدينة (تجاري واستعمالات متنوعة)	١٢٦	١,٠
٢ - سكـنى	٣,٣٨٩	٢٥,٥
٣ - صناعي	٢٤٥	٢,٠
٤ - بنايات عامة ومجتمعية	١٩٢	١,٥
٥ - «المدينة الجامعية» (الموقع)	١,٢٥٠	٩,٥
٦ - مناطق مفتوحة وترفيهية[1]	٢٧٠	٢,٠
٧ - خدمات مجتمعية	٥١٩	٤,٠
٨ - زراعة وغابات (أحراش)	٤,٩٩٨	٣٧,٥
٩ - استعمالات أخرى (عدا الأراضي الخالية)	٢,٢٨٩	١٧,٠
المجموع	١٣,٢٧٨ (=١٣٣كم٢)	١٠٠,٠

(*) المصدر : الخطة الشاملة لمدينة العين - ١٩٨٥ .

(١) بما في ذلك حديقة الحيوانات ومدينة الملاهي والملاعب الرياضية .

فنلاحظ من جدول رقم - ٣ ، أن مساحة منطقة الأعمال المركزية مازالت صغـيرة ، لا تزيد عن واحـد في المائة (بالمقارنة مع حوالي ٨,٥ في المائة لمدينة أبوظبي ، وحوالي ٤ في المائة لمدينة دبي)[٢٠] ، مما يدل على حداثة هذه النواة بعد . وعلى الجانب الآخر ، نجد أن مساحة الأراضي الزراعية والغابية تحتل أكثر من ثلث المساحة المتطورة في المدينة ، وهذا يدل على أهمية الزراعة في هذه المدينة ،

فهي تشكل مورد رزق لكثير من مواطني هذه المدينة - وقلما نجد مثل هذا الاهتمام في الزراعة في المدن الحديثة في العالم - ما لم تكن مدن واحات سابقة .

وتأتي بعد مساحة الأراضي الزراعية في الأهمية ، مساحة الأراضي المخصصة للسكن ، والتي تمثل حوالي ربع مساحة الأراضي المتطورة في المدينة (وهذه النسبة قريبة من مثيلاتها في كل من مدينتي أبوظبي ودبي ، إلا أن ذلك أقل مما هو عليه الحال لمتوسط المدن الأمريكية)[٢١] . كذلك فإننا نلاحظ أن المساحة المخصصة لموقع «المدينة الجامعية» تحتل المرتبة الثالثة بين الاستعمالات المختلفة في المدينة . ولا شك أنه بعد بناء هذه الجامعة الكبيرة سيزيد من أهمية هذه الوظيفة للمدينة ، وسيظهر عندئذ تأثيرها على استغلال الأراضي حولها - أكثر مما هو عليه الحال في الوقت الراهن نظراً لعدم تجمع مباني كليات الجامعة في موقع واحد .

وسنحاول في الصفحات التالية إعطاء تحليل موجز لأهم هذه الاستعمالات في مدينة العين .

(١) الاستعمالات التجارية :

يمكننا أن نميز ثلاثة أنماط من الاستعمالات التجارية في المدينة ، وهي :

(أ) منطقة الأعمال المركزية Central Business District أو (C.B.D.) .

تعرف هذه المنطقة عادة «بقلب المدينة» حيث تتركز معظم محلات تجارة الجملة والتجزئة ، بالإضافة إلى العديد من مكاتب الشركات المتنوعة الاختصاصات والأعمال ، والمصارف والمطاعم المشهورة والمسارح والنوادي ، وغير ذلك من الأنشطة الحضرية الهامة . وان أول مشكلة تجابه الجغرافي أثناء دراسته لتركيب المدينة هي قضية وضع حدود لهذه المنطقة . فقد قامت عدة دراسات حول هذه المشكلة ، كانت تعتمد في البداية على دراسة نظرية لخرائط استعمالات الأراضي في «قلب» المدينة ، ثم محاولة وضع حدود للمناطق التي تسود فيها محلات تجارة الجملة والتجزئة والمناطق التي لا توجد فيها مثل تلك التخصصات -أو المناطق التي يتوقف عندها ذلك النشاط التجاري[٢٢] . إلا أن

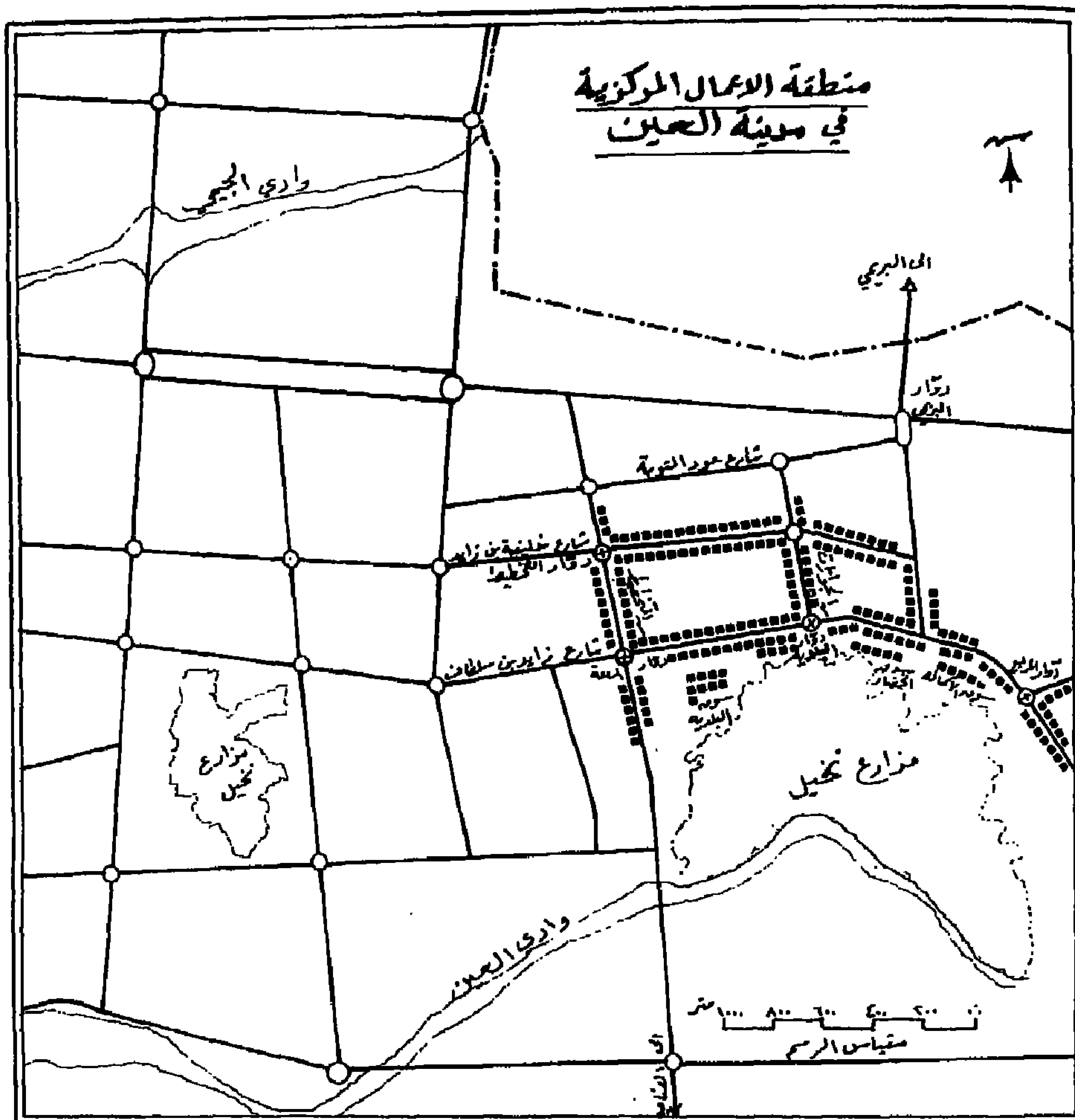
عامل التغير كان يلعب دوره كثيراً في التركيب الداخلي للمدن - خاصة الكبيرة منها - فتأخذ المحلات التجارية «بالزحف» نحو الأطراف ، معتدية على مناطق الاستعمالات الأخرى .

وقد أضاف ظهور العمارات المتعددة الطوابق في مركز المدينة أبعاداً جديدة ، إذ لم يُعرف فيما إذا كان من الضروري على الجغرافي أن يقوم بتصنيف استعمالات الأراضي على مستوى «الشارع» (أي الطابق الأول من العمارة) أم يأخذ بعين الاعتبار التخصصات الأخرى الموجودة على المستوى الشاقولي . وقد استعمل بعض الباحثين أسعار الأراضي ضمن الجزء الأوسط من المدينة لتحديد نواة المدينة ، والبعض الآخر استعمل الإيجارات المرتفعة للمحلات التجارية (أو لوحدة المساحة على الشوارع الرئيسية) ، أو عن طريق استبعاد الاستخدامات الأخرى التي لا يمكن عادة أن تتوطن في قلب المدينة (لوجود عوامل طرد معينة) . ومن أشهر الدراسات في هذا الخصوص ، الدراسات التي قام بها الباحثان «ميرفي وفانس» (Murphy & Vance) [٢٢] -اللذان اعتمدا على مؤشرات خاصة تربط بين مساحة الاستخدام وارتفاع البنايات ، أو مساحة الاستخدام ومساحة «البلوك» في المنطقة المركزية ، وغير ذلك من المؤشرات .

وقد لا تكون قضية تحديد منطقة الأعمال المركزية (.C.B.D) في مدينة العين تحتاج إلى كل هذا التعقيد - خاصة وإن الإحصائيات التي تحتاجها دراسةمثل دراسة «ميرفي وفانس» ، مثلاً ، غير متوفرة عندنا بعد ، كما أن كثيراً من الإحصائيات ما زالت غير متوفرة على مستوى «المخفر» أو المنطقة الإحصائية لمدينة العين (بما في ذلك الكثافة السكانية) . إلا أن دائرة تخطيط مدينة العين قد ساعدتنا من جهة أخرى إذ أنها حددت ارتفاع المباني داخل «نواة» المدينة بثلاثة طوابق أو أربعة فقط . أما في المناطق السكنية فلا يجوز أن تكون المباني أكثر من طابقين (عدا مساكن طالبات الجامعة ، التي تقع عند أطراف المدينة) كما سنرى فيما بعد .

وبناء على ذلك فإن منطقة الأعمال المركزية في العين تمتد من شارع التخطيط غرباً إلى دوّار المربع وطريق فندق «هيلتون» شرقاً ، ومن شارع الشيخ خليفة شمالاً إلى سوقي البلدية والخضار / اللحوم من جهة الجنوب . (شكل رقم - ١١) فهي إذن تتألف من محورين رئيسيين : الأول هو شارع الشيخ زايد والآخر شارع الشيخ خليفة ، ويتبع لهذه المنطقة الشوارع الثانوية التي تتعامد معهما ، وهي الشوارع التي تعتبر امتداداً حديثاً لهذه المنطقة . فالبنايات التي أقيمت على جانبي شارع الشيخ زايد قديمة - خاصة التي تقع ما بين دوّاري الساعة والمربع - حيث نجد أن معظمها مؤلف من بنايات ذات طابقين ونصف (أو ما يعرف بالمازانين - أو المخزن) أو ثلاثة طوابق . بينما البنايات التي تقع على جانبي شارع الشيخ خليفة وشارع التخطيط فهي أحدث ، ومعظمها مؤلف من أربعة طوابق ، حيث نجد الطابق الأول تجاري ، والثاني وأحياناً الثالث مكاتب لشركات ، أما الطابق الرابع فهو عادة سكنى (لبعض كبار الموظفين في دوائر الحكومة أو الشركات) .

وتحتل تجارة الجملة المحلات التي تحيط بأطراف هذه المنطقة - خاصة بين دوّاري البلدية والمربع ، بينما تحتل العديد من محلات التجزئة الحديثة كلا جانبي شارعي الشيخ خليفة والتخطيط (وامتداده نحو المنطقة الصناعية) . وقلما نجد أيةصناعة خفيفة في هذه المنطقة أو عند أطرافها - سوى بعض مكاتب الطباعة والنشر - والتي تحتفظ بآلاتها في المنطقة الصناعي . ومن الصعب على هذه المنطقة أن تتوسع شمالاً أو غرباً نظراً لمجاورتها لمناطق سكنية - شعبية ، حيث لا يسمح فيها بتأجير تلك المساكن للأعمال التجارية ، أو مستودعات (كما نجد في بقية المدن عادة) . كما أن التوسع جنوبياً غير ممكن بسبب وجود «واحة العين» - عدا عند أطرافها الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية . وهذا ما دفع دوائر الحكومة إلى «هجرة» هذه النواة إلى «النواة الجديدة» ما بين الجيمي والمعترض - كما ذكرنا من قبل .


منطقة الأعمال المركزية
في مدينة العين
وادي الجيمي
إلى البريمي
مزارع نخيل
مزارع نخيل
وادي العين
مقياس الرسم

شكل رقم (١١)

(ب) المناطق التجارية الثانوية :

تقع هذه المناطق خارج حدود منطقة الأعمال المركزية . فهناك بعض الأحياء السكنية في المدينة بنيت على أساس «وحدات المجاورة» وقد زودت ببعض المحلات التجارية - على هيئة أسواق محلية - لتلبية احتياجات السكان الآنية (كالبقاليات والمطاعم البسيطة والمخابز ، ومحلات الخياطة وبيع لوازم طلبة المدارس ، ومحلات بيع بعض الأدوات المنزلية / الكهربائية البسيطة) . ونجد مثل هذه التجمعات في أحياء الجيمي والمعترض والجاهلي والمقام . وقد استفادت بعض هذه المناطق من «السابلة» التي تقف عند هذه المحلات وتشتري منها لوازمها قبل مغادرتها لمدينة العين - خاصة المحلات التي تقع عند الأطراف الشمالية والأطراف الغربية للمدينة . ولقد أوصت «الخطة الشاملة» للمدينة بتزويد كل حي «بسوق محلي» وذلك من أجل تخفيف الضغط عن منطقة الأعمال المركزية .

(ج) الأسواق المتخصصة :

في نفس الوقت الذي أخذت فيه دوائر الحكومة «تهجر» النواة القديمة (المركزية) سُمح بإنشاء سوق «مؤقت» لبيع الخضار والفواكه بالتجزئة والجملة إلى الغرب قليلاً من «النواة» الجديدة للمدينة - أي في منطقة الخبيصي (أو الطوية) . وقد أخذ هذا السوق يخدم معظم سكان الأحياء الشمالية والغربية من المدينة . وإن الاستعدادات جارية حالياً لافتتاح سوق اخر (أو بديل) على نمط حديث - يبعد حوالي ٦٠٠ متر إلى الشمال من «سوق الجملة» - والذي سيدعى «سوق المنطقة» ، وسيحوي محلات لبيع الخضار والفواكه واللحوم ، وسيحوى أيضاً بعض البقاليات ، ومحلات لبيع المرطبات والمياه المعبأة والقرطاسية . هذا وكان قد أنشيء إلى الجنوب قليلاً من «سوق الجملة» مركز تجاري من النوع الضخم ذي الطراز الأوروبي / الأمريكي (Dept. Stores) ، يدعي «مركز بريزونيك الأهلية» . وهو محاط بساحات واسعة لاصطفاف سيارات المترددين ، وأخذ يجذب إليه شريحة معينة من المجتمع - يمكن اعتبارها من ذوي الدخل المتوسط والمرتفع .

وبالإضافة إلى هذه «الأسواق» فقد أخذت الجمعية التعاونية لمدينة العين تفتتح لها فروعاً جديدة في بعض أحياء المدينة - خاصة تلك التي تعرض الخضار المحلية ، وذلك لتخفيف الضغط عن مركزها الرئيسي في النواة القديمة للمدينة . كما يوجد للجمعية التعاونية سوق واسع يعرض سلعاً متنوعة ويقع هذا السوق تحت الجسر الذي يخترق وسط منطقة الأعمال المركزية ، وإن الجمعية على وشك افتتاح مركز آخر حديث على مقربة من الأول (ويتوقع أن يعرض سلعاً أخرى غير المعروضة في المركز الرئيسي) .

وان هذا التوسع التجاري في المدينة برز في السنوات العشر الأخيرة ، كما نلاحظ من مراجعة أعداد الرخص التي منحتها بلدية العين . ففي عام ١٩٧٥ كان في المدينة حوالي (٢,٢٠٥) محلاً تجارياً مرخصاً ، أما في عام ١٩٨٠ فقد تضاعف عدد الرخص التي منحتها بلدية العين حوالي ثلاثة أضعاف - إذ وصل العدد إلى (٣,٥٣٥) رخصة . وفي عام ١٩٨٥ عاد عدد الرخص فارتفع أكثر من (٣٨) في المائة - حيث وصل إلى (٤,٩٠١) رخصة[٢٤] . أي أن أعداد الرخص الممنوحة ما بين عامي ٧٥ - ١٩٨٥ قد تضاعف حوالي أربع مرات . ولا وشك أن هذا التوسع قد عكس التزايد الذي شاهدناه بالنسبة لازدياد أعداد سكان مدينة العين خلال هذه الفترة .

ومن تحليل أنواع تلك الرخص التجارية ، تبين أن حوالي (٤٣) في المائة من تلك الرخص كانت للحرف المهنية ، ثم جاء بعدها رخص المحلات التجارية (تجزئة) ، التي بلغت نسبتها حوالي (٢٨) في المائة ، ثم تلتها الرخص الممنوحة للمقاولين والمتعهدين ، والتي بلغت نسبتها حوالي (١٤) في المائة ، وجاء بعدها في المرتبة الرابعة تجارة الجملة ، التي بلغت نسبتها حوالي (١٢) في المائة . أي أن أعداد المحلات التجارية وحدها قد بلغ حوالي (١,٩٦٦) محلاً في عام ١٩٨٥ ، ويقع معظمها في منطقة الأعمال المركزية ، كما يتمركز حوالي (١٥) مصرفاً مختلفاً في هذه المنطقة والعديد من مكاتب المقاولين / الهندسة والشركات الأخرى . بينما نجد معظم محلات الحرف المهنية (عدا محلات تصليح الأدوات الكهربائية / الاليكترونية) تتوزع في المنطقة الصناعية جنوبي المدينة .

٢ - المناطق السكنية : (شكل رقم - ١٢)

تحتل المناطق السكنية حوالي ربع مساحة الأراضي المتطورة في مدينة العين ، ويشمل ذلك حوالي (١٥) ألف مبنى سكني وسكني - مع - عمل ، بني معظمها بعد عام ١٩٦٤[٢٥] . ويمكننا أن نميز في المدينة أربعة أنواع من المناطق السكنية وهي :

(أ) مناطق المساكن الشعبية ،

(ب) مناطق تحوي فيلات خاصة ،

(جـ)ب مناطق تحوي أماكن «استثمار خاص» ،

(د) عمارات سكنية - تجارية .

(أ) مناطق المساكن الشعبية :

يعرف «المسكن الشعبي» بأنه «المسكن الذي تم بناؤه على نفقة الحكومة وتم توزيعه على ذوي الدخل المحدود من المواطنين» . ولقد قامت بلدية العين بجهود جبارة لتحقيق المسكن المناسب لأعداد كبيرة من مواطني هذه المنطقة ، ابتدأت في مواقع «القرى» الأساسية في هذه المنطقة ، ثم امتدت الحركة إلى مناطق أخرى موزعة في أرجاء مختلفة من المدينة - حتى أن مشاهدة بيت قديم أصبح نادراً في هذه المدينة . ولذلك تعتبر المدينة حديثة بالكامل ، كما أن هندستها وتخطيطها قد جمعا بين العادات والتقاليد العربية / الإسلامية من جهة وبين التخطيط الحديث من جهة أخرى . فقد بني معظم مساكنها متصلاً بسور المسكن الآخر ، والبعض بني منفصلاً . لكن يحيط بكل مسكن سور مرتفع لكي يعطي المواطن الأمان والحرية الفردية ، كما جعل في كل مسكن مجلس خاص للرجال وآخر للنساء ، وتركت داخل الأسوار ساحة خاصة لحفظ بعض الحيوانات (ولكن تربيتها داخل المساكن أو خارجها قد منعت مؤخراً) - كما جعلت النوافذ التي تطل على الطرق مرتفعة ، ولكن معظمها صُمم ليطل على تلك الباحة - تمشياً مع التقاليد الإسلامية . وحيث تظهر المساكن متشابهة تقريباً من حيث هندسة البناء ، فقد قام كل مواطن بطلاء مدخل منزله بألوان مختلفة (لكي يتعرف الأولاد الصغار على مساكن ذويهم - أو لأنها عادة محلية) .

مدينة العين
توزيع المناطق السكنية

شكل رقم (١٢)

وقد بنيت معظم المساكن في السنوات العشر الأولى لهذه النهضة العمرانية من الطوب الأسمنتي والأسقف الأسمنتية المسلحة المستوية - ولكن بعد التزايد الكبير على طلب هذه المساكن أنشأت الدولة مصنعاً قريباً من المدينة لإنتاج «المساكن الجاهزة» (أو ما يعرف ببريفاب Prefab) ، والتي أقيم معظمها في الأحياء الحديثة من المدينة - مثل أحياء المقام والمرخانية وزاخر . وتتفاوت مساحة المسكن حسب حجم العائلة والمنطقة التي أقيمت فيها تلك المساكن ، وقد أخذت معظم تلك المساكن الأبعاد التالية :

٨٠ × ٨٠ قدماً

٨٠ × ٦٠ قدماً

٨٠ × ١٠٠ قدم (مضافاً إليها ٢٠ قدماً للكراج والحديقة)

٨٠ × ١٠٠ قدم سابق التجهيز (Prefab)

وقد كان تشييد هذه المساكن بطيئاً في الستينات وأوائل السبعينات ، ثم أخذت أعمال الإنشاء تتزايد بسرعة إلى أن وصلت أعداد المساكن الشعبية التي وزعت حوالي (٢,٠٧٣) مسكناً - وهو ما يعادل (١٦) في المائة من مجموع الوحدات السكنية الموجودة في مدينة العين - وذلك في عام ١٩٧٨ . ثم ارتفع عددها إلى حوالي (٤,٢٩٨) مسكناً في عام ١٩٨٠ - وهو ما يعادل (٢٤) في المائة من الوحدات السكنية . وفي عام ١٩٨٣ وصل عدد المساكن الشعبية الموزعة على المواطنين حوالي (٤,٩١٤) مسكناً (تعادل حوالي ٢٤,٥ في المائة من مجموع الوحدات السكنية في المدينة)[٢٦] . وبذلك تكون أعداد المساكن الشعبية الموزعة قد ازدادت حوالي (١٣٧) في المائة عن عام ١٩٧٨ . وفي عام ١٩٨٤ بلغ عدد المساكن الشعبية التي تم توزيعها على المواطنين حوالي (٤,٩٥٢) مسكناً - يضاف إلى ذلك حوالي (٩٠٠) مسكن كانت قد وزعت على الموظفين غير المواطنين (برسم التأجير)[٢٧] ، وقد كان توزيع تلك المساكن على مختلف أحياء المدينة متبايناً ويعكس مدى تركز المواطنين في تلك الأحياء ، وقد كان التوسع أيضاً في المناطق التي لا تحوي أراضي زراعية أكثر من الأخرى التي تحوي أراضي زراعية - أو التي تحوي مجالاً للتوسع الزراعي فيها في المستقبل ، كما يظهر من

جدول رقم - ٤ . فالأحياء الثمانية الأولى في الجدول تحوي أراضي زراعية مستغلة ، أما بقية الأحياء فإن الأراضي الزراعية قليلة أو معدومة فيها . (أنظر شكل رقم - ١٥) .

جدول رقم - ٤

توزيع المساكن الشعبية المنجزة والتي هي في دور الإنجاز على أحياء العين

(حتى عام ١٩٨٤)(*)

المنطقة	عدد المساكن	المنطقة	عدد المساكن
١ - القطارة	١٣٨	٩ - الهيلي	٤٥٠
٢ - المسعودي	١٩٠	١٠ - عود التوبة	٢٥٩
٣ - الجيمي	٤٤٩	١١ - الصاروج وشرقه	٣٨٦
٤ - المعترض	٢٦٢	١٢ - النيادات	٢٠٠
٥ - الجاهلي	١٩٦	١٣ - الكويتات	١٣٣
٦ - المويجعي	٣٧٥	١٤ - المقام	٨٤٤
٧ - العوهة	٦٠	١٥ - المرخانية	١٢٠٠
٨ - زاخر	٤٥٧	١٦ - البصرة	٢٥٩
		المجموع	٥٨٥٨

(*) المصدر : دائرة تخطيط مدينة العين - مارس ١٩٨٦ .

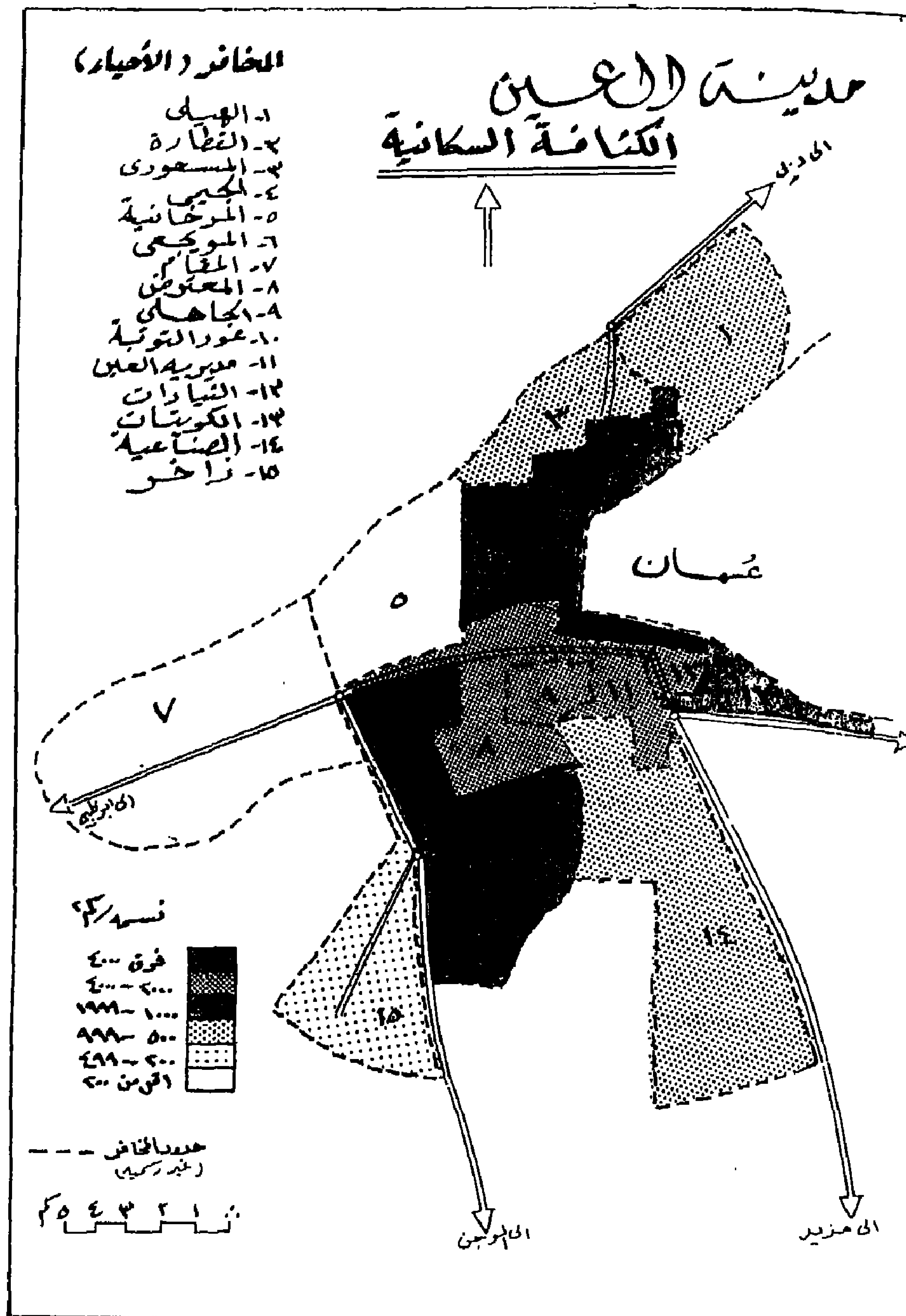
وحيث أن السلطات المحلية كانت تهتم في بداية الأمر بتوفير المسكن المناسب للمواطنين ، فإنها لم تخصص بعض المساكن لسكن صغار الموظفين الآسيويين العزّاب - الذين كانوا يطرقون مساكن بعض المواطنين لاستئجار غرف عندهم ، خاصة في الأحياء السكنية المحيطة بمنطقة الأعمال المركزية - وبعد أن أصبحت إقامة مثل هؤلاء المتسأجرين بين المواطنين تسبب مشاكل اجتماعية ، فقد عملت البلدية على توفير حي خاص بهم . وقد كان اختياره عند الأطراف الغربية للمدينة في حي المرخانية ، حيث أقامت لهم حوالي (١,٢٠٠) مسكن ، من

النـوع الجاهز التركيب (Prefab) والمصغر (أي الذي يحوي غرفة نوم وصالة) . ولكن قبـل الإنتهاء من المشروع (في عام ١٩٨٤) استطاع بعض المواطنين أن يحجـزوا لهم حوالي (٣٠٠) مسكن - بعـد إجـراء بعض التعديلات عليها . وبذلك فقد عادت نفس المشكلة إلى الظهور نوعاً ما ، وهي وجود أُسر مواطنة بين وافـدين آسيويين عزّاب . كما أنه سُمح مؤخراً بإنشاء بعض الفيلات على الجانب الآخر من ذلك الحي - بعد أن كان يُعتقد أن ذلك الحي سيبقى عند أطراف المدينة لمنع الاختلاط[٢٨] .

هذا وقد لوحظ مؤخراً ان هناك «هجرة) خارجية من منطقة عود التوبة من قبل الأسر المواطنة نظراً لأن أعداد الوافدين الآسيويين قد أخذت بالتزايد هناك ، فيخشى المواطنون تحول ذلك إلى مشاكل اجتماعية خطيرة . وقد أخذت دائرة تخطيط مدينـة العـين إعادة النظر في تخطيط هذا الحي لكي تعمل على تجميله وتحسين تخطيطه لتعيد المواطنين إليه[٢٩] ، فقد بلغت الكثافة السكانية في ذلك الحي معدلات عالية (فوق ٤,٠٠٠ نسمة / كم٢) ، كما يظهر من شكل رقم - ١٣ .

(٢) الفيلات الخاصة :

وهي المساكن التي يقوم المواطنون بتمويل بنائها بأنفسهم وحسب أذواقهم لكي يسكنوا فيها هم وأفراد عائلاتهم وذلك بعد تمكنهم من الحصول على إحدى القسائم الأرضية المسموح إقامة فيلات عليها . وعاد ما تكون هذه المساكن أكبر حجماً من المساكن الشعبية وأحسن تصميماً وتشييداً . وقد تكون ما تكون هذه المساكن أكبر حجماً من المساكن الشعبية وأحسن تصميماً وتشييداً . وقد تكون مبنية من الأسمنت أو الطابوق «الأبيض أو من الحجارة (الصخر) المستوردة . وان مساحاتها تختلف حسب حجم العائلة أو المنطقة التي ستقام عليها الفيلا . ففي المناطق الداخلية من المدينة ، عادة ما تكون المساحات صغيرة نسبياً . ولكن كلما ابتعدنا نحو أطراف المدينة تأخذ المساحات بالتزايد (البعض يزيد عن ١٠٠ × ١٠٠م) . وقد انتشرت هذه الظاهرة في بداية الأمر في مخفري الجيمي والجاهلي



مدينة العين
الكثافة السكانية
المخافر (الأحياء)
١- الهيلي
٢- القطارة
٣- المسعودي
٤- الجيمي
٥- المرخانية
٦- الموكجي
٧- المقام
٨- المعترض
٩- الجاهلي
١٠- عود التوبة
١١- مديرية العين
١٢- الشارات
١٣- الكويتات
١٤- الصناعية
١٥- زاخر
عُمان
نسمة/كم٢
فوق ٤٠٠٠
٢٠٠٠ – ٤٠٠٠
١٠٠٠ – ١٩٩٩
٥٠٠ – ٩٩٩
٢٠٠ – ٤٩٩
أقل من ٢٠٠
حدود المخافر (غير رسمية)
٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ كم

شكل رقم (١٣)

بشكل خاص وذلك في أوائل السبعينات ، ثم أخذت هذه الظاهرة تمتد إلى المناطق الأخرى . ففي أواخر السبعينات أقيم حوالي (٥٠) فيلا في سيج إبن عمّار لإقامة أساتذة جامعة الإمارات وبعض الأطباء . كما أقيم عدد آخر في كل من حيي المعترض والنيادات لإقامة الموظفين الكبار في المدينة ، ومنذ عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٨٠ كان هناك حوالي (٩٥٣) فيلا سكنية في مدينة العين (بالمقارنة بحوالي ٣,٢٣٦ مسكناً شعبياً) . ولكن بلغ عدد الرخص التي منحتها بلدية العين لإنشاء الفيلات ما بين عامي ١٩٨١ إلى ١٩٨٥ حوالي (١,٢١٣) ترخيصاً ، أي بزيادة تقدر بحوالي (١٢٧) في المائة عن إعداد فيلات عام ١٩٨٠[٣٠] . وتعود أسباب هذا الازدياد إلى أن كثيراً من المواطنين قد استلموا تعويضات عن مساكنهم (أو عقاراتهم) السابقة وأصبحوا الآن في وضع مادي أفضل فأخذوا يقيمون فيلات بدلاً من المطالبة بمساكن شعبية . وقد انتشرت معظم تلك الفيلات عند الأطراف الغربية للمدينة (أحياء المرخانية والخبيصي - أو حي الطوية حالياً - وفي المقام) . وقد يكون من أهم المشاريع التي أقيمت بعد عام ١٩٨١ هو إنشاء حوالي ١٠٠ فيلا في منطقة المرخانية وذلك لإقامة أساتذة الجامعة ، بعد أن تزايد عددهم على اثر التوسعات الكبيرة التي حصلت في الجامعة منذ ذلك العام - كما ذكرنا من قبل .

كما أنشيء مؤخراً حوالي (٢٠٠) فيلا حديثة بالقرب من مستشفى توام (منطقة المقام) ، وكان من المقرر أن يقيم فيها أساتذة كلية الطب وطلابها ، ولكن بعد حصول ضائقة في سكن طلبة الجامعة ، تقرر تحويل معظم تلك الفيلات لإقامة الطلبة ، كما ترك جزء بسيط منها لإقامة بعض الأساتذة وموظفي الدولة . ولا شك أن هذا المشروع قد ساعد على توجيه نمو المدينة نحو الغرب أكثر من ذي قبل وبذلك يكون قد ربط «ضاحية شعبيات المقام» بمدينة العين وسد ذلك الفراغ الذي كان موجوداً من قبل . وهكذا يمكننا أن نعتبر أن معظم الفيلات التي تقع على جانبي شارع المرخانية - المقام هي من الدرجة الأولى . وقد أخذت تظهر مجموعات أخرى من الفيلات الحديثة (درجة أولى) على الجانب الغربي من

شارع الخبيصي ، وبالقرب من مركز اللغات - في حي الجاهلي . ويظهران المواطنين قد أخذوا يبتعدون عن المناطق الكثيفة بالسكان كي يستطيعوا الإقامة بالقرب من أماكن حفظ ماشيتهم (خاصة هجن السباق ، إذ صدر قرار من البلدية مؤخراً بمنع تربية الماشية بين الأحياء السكنية لمدينة العين) أو ليتمكنوا من الحصول على قسائم - أرض واسعة لإقامة فيلاتهم الضخمة .

(٣) مساكن «الاستثمار الخاص» :

لقد سُمح في أوائل الثمانينات من هذا القرن لبعض المواطنين باستلاف قروض من المصرف العقاري أو بقية المصارف الخاصة في الدولة أو - وهو الأعم - من «إدارة المباني التجارية» (لجنة الشيخ خليفة) من أجل إنشاء مساكن للإيجار - على أن يسدد القرض من الإيجار السنوي لهذه المساكن (أو العمارات) . وبالطبع تعود ملكية هذه العقارات إلى المالك بعد تسديد هذه القروض . ورغم أن بعض الفيلات الخاصة التي كانت قد أنشئت لسكن المواطنين قد تحولت إلى «فيلات للإيجار» ، إلا أن غالبية المساكن التي بنيت للإيجار هي من النوع «الفيلات المزدوجة» (Duplexes) ، والتي حددت لها مناطق معينة في المدينة . فأكبر مشروع من هذاالنوع يوجد في حي المناصير - حيث نجد أكثر من مائة فيلا من هذا النوع ، كما نجد عدداً آخر يقع في الجزء الغربي من حي الجيمي ، والبعض الآخر يقع في حي الجاهلي . وقد جرى تأجير معظم هذه الفيلات إلى موظفي الدولة أو إمارة أبو ظبي (بدلاً من استلام بدل سكن) .

ونجد أن الصفة الغالبة على هذا النوع من المباني هي أن قسائم الأرض تبقى صغيرة بالمقارنة بمساحات الفيلات الخاصة بالمواطنين (أو الفيلات المفصولة) ، إلا أن غاليتها قد صممت وشيدت على أحسن النظم المتبعة في المنطقة ، وبذلك يمكن اعتبارها بانها من الدرجة الأولى أيضاً من حيث هندسة البناء والمواد المستعملة ، إلا أنه يمكن اعتبارها من الدرجة الثانية بالنسبة للموقع وللراحة العامة أو الحجم - عدا تلك التي تقع في غرب حي الجيمي ، إذ أن غالبيتها تحوي أكثر من ثلاث غرف وصالة .

لقد بلغ عدد الرخص التي صدرت عن بلدية العين للمباني التجارية ما بين عامي ٧٧ - ١٩٨٠ حوالي (١٣٢) مبنى[٣١] ، ولكن تضاعف عددها ما بين ١٩٨٠ - ١٩٨٥ (حيث وصل عدد الرخص إلى ٢٦٦ رخصة)[٣٢] .

(٤) عمارات تجارية - سكنية :

لقد بنيت عدة بنايات متعددة الطوابق في منطقة الأعمال المركزية - كما ذكرنا من قبل - حيث خصصت الطوابق الأرضية منها للأعمال التجارية ، بينما استغلت الطوابق العلوية مكاتب للشركات أو عيادات طبية ، أو اجّرت شقق سكنية . وكانت غالبية العمارات التي أنشئت في باديء الأمر مؤلفة من طابقين ونصف (بما في ذلك المازانين) إلى ثلاثة طوابق . ثم سمح فيما بعد ببناء عمارات مؤلفة من أربعة وخمسة طوابق . وقد بنيت المجموعة الأولى على جانبي شارع الشيخ زايد - ما بين دوّاري الساعة والمربع - أما البنايات الحديثة فقد أنشئت على جانبي شارع الشيخ خليفة وشارع التخطيط ، ثم امتدت هذه الظاهرة على جانبي الجزء الجنوبي من شارع الشيخ زايد - باتجاه فندق هيلتون . ويوجد في مدينة العين حوالي (٣١٠) عمارة ، منها حوالي (١٧٤) عمارة مؤلفة من ثلاثة طوابق ، وحوالي (١٢٤) تحوي أربعة طوابق ، وحوالي (١٠) تحوي خمسة طوابق ، كما بلغت أعدا د الشقق حوالي (٣,١٣٧) شقة[٣٣] .

فمنذ نشأة المدينة روعي المظهر العام للمدينة (General Landscaper) بحيث تكون الأبنية العالية مركّزة في وسط المدينة ، ثم يأخذ ارتفاع الأبنية بالإنحدار تدريجياً نحو أطراف المدينة - رغم أنه سمح مؤخراً ببناء فيلات من طابقين عند أطراف المدينة - عدا مساكن طالبات الجامعة التي بنيت من أربعة طوابق في الغالب . وكذلك الحال بالنسبة لكل من فندق «هيلتون» وفندق «انتركونتينتال العين» ، فقد بنيت بأكثرة من خمسة طوابق - لكن هذين الفندقين يقعان عند أطراف المدينة أيضاً ، ولا يؤثران على المظهر العام للمدينة .

٣ - المناطق الصناعية : (راجع شكل رقم - ١٠)

منذ أن وضع «التصور الأول» لمدينة العين ، روعيت قضيتا المظهر العام للمدينة ونظافتها . ولذلك فقد خصصت المنطقة التي تقع عند أقدام جبل حفيت «كمنطقة صناعية» . فهي تحوي جميع الورش وأعمال الميكانيكا والحدادة والسباكة والنجارة وما أشبه ذلك من الأعمال الحرفية التي قد تسبب «تلوثاً» للبيئة الحضرية في هذه المدينة . وقد أنشيء فيها فيما بعد معامل الطابوق والبلاط وما يسمى «بمعامل الألومونيوم» (التي تختص بعمل الأبواب والنوافذ المصنوعة من الألمونيوم المستورد) . كما أقيم إلى الجنوب من هذه المنطقة (ذات الصناعات الخفيفة أو الورش) مصنع للأسمنت وآخر للسماد . وحيث أن الرياح السائدة في هذه المنطقة هي الرياح الشمالية الغربية ، فإن هذا الاختيار لموقع المصنعين كان جيداً إذ أن هذه الرياح تحمل عناصر التلوث بعيداً عن المدينة .

وللأسف فإن معظم هذه المنطقة لم تصلها يد التخطيط بعد بشكل ينظم حركة المرور فيها أو قضية استخدام الأراضي داخلها . فمعظم المباني الموجودة فيها قد بنيت على أسس مؤقتة ودون مراعاة للتخصصات أو للصحة العامة – من حيث التمديدات الكهربائية والصحية – فتبدو وكأنها قد نمت بشكل عشوائي ، وتزايد عدد محلاتها مع تزايد نمو المدينة وازدهار حركة البناء والتشييد فيها . فهي تحوي الآن العديد من مكاتب شركات المقاولين وكراجات للشركات ولحافلات البلدية والجامعة والمياه الجوفية وغيرها من الدوائر الحكومية .

ففي عام ١٩٧٦ صدر عن بلدية العين (٢٩) ترخيصاً صناعياً ، ولكن سرعان ما أخذت أعداد الرخص تتزايد ، حيث وصل عددها عام ١٩٧٨ حوالي (٣٣٩) ترخيصاً ، وفي عام ١٩٨٣ تضاعف العدد حوالي ست مرات ، إذ وصل إلى حوالي (١,٩٣٥) ترخيصاً[٣٤] . ثم عاد العدد فازداد في عام ١٩٨٥ إلى أن وصل حوالي (٢,١٢٧) ترخيصاً – أي بزيادة تبلغ حوالي (٥٢٧) في المائة عن أعداد عام ١٩٧٨[٣٥] .

هذا ويمكننا أن نضيف إلى هذه المنطقة ، إنشاء ثلاثة مصانع أخرى حول المدينة : الأول معمل لإنتاج الألبان - ويبعد حوالي ١٥كم شمالي المدينة (على طريق العين - دبي) ويأتيه الحليب الخام من مزرعة أبقار مجاورة (تحوي حوالي ٢٠٠ بقرة حلوب) . ويسوّق معظم إنتاجه في أسواق مدينتي العين وأبوظبي . والمصنع الثاني هو معمل لإنتاج معجون الطماطم وتعليب الخضار . ويقع هذا المصنع على بعد ٢٠كم غرب مدينة العين (على طريق العين - أبوظبي) . وتأتي إليه الطماطم وبعض الخضراوات من المزارع العديدة الموجودة في إقليم مدينة العين . فهو يعمل بطاقة كاملة خلال فصل الشتاء - عندما تكثر الخضراوات في هذه المنطقة ، ويستغل خلال فصل الصيف لإنتاج المرطبات . وتسّوق منتوجاته في معظم أسواق الدولة نظراً لجودتها ورخصها النسبي .

أما المصنع الثالث فهو لإنتاج الطابوق الجيري وأنابيب المجاري الفخارية . وقد أنشيء هذا المعمل حوالي ١٥كم غربي مدينة العين أيضاً . وقد توطن هذا المعمل في هذا الموقع بسبب وجود تربة رملية ناعمة تصلح لعمل الطابوق والأنابيب ولوجود طلب كبير على مواد البناء هذه في منطقة العين وأبوظبي . (ويقع بالقرب من هذا المعمل مزرعة دواجن العين ، التي تنتج حوالي ٦١ مليون بيضة و٢,٢٠٠ مليون دجاجة سنوياً (يباع اللحم طازجاً في مدينتي العين وأبو ظبي ويذبح الدجاج على الطريقة الإسلامية في المسلخ الأوتوماتيكي الحديث الموجود في نفس المزرعة)[٣٦] .

٤ - دوائر الحكومة :

كما ذكرنا من قبل ، لقد أقيمت معظم الدوائر الأولى للحكومة في منطقة الأعمال المركزية - وبشكل خاص على جانبي شارع الشيخ زايد ما بين دوّاري الساعة والمربع . وفي أوائل السبعينات أنشئت مبان أخرى لمديرية الشرطة والكهرباء والماء في منطقة السلمي . كما احتلت دائرة تخطيط مدينة العين في عام ١٩٧٤ بناية تقع في الجزء الغربي من منطقة الأعمال المركزية . ولكن بعد نمو المدينة أخذت بلدية العين قراراً بإنشاء «نواة» جديدة تقع ما بين مخفري الجيمي

والمعترض لتحوي جميع دوائر الحكومة ولتكون قريبة من بعضها البعض وتسهل عمليات مراجعات المواطنين . فأقيم أولاً بناء ضخم لبلدية العين ودائرة تخطيط المدن (الذي افتتح رسمياً في عام ١٩٨٤) ، ثم أعقب ذلك إنشاء مبان أخرى لبقية دوائر الحكومة . وإننا نرى الآن أن معظم تلك الدوائر قد انتقل إلى هذا الموقع الجديد ، وبذلك بدأت تظهر هذه النواة مكان جذب جديد للعديد من الأنشطة المتعلقة بدوائر الحكومة . (راجع شكل رقم - ١٠) .

هذا وقد كان قصر حاكم المنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي (سمو الشيخ طحنون) قد نقل إلى مكان آخر خارج منطقة الأعمال المركزية وأصبح موقعه بالقرب من قصر المقام (قصر صاحب السمو الشيخ زايد آل نهيان) . كما نقلت دائرة المرور والتراخيص للسيارات والسائقين إلى مبنى جديد يقع إلى الجنوب من حي المعترض - بعيداً عن المنطقة المركزية . ولم يبق في مركز المدينة سوى دائرة الجوازات والمهاجرة ، وهي تنتظر الإنتهاء من تشييد مبناها في «النواة الجديدة» بالقرب من بقية الدوائر .

٥ - مباني جامعة الامارات العربية : (شكل رقم - ١٤) :

يمكننا أن نقسم هذه المباني إلى ثلاث مجموعات رئيسية ، وهي :

(أ) مباني الإدارة والخدمات - (ب) مباني الكليات (ح) مباني مساكن الطلبة .

(أ) مباني الإدارة والخدمات :

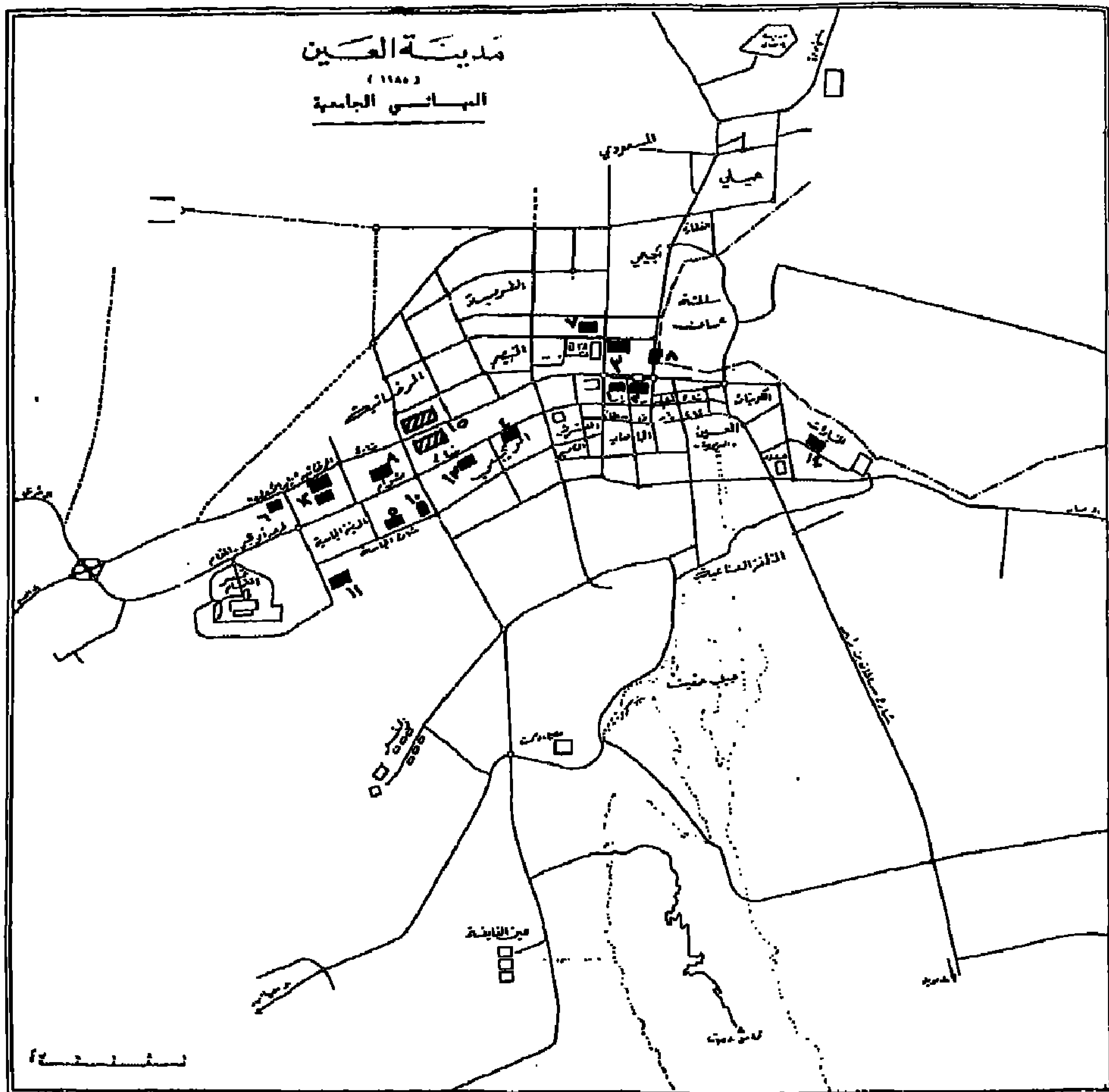
لقد ابتدأت نواة الجامعة في مبنى كبير كان قد أنشيء ليكون «معهداً إسلامياً» ، ولهذا فقد بنيت إدارة الجامعة على مقربة من هذا المبنى ، إلا أن بعض الدوائر قد بقيت تمارس أعمالها في أحد أجنحة ذلك المبنى (مثل المالية والمشتريات وخدمات الطلاب) . وقد كان مبنى المعهد يحوي حتى وقت قريب مركز الحاسب الآلي ومكتبة للطلاب ، إلا أنهما نقلا إلى مبنى جديد يقع إلى

الشرق قليلاً من مبنى المعهد (والذي يعرف الآن بمبنى المكتبة المركزية للجامعة وصالات الاحتفالات والعروض ، في حي السليمي) . وقد كانت مكاتب العلاقات العامة والخدمات تحتل مبنى في منطقة الأعمال المركزية ، ولكن بعد توسع الجامعة نقلت تلك الدوائر إلى مبنى آخر قريب من مبنى الإدارة العامة . وهكذا فقد أصبحت معظم مباني إدارة الجامعة قريبة من بعضها البعض نسبياً .

(ب) مباني كليات الجامعة :

نظراً لعدم التخطيط مسبقاً لإنشاء «مدينة جامعية» في مدينة العين ، فأننا نجد أن مباني كليات الجامعة تنتشر بعدة مواقع من المدينة . فقد خصص جزء من مبنى المعهد الإسلامي ليشمل كلية الشريعة والقانون ، وخصص جزء آخر لمختبرات كلية العلوم - بنين . كما استغلت بعض المدرجات في هذا المبنى لتدريس مساقات متطلبات الجامعة والكليات - بنين ، بسبب الأعداد الكبيرة التي تأخذ هذه المساقات . أما باقي الكليات فقد وزعت على مبنيين كانا مصممين ليكونا مدارس ثانوية . فاحتلت كليات الآداب والعلوم والعلوم الإدارية والسياسية والتربية - للبنين مبنى في حي الجيمي ، وتركزت كليات الطالبات في مبنى آخر في المويجعي . ولكن بعد تزايد أعداد الطالبات اضطرت الجامعة لتشييد مجمع من المباني في حي المقام يحوي كل كليات الطالبات - وتم الانتقال إليه في عام ١٩٨٢/٨١ . فانتقلت بعدئذ كليات الآداب والعلوم والتربية - بنين - إلى المبنى القديم لكليات الطالبات ، كما أضيف إلى مبنى كليات الجيمي كليات الهندسة والزراعة والانتساب الموجه - بالإضافة إلى إدارة التسجيل والقبول - بنين . وقد ألحق بهذا المبنى مؤخراً مركز لأبحاث البيئة ومختبرات كلية الهندسة .

وتقوم الجامعة حالياً في تحضير الدراسات والتصاميم الضرورية لإنشاء «مدينة جامعية» متكاملة - على مساحة تقدر بحوالي (١,٢٥٠) هكتاراً ، وذلك إلى الغرب قليلاً من كليات الطالبات . ويتوقع أن يتم تشييدها قبل حلول عام ٢٠٠٠م وستتسع إلى حوالي (٣٠) ألف طالب وطالبة .



١- الامانة العامة للجامعة ٢- مبنى المعهد الاسلامي سابقا (كلية الشريعة والقانون) ٣- كليات البنين (الجيمي)
٤- كليات البنين (المويجعي) ٥- كليات الطالبات ٦- مستشفى توام (تابع كلية الطب) ٧- مكتبة الدراسات العليا
٨- المكتبة المركزية وادارة الحاسب الالي. ٩- سكن الطالبات القديم (توام) ١٠- سكن الطالبات الجديد (المقام- ١)
١١- سكن الطالبات الجديد (المقام- ٢) ١٢- سكن الطلاب (فلل المرخانية) ١٣- سكن الطلاب (المويجعي)
١٤- سكن الطلاب (النيادات). ١٥- فيلات أساتذة الجامعة- المرخانية.

شكل رقم (١٤)

(ج) مساكن طلبة الجامعة :

(١) مساكن الطالبات :

عقب افتتاح الجامعة ، أقيمت عدة أبنية متعددة الطوابق – في منطقة توام – لسكن الطالبات . وبعد تزايد أعداد الطالبات في السنتين التاليتين وضع عدد كبير منهن في مجمع من الأبنية إلى الغرب قليلاً من كليتهن السابقة في المويجعي . ولكن أعدادهن قفزت من حوالي (٤٢٧) طالبة في عام ١٩٧٩/٧٨ إلى حوالي (١,١٢٦) طالبة في عام ١٩٨١/٨٠[٣٧] ، مما دفع الجامعة إلى إنشاء مجمع آخر لإقامة الطالبات يقع بالقرب من مركز كلياتهن الجديد في المقام . فأصبح هناك مجمعان لسكن الطالبات يقعان على مقربة من مجمع كلياتهن – حيث ينقلن بحافلات خاصة بين مساكنهن وكلياتهن – إلا أن أعداد الطالبات عادت فتضاعفت ثانية في العام الدراسي ٨٥/٨٤ ، إذ وصل عددهن إلى حوالي (٢,٧٧٩)[٣٨] . ولذلك فقد اضطرت إدارة إسكان الطالبات إلى «الزحف» غرباً واحتلال مجمع كان قد أقيم لإسكان الطلاب .

(٢) مساكن البنين :

لم يكن الطلاب محظوظين كالطالبات في توفر السكن الجامعي في مكان واحد . فما زالت أماكن سكنهم موزعة على عدة مواقع . فهناك عدد منهم يقيم في الطوابق العلوية لمبنى المعهد الإسلامي ، ومجموعة أخرى تقيم في المجمع الذي كانت تقيم فيه الطالبات في المويجعي . ولكن بعد ازدياد أعدادهم من حوالي (١,٨١٢) طالباً في عام ٨٢/٨١ إلى حوالي (٢,٢٧٦) طالباً في عام ١٩٨٤/٨٣ ، فقد أقيم لهم مجمع سكني كبير يقع على بعد ٢كم إلى الغرب من مجمع كليات الطالبات – وقريباً من موقع «المدينة الجامعية المستقبلية» . لكن أعداد الطالبات تزايدت بشكل أسرع في العامين الماضيين مما دفع إدارة الجامعة إلى تخصيص هذا المجمع للطالبات ونقل الطلاب إلى مجموعات من الفيلات الحديثة التي كانت قد بنيت بالقرب من مستشفى «توام» لاسكان طلاب كلية الطب وأساتذتها . وقد أضيفت لهم بين هذه الفيلات مراكز خدمات ، وأصبحت المنطقة كأنها «حي للطلاب» .

هذا ويمكننا أن نضيف إلى مباني الجامعة أماكن سكن أساتذة الجامعة . ففي بداية افتتاح الجامعة أقيمت حوالي (٥٠) فيلا حديثة من طابقين في منطقة سيح ابن عمّار لإقامةمعظم أساتذة الجامعة المتزوجين ، وسمح للعزّاب الإقامة في شقق داخل المدينة . ومع توسع كليات الجامعة وارتفاع أعداد الأساتذة فقد أقيم لهم حوالي (١٠٠) فيلا جديدة على جانبي طريق المقام - المرخانية ، وأصبحت «الحي الجديد» لأساتذة الجامعة . وما زال أكبر عدد منهم يقيم في هذه المنطقة ، إلا أن معظم فيلات سيح ابن عمار قد أصبحت قديمة ، ولذلك فقد نقل كثير من الأساتذة الذين كانوا يقيمون هناك إلى فيلات توام - بجانب مساكن الطلاب . ومع تزايد أعداد الطلاب ثانية - حيث وصل عددهم في عام ١٩٨٦/٨٥ إلى حوالي (٢,٨٥١) طالباً - طُلب من الأساتذة الانتقال إلى مناطق أخرى - في حي المناصير أو الخبيصي أو الجاهلي (وقد بلغ عدد أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة حوالي ٤٦٩ عضواً وذلك في العام الدراسي ١٩٨٥/٨٤)[٣٩] .

٦ - الخدمات والمرافق العامة :

يضم هذا الاستخدام جميع الأراضي المخصصة للخدمات العامة للسكان أو لزوار المدينة ، وتشمل عادة أنشطة ثقافية وتعليمية (غير جامعية) ومراكز صحية وترفيهية .

(أ) الخدمات الثقافية والتعليمية :

لقد كان من أهم نتائج التطور العمراني الذي شاهدته مدينة العين هو الإنتشار الواسع للخدمات التعليمية (غير الجامعية) في معظم أنحاء المدينة . فقبل عهد النفط كان في هذه المناطق مدرستان فقط . ولكن مع دخول المنطقة عهد النفط أخذت أعداد المدارس والمعاهد الحكومية تتزايد سنوياً بشكل كبير . ففي عام ١٩٧٤/٧٣ بلغ عدد المدارس في المدينة حوالي (١٧) مدرسة ، ولكن مع حلول عام ١٩٨٦/٨٥ تضاعف عددها حوالي أربع مرات ليصل إلى حوالي

(٦٤) مدرسـة ، تشتمل على ثلاث مدارس ثانوية و١٢ مدرسة إعدادية و٣١ مدرسة ابتدائية وحوالي (١٠) رياض أطفال ، ومعهد ديني واحد ، بالإضافة إلى سبع مدارس خاصة[٤٠] .

وبالنسبة للتوزيع الجغرافي لهذه المدارس فإننا نجد أن معظم الأحياء تحوي مدرستـين على الأقـل لكل من الجنسين ، عدا بعض الأحياء الحديثة (كالمقام والمرخانية) فما زالت أعداد المدارس قليلة فيها ، مع ذلك يجري نقل طلاب تلك الأحياء بالحافلات إلى مراكز المدارس الأخرى القريبة من المحرومة مؤقتاً . إلا أن المدارس الثانوية ما زالت قليلة العدد في المدينة حيث تحوي المدينة ثلاث ، اثنتان للبنات وواحدة للنين - تحتل مركزاً متوسطاً في المدينة . لكن يلاحظ وجود عدد كبير من المدارس (شكل رقم - ١٠) غربي حي المناصير ، وهذا يرجع إلى وجود عدد من المدارس الخاصة والتي منحت لهم هذه المواقع من قبل بلدية المدينة (مسـاعـدة في إنشاء تلك المدارس) - كما أقيمت بجانب هذه المدارس «كلية علمية» متخصصة بالعلوم - لكن مستوها يصل إلى سنتين بعد الثانوي ، ومعظم طلابها من المواطنين الذين يستطيعون دفع رسوم تدريس مرتفعة .

(ب) الخدمات الصحية :

لقد أولت الحكومة عناية كبيرة للأمور الصحية في مدينة العين . فمنذ نشأة المدينة أسس فيها مستشفى حكومي (مستشفى الجيمي أو العين) ، وقد كانت معظم أبنيته مؤقتة ، ولكن أقيمت مؤخراً عدة أبنية حديثة في نفس الموقع تحوي حالياً معـظم أنـواع العيادات وأجنحـة للمـرضى والـولادات . كما زوّد هذا المستشفى بأحدث الأجهزة الطبية وأحضر لها العديد من الأطباء المتخصصين والفنيين . وان موقعه المتوسط بين حيّي الجيمي والمعترض يجعل تردد المواطنين عليه كثـيراً ، مما دفـع وزارة الصحة إلى افتتاح عدة مستوصفات ومراكز أمومة وطفولة في الأحياء السكنية (راجع شكل رقـم - ١٠) .

وبالإضافة إلى هذا المستشفى الحكومي ، فقد أقيم مركز صحي ضخم في حي المقام يعرف «بمستشفى توام» - يدار من قبل شركة أجنبية(*) ومعظم الأطباء العاملين فيه هم أجانب غربيون ، وتحال إليه الحالات الطبية المستعضية والتي لا يمكن معالجتها في مستشفى الجيمي - أو غيره من مستشفيات الدولة خارج العين - إذ أنه مزّود بأحدث الأجهزة الطبية والتشخيصية ، كما تجرى فيه العمليات الجراحية الدقيقة والخطرة (ويحوي جناحاً أميرياً أيضاً) . ويلاحظ عادة ازدحام هذا المستشفى بالمترددين عليه من معظم أنحاء الدولة ، مما يضيف وظيفة جديدة لمدينة العين وهي تقديم خدمات صحية ممتازة (بالإضافة إلى وظيفتها الجامعية) . وان موقع هذا المستشفى في غربي المدينة يكسبه الهدوء الذي يحتاجه المرضى وإمكانية وصول المترددين عليه من مدينة أبوظبي أو من منطقة العين الغربية ، كما يسّهل على المستشفى إمكانية التوسع في المستقبل . ونجد أن معظم الأطباء والممرضات والاخصائيين / الفنيين وبعض الإداريين يقيمون في أبنية خاصة حول المستشفى - إلا أن معظم الممرضات الأجنبيات تقيم داخل أسوار المستشفى .

هذا ويوجد مستشفى آخر في مدينة العين ، ولكنه خاص ويدار من قبل كنيسة تبشيرية - يدعى مستشفى الواحدة ، ويقع جنوبي حي الجاهلي . وهذا المستشفى صغير الحجم ومعظم أبنيته من نوع «بريفاب Prefab » أي المؤقت ، كما أنه يعالج الحالات المرضية البسيطة ، وعمليات الولادة ومعالجة أمراض الأطفال . وقد كان موقعه عند أطراف المدينة ، إلا أن التوسع العمراني قد أحاط به ومنعه من التوسع - خاصة بالنسبة للتخصصات الصناعية التي تقع إلى الجنوب منه وتعتبر مصدراً «للإزعاج» ، كما أن موقعه قريب جداً من الطريق العام (ما بين العين والمنطقة الصناعية) لا يكسبه الهدوء المطلوب ، حتى أن دخول سيارات الزائرين أو خروجها من أماكن اصطفاف السيارات تعتبر خطرة وصعبة .

(*) لقد ألحق الإشراف على إدارة هذا المستشفى مؤخراً بوزارة الصحة .

(ح) الخدمات الترفيهية : (شكل رقم - ١٥)

يوجد في مدينة العين عدة أماكن ترفيهية وسياحية زادت من أهمية منطقة العين «كواحة للاستجمام والاصطياف» . ومن أهم هذه الخدمات ما يلي :

(١) المتنزهات والحدائق :

تحوي مدينة العين حوالي ٨ منتزهات/حدائق عامة (البعض منها للعائلات والأطفال والبعض الآخر مختلط) تكسب المدينة جمالاً خلاباً لكثرة الاعتناء بها ولتنوع زهورها وأشجارها ، وقلما نجد من مثيلاتها في أية مدينة عربية - صحراوية بهذا الحجم . وان توزيعها الجغرافي حسن ، ويستطيع معظم سكان المدينة والوصول إلى أي منها بسهولة وخلال وقت قصير . ومن أجملها الحديقة التي تقع جنوب منطقة الأعمال المركزية . فهي قريبة من وسط المدينة وبقية الأحياء السكنية الكثيفة بالسكان ، وتحتل مساحة واسعة وباستطاعتها استيعاب أعداد كبيرة من السكان . وفي أقصى شمال المدينة توجد حديقة واسعة أخرى (حديقة الهيلي) تخدم معظم الأحياء الشمالية ، ولحسن تنسيقها وكثرة الخدمات التي تقدمها تجعل العديد من سكان الأحياء الأخرى يقصدونها خلال العطل .

ومن المنتزهات الحديثة التي ساعدت على توسيع عمليات الترفيه والسياحة في مدينة العين ، توسيع وتحديث منتزه «العين الفايضة» - الذي يبعد حوالي عشرة كيلومترات جنوبي المدينة . فقد أقيم في هذا المنتزه مطاعم واستراحة حديثة للمصطافين وبركة للسباحة مغطاة (أو مسقوفة) يمكن استعمالها طيلة أيام السنة ، بالإضافة إلى شق قنوات مائية حول المنتزه الواسع المتنوع الخدمات . (شكل رقم - ١٥) كما يحوي هذا المنتزع بحيرة تتغذى من ينبوع من المياه المعدنية (يفيض من قاعها) . وتنار هذه البحيرة مساءاً بالأنوار الزاهية المختلفة الألوان تكسب الجو جمالاً وهدوءاً ، فيقصدها الكثيرون في الليالي المعتدلة الحرارة للاستمتاع بهذه المناظر الجميلة .

(٢) «مدينة الملاهي والألعاب» :

رغبة في زيادة مجالات الاستجمام والراحة في مدينة العين ، فقد أقيمت حديقة ترفيهية للأطفال - على نمط مدينة «دزني لاند» في أمريكا ، تحوي العديد من ألعاب التسلية والترفيه ، كما ألحقت بها مؤخراً صالة خاصة للتزلج . وقد أقيمت هذه «المدينة» على مساحة تقارب من (٨٥) هكتاراً واستمر العمل بها ٣ سنوات وافتتحت في عام ١٩٨٥ (بتكلفة أولية تقدر بحوالي ١٢٠ مليون درهم)[٤١] . ويقصد هذه «المدينة» أعداد كبيرة من الزوار الذين يأتون إليها خلال عطلة نهاية الأسبوع أو العطل العادية (قادمين من معظم أنحاء الدولة) . وان موقعها في الطرف الشمالي للمدينة قد ساعد عمليات وصول أبناء الإمارات الشمالية إليها ، (زودت بمساحات واسعة لاصطفاف السيارات قريبة من مداخلها ومخارجها الخاصة) كما تحوي في داخلها مطاعم لتناول وجبات خفيفة تسد احتياجات الزوّار بدلاً من التوجه إلى المطاعم الموجودة في وسط المدينة . وهناك خطط عديدة لتطوير خدمات الحديقة . ونظراً لحداثتها فإنها لم تجذب إليها بعد بعض الخدمات الأخرى المتعلقة بالسياحة ، مثل الفنادق والمطاعم والمحلات التجارية التي عادة ما تتجمع حول مثل هذه الأنشطة السياحية .

(٣) حديقة الحيوانات :

تقع هذه الحديقة إلى الجنوب من المدينة - قريباً من سفوح جبل حفيت . فهو موقع متطرف عن المناطق السكنية أو الصناعية ، ويمكن التوسع فيه بشكل سهل - إذا دعا الأمر إلى ذلك . كما أنها أقيمت قديماً على منطقة صعبة التضاريس ولا تصلح للاستخدامات السكنية . وقد زوّدت الحديقة بالعديد من الحيوانات الصغيرة والكبيرة والأسماك والطيور المختلفة الأنواع والزواحف . ويقصد الأطفال مع ذويهم كثيراً خلال عطلة نهاية الأسبوع أو العطل الرسمية ويمكنهم أن يقضوا بها وقتاً ممتعاً لاتساع الحديقة وكثرة الحيوانات الموجودة فيها ولوجود منتزه جميل خارجها يمكن الاستراحة فيه خلال أوقات الزيارات . وان وقوعها بالقرب من طريق «العين الفايضة» والطريق السياحي إلى قمة جبل

حفيت قد ساعد على تطوير خدماتها وتوسيع مجال الوصول إليها أو زيارتها من قبل سكان المدن الأخرى الذين يأتون إلى هذه المدينة للاستجمام والراحة .

هذا ويمكننا أن نضيف للاستخدامات الترفيهية في المدينة ملاعب نادي العين الرياضي جنوب المدينة وصالته الحديثة في منطقة القطارة . وكذلك نادي الفروسية وميدان سباق الهجن في منطقة المقام ، التي تستقطب أعداداً كبيرة من الزائرين والمساهمين في هذه الأنشطة الرياضية .

(٧) الاستخدامات الزراعية : (شكل رقم - ١٥) :

تحتل الأراضي المستغلة للأغراض الزراعية والغابية حوالي خمسة آلاف هكتار أو ما يعادل ٣٧,٥ في المائة من مجموع الأراضي المتطورة في المدينة . وهذه نسبة عالية إذا ما قيست باستخدمات الأراضي في بقية مدن الدولة . لذلك فإن النشاط الزراعي يعطي المدينة وظيفة مهمة يعمل فيها أعداد كبيرة من المواطنين . فهناك المزارع «التقليدية» التي كانت تشتهر بها قرى هذه المنطقة ، بالإضافة إلى المزارع الحديثة التي وزعت على مزارعين جدد في المدينة . ومن الخريطة نلاحظ أن أوسع تركز لهذه الأراضي الزراعية يقع في الأجزاء الشمالية من المدينة - خاصة في أحياء الجيمي ، القطارة ، المسعودي والهيلي . كما نجد مناطق زراعية أخرى في جنوبي المدينة (في المديرية والمويجعي) . وهناك مزارع حديثة افتتحت في غربي المدينة وفي منطقة زاخر . (راجع أيضاً شكل رقم - ٩) .

هذا ومما يجدر ذكره هنا أنه رغم هذا التوسع العمراني الضخم في المدينة ، إلا أن السلطات المحلية لا تسمح بالتوسع على حساب الأراضي الزراعية ، ولا تسمح بقطع أية شجرة من أجل العمران ، بل تعمل جاهدة على زيادة عدد أشجار النخيل -بشكل خاص- التي نجدها تحف بجانبي معظم شوارع المدينة بالحدائق العامة والمزارع الحديثة ، مما يكسب المدينة منظراً خلاباً ويجعلها مكان استجمام واصطياف لسكان بقية مدن الدولة . كما نجد أن مزارع الخضار تجعل المدينة مكتفية ذاتياً بالنسبة لاحتياجاتها من الخضار - بل وتصدر جزءاً كبيراً من

مدينة العين
الأراضي الزراعية والترفيهية

شكل رقم (١٥)

الخضار إلى أسواق مدينتي أبوظبي ودبي وذلك خلال فصل الشتاء . كما أن التمور تعتبر مورد رزق مهم لغالبية مواطني هذه المدينة ، فيصدر جزء منه إلى مدينة أبوظبي .

ولذلك فإن لتوزيع الأراضي الزراعية في المدينة بهذا النمط تأثيره على أي توسع عمراني نحوها ، بل ستدفع نمو المدينة نحو المناطق التي لا تصلح للزراعة - خاصة الأطراف الشمالية الغربية والجنوبية الغربية - التي تغطيهما كثبان رملية عالية . كما أن لوجود بعض المشاريع الزراعية المهمة خارج حدود المدينة مباشرة - كمشروع العوهة لإنتاج الحبوب ، الذي يقع شمال المدينة مباشرة - أثره على أي توسع بذلك الاتجاه نظراً لأهميته الكبرى في مشاريع «قهر الصحراء» في الدولة ، وعلى عمليات الحصول على مياه الري من خزاناته الجوفية الغنية[٤٢] .

الخلاصة :

بعد هذا التحليل «الموجز» ، نلاحظ أن مورفولوجية مدينة العين قد مرت بعدة مراحل ، كما أنها تأثرت بعدة عوامل ، البعض منها «موروث» في هذه المنطقة ، والبعض الآخر «مفروض أو دخيل» عليها ومتعلق بظروف التخطيط الحديث ومتطلباته . فإن لتمسك مواطني هذه المنطقة بالأماكن الأصلية لموارد رزقهم قد فرض إقامة مساكن خاصة بهم في تلك الأماكن ، مما جعل الخطة الأولى للمدينة ترتبط بتوزيع تلك القرى (التي أصبحت فيما بعد ضواحي للمدينة ثم جزءاً من أحيائها الرئيسية) . ثم أخذ التخطيط اللاحق يتوافق مع هذه «النويات» ويحاول ربطها معاً بخطة متكاملة ومستغلاً الأراضي غير الزراعية التي كانت تفصل تلك القرى نحو استخدامات مختلفة تلائم متطلبات التحضر الواسع الذي حصل في هذه المنطقة . وقد بقيت أكبر «نواة» (واحة أو مديرية العين) تجذب إليها أهم الأنشطة الحضرية - وهي الحكومية والتجارية والأعمال ، إلى أن ضاقت هذه النواة بتلك الأنشطة المتزايدة ، مما أدى إلى خلق نواة جديدة

تقع في مكان أكثر توسطاً للمدينة من ذي قبل . ورغم أن هذه النواة الجديدة قد اقتصرت حالياً على تجميع لدوائر الحكومة ، إلا أن بعض المراكز التجارية قد أخذت تشق طريقها نحو تلك النواة .

وإن هذه النواة الجديدة قد دفعت حركة عمرانية واسعة لفيلات من درجة أولى لسكن موظفي الدولة وبعض أساتذة الجامعة . كما أن بعض المساكن الشعبية القريبة من هذه النواة قد أخذت ترى تعديلات كبيرة لكي يتسطيع أصحابها تأجير جزء منها إلى صغار موظفي تلك الدوائر الحكومية . كذلك فإن لتركز جامعة الإمارات في هذه المدينة قد أدخل وظيفة جديدة على هذا التجمع السكاني وأثّر كثيراً على تركيب المدينة . فنظراً لانتشار مباني الجامعة المختلفة الوظائف في كثير من أنحاء المدينة ، نجد البعض منها قد أخذ يشكل «نويات» جديدة تجذب إليها استغلالات جديدة في المدينة ، وسيكون هذا التأثير أكبر بعد الإنتهاء من بناء «المدينة الجامعية» في غرب المدينة .

وان للعامل «السياسي» أثره الكبير على تركيب المدينة وتطورها . فإن جميع الأراضي غير المستغلة تملكها حكومة إمارة أبوظبي ، وهي التي توزع قطع الأراضي داخل المدينة على المواطنين - وتحدد نوع الاستخدام المسموح لتلك القطع ، حسب الخطة الموضوعة لتخطيط المدينة . لذلك فإن «التنافس الحر» لاستغلال الأراضي لا يسير بشكل طبيعي كمانجده في كثير من مدن العالم . فليس من حق المواطنين الذين يستلمون مساكن شعبية ، مثلاً ، أن يبيعوها - أو حتى يؤجروها ، أو يستعملوها لأي استخدام آخر غير السكنى . وهناك العادات والتقاليد أيضاً التي تمنع وجود مبان عالية مطلة على المساكن الشعبية المجاورة . كذلك فإن «لتوغل» بلدة البريمي (التابعة لسلطنة عمان) تأثيره على تطور مخطط العين (فهو يعرقل عملية تشكيل حلقات أو قطاعات متمركزة) . ولذلك نجد تركيبها قريب من «موديل النويات المتعددة» - التي كان قد اقترحها العالمان «أولمان وهاريس» (Ullman & Harris) .

الحواشي والمراجع

١ - جمال حمدان : جغرافية المدن ، الطبعة الثانية - عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢ - السيد غلاب ويسري الجوهري : جغرافية الحضر ، منشأة المعارف ، الأسكندرية (بدون تاريخ) .

٣ - أحمد إسماعيل : دراسات في جغرافية المدن ، الطبعة الثالثة (بدون ناشر) ، ١٩٨٣ ، ص٢٤٨ - ٢٥٧ . وعبدالفتاح وهيبة : جغرافية العمران ، منشأة المعارف ، الأسكندرية - حيث يوجز الدكتور وهيبة تحت «مورفولوجية المدن» : دراسة الخطة ، أشكال النمو ، التركيب الداخلي ، التجامع المدني . (ص١٣٩ - ١٦٤) .

٤ - H. Carter, The Study of Urban Geography, (London: Edward Arnold), 2nd. Edition, 1977, p.8.

٥ - R.E. Murphy, TheAmerican City; An Introduction in Urban Geography, (New York, Mc Graw Hill), 1966, pp. 4-5.

٦ - النشرة الإحصائية السنوية - دائرة الزراعة ، العين ، ١٩٨٣ .

٧ - دائرة الماء والكهرباء - إمارة أبوظبي ، الكتاب السنوي السادس - ١٩٨٢ ، ص١١٧ .

٨ - فوزي الأسدي : «مشكلة المياه في دولة الإمارات العربية المتحدة والترشيد في استغلالها ، جامعة الإمارات العربية المتحدة - مجلة كلية الآداب ، العدد الثاني ، (١٩٨٦) ، ص٢٥٣ - ٣٠٣ .

٩ - التعداد العام الأول للسكان - ١٩٦٨ ، الجزء الأول - وزارة التخطيط ، أبو صبي ، ١٩٧٢ . (لم يرد في هذا التعداد أي تعريف رسمي للمراكز الحضرية في الدولة ، ولا أي تصنيف للسكان حسب الجنسية) .

١٠ - التعداد العام الثاني للسكان - ١٩٧٥ ، وزارة التخطيط ، أبوظبي ، ١٩٧٧ .

١١ - يعتقد أن جزءاً كبيراً من تزايد المواطنين يعود إلى هجرة أعدد كبيرة من السكان البدو الذين كانوا يقيمون حول هذه الواحة ، وقد دخلوا ضمن حدود دولة الإمارات بعد أن سويت قضية الحدود المتنازع عليها بين كل من سلطنة عُمان وإمارة أبوظبي والسعودية ، وذلك في عام ١٩٧٤ . فقد ضمت القرى التسع الآنفة الذكر إلى إمارة أبوظبي بينما ضمت كل من بلدتي حماسة والبريمي إلى سلطنة عُمان .

يمكن مراجعة أيضاً التعداد الثالث للسكان - عام ١٩٨٠ ، وزارة التخطيط ، ١٩٨٣ .

١٢ - تقدر نسبة التزايد الطبيعي لدولة الإمارات العربية المتحدة حوالي ٣,١ في المائة ، وذلك حسب مصادر هيئة الأمم المتحدة ، لعام ١٩٨٣ .

١٣ - الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة - دائرة الآثار والسياحة ، العين ، ١٩٧٧/٧٦ .

١٤ - فوزي الأسدي : «النمو الحضري وسياسة الإسكان في دولة الإمارات العربية المتحدة» ، مجلد «ندوة عن التخطيط العمراني وسياسة الإسكان في دولة الإمارات» ، كلية الهندسة - جامعة الإمارات ، مارس ١٩٨٦ ص٣١٣ - ٣٣٨ .

١٥ - حصر المباني والوحدات السكنية - إمارة أبوظبي - دائرة التخطيط ، مارس ، ١٩٧٨ ، ص٢٩٥ - ٢٩٦ ، ٣٣٧ .

١٦ - الكتـاب الإحصـائي السنـوي - إمـارة أبـوظبي - دائـرة التخطيط - أبوظبي ، ١٩٨٣ ، ص١٤٧ .

١٧ - نفس المرجع ، ص١٤٧ .

١٨ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٤١ .

١٩ - مقابلة مع مهندسي دائرة تخطيط مدينة العين ، فبراير ، ١٩٨٦ .

٢٠ - مصادر دائرتي تخطيط مدينتي أبوظبي ودبي .

٢١ - J. Kolars & J. Nysteun, Human Geography, McGraw Hill, New York, 1974, p. 50.

٢٢ - H. Carter, The Study of Urban Geography, 2nd. Edition, Arnold, Lonton, 1977, pp. 204–247.

٢٣ - R. Murphy, & J.B. Vance, "Delimiting the C.B.D.," Econ. Geog. Vol. 30, pp. 301–336.

٢٤ - دائـرة بلدية العـين - قسم الـرخص التجـارية ، التقـرير السنوي - ١٩٨٦ ، ص١١ .

٢٥ - الكتاب الإحصائي السنوي - إمارة أبوظبي - ١٩٨٥ ، ص ٢٤٧ .

٢٦ - دراسة خاصة عن بعض نواحي الوضع العقاري في إمارة أبوظبي : ٧٥ - ١٩٨٣ . دائرة التخطيط ، الشعبة الاقتصادية ، أبوظبي ، ١٩٨٤ ، ص١٣٥ - ١٧٥ .

٢٧ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٥٣ .

٢٨ - يمكن مراجعة بحث طلال محمد عبدالله : «تقييم ما بعد الأشغال لمشروع الـ١٢٠٠ مسكن شعبي سابقة التجهيز في المرخانية - العين ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، مجلد خاص عن «ندوة التخطيط وسياسة الإسكان ، مرجع سابق ، ص١٣٥ - ١٧٥ .

٢٩ - بحث عبدالله نصيب : «تطوير منطقة عودة التوبة - مدينة العين ، بحث مقدم إلى «ندوة التخطيط العمراني وسياسة الإسكان» ، مرجع سابق ، ص٢٣٤ - ٢٤٦ .

٣٠ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٤١ - ٢٤٣ .

٣١ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٣ ، ص١٥٩ .

٣٢ - المرجع الأسبق ، ص٢٤١ .

٣٣ - التعداد (الحصر) العام للمباني والوحدات السكنية ، وزارة التخطيط ، أبوظبي - ١٩٨١ .

٣٤ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٣ ، ص١٦٦ .

٣٥ - دائرة بلدية العين ، قسم التراخيص التجارية ، التقرير السنوي - ١٩٨٥ ، ص١٧ .

٣٦ - مدينة العين واحة الإمارات - ملحق خاص - جريدة الاتحاد ، أبوظبي ، مارس ، ١٩٨٧ .

٣٧ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٣ ، ص٢٣١ .

٣٨ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٣١ .

٣٩ - نفس المرجع ، ص٢٣٤ .

٤٠ - النشرة الإحصائية السنوية للتعليم في منطقة العين التعليمية - قسم الإحصاء ، العين - ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ص٢٨ - ٣٠ .

٤١ - دائرة زراعة العين ، النشرة الإحصائية السنوية ، العين ، جدول رقم ٣ .

٤٢ - راجع

Fawzi Asadi, "The Possibilities of Growing Wheat Economically at Al-Oha Project, U.A.E.," Dirasat-The University of Jordan, Amman, Vol. XII, 1985, // 5, pp. 85–105.



ظاهرة تغريب الأسماء التجارية بالشارع المصري
«دراسة مسحية على القاهرة الكبرى»

الدكتورة وفاء كامل فايد
مدرسة بكلية التربية الأساسية بالكويت

مقدمة البحث ومشكلته :

في الشارع التجاري المصري ظاهرة بدأت على استحياء منذ فترة ، ثم شاعت واستفحل أمرها في السنوات الأخيرة ، أعني بها ظاهرة التغريب . ويقصد به الاتجاه إلى الأجنبي من الكلمات والتراكيب الغريبة عن لغتنا العربية ، واستخدامه بديلاً عن نظيره العربي ، أي نقل الأجنبي من لغته - كما ينطق - وكتابته بحروف عربية ، على واجهات المتاجر ولافتاتها .

وهذه الظاهرة تمسخ وجه الشارع المصري ، وتضفي عليه مسحة أجنبية ليست من معالمه الأساسية ، تشوه لغتنا الأم ، مما يسيء إلى الشخصية المصرية الأصيلة ، ويجعل الأسماء التجارية خليطاً غريباً غير متجانس من اللغات الأجنبية المتباينة ، والتراكيب المختلفة غير العربية ، على الرغم من كتابتها بالحروف العربية ، فهذا لا يضفي عليها الطابع العربي أو الهوية العربية ، شأنها في ذلك شأن الفارسية والأردية : فهما لغتان غير عربيتين ، وتكتبان بحروف عربية .

وعلى الرغم من خطورة الظاهرة على اللغة العربية لم تحظ الظاهرة باهتمام كاف من اللغويين العرب ، فقد أشار إليها ثلاثة من علمائنا اللغويين : أحدهم أ. د. عبدالعزيز مطر ، فقد كتب منبهاً إلى خطرها في مقال بجريدة الأخبار المصرية الصادرة في ٣٠/١٠/١٩٨٦ ، تحت عنوان «رياح التغريب تهب على الشارع

المصري «كما صدر له أيضاً كتاب » في النقد اللغوي» وبه فصل يتحدث عن التغريب ، ضمنه معظم ما جاء في مقاله السابق .

والثاني هو أ. د. حسين نصار ، وقد كتب منادياً بالحفاظ على لغتنا العربية ، وحمايتها من مخاطر هذه الظاهرة ، في مقال له بجريدة الأهرام المصرية الصادرة في ١٤/١١/١٩٨٦م ، تحت عنوان : «العربية لغتنا» .

والثالث هو د. كمال بشر ، وقد تناول جانباً من الظاهرة في محاضرة ألقاها بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في ٢/٣/١٩٨٧م ، بعنوان. . . . «التغريب في اللغة والثقافة» .

وانتشار الظاهرة في حقل الأسماء التجارية ، إلى جانب خطورتها على اللغة العربية ، وندرة معالجتها ، كل ذلك دعا الباحثة إلى محاولة إلقاء الضوء عليها من خلال هذه الدراسة .

عرض لأهم الحقائق النظرية :

التغريب شكل من أشكال الاقتراض اللغوي ، والاقتراض ظاهرة معروفة في اللغات على مدى العصور ، فمعظم اللغات يتفاعل بعضها وبعض وتتبادل الاقتراض . تستقر فيها ، وتصبح جزءاً منها[(١)] . ولا يعني ذلك ضعف مكانة اللغة الآخذة ، فالاقتراض يثري اللغة المقترضة بما تحتاجه من الألفاظ والأساليب ، وهو بذلك من وسائل تنمية الثروة اللغوية .

والألفاظ المستعارة نوعان : أحدهما تدعو إليه الضرورة ، حين تفتقد اللغة إسماً لشيء معين ، فتأخذه من لغة أخرى باسمه المتعارف عليه . والنوع الآخر ليس له ما يسوغه سوى رغبة الأفراد في الظهور ، ويحدث نتيجة إعجاب أمة بأخرى ، والميل إلى تقليدها[(٢)] . وهذا ما يحدث الآن في التغريب .

---

(١) Said Majed: Lexical Innovation: p. 30–33.

(٢) أنيس ، إبراهيم : من أسرار اللغة ص ١٢٠ – ١٢٢

وقد اقترضت اللغة العربية - شأنها شأن اللغات الأخرى - ألفاظاً أجنبية كثيرة . وكان العرب يلجأون إلى الاستعارة الضرورية : فيقترضون الألفاظ التي تعبر عن أشياء غير مألوفة في شبه الجزيرة العربية ، وكلمات تتطلبها مظاهر الحضارة والمدنية لدى الأمم العريقة التي كانت تتاخم الحدود العربية[1] .

وكانت الكلمة الأعجمية التي يشيع استعمالها لدى العرب تأخذ القالب العربي : فتذهب أطرافها ، وتبدل بعض حروفها ، ويغير موضع النبر منها ، حتى تصبح على صورة شبيهة بالكلمات العربية[2] . وقد سمى علماء العربية ذلك تعريباً . فالتعريب هو اقتراض اللفظ الأجنبي ، ثم إخضاعه لنمط الكلمات العربية ونسيجها .

والتعريب قديم في اللغة : فقد وقع المعرب في لغة العصر الجاهلي ، كما ورد بالقرآن الكريم كلمات أعجمية الأصل . وقد أشار سيبويه في (الكتاب) إلى بعض الكلمات الأعجمية ، وإلى حدوثها في اللغة العربية قبل الإسلام[3] .

وحين انتشر الإسلام بالفتوحات كثر احتكاك العرب بغيرهم من أبناء الأمصار ، وأدخل هذا الاختلاط كثيراً من الكلمات الأعجمية في اللغة العربية ، وخاصة في مجال المحسّات ، مثل : الأطعمة والملابس والآنية والرياحين .

وفي عصر الدولة العباسية ازدهرت الثقافة واتسع شأنها ، وكثر تشجيع الخلفاء للعلماء والمترجمين على التأليف والترجمة ، فدخلت إلى اللغة العربية كلمات ومصطلحات جديدة على أيدي النقلة والمترجمين ، وشاعت في اللغة . وبذلك ازدادت حركة التعريب في ذلك العصر . وقد نبه علماء اللغة إلى الكلمات ذات الأصل الأعجمي ، وأشاروا إلى أنها دخيلة على اللغة .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٤ .

(٢) أنيس ، إبراهيم : من أسرار اللغة ص ١٢٥ .

(٣) سيبويه ، أبو بشر عمرو : الكتاب جـ٣ ص٢٣٤ - ٢٣٥ ، ص٢٥١ - ٢٥٤ .

وفي العصر الحديث رأى بعض العلماء أن التعريب مقصور على ما ورد في عصور الاستشهاد اللغوي ، وما ورد بعد عصر الاحتجاج من الكلمات ذات الأصل الأعجمي يسمى مولداً . وذكر أن المعرب الصحيح لا يزيد عدده في اللغة على ألف كلمة ، وقلته بالنسبة إلى عدد الألفاظ العربية دليل على اقتصاره على السماع[1] . كما ذكر أنه لا يجوز لنا -نحن المولدين- أن نعرب كما عرب القدماء . وقد يرجع السبب في هذا الموقف إلى خشيتهم طغيان الكلمات الأعجمية على الفصحى .

وقد بحث مجمع اللغة العربية بالقاهرة التعريب والمعرب منذ دور انعقاده الأول ، وأصدر قراراً ينص على ما يأتي :

«يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية -عند الضرورة- على طريقة العرب في تعريبهم»[2] .

وأقر المجمع الحاجة الماسة إلى التعريب -بالإضافة إلى غيره من وسائل تنمية الثروة اللغوية- عند نقل المصطلحات والألفاظ العلمية إلى اللغة العربية ، أي عند الضرورة العلمية . وقد قيده بالضرورة ، خشية أن تغمر لغتنا العربية بطوفان من الألفاظ الأجنبية التي قد تفقدها طابعها وخصائصها التي يعتز بها أبناء العرب ، حرصاً على تراثهم الأدبي ، وكتابهم المقدس الذي أنزل بلسان عربي مبين .

والتعريب -الذي حدث في اللغة العربية منذ القدم- يختلف عن التغريب الذي يحدث الآن : فكلاهما اقتراض من اللغات الأجنبية ، ولكن التعريب يأخذ ما تفتقر إليه اللغة من الكلمات الأجنبية ، ويطوع الكلمة الأجنبية للصيغ العربية ، أو يقربها من الذوق اللغوي العربي ، فيضيف إلى المحصول اللغوي العربي ما ينقص اللغة من ألفاظ . والتغريب يحدث الآن بنقل الكلمة -أو التعبير- من اللغة

---

(١) مجمع اللغة العربية : محاضر الجلسات ، دور الانعقاد الأول : ص ٣٠٢ .

(٢) صدر هذا القرار في الجلسة ٣١ من الدورة الأولى ، المرجع السابق ص٤٢٢ ، جهود مجامع اللغة العربية : ص٣٦١ .

الأجنبية ، دون أن تعدم اللغة العربية الكلمات التي تعبر عن المعنى نفسه . فهو يضع الأجنبي من الكلمات جنباً إلى جنب مع نظيره العربي . ويظل اللفظ -أو التعبير- المستعار على حاله في اللغة الأجنبية تماماً ، مع كتابته بالحروف العربية ، فيحمل النطق والنبر الأجنبي ، ولذلك سمى تغريباً ، أي اتجاهاً إلى الغرب .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى :

(١) التعرف على حجم ظاهرة تغريب الأسماء التجارية بالشارع المصري .

(٢) توضيح مدى انتشار الظاهرة بكل من : الأنشطة التجارية المختلفة ، والأحياء السكنية بالقاهرة .

(٣) تحليل أنواع التغريب وتصنيفه .

عينة الدراسة :

استخدمت الأسماء التجارية الواردة بدليل الهاتف الخاص بمدينة القاهرة لعام ١٩٨٣ ، بوصفها عينة عشوائية للدراسة ، بعد استبعاد ما يخرج عن أهدافها . وقد شملت العينة ٢٠٠٤٣ إسماً لعدد ١٠٤ (أربعة ومائة) نشاط ، تمثل مجموع ما يدخل في نطاق الدراسة .

وتنقسم هذه العينة الرئيسية إلى عينتين فرعيتين كالتالي :

(أ) عينة الأنشطة التي تتضمن أسماء مغربة ، وعددها ١٧٦٥٢ إسماً .

(ب) عينة الأنشطة التي لا تحتوي أسماء مغرَّبة ، ٢٣٩١ إسماً .

كيفية معالجة الدراسة :

في محاولة للكشف عن مدى انتشار هذه الظاهرة بدأت الباحثة بالجمع الميداني المباشر . فلما لاحظت شيوعها بدرجة واضحة رأت أن تستند إلى الدراسة

الإحصـائية ، لتكشف بدقـة عن نسب شيوع الأسـماء المغـربة مقارنة بالعدد الكلي للأسماء التجارية .

وطـرقت باب إدارة السجـل التجـاري ؛ لتحصل على كل الأسماء الموجودة في سجلاتها ، فتعذر ذلك ، نظراً لسرية البيانات .

وحصلت الباحثة على خطاب إداري من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، تدعيماً لموقفهـا ، يحدد طبيعـة مهمتها ، وكذلك البيانات التي تحتاج إليها . وذهبت به إلى إدارة الحـاسب الآلي الخـاص بوزارة المـالية ، وقـابلت المسئولين هناك ، واعتذر لها برفق ، لأنـه من المستحيل السماح بالحصول على آية معلومات من الحاسب الآلي ، نظراً للسرية أيضاً .

ثم فكرت الباحثة في الاعتماد على مطبوعات الغرفة التجارية المصرية ودورياتها في رصد هذه الظاهرة . واتضح لها أن هذه المطبوعات غير منتظمة ، كما أن معلوماتها لا تحقق الهدف من البحث .

وأخيراً لجأت إلى دليل الهاتف ، ورأت أن تعتمد عليه في الدراسة ، بوصفه عينة عشوائية تعطي مؤشراً صادقاً -إلى حد كبير- للظاهرة . وان كان هناك بعض الاحتراز في استخدامه مثل :

(١) الدليل لا يسجل إلا أسماء الشركات والمتاجر التي يوجد لديها هاتف ونحن نعلم أنـه ليس من الميسـور -لسبب أو لآخـر- الحصول على الهاتف وإن كان ذلك يقـابله إمكـانية الحصـول على (الهـاتف الفـوري) مع دفع رسوم أكثر ، مما لا يصعب على أصحاب الشركات والمتاجر الكبرى .

(٢) آخـر دليل مطبـوع للهاتف بين أيدينا -الآن- هو الخاص بعام ١٩٨٣ . وقد طبـع في منتصف عام ١٩٨٢ . ومعنى هذا أن الـدراسـة توقفت ، في رصـد الـظاهرة ، عند عام ١٩٨٢ ؛ مما يشير إلى عدم مطابقة نتائج هذه الدراسة مع

نسب شيوع الظاهرة في الشارع المصري الآن . وعلى هذا فالباحثة تسلم -بداية- بأن لافتات الشارع المصري تعطي انطباعاً تغريبياً أكثر من المرصود في هذه الدراسة ، وذلك وفقاً لما أسفرت عنه الملاحظة الميدانية المباشرة .

وبعد الحصول على دليل الهاتف قامت الباحثة بحصر الأنشطة التي تدخل في دائرة اهتمام الدراسة . وواجهتها نوعيات مختلفة من الأسماء تقع أحياناً ضمن هذه الأنشطة ، ولا تقع أحياناً أخرى في اطارها . فرأت -حرصاً على الموضوعية ، وعلى ضوء أهداف الدراسة- أن تأخذ بعين الاعتبار .

الضوابط الآتية :

١ - استبعاد الأسماء التالية من العينة الكلية للدراسة :

(أ) أسماء شركات القطاع العام ومتاجره .

(ب) أسماء المراكز الثقافية والعلمية والرياضية والتجارية ، وكذلك مراكز رعاية الشباب ، والغرف التجارية ، والمراكز الثقافية والتجارية الدولية . ومن أمثلة ذلك :
مركز الحسابات العلمية - المركز الديموجرافي - المركز الدولي للتربية الإسلامية - المركز التجاري السوفييتي . . . إلخ .

(جـ) أسماء المكاتب الاستشارية ، والعلمية ، والهندسية ، والاجتماعية ، ومكاتب التمثيل التجاري للدول المختلفة ، ومكاتب التخليص الجمركي .

(د) مراكز الخدمة والإصلاح والورش ، وكذلك المصانع بأنواعها ، لعدم ارتباطها بالشارع التجاري .

(هـ) الأنشطة التي لا يزيد العدد الكلي للأسماء بها عن خمسة أسماء .

٢ - استبعاد الفئات التالية من الحصر الخاص بالأسماء المغربة :

(أ) أسماء الشركات الدولية ، مثل :
باير - رولــز رويس - خوختيف - لوبيتي - لوكهيد - هيلتــون - شيراتــون - وستنجهاوس - وإن لم تستبعد التراكيب التي دخلت فيها هذه الأسماء ، مثل : النيل هيلتون - الجزيرة شيراتون .

(ب) أسماء الاعلام الأجنبية ، مثل : شامبليون - فيكتوريا - طومسون - فينوس - نابليون .

(جـ) العلامات التجارية المسجلة ، مثل : ريجوا - ستيا - راكتا - كيما - كيمي .

(د) الأسماء الأجنبية التي اكتسبت الطابع العربي ، وشاعت في العامية المصرية ، مثل : اتوبيس - بوتاجاز - اكسبريس - بلاستيك .

(هـ) الأسماء العربية التي وردت - بالدليل - تحت عنوان أجنبي للنشاط ، مثل : الكترو - بار - بازار - بوتيك - بوفيه - ديكور - سوبر ماركت .

٣ - احتساب الأسماء التالية ضمن الحصر الخاص بالأسماء المغربة :

(أ) الأسماء الأجنبية التي صارت أعلاماً لمناطق ، مثل :
جاردن سيتي - تريومف - هليوبوليس - روكسي .

(ب) أسماء الأماكن والمدن الأجنبية ، مثل :
بيكاديللي - هونولولو - فيينا - هوليود .

٤ - احتساب الأسماء التي تتعدد فروعها - في المناطق المختلفة - مرة واحدة مثل : صيدلية الجمهورية - محلات الغندور - بقالة سعودي .

٥ - احتساب مصانع الملبوسات (التريكو والجوارب والملابس) ضمن نطاق الدراسة ، لأنها تقع في الشارع التجاري عادة ، بحكم صغر حيزها ، وعدم تسببها في إحداث ضوضاء أو تلوث للبيئة .

٦ - رصد الأسماء المتفرقة - بين العناوين المختلفة بالدليل - ووضعها في قائمة نشاط مستقل .

٧ - الالتزام بأسماء الأنشطة وتصنيفها حسب ما ورد بدليل الهاتف .

٨ - ضم الأسماء موحدة النشاط، التي وجدت في أكثر من موضع بالدليل تحت أسماء مختلفة ، مثل :

بقالة وسوبر ماركت - أفلام وشركة أفلام - جلود ومصنوعات جلدية - معرض وصالة عرض - معرض سيارات وشركة سيارات . وكذلك مثل النشاط (ديكور) الذي أضافته الباحثة إلى موضعه بالجداول - حسب الترتيب الهجائي - بعد ضم مفرداته من مواضع متفرقة .

٩ - فصل أسماء الشركات السياحية على حدة ، نظراً لوضوح ظاهرة التغريب فيها - بعد جمع أسمائها التي اندرجت تحت عنواني : شركة ووكالة - حتى يبرز الفرق في نسبة التغريب بين أسماء هذه الشركات وبين غيرها من الشركات الواردة بالدليل .

نتائج الدراسة :

من واقع ما أسفرت عنه المعالجة المبدئية للبيانات المتعلقة بالدراسة ، أمكن جدولة النتائج بالأسلوب الذي يساعد على عرضها ، وفقاً للأهداف الموضوعة . وتستعرض الجداول من (١) إلى (٥) هذه النتائج .

جدول رقم (١)

حجم ظاهرة التغريب في الأسماء التجارية بعينة الدراسة

العينات / البيان	عينة الأنشطة التي تتضمن التغريب	عينة الأنشطة الخالية من التغريب	العينة الكلية الدراسة
العدد الكلي للأسماء	١٧٦٥٢	٢٣٩١	٢٠٠٤٣
عدد الأسماء المغربة	٢٢١٣	—	٢٢١٣
النسبة المئوية للتغريب	١٢,٥٣٦٪	صفر٪	١١,٠٤١٪

ويوضح الجدول رقم (١) حجم ظاهرة التغريب في الأسماء التجارية بالعينة قيد الدراسة . ويظهر من هذا الجدول ما يأتي :

(١) تشكل العينة الفرعية التي تشتمل على الأنشطة التي ظهر بها التغريب ٨٨,٠٧١٪ من العينة الكلية للدراسة .

(٢) تشكل العينة الفرعية للأنشطة الخالية من التغريب ١٢,٩٢٩٪ من العينة الكلية .

(٣) النسبة المئوية للأسماء المغربة بعينة الأنشطة المتضمنة للتغريب هي ١٢,٥٣٦٪ من مجموع أسماء هذه العينة .

(٤) النسبة المئوية للأسماء المغربة في العينة الكلية للدراسة هي ١١,٠٤١٪ ، وهو ما يعبر عن الحجم الكلي للظاهرة .

ويعرض الجدول رقم (٢) تحليلاً للعينة الفرعية الأولى ، وهي عينة الأنشطة التجارية التي خلت من الأسماء المغربة ، وعدد الأسماء بكل نشاط فيها ، وقد بلغ عدد هذه الأنشطة واحداً وأربعين نشاطاً . ولوحظ أن هذه الأنشطة لا تتجه إلى اتخاذ أسماء أو عناوين جذابة ، بل يحمل النشاط عادة إسم صاحبه ، وربما حمل إسم المكان الذي يقع فيه كالحي أو الشارع ، وقد يحمل صفة لقيمة أخلاقية كالصدق والأمانة .

ويوضح الجدول -من خلال العينة- أن عدد الأسماء التجارية التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه تمثل أغلبية مطلقة : فقد بلغ هذا العدد ٢٣٤٣ إسماً من مجموع الأسماء البالغ عددها ٢٣٩١ إسماً ، أي بنسبة ٩٧,٩٩٪ بينما حمل ٤٨ إسماً فقط (بنسبة ٢٪) من مختلف الأنشطة عناوين أخرى .

كما يلاحظ من الجدول أيضاً أن ٢٣ نشاطاً -أي أكثر من نصف عدد الأنشطة- تبلغ فيها النسبة المئوية للأسماء التي تحمل أسماء أصحابها ١٠٠٪ .

جدول رقم (٢)

توزيع الأنشطة التجارية التي خلت من ظاهرة التغريب ، وعدد الأسماء التي حملت الأنشطة فيها أسماء أصحابها ، ونسبتها المئوية

م	عنوان النشاط (كما ورد بالدليل)	عدد الأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه
١	أخشــــاب	١٦٥	١٦٥	٪١٠٠
٢	أدوات صحية	٩٦	٩٦	٪١٠٠
٣	أدوات كهربائية	١١٥	١١٨	٪ ٩٧,٤٥
٤	أسماك طازجة ومملحة	٦٣	٦٧	٪ ٩٤,١٨
٥	أطراف صناعية	٩	٩	٪١٠٠
٦	زجاج وبلور	١١٥	١١٧	٪ ٩٨,٢٩
٧	سجاد وكليم	١٤٨	١٥١	٪ ٩٨
٨	عطارة	١١٢	١١٦	٪ ٩٦,٥٥
٩	كرسي	٨	٨	٪١٠٠
١٠	لوازم الخياطين	٢٨	٣٠	٪ ٩٣,٣٣
١١	محل أجهزة مكافحة الحريق	٦	٦	٪١٠٠
١٢	محل أدوات مواقف الغاز	٦	٧	٪ ٨٥,٧١
١٣	محل أسلحة وذخائر	١٢	١٣	٪ ٩٢,٣
١٤	محل عدد صناعية يدوية وميكانيكية	٤٣	٤٤	٪ ٩٧,٧٢
١٥	محل بن وشاي	٢١	٢٨	٪ ٧٥
١٦	محل بيض	٥٣	٥٤	٪ ٩٨,١٤
١٧	محل حاصلات زراعية	٣٠٤	٣٠٦	٪ ٩٦,٤
١٨	محل حبال ودوبارة	٧	٨	٪ ٩٩,١
١٩	محل حدايد وبويات	٢٤٢	٢٤٤	٪ ٩٩
٢٠	محل حديد تسليح وخام	٥٧	٥٧	٪١٠٠
٢١	محل خردة ومخلفات	٣٦	٣٦	٪١٠٠
٢٢	محل خيش	٣٧	٣٧	٪١٠٠

تابع جدول رقم (٢)

توزيع الأنشطة التجارية التي خلت من ظاهرة التغريب ، وعدد الأسماء التي حملت الأنشطة فيها أسماء أصحابها ، ونسبتها المئوية

م	عنوان النشاط (كما ورد بالدليل)	عدد الأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه
٢٣	محل دراجات	٣٢	٣٣	٪ ٩٦,٩٦
٢٤	محل دقيق	٢٤	٢٤	٪١٠٠
٢٥	محل دواجن وطيور زينة	٤٩	٤٩	٪١٠٠
٢٦	محل صابون	٣٨	٤٣	٪ ٨٨ ٣٧
٢٧	محل عسل	٨	٨	٪١٠٠
٢٨	محل عقادة	١٩	١٩	٪١٠٠
٢٩	محل فحم	٢٦	٢٦	٪١٠٠
٣٠	محل كاوتشوك	٣٨	٣٨	٪١٠٠
٣١	محل لوازم الرحلات	١١	١١	٪١٠٠
٣٢	محل مسلى وزيوت	١٨	١٨	٪١٠٠
٣٣	محل معادن	٨٢	٨٤	٪ ٩٧ ٦١
٣٤	محل مواد بترولية	١٣	١٣	٪١٠٠
٣٥	محل مواد بناء	٨٣	٨٣	٪١٠٠
٣٦	محل مواد صباغة وكيماويات	٢٣	٢٣	٪١٠٠
٣٧	محل مواسير	١٧	١٧	٪١٠٠
٣٨	محل موازين	١٣	١٣	٪١٠٠
٣٩	معمل خضروات (طرشي)	١٠	١٠	٪١٠٠
٤٠	مقلة وتسالي	٤٥	٥١	٪٨٨,٢٣
٤١	ورق وكرتون	١١١	١١١	٪١٠٠
	مجموع الأسماء الخالية من التغريب	٢٣٤٣	٢٣٩١	٪٩٧,٩٩

أما الجـدولان رقم (٣) ، (٤) فيتضمنان تحليلاً للعينة الفرعية الثانية ، وهي عينة الأنشطة التي وجدت بها أسماء مغربة . ويبلغ عدد تلك الأنشطة ٦٣ نشاطاً . وقـد صنفت ، وتم في الجـدول رقم (٣) حصر العـدد الكـلي للأسماء بكل نشاط ، كذلـك عدد الأسـماء المغربة التي وجدت فيه ، والنسبة المئوية لهذه الأسماء ، وأيضاً اللغة الأجنبية السائدة في الأسماء المغربة بكل نشاط .

وفي الجدول رقم (٤) تم تصنيف الأنشطة التجارية ، مع ترتيبها تصاعدياً تبعاً لنسبة انتشار الأسماء المغربة بكل منها .

جدول رقم (٣)
عدد الأسماء المغربة ونسبتها المئوية إلى مجموع الأسماء بكل نشاط وجدت به الظاهرة

م	عنوان النشاط كما ورد بالدليل	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	عدد الأسماء المغربة بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء المغربة	اللغة السائدة في التغريب
١	الصيدليات	٩١٦	٤٤	٪ ٤,٨٠٣	الإنجليزية
٢	أجهزة وأدوات منزلية	١٥٥	٣	٪ ١,٩٣٥	—
٣	أحذية ولوازمها	٦٥٠	٧٢	٪ ١١,٠٧٧	الإنجليزية
٤	أزياء وتصميمها	١٥٠	٢٠	٪ ١٣,٣٣٣	الفرنسية
٥	أصواف	٥١	٢	٪ ٣,٩٢١	الإنجليزية والفرنسية
٦	أفلام (شركات إنتاج وتوزيع)	٥٩	٢٤	٪ ٤٠,٦٧٨	الإنجليزية
٧	ألبان ومنتجاتها	١٩١	٢	٪ ١,٠٤٧	—
٨	الكترو (أعمال الكهرباء والالكترونيات)	١٥	١٣	٪ ٨٦,٦٦٦	الإنجليزية
٩	بار	١١	٨	٪ ٧٢,٧٢٧	الفرنسية
١٠	بازار	٧١	٢١	٪ ٢٩,٥٧٧	الإنجليزية
١١	بقالة وسوبر ماركت	١٨٥٦	٣١	٪ ١,٦٧	الإنجليزية
١٢	بنسيون	٢٩	١٨	٪ ٦٢,٠٦٩	الإنجليزية
١٣	بوتيك	٥٧	٢٤	٪ ٤٢,١٠٥	الإنجليزية
١٤	بوفيه	٣١	٥	٪ ١٦,١٢٩	—
١٥	ترزي	١١٦٩	٥	٪ ٠,٤٢٨	الإنجليزية
١٦	جراج	١٦٥	١٥	٪ ٩,٠٩١	الإنجليزية
١٧	جزارة	٣٤٤	٨	٪ ٢,٣٢٥	الإنجليزية
١٨	جلود ومصنوعات جلدية	١٦٣	٣	٪ ١,٨٤	—
١٩	حلواني وفطاطري	٣٣١	١٩	٪ ٥,٧٤	الإنجليزية ثم الفرنسية
٢٠	خردوات	٦٠٣	١٦	٪ ٢,٦٥٣	الفرنسية
٢١	ديكور	٩	٤	٪ ٤٤,٤٤٤	الإنجليزية
٢٢	زنكوغراف	٢٢	١	٪ ٤,٥٤٥	—

تابع جدول رقم (٣)

عدد الأسماء المغربة ونسبتها المئوية إلى مجموع الأسماء بكل نشاط وجدت به الظاهرة

م	عنوان النشاط كما ورد بالدليل	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	عدد الأسماء المغربة بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء المغربة	اللغة السائدة في التغريب
٢٣	زهور	٧٤	١٨	٢٤,٣٢٤٪	الإنجليزية
٢٤	ساعات وساعاتي	١٣١	٣	٢,٢٩٪	الإنجليزية
٢٥	ستوديو (تصوير)	٢٠٥	٥٥	٢٦,٨٢٩٪	الإنجليزية
٢٦	سجاير وحلويات	٣٧٧	١	٠,٢٦٥٪	—
٢٧	سينما	٦٠	٢٨	٤٦,٦٦٦٪	الإنجليزية
٢٨	شركة (شركات متنوعة)	٣٢٢١	٨٨٠	٢٧,٣٢١٪	الإنجليزية
٢٩	شركة سياحية	١٨٣	١٣٣	٧٢,٦٧٨٪	الإنجليزية
٣٠	شنط سيدات	٦٠	٥	٨,٣٣٣٪	الفرنسية
٣١	صالون حلاقة	٤٦٧	٦٧	١٤,٣٤٧٪	الإنجليزية
٣٢	عصير	٤٥	٣	٦,٦٦٦٪	—
٣٣	فندق	٣٠٠	١٣٧	٤٥,٦٦٦٪	الإنجليزية
٣٤	قطع غيار سيارات	٣٦٧	٨	٢,١٨٪	الإنجليزية
٣٥	قمصانجي (خياط القمصان)	١٤٦	٧	٤,٧٩٥٪	الفرنسية ثم* الإنجليزية
٣٦	قهوة	٢٤٣	١٥	٦,١٧٣٪	الإنجليزية
٣٧	كازينو	٧٨	٢٣	٢٩,٤٨٧٪	الإنجليزية
٣٨	كافيتريا	٤٥	٩	٢٠٪	الإنجليزية
٣٩	محل (محلات متنوعة أجهزة/أدوات رياضية/بلاستيك/راديو/روائح)	٣٦٢	٨٢	٢٢,٦٥٢٪	الإنجليزية
٤٠	مخبز	٣٨٨	١٣	٣,٣٥١٪	الإنجليزية
٤١	مسرح	٢٨	٢	٧,١٤٣٪	—
٤٢	مشغل (برودري/تطريز/ملابس)	٧٣	٥	٦,٨٤٩٪	الفرنسية ثم* الإنجليزية
٤٣	مصبغة	٨٠	٨	١٠٪	الإنجليزية

تابع جدول رقم (٣)
عدد الأسماء المغربة ونسبتها المئويه إلى مجموع الأسماء بكل نشاط وجدت به الظاهرة

م	عنوان النشاط كما ورد بالدليل	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	عدد الأسماء المغربة بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء المغربة	اللغة السائدة في التغريب
٤٤	مصنع تريكو	١٥٦	٤٠	٪ ٢٥,٦٤١	الإنجليزية
٤٥	مصنع جوارب	٥٩	١٢	٪ ٢٠,٣٣٩	الإنجليزية
٤٦	مصنع ملابس	٨٧	١٥	٪ ١٧,٢٤١	الإنجليزية
٤٧	مصوغات ومجوهرات	٥٢٨	٥	٪ ٠,٩٤٧	الإنجليزية
٤٨	مطبعة	٣٣٥	١٧	٪ ٥,٠٧٥	الإنجليزية
٤٩	مطحن	٦٠	١	٪ ١,٦٦٦	—
٥٠	مطعم	٢٦٠	٣٨	٪ ١٤,٦١٥	الإنجليزية
٥١	معرض (متنوع النشاط)	٨٣	١٠	٪ ١٢,٠٤٨	الإنجليزية والفرنسية
٥٢	معرض سيارات	١٢١	٢٦	٪ ٢١,٤٨٨	الإنجليزية
٥٣	معمل (متنوع النشاط)	٣١	٥	٪ ١٦,١٢٩	الإنجليزية
٥٤	معمل ألبان ومنتجاتها	١٦	٤	٪ ٢٥	الإنجليزية
٥٥	مكتبة وأدوات مدرسية (قرطاسية)	٣٦٣	١٧	٪ ٤,٦٨٣	الإنجليزية
٥٦	ملابس جاهزة	١٦٣	٣٨	٪ ٢٣,٣١٣	الإنجليزية والفرنسية
٥٧	ملهى	٩	٨	٪ ٨٨,٨٨٨	الإنجليزية
٥٨	منتجات خان الخليلي	٧٠	٤	٪ ٥,٧١٤	الإنجليزية
٥٩	مني فاتورة	٤١٠	١١	٪ ٢,٦٨٣	الإنجليزية
٦٠	موبليات وأثاثات معدنية	٤٣٢	٢٣	٪ ٥,٣٢٤	الفرنسية ثم* الإنجليزية
٦١	مؤسسات القطاع الخاص	٤١٠	٦٢	٪ ١٥,١٢٢	الإنجليزية
٦٢	نظارات طبية	٥١	٩	٪ ١٧,٦٤٧	الإنجليزية
٦٣	وكالة	٢٧	٨	٪ ٢٩,٦٢٩	الإنجليزية
	مجموع الأسماء بالأنشطة التي ظهر بها التغريب	١٧٦٥٢	٢٢١٣	٪ ١٢,٥٣٦	الأنجليزية

* عند وجود تقارب كبير في عدد الأسماء المغربة باللغتين ذكرت اللغتان تحت عنوان : اللغة السائدة في التغريب .

جدول رقم (٤)
تصنيف الأنشطة ، وترتيبها تصاعدياً حسب النسبة المئوية لانتشار ظاهرة التغريب بين أسمائها

أقل من ٥٪	من ٥٪ إلى أقل من ١٠٪	من ١٠٪ إلى أقل من ١٥٪	من ١٥٪ إلى أقل من ٢٠٪	من ٢٠٪ إلى أقل من ٢٥٪	من ٢٥٪ إلى أقل من ٣٠٪	من ٣٠٪ إلى أقل من ٤٠٪	من ٤٠٪ إلى أقل من ٥٠٪	من ٥٠٪ إلى أقل من ٦٠٪	من ٦٠٪ إلى أقل من ٧٠٪	من ٧٠٪ إلى أقل من ٨٠٪	٨٠٪ فأكثر
سجاير ٠,٦٥ ترزي ٠,٤٢٨ مصوغات ٠,٩٤٧ ألبان ١,٠٤٧ مطحن ١,٦٦٦ بقالة ١,٦٧ جلود ١,٨٤ أجهزة منزلية ١,٩٣٥ قطع غيار ٢,١٨ ساعاتي ٢,٢٩ جزارة ٢,٣٢٥ خردوات ٢,٦٥٣ منيفاتورة ٢,٦٨٣ مخبز ٣,٣٥١ أصواف ٣,٩٢١ زنكوغراف ٤,٥٤٥ مكتبة ٤,٦٨٣ قمصانجي ٤,٧٩٥ صيدلية ٤,٨٠٣	مطبعة ٥,٠٧٥ موبليات ٥,٣٢٤ منتجات خان الخليلي ٥,٧١٤ حلواني ٥,٧٤ قهوة ٦,١٧٣ عصير ٦,٦٦٦ مشغل ٦,٨٤٩ مسرح ٧,١٤٣ شنط ٨,٣٣٣ جراج ٩,٠٩١	مصبغة ١٠٪ أحذية ١١,٠٧٧ معارض متنوعة ١٢,٣٤٦ أزياء ١٣,٣٣٣ صالون حلاقة ١٤,٣٤٧ مطعم ١٤,٦١٥	مؤسسات ١٥,١٢٢ بوفيه ١٦,١٢٩ معامل متنوعة ١٦,١٢٩ مصنع ملابس ١٧,٢٤١ محلات متنوعة ١٧,٤١ نظارات ١٧,٦٤٧	كافيتريا ٢٠٪ مصنع جوارب ٢٠,٣٣٩ معرض سيارات ٢١,٤٨٨ ملابس جاهزة ٢٣,٣١٣ زهور ٢٤,٣٢٤	معمل ألبان ٢٥٪ مصنع تريكو ٢٥,٦٤١ ستوديو ٢٦,٨٢٩ شركة ٢٧,٣٢١ كازينو ٢٩,٤٨٧ بازار ٢٩,٥٧٧ وكالة ٢٩,٦٢٩	—	أفلام ٤٠,٦٧٨ بوتيك ٤٢,١٠٥ ديكور ٤٤,٤٤٤ فندق ٤٥,٦٦٦ سينما ٤٦,٦٦٦	—	بنسيون ٦٢,٠٦٩	شركات سياحة ٧٢,٧٨ بار ٧٢,٧٢٧	الكترو ٨٦,٦٦٦ ملهى ٨٨,٨٨٨

مدى ارتباط الأنشطة المختلفة باللغات الأجنبية في التغريب :

من الجدول رقم (٣) يمكننا أن نلاحظ ما يأتي :

(١) شيوع اللغة الإنجليزية ، بوصفها لغة سائدة ، بين الأسماء المغربة في معظم الأنشطة التي ظهر بها التغريب .

(٢) تسود اللغة الفرنسية بين الأسماء المغربة في مجالات الأنشطة التالية :
أزياء - بوتيك - حقائب - خردوات - قمصانجي - مشغل . وقد يرجع ذلك إلى ارتباط هذه الأنشطة بالمظهر الخارجي ، وعلاقة ذلك بالأناقة ، ومحاولة ربطها بفرنسا ، مما قد يضفي على منتجاتها طابع الجدة والحداثة والتطور ، إلى جانب الذوق الرفيع .

كما تسود الفرنسية أيضاً في نشاطي : بار وموبيليات .

(٣) لم تسد لغة بعينها في المجالات الآتية : أجهزة منزلية - أصواف - ألبان - بوفيه - جلود - زنكوغراف - سجاير - عصير - قهوة - مسرح - مطحن - معرض ملابس جاهزة . وقد ظهر ذلك - بعد إخضاع الأسماء لضوابط البحث ، واستبعاد اللغات الأخرى ، والمختصرات ، والأسماء المنحوتة ، وأسماء الأماكن - في الحالات التالية :

(أ) أن لا يحتوي النشاط على أي من اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية ، ولا تسود لغة أخرى بذاتها فيه ، وذلك كما في نشاط (جلود ومصنوعات جلدية) .

(ب) أن يتساوى عدد أسماء اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وهذا واضح في أنشطة : بوفيه - قهوة - معرض - ملابس جاهزة .

(جـ) أن يحتوي النشاط على إسم واحد ، بإحدى اللغتين المذكورتين ، كما جاء في (مطحن) : فقد استخدمت فيه اللغة الفرنسية في إسم (بون

مارشيه) ، كما استخدمت اللغة الإنجليزية في كل من أجهزة (روبرت هاوس) ، وزنكوغراف (رويال) ، وألبان (هاي لايف) . ولا يمكن القول أن اللغة سائدة في مجال لم يتضمن سوى كلمة أجنبية واحدة .

(د) أن يحتوي النشاط على إسم -أو أكثر- تشترك فيه أكثر من لغة ، كما في سجاير (لوكس) ، ومسرح (متروبول) وهما إسمان مشتركان في الإنجليزية والفرنسية ، و(أصواف) : (مودرن) و(أوريجينال) ، وهما كلمتان مشتركتان في الإنجليزية والفرنسية أيضاً ، وكذلك في (عصير) (جوس) : وهي كلمة مشتركة في الإنجليزية والألمانية .

مدى ارتباط التغريب بالأنشطة والتخصصات المختلفة :

يلاحظ من الجدولين السابقين (٣) ، (٤) ما يأتي :

(١) تقل نسبة شيوع ظاهرة التغريب في النشاط الحرفي ، مثل : ترزي ، جلود ومصنوعات جلدية ، ساعاتي ، زنكوغراف ، قمصانجي ، مطبعة ، أثاث (موبيليات) ، منتجات خان الخليلي ، مشغل .

(٢) يقل شيوع الظاهرة أيضاً في مجال تجارة المواد الغذائية ، والاستهلاكية ، وكذلك في أنشطة الخدمات ، مثل : سجاير - ألبان - مطحن - بقالة - أجهزة وأدوات منزلية - قطع غيار سيارات - جزارة - خردوات - مخبز - مكتبة - صيدلية - حلواني .

(٣) كما تقل نسبة شيوع الظاهرة أيضاً في مجالي تجارة المصوغات وتجارة الأقمشة (منيفاتورة وأصواف) ، في حين تزداد النسبة شيوعاً في تجارة الملابس الجاهزة ، وكذلك في مصانع الملبوسات (الملابس فالجوارب فالتريكو) .

(٤) يبدو مدى اختلاف شيوع الظاهرة في المجالات المتقاربة إذا قارنا نسبة انتشارها بين الأنشطة التالية : (حلواني وفطاطري ، قهوة[1] ، عصير) من جانب وبين (مطعم ، بوفيه ، كافيتريا ، كازينو) من جانب آخر ، وطبيعة

(١) أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة إسم (القهوة) بمعنى المكان الذي تشرب فيه : مجلة مجمع اللغة العربية جـ٩ - ص١٢٩ ، جهود مجامع اللغة العربية : ص٣١٩ .

النشاط متقاربة في الجانبين . وكذلك إذا قارنا مدى شيوعها في كل من : (محلات متنوعة) ، و (بوتيك) ومعناهما ونشاطهما متقارب أيضاً .

(٥) يلاحظ أن أعلى نسبة للتغريب تبدو في نشاط (ملهى) ، وكذلك في (بار) وفي نشاط شركات السياحة ، وفي (بنسيون) وفندق . ولا يخفى ما لأماكن اللهـو والإقامة في تلك النزل من ارتباط بالأجانب ، وكذلك ما لتعامل شركات السياحة معهم . ومن ثم كان هناك سبب مفهوم لانتشار الظاهرة بنسبة كبيرة في تلك المجالات .

(٦) أما عن انتشار الظاهرة بوضوح في مجال أعمال الكهرباء والالكترونيات ، وفي مجال الـديكـور ، والمحـال الصغـيرة (بوتيك) ، والشركات بأنواعها المختلفة وشركات الأفلام : (شركات متنوعة النشاط) ، وكذلك الوكالة ، والبازار ، ومحال التصوير (ستوديو) ، والزهور ، فهذا يعطينا مؤشراً واضحاً لهبوب رياح هذه الظاهرة على الشارع التجاري المصري .

ويستعرض الجدول رقم (٥) مدى انتشار الأسماء المغربة في الأحياء السكنية بالقاهرة . وقد وزعت الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى على تسع مناطق هي :

(١) منطقة وسط القاهرة ، وتشمل أحياء العتبة – قصر العيني – جاردن سيتي – التحـرير – رمسيس – باب اللوق – الفجالة – عابدين ، إلى جانب شوارع وسط القاهرة .

(٢) منطقة مصر الجديدة ، وينضم إليها مدينة نصر – المقطَّم – الدراسة – جسر السويس – ألماظة – الخانكة – أول طريق الاسماعيلية .

(٣) منطقة الزمالك ، وينضم إليها الدقّي – العجوزة – مِيتْ عُقْبة – مدينة الأوقاف – مدينة الأعلام – مدينة الصحفيين – مدينة المهندسين .

(٤) منطقة الجيزة ، وتضم إلى جانبها الهرم - المنْيل - إمبابة - بين السَّرايات - بولاق الـدكـرور - كفـر الجبـل - نزلـة السَّمّان - أول طريق القـاهرة الأسكندرية الصحراوي .

(٥) منطقة حدائق القبة ، ويضم إليها العبَّاسية - الظاهر السَّكاكِيني - الزيتون - غَمرة - الشَّرابيّة - عين شمس - المَطَرية .

(٦) منطقة القلعة ، وتضم إلى جانبها الحِلْمية الجديدة ، باب الخَلْق - الجمالية - المغربلين - الخليفة - الموسكي - المنيرة - لاظوغلي - السيدة زينب - مصر القديمة .

(٧) منطقة شبرا ، وينضم إليها السَّبتية - روض الفرَج - الساحل - بُولاق - الأميرية - السوَّاح - أول طريق القاهرة الأسكندرية الزراعي .

(٨) منطقة حلوان ، وتشمل أيضاً المعادي - البساتين - طُرَة - دار السلام - مار جرجس - كوتسيكا - والمناطق الواقعة على طريق القاهرة حلوان .

(٩) منـاطق أخـرى ، وهي ما تشتمل عليه القاهرة الكبرى ، خارج المناطق السابقة ، مثل : قليوب - أُوسِيم .

جدول رقم (٥)
توزيع الأسماء المغربية بكل نشاط على الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى

نوع النشاط	عدد الأسماء المغربية بالأحياء السكنية									مجموع الأسماء المغربية بالنشاط	العدد الكلي للأسماء بالنشاط
	وسط القاهرة	مصر الجديدة	الزمالك	الجيزة	حدائق القبة	القلعة	شبرا	حلوان	مناطق أخرى		
الصيدليات	١١	١٣	٨	٥	٤	١	٢	–	–	٤٤	٩١٦
أجهزة وأدوات منزلية	٣	–	–	–	–	–	–	–	–	٣	١٥٥
أحذية ولوازمها	٥٤	٤	–	٢	١	٥	٣	–	٣	٧٢	٦٥٠
أزياء وتصميمها	١٢	٢	–	٢	٢	–	١	–	١	٢٠	١٥٠
أصواف	٢	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٥١
أفلام (إنتاج وتوزيع)	١٦	٢	١	٤	–	–	–	–	١	٢٤	٥٩
ألبان ومنتجاتها	١	–	–	–	–	١	–	–	–	٢	١٩١
الكترو	٧	–	٢	–	–	–	٣	–	١	١٣	١٥
بار	٧	١	–	–	–	–	–	–	–	٨	١١
بازار	١٥	٢	٢	١	–	١	–	–	–	٢١	٧١
بقالة وسوبر ماركت	٧	٩	٣	–	–	٢	٢	٦	٢	٣١	١٨٥٦
بنسيون	١٥	–	٢	–	–	–	–	١	–	١٨	٢٩
بوتيك	١٥	٢	٦	–	–	–	١	–	–	٢٤	٥٧
بوفيه	٥	–	–	–	–	–	–	–	–	٥	٣١
ترزي	١	١	١	١	–	–	١	–	–	٥	١١٦٩
جراج	٨	١	–	–	١	–	٣	–	٢	١٥	١٦٥
جزارة	٧	–	١	–	–	–	–	–	–	٨	٣٤٤
جلود ومصنوعات جلدية	٢	–	–	–	–	١	–	–	–	٣	١٦٣
حلواني وفطاطري	١٠	٢	٢	–	–	١	٣	١	–	١٩	٣٣١
خردوات	٧	–	٣	–	١	١	١	١	٢	١٦	٦٠٣
ديكور	١	١	١	–	–	–	–	١	–	٤	٩
زنكوغراف	١	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٢٢

تابع جدول رقم (٥)

توزيع الأسماء المغربة بكل نشاط على الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى

نوع النشاط	عدد الأسماء المغربة بالأحياء السكنية									مجموع الأسماء المغربة بالنشاط	العدد الكلي للأسماء بالنشاط
	وسط القاهرة	مصر الجديدة	الزمالك	الجيزة	حدائق القبة	القلعة	شبرا	حلوان	مناطق أخرى		
زهور	٩	٥	٣	١	–	–	–	–	–	١٨	٧٤
ساعات وساعاتي	٢	١	–	–	–	–	–	–	–	٣	١٣١
ستوديو	٣١	٦	٤	٢	٦	١	٥	–	–	٥٥	٢٠٥
سجاير وحلويات	–	–	–	–	–	–	–	١	–	١	٣٧٧
سينما	١٤	٦	١	٣	٢	–	٢	–	–	٢٨	٦٠
شركة متنوعة النشاط	٣٧٨	١٠٤	١٨٥	٥٦	٣٦	٢٩	٣٨	٤١	١٣	٨٨٠	٣٢٢١
شركة سياحية	٨٥	٥	٢٦	١١	–	٢	–	٢	٢	١١٣	١٨٣
شنط سيدات	٥	–	–	–	–	–	–	–	–	٥	٦٠
صالون حلاقة	٢٤	١١	٩	٢	١٠	٢	٣	٤	٢	٦٧	٤٦٧
عصير	١	–	٢	–	–	–	–	–	–	٣	٤٥
فندق	٦٠	١٧	٢٨	١٦	١	٤	٢	–	٩	١٣٧	٣٠٠
قطع غيار سيارات	٣	–	–	١	–	–	٣	–	١	٨	٣٦٧
قمصانجي	٣	١	–	–	١	١	١	–	–	٧	١٤٦
قهوة	١٠	٢	–	١	–	١	١	–	–	١٥	٢٤٣
كازينو	٣	٣	٤	٩	–	–	٣	١	–	٢٣	٧٨
كافيتريا	٦	–	٢	١	–	–	–	–	–	٩	٤٥
محل (متنوع النشاط)	٤٩	١٣	٨	٢	٣	٢	٣	–	٢	٨٢	٣٦٢
مخبز	٦	٢	–	–	٢	–	١	١	١	١٣	٣٨٨
مسرح	٢	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٢٨
مشغل	١	–	١	١	١	١	–	–	–	٥	٧٣
مصبغة	٢	١	١	–	١	٣	–	–	–	٨	٨٠
مصنع تريكو	١٧	١	–	٢	٩	٥	٤	–	٢	٤٠	١٥٦
مصنع جوارب	٤	–	–	–	٣	٤	١	–	–	١٢	٥٩

تابع جدول رقم (٥)
توزيع الأسماء المغربة بكل نشاط على الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى

نوع النشاط	عدد الأسماء المغربة بالأحياء السكنية									مجموع الأسماء المغربة بالنشاط	العدد الكلي للأسماء بالنشاط
	وسط القاهرة	مصر الجديدة	الزمالك	الجيزة	حدائق القبة	القلعة	شبرا	حلوان	مناطق أخرى		
مصنع ملابس	٥	–	–	–	٢	٤	١	–	٣	١٥	٨٧
مصوغات ومجوهرات	٢	٣	–	–	–	–	–	–	–	٥	٥٢٨
مطبعة	١٣	–	–	–	١	١	١	–	١	١٧	٣٣٥
مطحن	–	–	–	١	–	–	–	–	–	١	٦٠
مطعم	٢١	٣	٧	٥	–	–	١	١	–	٣٨	٢٤٠
معرض (متنوع النشاط)	٧	–	–	١	٢	–	–	–	–	١٠	٨٣
معرض سيارات	٩	–	١٢	١	١	–	١	١	١	٢٦	١٢١
معمل (متنوع النشاط)	–	–	–	٢	١	–	١	–	١	٥	٣١
معمل ألبان ومنتجاتها	٢	١	–	–	–	–	١	–	–	٤	١٦
مكتبة وأدوات مدرسية	٧	٥	١	–	١	٢	–	١	–	١٧	٣٦٣
ملابس جاهزة	٣٢	٢	–	–	١	١	١	–	١	٣٨	١٦٣
ملبس	٤	١	–	٣	–	–	١	–	–	٨	٩
منتجات خان الخليلي	١	–	٢	١	–	–	–	–	–	٤	٧٠
منيفاتورة	٩	–	–	١	–	١	–	–	–	١١	٤١٠
موبليات وأثاثات معدنية	٩	٣	٤	١	٣	٢	١	–	–	٢٣	٤٣٢
مؤسسات القطاع الخاص	٤٠	٣	١٠	٥	–	١	١	١	١	٦٢	٤١٠
نظارات طبية	٨	–	–	–	–	–	١	–	–	٩	٥١
وكالة	٤	–	٢	٢	–	–	–	–	–	٨	٢٧
مجموع الأسماء المغربة بكل منطقة سكنية	١٠٩٤	٢٣٩	٣٤٤	١٤٦	٩٧	٧٩	٩٨	٦٤	٥٢	٢٢١٣	المجموع الكلي للمغاربة

مدى ارتباط ظاهرة التغريب بالتوزيع الجغرافي :

من الجدول رقم (٥) نلاحظ ما يأتي :

(١) تسود الظاهرة منطقة وسط القاهرة . ويبلغ عدد الأسماء المغربة بها ١٠٩٤ إسماً ، من مجموع الأسماء المغربة الذي يبلغ ٢٢١٣ إسماً ، أي بنسبة ٤٣٥ , ٤٩٪ من مجموع الأسماء المغربة بالعينة .

(٢) ويليها منطقة الزمالك وما ضم إليها ، حيث وجدت بها الظاهرة في ٣٤٤ إسماً ، أي بنسبة ٥٤٤ , ١٥٪ من العدد الكلي للأسماء المغربة بالعينة .

(٣) وتأتي منطقة مصر الجديدة -وما ينضم إليها- في المرتبة الثالثة وقد بلغ عدد الأسماء المغربة بها -كما ظهر بالعينة- ٢٣٩ إسماً ، أي بنسبة قدرها ٧٩٩ , ١٠٪ من مجموع الأسماء المغربة الواردة بالعينة .

(٤) أما منطقة الجيزة وما ضم إليها ، فقد ظهر بها ١٤٦ إسماً مغرباً ، أي بنسبة قدرها ٥٩٧ , ٦٪ من مجموع الأسماء المغربة بالعينة .

(٥) وقد تقاربت أعداد الأسماء المغربة في منطقتي شبرا وحدائق القبة ، وما ضم إليهما ، ويبلغ عدد الأسماء المغربة في المنطقة الأولى منهما ٩٨ إسماً ، أي بنسبة قدرها ٤٢٨ , ٤٪ ، كما بلغ عدد الأسماء المغربة في المنطقة الثانية منهما ٩٧ إسماً ، أي بنسبة ٣٨٣ , ٤٪ من مجموع الأسماء المغربة بالعينة .

(٦) كانت مناطق القلعة وحلوان -وما ضم إليهما- ثم المنطقة الأخيرة ، أقل المناطق استخداماً للكلمات المغربة : فقد بلغ عدد الأسماء المغربة في القلعة ٧٩ إسماً ، وفي حلوان ٦٤ إسماً ، أما المنطقة الأخيرة فقد بلغ العدد بها ٥٢ إسماً ، أي بنسب قدرها ٥٧ , ٣٪ ، ٨٩٢ , ٢٪ ، ٣٥ , ٢٪ على التوالي ، من مجموع الأسماء المغربة الواردة بالعينة .

ويبـدو أن الزيادة الكبيرة في نسبة شيوع الظاهرة في المناطق الثلاث الأولى ترتبط بكثافة المحالّ التجارية في تلك المناطق .

كيفية تدوين الألفاظ المغربة :

لم تقـع كيفية تدوين الألفاظ المغربة ضمن أهداف الدراسة ، نظراً لأنها اعتمـدت دليل الهـاتف مصدراً لها . ولا يخفى ما يشوب الكلمات المغـربة -أحياناً- من تصحيف عند تدوينها به ، لصعوبة قراءتها باللغة الأجنبية أثناء تدوين الدليل تارة ، ولحدوث أخطاء مطبعية أثناء الطباعة تارة أخرى ، مما لا يسمح بدراسة تدوين الكلمات المغربة بدقة .

أنواع التغريب

بعد استقراء الأسماء التي رصدت بالدليل ، ومحاولة تصنيفها ، لاحظت الباحثة أن الأسماء المغربة يمكن تقسيمها إلى قسمين :

أولهما : ما إندمجت فيه الكلمة الأجنبية في اللغة العربية(*) ، بعد أن اكتسبت الطابع العربي ، وازداد شيوعها في اللهجة العامية بعد أن تبنتها هذه اللهجة ، وأكسبتها القوالب العربية ، وأخضعتها للذوق اللغوي العربي .

مثال ذلك الكلمات : موبليا - موتور - ديكور- أوتومبيل - كونتيننتال - أوتوبيس - إكسبريس - بلاستيك - ماكينة - برودري - تريكو - كريستال - كرنفال - منيفاتورة - فوتوكوبيا - فابريكة - تكنولوجيا - بازار - سنترال - مترو - فيلم - بوتاجاز - فيديو - ستوديو - سينما - تلفزيون . فنحن - حين ننظر إلى التراكيب التالية - نجد بعض الأسماء السابقة استخدمت فيها مضافة إلى غيرها : (أوتوبيس الوادي - إكسبريس الصعيد - بازار الموسكي - تكنولوجيا العصر الحديث - فوتوكوبيا الشرق - صيدلية سنترال الروضة - الشركة العامة لاستوديوهات السينما - منيفاتورة كرنفال الموسكي - برودري سلطان - مترو الأنفاق) .

كما نجد أن الإسم الدخيل وقع مضافًا إليه في التراكيب التالية : (بقالة السنترال - بازار الكونتننتال - الشركة المصرية لأعمال البوتاجاز - صناعات البلاستيك - عصفور لصناعة الكريستال - شركة المنيفاتورة) .

ونجد أن الإسم الدخيل مجموع جمع مؤنث سالماً ، أو جمع تكسير ، في التراكيب التالية : (أوتومبيلات الغربية - الشركة المتحدة للاستوديوهات

(*) ذكر في ضوابط الدراسة أن هذا القسم لم يدخل ضمن الحصر الخاص بعدد الأسماء المغربة بالعينة .

- العروبة للموبيليات - الوادي لماكينات الخياطة - الشرق لتوزيع الأفلام) .

ونجد أن الإسم الدخيل قد اتصلت به أداة التعريف العربية (أل) في بعض التراكيب السابقة ، وكذلك في التراكيب التالية : (العربية للتكنولوجيا - الأهلية للفوتوكوبيا - النصر للتليفزيون - السويس لتوزيع البوتاجاز - الشركة العربية للسينما - القاهرة للتريكو - المتحدة للديكور - النيل للبلاستيك) .

ونجد أيضاً أن الإسم الدخيل قد وقع موصوفاً أو صفة في التراكيب التالية :

(الفابريكات المصرية - معرض بيع موتورات كهربائية - البازار النوبي - مصر للموبيليات الذهبية - الفنية للإنتاج السينمائي) .

ونلحظ في التركيب الأخير أن الإسم الدخيل قد إتصلت به ياءالنسبة ، كما نلحظ أنه عطف على غيره في التركيب الآتي : (العربية للنسيج والتريكو) . كل هذا يدلنا على أن لغتنا قد استوعبت تلك الكلمات ، وتمثلتها ، وعاملتها معاملة الأسماء العربية ، مما فرض على الباحثة أن تنظر إليها نظرة الكلمات المعربة التي دخلت في نسيج اللغة العربية وصارت منها ، فلم تدرجها ضمن الدخيل الذي تم إحصاؤه أثناء الدراسة .

وثانيهما : ما جاءت فيه الكلمة ، أو التركيب الأجنبي تماماً كما هوبلغته الأصلية ، ولكنه كتب بحروف عربية . وينقسم - كما ظهر بالعينة إلى خمسة أنواع :

(أ) حروف هجائية أجنبية - ومنها ما يكون اختصاراً أو رموزاً لكلمات - أو أرقام أجنبية فقط ، أو أرقام وحروف . فمثال الحروف التي قد يرمز بعضها إلى كلمات : (مؤسسة إِنْ - تي تي للسياحة - إِنْ إن - آر إِن للتجارة الدولية - في آيْ بي للسياحة - إِنْ تي تي في - إيه يُو سي للاستثمار - في إِسْ كيه جروب - إِنْ سي إن كُورْبُوريشَن) .

ومثال الأرقام : (وَانْ تُو) ، ومثال الأرقام والحروف : (دَبل إِمْ - فور إم - نَايِنْ إِم للإسكان) .

(ب) نقل الكلمة الواحدة كاملة من لغتها الأصلية ، وكتابتها بالحروف العربية . مثل الكلمات الفرنسية (كادو - سواريه - لافي - لامور - نوفو - إيجيبسيان) ، والكلمات الإنجليزية : (ستاندارد - رويال - ليكس - سوان - بيراميدز - سِفِنْكس - ناشيونال - أورْيَنت - بيكنْك - دياموند - انجينير - اكسبورت - مَاذَرْهُود - فالي - إمبريال - تُوب - كايرو - مون - سِلّكت - لَكِي - ستار - ستي) ومن اللغات الأخرى اليونانية والإيطالية- : (تاقِرْنا - سِنْيوريتا) .

(جـ) نحت كلمة من كلمتين أجنبيتين أو أكثر . والنحت مصطلح لغوي يعني استخلاص كلمة واحدة من أكثر من أصل[1] ، ومن أمثلة النحت الذي ورد بالعينة :

---

(١) قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ما يأتي : «النحت ظاهرة لغوية احتاجت إليها اللغة قديمة وحديثاً . ولم يلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ولا موافقة الحركات والسكنات . وقد وردت من هذا النوع كثرة تجهيز قياسيته ، ومن ثم يجوز أن ينحت من كلمتين أو أكثر إسم أو فعل ، على أن يراعى - ما أمكن - استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد . فإن كان المنحوت إسماً اشترط أن يكون على وزن عربي ، والوصف منه بإضافة ياء النسب ، وإن كان فعلاً كان على وزن فعلل أو تفعلل ، إلا إذا اقتضت غير ذلك الضرورة . وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة» .

- البحوث والمحاضرات : الدورة ٣١ ، ص٢٠١ ، جهود مجامع اللغة العربية ص٣٤٠ .

(اجيبكو) و (جبشكو) ، وهما كلمتان منحوتتان من الإنجليزية .

	Egyptian Company
(ارتكس) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Arabic Textile
(ألبرو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Aluminum Products
(الوكول) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Aluminum Colours
(انجيكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Engineering Company
(انفودكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	International Food Company
(انكون) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Engineering Construction
(بارفيكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Perfume Company
(باريفابكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Pre-Fabrication Company
(ترافكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Travel Company
(كيمكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Chemical Company
(ماك) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Misr America Carpets

ويندرج تحت هذا النوع ما كانت إحدى الكلمات المنحوت منها إسماً لشخص ، مثل : (فاروكس) فهي منحوتة من (فاروق + لوكس) ، وكذلك (جنيكو) منحوتة من (جنينة + كو) ، والمقطع (كو) يمكن أن يكون اختصاراً للكلمة الإنجليزية (Company) ، أي : شركة جنينة - إسم الشخص - كما يعطي المقطع (كو) أيضاً إيحاء بالإضافة إلى ضمير الجمع في العامية المصرية ، أي : الخاص بكم . وأيضاً (شيمكو) منحوتة من (الشيمي + كو) و (أسامكو) من (أسامة + كو) ، و (آيوبكو) و (منيركو) و (سليمكو) و (حنانكو) ، (جمالكو) و (مطركو) .

(د) تركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر ، وتكون كل كلماته أجنبية ، إلى جانب خضوعه لأنماط التراكيب الأجنبية ، وأمثلته من الإنجليزية (سيرنج تورز - ترييل بي - أوفر سيز - ترافيل اكسبريس أوف ايجيبت - انجلو اجيشيان

بروفشن ستورز - سوبر ترانزيت - ووش ماتيك - الكترو موتورز - فوتو شوب - سنترال موتور هاوس - انتر ماركتيس - كير سيرفيس - نيو جنرال فارم - فيرست كايرو تريدنج - سبورت جروب - جولدن شوب - هابي سويت - ديكر بوي - جيو فيزيكال سرفيس - كومنتور انفستمنت - جنرال تريد كومباني - تكني تريد سنتر) ، وأمثلته من الفرنسية : (لادام شي - باري مود - فيلا دي بارك - جولي فيل) .

(هـ) تركيب مشوه غريب على العربية ، لا يدخل ضمن التراكيب اللغوية العربية ، أو هو تشويه للتركيب اللغوي العربي ، ويكون من مكوناته كلمات عربية ، مثل : (دنيا موتورز - جزيرة بالاس - طاهر فيلم - عبيد هاوس - مروة بالاس - فلفل بازار - الاتحاد بالاس - عيد هاوس - عنتر فوتو ستورز - الدقي فيديو فيلم - النيل إكسبريس - الشمس بيراميدز - سريع فوتو ستورز - شركة المصرية أتوموتيف - النيل هيلتون - نورا أوتيل - النيل جاردن - الجزيرة شيراتون - النيل زمالك - النيل سافوي السلام هيات - رمسيس هيلتون)[1] . فنحن نلاحظ - في التراكيب السابقة - أن المضاف إليه قد سبق المضاف ، أو أن الصفة سبقت الموصوف ، وأن المضاف تتصل به أداة التعريف العربية أحياناً ، وهذا لا يتفق هو والتراكيب الصحيحة للغتنا العربية .

وهذا النوع هو أخطر الأنواع على لغتنا العربية ، لأنه يقلب أوضاعها ويشوه تراكيبها ، ويخل ببنائها ، مما يفسد الحس اللغوي ، ويؤثر على تذوق اللغة عند أبناء العربية . ولهذا يجب علينا التصدي بشدة لوقفه ومقاومته ، حتى لا يشيع فيضعف الذوق اللغوي عند النشئ .

وقد يكون التركيب الغريب خاضعاً لنمط العربية في الرصف ، ولكن مكوناته

---

(١) د. نصار : (العربية لغتنا) .

تعـطيك إحساساً بالرطانة والغربة عن العربية ، مثل : (تورز زمالك) : فهو يخضع لنمط التركيب العربي ، ويعني (رحلات الزمالك) ، ولكن إحدى كلماته إنجليزية ، ولو قلب التركيب إلى (زمالك تورز) لخضع لنمط التركيب العربي ، ويعني (رحلات الزمالك) ، ولكن إحدى كلماته إنجليزية ، ولو قلب التركيب إلى (زمالك تورز) لخضع لنمط التركيب الإضافي - المضاف والمضاف إليه - في اللغة الإنجليزية . ولكن وضعه بهذه الكيفية حقق تشويهاً لكل من اللغتين العربية والإنجليزية . وكذلك فندق (بيراميدز الأهرام) يخضع لنمط التركيب العربي ، ولكن الكلمتين معناهما واحد ، والأولى بالإنجليزية والثانية بالعربية ، والأولى تعرب مضافاً والثانية تعرب مضافاً إليه ، فكيف يضاف الشيء إلى نفسه من غير سماع أو تأويل ؟ ولا يشفـع في ذلـك أن كلمة (الأهرام) هنا يقصد بها شارع الأهرام في مصر الجديدة .

العوامل التي ساعدت على انتشار ظاهرة التغريب في الشارع المصري :

لعـل ما أبـرزتـه نتـائـج الدراسة -في حدود عينتها- حول حجم ظاهرة التغريب ، ونسب انتشارها في مختلف الأنشطة والأحياء السكنية ، يؤكد ما تحمله الظاهرة من مخاطر تهدد لغتنا القومية . فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الدراسة توقفت في رصد الظاهرة عند منتصف ١٩٨٢ ، واستبعدت الكثير من الأسماء المغربة وفقاً للضوابط التي وضعتها ، إلى جانب الشواهد العديدة التي نلحظها بالشـارع المصري الآن ، وتشـير إلى تزايد الـظاهرة عن ذي قبل . فإن الأمر يستدعي ضرورة العمل على سرعة التصدي لها ، ويطرح في ذلك الوقت تساؤلاً حول الأسباب التي أدت إلى انتشار الظاهرة على هذا النحو .

وفي محاولة للرد على هذا التساؤل ، مع مراعاة مختلف العوامل والظروف التي صاحبت الـظاهـرة ، فإن التحليل المـوضـوعي يمكن أن يعـزي انتشارها إلى الأسباب التالية :

(١) قصور الوعي اللغوي لدى غالبية أفراد الشعب ، وعدم حرصهم على التمسك بلغتهم القومية ، على الرغم من أنها تأتي على رأس عوامل القومية في الأمة ، وتعد سمة هامة تميز الشخصية العربية ، وركناً بارزاً من أركان الكيان العربي ، وتتفق الباحثة في هذا الرأي مع د. مطر(١) .

(٢) شيوع الدراسة باللغات الأجنبية ، وإقبال الأعداد الهائلة من أفراد الشعب على إلحاق أبنائهم بمدارس اللغات ، التي تكون لغة التخاطب فيها داخل قاعات الدروس وخارجه هي اللغة الأجنبية ، فتخلق بذلك جيلاً يشعر بالإنتماء إلى البلد الأجنبي ويجري على لسانه نطق اللغات الأجنبية بصورة أسلس من لغته العربية .

(٣) ما يسود المناخ العربي -الآن- من الانبهار بالغريب(٢)، وبكل ما هو مستورد ، والنظر إليه نظرة الإعجاب بتميزه ، والإحساس بتفرده وعلوه على نظيره الوطني ، وبأنه الأجود ، والأقوى تحملاً ، والأجمل شكلاً ، والأكثر أناقة وذوقاً ، والأعلى كفاءة(٣) .

وقد يكون ذلك راجعاً إلى الرواسب القديمة التي تعود جذورها في مصر إلى أيام الاحتلال ، وما غرسه المستعمر من الشعور بتفوق الأجنبي وتميزه ، (عقدة الخواجة) التي طفت على السطح الآن ، وأدت إلى إطلاق الأسماء الأجنبية على أنواع النشاط المختلفة ، لتعطي انطباعاً بأنها تقدم سلعة أجنبية ، أو خدمة متميزة . وقد انسحبت هذه التسميات على أنواع الأنشطة المختلفة مثل : صالون (ديبوتييه - دي لوكس - اليجانت - مودرن) وشركة (توب آرت - سي هورس - لايتهاوس - جود كار - هابي اكسبورت) وزهور (فريش فلاورز) ، وأحذية (سيلفر شوز وآرت شوز) ، بل ان تأثيرها امتد إلى أسماء الأماكن الترفيهية أيضاً ، مثل : كازينو

(١) د. مطر : (رياح التغريب) ، في النقد اللغوي ص٢٣٦ .
(٢) د. بشر : (التغريب في اللغة والثقافة) ص٢٠ . (٣) د. مطر : في النقد اللغوي ص ٢٣٥

(ميرلاند - هابي لاند - سولت آند بيبر - باراداي) ، وكافيتريا (نيوستار - توت اكسبريس - بوسي كات) .

ويتصل بالعامل السابق أن يتصور بعض أصحاب الأنشطة أن الإسم الأجنبي يوحي للجمهور أن يقدم شيئاً ذا مستوى رفيع ، وللفئات المتميزة الراقية ، مثل : جزارة (هاي لايف - بون فياند) وترزي (لارج - كلارك) ، أحذية (جرين شوز - ليدر فارن - وتعني بالألمانية المصنوعات الجلدية) ، صالون (دي باري - تريه شيك - هاي آرت) ، ساعات (جوست - جولد ووتش) ، ومن الأنشطة الأخرى : (انترناشيونال ماركت - كراون كيميكال - مودرن موتورز - جولدن فارم - ريش جاليري - اتيلييه مودرن - سوبر هيت - تستي فودز - برفكت - بريليانت) .

(٤) تشجيع الحركة السياحية ، والعمل على إنعاشها - بوصفها أحد مصادر الدخل القومي - أدى إلى افتتاح فروع للفنادق العالمية الشهيرة ، وإلى تكرارها أحياناً ، بحيث يتحدد الإسم بموقعه ، مثل : (النيل هيلتون - رمسيس هيلتون - الجزيرة شيراتون - سونستا / كايرو) . ولما كانت إداراتها أجنبية - في الغالب - فقد استخدمت التراكيب الأجنبية فيها .

كما أدى تشجيع السياحة إلى زيادة عدد الفنادق والمنشآت السياحية ، واتخاذ أسماء أجنبية لها ، وكتابتها بالحروف العربية والأجنبية ، تسهيلاً على السائحين العرب والأجانب ، لكي يقرأها كل بلغته ، مثل : (سويس كوتاج - توريست بالاس - برزدنت - دريمرز - هورس هاوس - جران أوتيل - نيو وولد) .

(٥) ويتصل بالعامل السابق زيادة عدد الشركات السياحية بصورة كبيرة لمواكبة الزيادة الواضحة في نشاط السياحة الداخلية والخارجية واتخاذ معظم هذه

الشركـات أسـماء أجنبية براقـة ، وكتـابتهـا باللغة الأجنبية ، إلى جانب الحروف العربية ، لكي تخدم قاريء كل لغة من الأجانب والعرب ، إلى جانـب المصريين . ومـن أمثلة أسـماء تلك الشركـات : (بست تورز انترناشيونال سان تورز - جودلن تورز - جراند تورز - توب تورز - زد تورز - فلاينج كاربت - فلاينج ايجيل - صاني لاند - صحاري ترافيل - جرين فالي - هاف مون - هني مون - هوليداي دريمز -هولي لاند) .

(٦) الهجـرة المؤقتة والدائمة ، وتشجيعها من قبل الدولة ، وإنشاء وزارةخاصة بها ، تهتم بالمهاجرين ، وتعمل على حل مشكلاتهم من خلال اللقاءات الدورية التي تنظمها لهم مع المسئولين ، وتحاول جذب مدخراتهم لاستثمارها داخل بلدهم . وقد أدى ذلك إلى الزيادة الكبيرة في أعداد المهاجرين ، كما ساعد الاغتراب على تغيير أنماط تفكيرهم ، مما يؤدي بهم - عند عودتهم - إلى إنشـاء أنشـطة خاصة بهم ، أو الإسهام في الأنشطة التي تشبعوا بها وشاهدوها عن قرب ، واختيار أسماء تعكس صلتهم بالعالم الخارجي .

(٧) التقـليـد : فقـد يعجب أحـدهم بإسم أجنبي لمكـان أو متجـر زاره أثناء سياحة ، أو سمع عنه لشهرته ، فيكتبه على واجهة متجره ، ثم يأتي آخر ليقلده[1] . وهكذا نقرأ أسماء مثل : (اكسفورد هاوس - ريجنت هاوس - بيج بن - بيكاديللي - مونت كارلو - مونتريال - هامبورج - انديانا - ميامي - شانزليزيه - قصر الاليزيه - ستانلي باي) .

(٨) سياسة الانفتاح بمصر ، وما صاحبها وأدت إليه من :

(أ) سهولة الانتقال إلى البلاد الأجنبية والاتصال بها ، والتعامل معها في التجارة والسياحة ، مما أدى إلى الاحتكاك الكبير بالعالم الغربي .

---

(١) د. مطر : (رياح التغريب) في النقد اللغوي ص٢٣٥ .

(ب) إنشاء البنوك الأجنبية المشتركة التي تحمل أسماءها الأجنبية إلى جانب الإسم العربي .

(جـ) فتح السبيل أمام شركات الاستثمار - في ضوء الانفتاح الاقتصادي - لاتخاذ أسماء أجنبية ، مما يوحي أن منتجاتها ذات مستوى متميز[٢] عن منتجات الشركات الحكومية الوطنية وعلى مستوى مثيلتها الأجنبية .

(د) استثمار رأس المال الأجنبي - إلى جانب الوطني - شجع المستثمر المصري على إبراز الهوية الأجنبية[٢] لشركته ، استغلالاً لعقدة (الخواجة)

(هـ) فتح الباب على مصراعيه للشركات التجارية العالمية ، لاتخاذ وكلاء لها لبيع منتجاتها بمصر ، مما أبرز الأسماء والعلامات التجارية العالمية في الشارع المصري .

(و) إنشاء المناطق الحرة ، التي تحرص على إبراز صلتها بالمؤسسات والشركات الأجنبية التي تتعامل معها ، وتستخدم لغات غير العربية[٣] .

(ز) تيسير السبل من جانب الدولة ، والعمل على إنعاش الاستيراد في مجال السلع الاستهلاكية والكمالية[٤] ، إلى جانب ارتفاع مستوى دخول شريحة عريضة من المجتمع ، نتيجة لزيادة عدد العاملين في الخارج برواتب مغرية ، وكذلك زيادة عدد العاملين بالشركات والهيئات والبنوك الأجنبية والاستثمارية داخل مصر . وقد ضاعف

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ . (٣) المرجع السابق ص٢٣٦ .

(٤) صدر مؤخراً قانون يوقف استيراد الكماليات والسلع الاستهلاكية غير الغذائية .

ذلك من القدرة الشرائية لهذه الفئات ، وجعل التاجر يحاول إلقاء الضـوء على سلعتـه المستوردة من خلال واجهته ، فطالعتنا أسماء مثل : ملابس (نيولندن هاوس - مس موند - مس ايجيبت - هاي دام - لامود - بيلا دونا - اورجينال لاجولي - مانيكان - لاجراند دموازيل - هاي بيبي - جنتلمان سبورتسمان) .

(ح) ظهـور شريحـة من شرائح المجتمع أثرت ثراء فاحشاً وكبيراً بصورة سريعـة - نتيجـة للانفتاح - ومعـظمها من الطبقة غير المثقفة ، أصحاب الدخول الطفيلية ، مما أفقدها اتزانها وجعلها تحاول تعويض النقص الثقافي ، إلى جانب ضآلة المكانة الاجتماعية التي تحسها ، بمزيد من المظاهر البراقة ، مهما كلفها ذلك ، مما شجع المستثمر أو التـاجـر الـذكي على استغلال هذاالشعور ، لاجتذاب هذه الفئة القادرة مادياً ، وذلك من خلال الأسماء الأجنبية لمتاجره ، تلك التي يسعــدهم التشـدق بأسـمائهـا ، لإظهـار تفـرنجهم ، ومحـاولتهم الالتصاق بالمجتمع الأجنبي .

ويبدو أن التغريب أصبح لوثة تسيطر على عقول أصحاب المتاجر ، وموجة يحسون أنهم لابد أن يركبوها لكي يلحقوا بركب التطور ، حتى أن أحدهم - ويدعي العجاتي - طور إسمه على اللافتة ، حتى يبدو أجنبياً ، لئلا يفوته قطار التغريب ، فسمى متجره (بوتيك جاتي) ، وآخر وإسمه فاروق - ويعمل مصوراً - سمى محله (ستوديو فارو) .

(*) الأمثلة الواردة في تفسير ظاهرة التغريب في الصفحات السابقة ، ليست كلها من العينة موضع الدراسة ، بل بعضها أسماء لوحظت حديثاً أو نقلت من بحوث في الموضوع ، وأشير إليها في الهوامش السابقة .

الاستخلاصات :

من العرض السابق لمشكلة الدراسة ، والنتائج التي أسفرت عنها ، يمكن الخروج بالاستخلاصات التالية :

(١) يشكل التغريب ظاهرة تبدو واضحة في الشارع المصري ، وقد بلغت نسبة الأسماء المغربة في عينة الدراسة ١١,٠٤١٪ من المجموع الكلي للأسماء بالعينة .

(٢) تتفاوت درجة انتشار التغريب من نشاط إلى آخر ، ومن حي سكني إلى آخر .

(٣) تبدو أعلى نسب التغريب في الأنشطة السياحية والترفيهية ، والمتصلة بالأجانب في تعاملاتهم المختلفة ، وأقل نسبة في الأنشطة الحرفية ، وأنشطة الخدمات ، وتجارة المواد الغذائية والاستهلاكية .

(٤) تسود الظاهرة في المناطق التجارية مثل منطقة وسط القاهرة ، يليها الزمالك ثم مصر الجديدة ، ويقل انتشارها في المناطق الأخرى غير التجارية ، أو المناطق الشعبية كالقلعة وحلوان وغيرها .

(٥) أكثر اللغات شيوعاً - بالنسبة لهذه الظاهرة - اللغة الإنجليزية ، وتسود في الأغلبية المطلقة للأسماء في مختلف الأنشطة ، بينما تسود اللغة الفرنسية - بصفة خاصة - في مجالات الأنشطة المرتبطة بالأناقة والمظهر الخارجي .

(٦) يظهر التغريب في خمس صور ، وهي : استخدام الحروف والأرقام الأجنبية ، ونقل الكلمة الأجنبية بحروف عربية ، ونحت كلمة من كلمتين أجنبيتين أو أكثر ، وتركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر ، وتركيب لغوي عربي مشوه .

(٧) يعد تشويه التركيب العربي أخطر أنواع التغريب على لغتنا العربية المعاصرة ، لأنه يخل بالأبنية اللغوية العربية ، ويفسد نظامها النحوي .

خاتمة :

أبرزت نتائج الدراسة تفشي التغريب بين الأسماء التجارية في مدينة القاهرة ، بصورة واضحة أصبحت تشكل ظاهرة تلفت النظر في الشارع المصري .

ولنا أن نتخيل خطر هذه الظاهرة - إذا استمرت في الانتشار على هذا النحو الكبير من النمو - حين يأتي اليوم الذي نجد أنفسنا فيه لا نستخدم سوى اللغات الأجنبية في أسماء متاجرنا العربية . وهذا يشكل خطورة بالغة على لغتنا الأم ، ويجعلها غريبة في وطنها .

ولا شك أن صمت وسائل الاعلام عن نقد هذه الظاهرة قد ساعد على استفحالها ، بل تعدى الأمر حدود الصمت إلى المشاركة في ترويجها بطريق غير مباشر ، عن طريق الدعاية بوسائل الاعلان المختلفة في الصحف والإذاعة المرئية . كما ضاعف من تفاقمها عدم تصدي الجهات الحكومية المسئولة بصورة حاسمة لوقف هذا السيل الجارف من المسميات الأجنبية ، باستثناء قانون أصدرته وزارة التموين ، ويقتصر على ضرورة كتابة الإسم التجاري بالحروف العربية ، إلى جانب الإسم الأصلي بالحروف الأجنبية[1] . وعلى الرغم من أن هذا القانون لا يفي بالغرض ، ولا يتناسب مع حاجة المشكلة إلى حلول شاملة ، فإنه لم يتضح -حتى الآن- أي أثر لتطبيقه ، وهو ما يعني أن ظاهرة التغريب ، بالشارع المصري ، مازالت مشكلة قائمة تستصرخ ضمير كل وطني غيور على لغته القومية ، وتراثه الأدبي ، لكي تتحرك الدولة -بأجهزتها المعنية- للتصدي بقوة وحزم ، من خلال خطة واعية ، لكل ما من شأنه أن يعبث أو ينال من سيادة اللغة العربية - لغتنا الجميلة - على أرضها وبين أبنائها .

---

(١) د. مطر : (رياح التغريب) .

التوصيات :

في ضوء ما أسفرت عنه نتائج الدراسة حول حجم ظاهرة التغريب ، ومدى انتشارها -في حدود العينة- توصي الباحثة بما يأتي :

(١) ضرورة العمل على إصدار قانون يجرم استخدام الأسماء المغربة في الأنشطة التجارية العربية ، ويمنع الترخيص لها تحت هذه المسميات .

(٢) وضع القانون السابق إصداره -من وزارة التموين- بهذا الصدد موضع التنفيذ .

(٣) اقتراح العقوبات المناسبة والرادعة لمن يخالف هذين القانونين .

(٤) دعوة أجهزة الاعلام إلى التصدي لهذه الظاهرة ، وذلك عن طريقين :

(أ) تبني حملات منظمة للتوعية بخطورة هذه الظاهرة ، والحث على مواجهتها ، حرصاً على لغتنا القومية ، وهويتنا العربية .

(ب) رفض إعلانات الدعاية للأنشطة التي لا تحمل أسماء عربية .

المـراجـع :

أولاً - المراجع العربية :

(١) أنيس ، د. إبراهيم : ١٩٧٢ من أسرار اللغة . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الرابعة .

(٢) بشر ، د. كمال : ١٩٨٧ «التغريب في اللغة والثقافة» . القاهرة : محاضرة في مجمع اللغة العربية في ١٩٨٧/٣/٢م .

(٣) سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : ١٩٧٣ الكتاب (تحقيق عبدالسلام هارون) . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب – الجزء الثالث .

(٤) كامل ، د. وفاء : ١٩٨٠ جهود مجامع اللغة العربية في القضايا اللغوية . القاهرة : رسالة دكتوراه (غير منشورة) بكلية آداب القاهرة .

(٥) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : بدون تاريخ ، البحوث والمحاضرات . مؤتمر الدورة الحادية والثلاثين ، القاهرة : دار مطابع الشعب .

١٩٣٦ ، محاضر الجلسات . دور الانعقاد الأول . القاهرة : المطبعة الأميرية .

١٩٥٧ ، مجلة مجمع اللغة العربية . الجزء التاسع . القاهرة : المطبعة الأميرية .

(٦) مطر ، د. عبدالعزيز : ١٩٨٦ ، «رياح التغريب تهب على الشارع المصري» . القاهرة : مقال منشور في جريدة الأخبار المصرية في ١٩٨٦/١٠/٣٠م .

١٩٨٧ ، في النقد اللغوي . الدوحة (قطر) : دار قطري بن الفجاءة - الطبعة الأولى .

(٧) نصار ، د. حسين : ١٩٨٦ ، «العربية لغتنا» . القاهرة : مقال منشور في جريدة الأهرام المصرية ، في ١٤/١١/١٩٨٦ ، ص٩ عمود : أسوعيات .

ثانياً - المراجع الأجنبية :

Sa'id, Majed : 1967 "Lexical innovation through borrowing in modern Standard Arabic" Princeton near East Papers No. 6. Princeton University.

ملخص البحث

تشيع في الشارع التجاري المصري ظاهرة التغريب ، ويقصد به نقل الأجنبي -كما ينطق بلغته- وكتابته بحروف عربية ، على لافتات المتاجر . وهي ظاهرة تمسخ وجه الشارع المصري ، وتضفي عليه مسحة أجنبية تشوه لغتنا الأم .

وهدف الدراسة هو :

(١) التعرف على حجم ظاهرة تغريب الأسماء التجارية بالشارع المصري .

(٢) توضيح مدى انتشار الظاهرة بكل من الأنشطة التجارية المختلفة ، والأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى .

(٣) تحليل أنواع التغريب وتصنيفه .

وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية :

(١) يشكل التغريب ظاهرة واضحة في الشارع المصري ، وقد بلغت نسبة الأسماء المغربة بالعينة ١١,٠٤١٪ من المجموع الكلي لأسمائها .

(٢) تتفاوت درجة انتشار التغريب بين نشاط وآخر ، ومن حي سكني إلى آخر .

(٣) تبدو أعلى نسب التغريب في الأنشطة السياحية والترفيهية ، والمتصلة بالأجانب ، وتبدو أقل نسبة في الأنشطة الحرفية ، وأنشطة الخدمات وتجارة المواد الغذائية والاستهلاكية .

(٤) تسود الظاهرة في المناطق التجارية ، وهي : وسط القاهرة ، يليها الزمالك ثم مصر الجديدة ، ويقل انتشارها في المناطق الشعبية وغير التجارية كالقلعة وحلوان .

(٥) تسود اللغة الإنجليزية في التغريب في الأغلبية المطلقة للأسماء في مختلف الأنشطة ، بينما تسود الفرنسية بصفة خاصة في الأنشطة المرتبطة بالأناقة والمظهر الخارجي .

(٦) أنواع التغريب خمسة :

(أ) استخدام الحروف أو الأرقام الأجنبية .

(ب) نقل الكلمة الأجنبية بحروف عربية .

(جـ) نحت كلمة من كلمتين أجنبيتين .

(د) تركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر .

(هـ) تركيب عربي مشوه .

(٧) يعد تشويه التركيب العربي أخطر أنواع التغريب على لغتنا العربية المعاصرة .

Westernization Phenomenon of the Commercial titles in the Egyptian Streets. "A Survey study of Cairo".

Abstract :

The Commercial Titles in Cairo Streets are tending to Westernization, which means lexical borrowing from western languages. This phenomenon adds a strange touch to the streets.

The Study aimed to:

1. Define the size of this phenomenon in the commercial field.

2. Clarify the range of its extension in different commercial activities and resident disticts.

3. Analyse and classify its types.

Conclusions :

1. Westernization is an obvious phenomenon in Cairo Commercial streets. The percentage of the westernized names is 11,041% of the sample.

2. The phenomenon spreads differently from a commercial activity to another and from one resident district to another.

3. The highest percentate of the phenomenon can be noticed in the tourism and amusement activities. The lowest percentage can be seen in the hand-iwork والأنشطة الحرفية sevring, food and consuming commerce activities.

4. The phenomenon dominates the commercial areas: down town, Zamalek and Heliopolis. It is recessive in the public and non-commercial areas.

5. English language dominates borrowing of most activities, while French Language dominates, especially, the activities related to external appearance and fashion.

6. There are five types of westernization:
   . (a) Using foreign letters as abreviations.
   . (b) Writing a foreign word using Arabic Letters.
   . (c) Forming a new word from two or more foreign words.
   . (d) A foreign structure consisting of two or more words.
   . (e) A distorted Arabic structure.

7. The most dangerous type of westernization is the distortion of Arabic structure.

13. USA Today (February, 1987).

14. "Our Town - From Stage to Screen, " Anon., Theatre Arts, XXIV (Nov., 1940) p. 824.

15. Malcolm Cowley, ed., Writers at Work: The Paris Review Interviews (New York, 1952), p. 113.

16. Thornton Wilder, Three Plays (New York, 1961), p. XI. Subsequent references from Our Town and The Skin of Our Teeth are from this edition and will appear in the text.

17. Walther Tritsch, "Thornton Wilder in Berlin," Living Age, CCCXIIV (September, 1931), p. 45.

18. "Our Town - From Stage to Screen," p. 824.

19. Cowley, Writers at Work, p. 114.

20. Harrison Smith, "The Skin of Whose Teeth?" Part II, SRL, XXV (December 26, 1942), p. 12.

Unitarianism, or ethical culture." (p. 51) On the other hand, Robert W. Corrigan, dismisses the notion of Wilder as a religious writer. Wilder, he argues, lacks "the backdrops of religious belief". ["Thornton Wilder and the Tragic sense of Life," Educational Theatre Journal, XIII (1961), 171]. He adds that Wilder has a tragic view that sees life as a "cheat and its conditions those of defeat". (p. 169) Furthermore, he stresses that Wilder's themes are life, love and earth and that, "Each of his plays is a hymn in dramatic form affirming life". An affirmation that Corrigan claims not to be Christian. "Wilder has no belief in religion that is revealed or historical. These are basic premises of Christianity. To be sure Wilder is deistic, but . . . he is essentially a religious Platonist: and this position must ultimately reject the historic dimension as meaningful".(p. 167) One critic describes Wilder as "resolutely unfashionable," [Elmer Davis, "Caeser's Last Month", Saturday Review of Literature, XXXI (February 21, 1948), 11]. While another critic calls him a "folk author". [Malcolm Cowley, Exile's Return, p. 3.] While one critic considers Wilder's work singular and standing apart from the main stream of the American literary tradition, [Harold Clurman, "Theatre," Nation, CLXXXI (September 3, 1955), 210] another sees it as representing "continuity and tradition, [Malcolm Cowley, "The Man" .., 14.]

5. Amos Niven Wilder, Thornton Wilder And His Public (Philadelphia, 1980), p. 29.

6. Bamber Gascoigne, Twentieth Century Drama (New York, 1966), p. 24.

7. Ibid., p. 24.

8. Ibid., p. 36.

9. Thornton Wilder, "Preface" in Our Town, The Skin of Our Teeth, The Matchmaker (London, 1975) p. 8.

10. See my "Man and the Divine: Religious Concerns in Wilder's Early Dramatic Works," Bulletin of the Faculty Of Humanities And Social Sciences, Volume 10 (1987).

11. Gertrude Stein, Four in America (New Haven, 1947), p. XVI.

12. Rex Burbank, Thornton Wilder (New York, 1961), p. 87.

The common occurrences of daily life are robbed of their significance when Wilder plays them against the vast stretches of time. But this juxtaposition, however, shows the cyclical pattern of life which in turn shows that the sum of existence can be explain only by the assumption that there exist a definite design in the microcosm. Wilder implies that we cannot know more about this design and we cannot explain the riddles of the universe. Consequently, Wilder agrees with Spinoza that we can give life the meaning our minds choose to give it; with Plato, that each person must be morally responsible in order to give his life significance; with Aristotle, in a belief that man can be divine and can be part of God, the beginning and the end of all things.

Wilder insists in this play that a man should be emphatically alive enjoying his existence, that a man becomes what he makes of himself, that man should have discipline because he is responsible for his fellow man, and finally that man should be committed to action. But it is belief in God, the Alpha and the Omega, that informs Wilder's position and gives ultimate meaning to a world that otherwise seems meaningless.

NOTES

1. Michael Gold. "Wilder: Prophet of the Genteel Christ," New Republic, LXIV (October 22, 1930), 267.

2. Malcolm Cowley, Exile's Return (New York, 1951), p. 304.

3. Malcolm Cowley, "The Man Who Abolished Time," SRL XXXIX (October 6, 1956), 52.

4. Edmund Fuller, Books With Men Behind Them (New York, 1962), p. 42. Other scholars had conflicting opinions also. Francis Fergusson, for instance, places Wilder in the company of Elliot and Brecht, then treats the three writers as allegorists who used the theater "in the service of their consciously worked out moral or philosophical ideas . . . Their aim is not discussion in any sense, but teaching . . ." [Francis Fergusson, "Three Allegorist: Brecht, Wilder and Elliot," The Sewanee Review, LXIV (Fall, 1956), 41]. In discussing Wilder's philosophy, Fergusson describes it as a sort of religious Platonism: deistic, but not more Christian than

Instead of a new world, the third act presents a world that has suffered from a war that has just ended. Antrobus who was fighting Henry-Cain comes back home hopeless. But he recovers his hope when he remembers that living means struggle and that everything must be fought for. "All I ask is the chance to build worlds and new Gods has always given us that. And has given us new voices to guide us; and the memory of our mistakes to warn us . . . We've come a long ways. We're learning." (p 136) voices Antrobus refers to are personified as hours that recite passage from, Spinoza.

> After experience had taught me that the common occurrences of daily life are vain and futile; and I saw the objects of my desire and fear were in themselves nothing good or bad save insofar as the mind was affected by them; I at length determined to search out whether there was something truly communicable to man.

Plato,

> Then tell me, O Cristias, how will a man choose the ruler that shall rule over him? Will he not choose a man who has first established order in himself, knowing that any decision that has its spring from anger or pride or vanity can be multiplied a thousand fold in its effects upon the citizens?

Aristotle,

> This good estate of the mind possessing its object in energy we call divine. This we have occasionally and it is this energy which is pleasantest and best. But God has it always. It is wonderful in use; but in Him how much more wonderful.

And lastly from the Bible,

> In the beginning, God created the Heavens and the Earth; and the Earth was waste and void; And the darkness was upon the face of the deep . . . And God said, Let there be the light and there was light. (pp. 136-137)

Sabina, ending the play in a scene that is similar to the opening scene says, "This is where you came in. We have to go on for ages and ages yet. 'You go home. The end of this play isn't written yet," (p.137)

In the Skin Wilder fuses the homely daily life events of a family (the Antrobuses), with the history of mankind in its development through time. In each of the three acts, the family faces a major crisis: the ice age, the flood, and war. A microcosm, the Antrobuses are described as a "typical American family," yet they are rather a-typical human family, The action takes place in a perpetual present suffused with a geological, Biblical and then historical chronology.

In the first act of the allegory, Antrobus, who stands for Adam and the eternal male, has just finished the alphabet and has invented the wheel. He is described as a fine man, husband and father and "a pillar of the church and has all the best interest of the community at heart". His wife Eve, the eternal female and mother, comes across as a fine woman who "lives only for her children". (p. 71) There are two children in the family, Henry-Cain and the eternal evil and Gladys, hope and goodness. The family has a maid, Sabina, an eternal Lillith.

The family indulges in everyday ordinary action that compresses, at the same time, the progress of mankind in thousands of years. A crisis threatens the house: ice pushes south and freezes everything. The Antrobuses give shelter to Homer, Moses and the Muses and fight the ice with fire they build as Henry learns the multiplication table and Gladys learns the alphabet and the Bible. The act ends with Sabina asking the audience to pass their chairs to feed the fire and save the human race. The whole act stresses the fact that faith in religious and human values will save the world.

The second act takes place in Atlantic City where the "ancient and honorable order of mammals, subdivision humans" hold their convention. The situation of the world seems to be like that before the Flood. Gambling and seduction prevail. Antrobus - Noah - who gives the watchword for the future as "Enjoy Yourselves", succumbs to the seduction of Sabina, who has won a beauty contest. Henry kills a Black man with a stone. A fortune teller warns of the coming deluge and predicts a narrow escape. Mrs. Antrobus refuses to grant her husband a divorce and by this action she saves the marriage and the family from the deluge. The last words of the act are addressed to the Antrobuses by the fortune teller, "Think it over! A new world to make. - Think it over!" Thus, the affirmation in this act follows primarily the Judaic-Christian tradition.

rapidly. Emily notices this from her vantage point after her death and sees the blindness of human beings because they do not notice all the "wonderful things" that happen around and to them. She asks the stage manager if there were human beings who realize every minute of life while they live, and he answers that only "the saints and poets" do. (p. 62) To establish the significance of the little things of life, Wilder manages rather successfully to make the homely sublime and the everyday event integrated with the eternal and gives these events the tint of the enigmatic and the reverent.

By presenting the entirety of existence, Our Town tries to present the truth. It transmits a sense of human limitations. A hero should assert his will and should give life meaning by living fully. Death, which must be accepted with stoical resignation, will cut man's part of living. Human reason would do best to accept the will of the divine. Wilder accepts this will, affirms the goodness and justice of the system he portrays and sends his audience away exalted in spirit and with a deep sense belonging to the system portrayed in the play. This view of existence implicity relates to Christianity, but Wilder's beliefs on this point remain unstated although the relationship seems clear and becomes clearer in The Skin of Our Teeth (1942) where Wilder seeks the vision of a unity in the universe through combining Biblical and evolutionary history.

Although The Skin won for Wilder his third Pulitzer Prize, it did not win unanimous approval, for the play was received with a mixture of praise and condemnation. Both Bernard Grebanier and John Gassner rated the play as one of the best plays in the history of the American theater, while Joseph Campbell and H.M. Robinson accused Wilder of plagiarizing Finnigan's Wake.

Wilder, who professed the deep indebtedness of the play to James Joyce's work, was concerned mainly in "trying to make some sense out of the multiplicity of the human race and its affections".[19] He was fascinated with Joyce's book because it presented a pattern similar to the one he himself used in "The Long Christmas Dinner," where a cyclical concept of history was adopted. The morality play structure in The Skin was not noticed when the play was first produced. Harrison Smith, in a short review of the first production, saw the play as "a morality play, its theme as ancient as time - a morality play without the moral ardor which could have captured the imagination of the audience with its recital of mankind's long agony, his indomitable hope."[20]

then the young wife; and so on. The elements of make-believe in the presentation are stressed throughout the play helping thus to establish the allegory and to force the audience to remain aware that the action on stage must be thought about and interpreted.

The deities of Greek Drama and the God of the morality play are replaced by a "cosmic spirit" that permeates the whole play. Rebecca, George's sister, identifies this "cosmic spirit" at the end of the first act as the Mind of God. She tells her brother,

> I never told you about that letter Jane Croft got from her minister when she was sick. He wrote Jane a letter and on the envelope the address was like this: It said: Jane Croft; the Croft Farm; Grover's Corners; Stutton Country; New Hampshire; United States of America . . . Continent of North America; Western Hemisphere; The Earth; the Solar System; the Universe; the Mind of God - that's what it said on the envelope. (p. 28)

Wilder finishes his parable by reporting and presenting the highlights of the lives of his characters in their existence in the Mind of God. At the very end, the stage manager assures everyone that "There's something waydown deep that's eternal about every human being". (p. 52) Through the elevation of his characters to the realm of idea and type, and by compressing the life of every man and playing against the stretches of time, Wilder manages to evoke in his audience belief in what they see, and experience the revelation he wants them to have.

When he presents the humdrum of daily life of every man, Wilder shows the truth about life, shows the insignificance of this life in relation to the broad framework of the universe he presents which he broadens with every act. But by investing the play with the cosmic spirit, by suggesting that human beings live in the Mind of God, Wilder gives the life of every man a significance and by that he shows himself as a religious person, for in this attitude toward life, the universe and God, Wilder attempts to effect an adjustment between man and "the existence he finds himself in", a framework of personal security. A short leap of faith and the nature of the world is revealed in personal premonition, so one would know beyond the ability of anyone to teach him that the universe has a design. Consequently, every minute of life becomes valuable; man should take everything life offers with gratitude, not for granted. But people walk in self-centered dreams while their lives are running out

The second statement appears in the intoduction of hisThree Plays.

> Our Town is not offered as a picture of life in a New Hampshire Village; or as a speculation about the condition of life after death . . . It is an attempt to find events in our daily life. I have made the claims as preposterous as possible, for I have set the village against the largest dimensions of time and place . . . Emily's joys and griefs, her algebra lessons and her birthday presents - what are they when we consider all the billions of girls who have lived, who are living, and who will live? Each individual's assertion to an absolute reality can only be inner, very inner . . . Our claim, our hope, our despair are in the mind.[16]

Instead of Shakespeare's seven ages of man, Wilder selects three periods to present in three acts: "Daily Life," "Love and Marriage," and "Death." The selection itself is significant in its emphasis on human interaction and the chain that binds people together. One can restate the titles of the acts as: the state of the chain of being, how new links are forged, how these links end. The "moral" is conveniently conveyed in this last part through the classical device of a visit to the underworld. Wilder introduces a stage manager who serves many purposes including initiating the audience to "secrets" and facts and commenting on the main action of the play: life and how it should be lived. He serves to keep the dramatic illusion from getting too realistic thus allowing the audience to think and feel with the characters on stage yet at the same time keep the action flowing smoothly thus enhancing the theatricality of the play.

Wilder was proclaiming as early as 1931 the importance of believing in the "Significance and even in the concealed implication of every event".[17] Our Town presents exactly such a concept of life. The play tells a very simple and well known story. The first act presents the "Daily Life" of two families. The second act deals with "Love and Marriage" of the son and daughter of the two families. The last act presents the last stage of man's life, "Death". Two tables and some chairs serve as scenery and are arranged by the stage manager, who serving as the counterpart of the Greek Chorus, introduces the play, narrates some of the incidents, plays some of the minor parts and comments on the action. The characters, although somewhat individualized by their speech, remain as Wilder described them, "Halfway abstractions in an allegory".[18] They come close to being types, cliches of small-town life, and thus become symbols easily. George must be seen not as a particular person but rather the son and then the husband; Emily is the daughter and

Religion . . . has very little to do with cult and dogma . . . Religion is what a person knows - knows beyond knowing, knows beyond anyone's power to teach him - about his relation to the existence in which he finds himself.[11]

He also formulated a theory about the theater which owes a lot to Stein. He became convinced that the theater was better than the other arts because the viewers in a theater could see pure existence, could know the pretense involved and consequently interpret it for themselves. He wanted such kind of drama to restore to the theater what it had at one time. To Wilder, a play came to mean a religious ceremony of some sort where the audience would muse on the ritualistic interpretation of life, the human condition and the position of man in relation to humanity and the universe. By producing such a play Wilder was hoping to revive the "elements of mystery and love that are the basis for the affirmation of a higher presence".[12]

Our Town was first produced in 1938 and since then it has been produced very frequently in some town or another in the United States and other countries all over the world. Almost fifty years after its initial production, the play in 1986 held second place in the list of plays produced most often in the U.S.[13] The play won for Wilder his fame as playwright and is considered one of the best American plays. Critics, almost unanimously, compliment his for this "masterpiece" considered by many to be a classic.

In Our Town, Wilder chooses to relate a parable, a "generalized allegory,"[14] following the structural formula of morality plays. He aims to discover the truth if ordinary life and the human experience and to dramatically express this truth in a show that would hold the "unified crowd". Two statements of Wilder about Our Town can help us understand the play. In the first statement, Wilder talks about his

Unresting preoccupation with the surprise of the gulf between each tiny occasion of the daily life and the vast stretches of time and place in which every individual plays his role. By that I mean the absurdity of any single person's claim to the importance of his saying, "I love!" "I suffer!" when one thinks of the background of the billions who have lived and died, who are living and dying, and presumably will live and die.[15]

was different from his contemporaries by having a direction and ideals, a fact that made him suspect to the social critics who saw ills associated with religion and saw writers they did not agree with as religious (i.e. comformist), defensive, foolishly sanguine and hence indirectly endorsing the social structures around them.

Wilder had a "religious" background. But more importantly his background included, among other things, classical education-reading of the Greek and Roman writers, foreign travel, and exposure to the theater at an early age. All contributed to shape his theater and his themes. Wilder was dissatisfied with both the tragic and the comic theater of his time for he perceived it to be inadequate, evasive, and aiming to be "soothing".[9] His early dramatic works showed him attempting to experiment in form yet many of these works had traditional themes.[10] These plays were electric in nature, reflecting Wilder's reading in the classics, in the Romantic and Victorian poets and the Bible. These plays appeared as The Angel That Troubled the Waters and Other Plays (1928). Of them, Centurus seems to be a dramatization of Plato's theory of "ideas". The Penny That Beauty Spent, The Message and Jehanne, and Fanny Otcott have love as the basic system of faith. Leviathan, and And the Sea Shall Give Up Its Dead, Nascunter Poetae among others, seem to be concepts that Wilder wants to dramatize. But, the ideas in these plays remain essentially unembodied. Some of these plays like The Servant's Name was Malchus, Hast Thou Considered My Servant Job, and The Flight from Egypt, present Christian ideas in a format influenced by the form of the medieval religious drama. Wilder's craft improves in his second collection of plays, The Long Christmas Dinner and Other One Act Plays. In some of these plays, especially The Long Christmas Dinner and The Happy Journey to Trenton and Camden, Wilder displays new perceptions of the dramatic art and a deft manipulation of the dramatic conventions of time, place and the box-set.

Wilder's Our Town and The Skin of Our Teeth were produced within a span of four years. Both retain elements from his earlier plays but they display the subtlety of a writer in complete control of his material. In the early plays, he was learning his craft and attempting new techniques and concerning himself mainly with the mastery of his form.

When Wilder was teaching at the University of Chicago he met Gertrude Stein and they began a long friendship. From Stein, Wilder learned many things, one of which was her definition of the religion which he explains in an introduction he wrote for her book Four in America:

Most of the literature written about Wilder prepares one to understand the summation of the critics' treatment of Thornton's work offered by Amos Wilder, the playwright's senior brother:

> Wilder, they agree, is indeed somewhat anomalous and hard to pigeonhole, but he falls outside the main line of advance of the novel or the drama. His work has been on the margin of those explorations and engagements so essential to our twentieth-century experience. Worst of all, he smacks of Middle America and even a disguised religiosity. Thus all across the board - subject matter, outlook, style - he does not fit the common premise or lend himself to the central debate.[5]

When Wilder began publishing in the twenties, the cruelties and harsh realities of World War I had generated spiritual emptiness and lack of direction. Many of Wilder's contemporaries, influenced by the European realists like Ibsen and Strindberg, either satirized what they saw - one can take Elmer Rice's The Adding Machine as a representative example - or hated it completely. Moreover, they saw no form of idealism that was acceptable to them and their plays were marked with the absence of a specific course of action, prompting one critic to dub the theater of the twenties a "Theater of inaction, a negative theater".[6] In contrast, the onslaught of the devastating economic depression of the thirties brought on a social and political theater. Wilder's contemporaries wrote about the masses, their struggle and their pain. Some of them saw a chance to examine and reject the accepted values of previous generations and present solutions to the ills they perceived.[7] Brecht, for instance, wrote didactic plays to teach people about specific problems. Elmer Rice wrote We, the People (1933) to expose corruption. Odets' Waiting for Lefty (1935) called for strikes to protest economic conditions. In general, the theater of the thirties was political theater about the necessity for "action" to solve social problems.[8]

Wilder's plays do not fall into the general trend of the twenties or the thirties. In fact, at a time when idealism was lacking, Wilder presented a theater that has ideals. When the rejection of traditional values was the trend among writers, he presented a theater that affirms the bedrock of traditional values. This is not to say he did not reject anything, for he did reject the traditional format of the theater of the previous generation. One can argue that he followed the general trend of his contemporaries by rejecting not what they rejected but the forms of the theater that he saw. In content he

"Thornton Wilder's Our Town and The Skin of Our Teeth"

Dr. Ahmad Ramez Kutrieh

A preoccupation with explaining life marks Thornton Wilder's two major plays : Our Town and The Skin of Our Teeth. He develops in these plays a vision that focuses on what he considers to be the essence of all that life has to offer. The plays aim to produce in the audience a sense of unity in the universe, of harmony between the physical and the transcendent worlds, of a conciliation between the here and the hereafter, and of an enchancement of the relationship of man with the divine.

Wilder's plays have been attacked and defended with labels such as "humanism," "mysticism," "didacticism," and "religious Platonism". Michael Gold, for instance, charges Wilder of presenting what he termed a "dilettante religion".[1] On the other hand, Malcolm Cowley, a critic who describes Wilder as "serious writer" absorbed with "moral problems"[2] - defends him against Gold's charge and points out the similarities between Wilder's work and that of the transcendentalists.

Wilder's work, he says,

> Has more than a little of the moral distinction they tried to achieve, and like their work it deals with the relation of one to one, or of anyone to the All, the Everywhere and the Always. Like theirs, it looks toward the future with confidence.[3]

Edmund Fuller, evaluating the work of Wilder, joins Cowley in defending Wilder's work by declaring it

> Permeated by a profound mystical and religious sensibility - too mature to war upon or sneer at orthodoxy, too creative to fit snugly in its confines. His vision and celebration of man are harmonious with Christian humanism. [4]

2. Beneke, Jurgon. (1981). Cultural Monsters, Mimicry and English As An International Language. In Language Incorporated, Teaching Foreign Language in Industries, Pergamon Press. 1981.

3. Davies, Eirlys. (1987). A Contrastive Approach To The Analysis Of Politeness Formulas. Applied Linguistics, Vol. 8, No. 1, Oxford University Press, 1987, pp. 75-88.

4. El-Sayed, Ali M. (1986). Varieties Of Today's English: Implications For Teaching English As A Foreign Language In The Arab World. ITL, Review of Applied Linguistics, 76, 1987.

5. El-Sayed, Ali M. (1986). Native Speakers of English and EFL Teaching In The Arab World. Lexis, Winter Issue, No. 5, 1985/86, Kuwait University Publications, Kuwait.

6. Kachru, Brj B. (1981). The Pragmatics Of Non-Native Varieties Of English. In English For Cross-Cultural Communication. New York: St. Martin's Press

7. Schon, Catherine. (1987). The Question Of Pronunciation. Forum, Vol. XXV, No. 4, pp. 22-27.

8. Selinker, Larry. (1972). Interlanguage. IRAL, IO, 3, pp. 409-27.

9. Smith L. and K. Rafiqzad. (1979). English For Cross Cultural Communication: The Question Of Intelligibility. TESOL Quarterly, 13, 3, 1979.

10. Strevens, Peter. (1987). English As An International Language. Forum, Vol. XXV, No. 4, pp. 56-64.

11. Wilkins, David. (1975). Second Language Learning and Teaching.

12. Zoughoul, Mohammed Raji. (1980). Diglossia In Arabic: Investigating Solutions: Anthropological Linguistics, Vol. 1, 22, No. 1, 1980, pp. 201-17.

It has been proved, for instance, that the motivation of Hispanic students studying in the U.S. schools has increased substantially when the reading matter in English textbooks reflected their preferred cultural context. The reading comprehension of those students also improved with the use of translated readres from the Spanish language.

There is no harm in preserving the culture of Arab students when learning English. Arab learners should also be given the chance to comment on the sociocultural norms of their own culture and compare and contrast them with the socio-cultural norms of the native English speaking countries and in this way their own cultural identities could be asserted. In feeling that they are compelled to acquire English as an international language, Arab students (especially the young) resign to a status of subordination as a result of the cultural and ideological dominance of the native speakers of English. In always reffering in learning English to the familiar topics and issues that are related to the immediate milieu of the students, Arab's cultural identities are asserted.

There is no harm, too, in encouraging Arab students who learn English as an international language to colour their English with renderings from their language. This is acceptable as long as they are aware that the form is not an authentic English form and should therefore be used only for the particular occasion, a communicative variety created for the time being. The result will be an occasional focus on 'poetic' functions of language (in Roman Jakobson's sense), language that draws attention to itself. This should help to solve the problem of the 'flatness', the expressive poverty of the stylistically unmarked, neutralized foreign use of English. For instance, Arab users of English could refer to idiomatic expressions of their own langauge and enrich the communication dialect of English with exotic and poetic elements that could be introduced or commented on by 'as we say in Arabic' or 'in Arabic, we have an expression', so that the Arab user can add something from his own langauge to the variety of English as an international langauge.

The above are only some of the problems that need to be dealt with in discussing English as an international dialect of communication in the Arab World. More research needs to be done in how to deal with such problems.

BIBLIOGRAPHY

1. Abuhamdia, Zakaria, A. (1984). English Departments at Arab Universities: Towards A Planning Based Model. In Language Problems and Langauge Planning, Vol. 8, pp. 201-217.

langauge learning group should be equivalent to the target language speaking group), which is one of the vital parameters of a successful language learning situation, is, unfortunately superseded by one of cultural and ideological dominance. What ought to be done, then, is the development (at least for older students and adults) of a set of 'intercultural gambits' that are not ethnocentric but are metacommunicative, gambits that must be 'structurally and psycho-socially within the learners' range and at the same time suited to fulfilling the regulatory functions in interactions. These gambits have to be empirically tested with Arab users of English as to their structural manageability for a variety of communicative settings.

The arguement is not for a new brand of English in international settings. If the speakers of Arabic are to be permitted their own brand of English, then the speakers of all other langauges should be permitted their own brand and that means there should be no international standard English for communicative purposes. We should not isolate the Arabs from that portion of the world that uses English in international communication. As non-native speakers of English, emphasis in learning English for international communication should be laid on the 'non-ethnocentred use' of the langauge since such use is determined by the job, hobby, or field of study of students.

We are not arguing that Arabs should acculturate International English to their own language/culture, otherwise there could never be an international standard. Some materials that are taught in the Arab World are not related to the students local values, culture, customs and traditions. Alptekin (See Alptekin 1984) subscribes to the view that native speakers of English in the Third World who work as teachers attempt, in their teaching the language, to modify the students' cognitive and affective behaviour so as to concentrate on western values and ideas of the western culture. Such attempts make students (in our case Arab students) hesitate to accept those values and ideas and even to resist them.

Wilkins, too, subscribes (See Wilkins 1975) to the view that the values and cultural traditions which accompany the process of cultural transfer from English speaking countries are often considered alien and thus, considered unacceptable to the indigenous culture of the students. That is why it has been increasingly recognized in contemporary reading texts that the cultural characteristics of the learner should be considered in the development of reading materials and instructional metnods.

or thanking, but also the kinds of context where such acts can be appropriately performed: the kinds of behaviour felt to call for thanks, the circumstances of meeting where a greeting is appropriate, and so on.

Conclusion:

We should make users of English as an international variety in the Arab World aware of all the problems touched upon briefly in this paper. The acceptance of English as an international communication dialect poses a serious problem, i.e. the problem of uncontrolled grammatical and stylistic degeneration. This communication dialect of English will have to be reauthenticated by a steady inflow of authentic English. Our model is the educated native speaker of English and we have to resort to the lexico-grammar of educated English. As for the native speaker accent, teachers should encourage students to strive very hard to emulate it and if some cannot reach that goal, they should not worry. Smith and Rafiqzad (See Smith and Rafiqzad 1979) question the validity of native accent and native speaking patterns as English models to be emulated by non-natives who are speakers of other langauges.

Acculturation is not a realistic aim with regard to the 'lingua franca' use of English and is no longer required by the foreign user. To guarantee the assertion of the sociocultural identity of the Arab learner of English, some existing materials have to be rigorously scanned as to ethnocentricity in content and linguistic features. Some forms in those materials are apparently ethnocentric and will not be accepted especially by older students and adult learners who still view English as the language of the old colonizer of most of the Arab World. With those students questions should be asked : Does the material presented to such adults invite the learner's identification? Does it show consideration of the use of the language by non-natives or does it expect them to take over roles alien to them? Are the paralinguistic aspects of the materials culturally neutral or culture-specific? The solution to such a problem is to develop and empirically validate a set of forms that are not ethnocentric and that learners can manage and accept. There is, indeed, no reason why anyone, because he speaks English, should not follow his own cultural traditions.

Given the massive exposure of the Arab World to the institutions and patterns of the Anglo-American system, the status of equivalence (the target

users. For instance, acknowledging a compliment, reciprocating casual remarks beyond comments on the weather are felt to be difficult, just as are commenting on aesthetic or emotional qualities or trying to be witty, sarcastic or comforting. There are, for example, typical comments one has to make as a listener to a story, to show interest or surprise, to encourage the narrator to continue.

A listener not producing responses such as 'oh really'; 'oh no'; 'oh dear'; 'that can't be true' appears to be inattentive or, worse, hostile, again without being aware of it and without a chance of remedying it. A great many of these responses, especially in connection with the authentic intonation, are so culture specific that they are not readily mastered.

Other problems that Arab users of English encounter in the conduct of conversation are turn-taking, 'opening gambits' and 'closing gambits'. Unfortunately, very little is known about the rules governing such encounters. 'Closing gambits' or 'conversational terminators', are on the other hand, of great importance for the presentation of self and the awareness of the other in face-to-face interactions.

Those gambits are a problem because they are indirect means of expression. For instance, the 'lubrication' of conversation gambits are full of concealed cultural values which make them difficult to see through, sometimes antagonistic to the foreign user's system of values, and difficult to memorize because of their complex structure. Politeness formulas, too, are a problem for young users of English simply because they tend to meomorize a few widely used phrases and trot them out on all the occassions on which corresponding formulas in their first language would be appropriate.

The problem is that a pair of similar politeness formulas in two languages rarely turn out to be completely equivalent in all respects, while the foreign language learner groping for words is only too happy to assume that they are. A thoughtful discussion of some contrasts between the formulas used by two cultures can show that the true significance of a formula is determined by a complex of cultural and social conventions. (Davies, 1987:77)

The successful language learner must not only know which formulas can be used for the performance of particular illocutionary acts such as greeting

non-native speech (if we disregard true bilingualism). Rather there are isolated linguistic feartures whose social significance is doubtful at best. For instance, the Arab user of English does not have the linguistic competence to react to new social settings within which he can adjust and differentiate, for example, between degrees of intimacy (e.g. friends-acquiantances-strangers) that presuppose different styles.

In English as a foreign language, slang is usually not recommended; but then very informal or slangy variants are very unlikely in non-native speech, just as unlikely as very formal variants. All lof these variants presuppose a dgree of flexibility on the part of the learner which would be Utopian to strive for among Arab users of Enlgish as an international language.

In English, too, there exists phrases meant mainly for the regulation of social relationship and the structuring of discourse. They 'take the edge off' what is being said, soften the blow' of critical remarks or 'lubricate' the conversation. The listener has to have a system of 'translating' these highly conventionalized forms, e.g. into degrees of politeness. More than anything else in language such forms are embedded in the cultural tradition of a society. They are of high importance for communicative competence since society holds them in store for ritualized exchanges, the sociolinguistic do's and don't 's.

English has, also, a high degree of explicit, elaborate downtoners. For example, phrases such as 'well', 'I'm afraid I've got a bit of a problem' are used as introduction to confessing that one can't keep a promise or commitment. In other languages different grammatical feaures to tone utterances down are used. It, thus, seems that it is not the communicative competence that is deficient in speakers of English as an international language, but the linguistic means to express it.

Indeed, Arab users of English apply their cultural norms wrongly to the English setting and infer a degree of intimacy, for example, fron the use of first names which frequently is not meant to be implied. For example, English generally uses first names among peers, which is not, however, distinctive as to familiarity. In Arabic, as in French, specific forms are used to express degrees of familiarity linguistically. Arab users of English, and I believe other foreign language users too, regularly identify phatic communion as a major problem area. It is the social uses of the language that are difficult for these

the message includes a sense of personal identity. It is, in other words, not only the referential function of language that is required, but also its expressive function. It would be interesting to see how foreign language users could be encouraged to 'colour' their English with renderings from their own language so as to assert their own cultural identity. It would be a very limited view to expect the foreigner to forget his identity the moment he speaks English.

To express oneself in a foreign language in an international setting is an extremely difficult task. In order to function as signs, linguistic and paralinguistic/non-verbal features have to be used intentionally, consistently and arbitrarily. In foreign language, there is always an element of doubt about this. The question that is frequently asked by the foreign language user is: does the speaker mean what he says, and on his part as a speaker, does this particular linguistic form precisely reflect his intention? Is the use of one variant instead of another really a matter of choice, deliberate and therefore significant? Is the speaker silent because he lacks the words or is his silence intentional?

The linguistic competence of the foreign language user (especially in the area of grammar and vocabulary among Arab learners of English) is limited. Using English as an international language invites the foreign language user to select (if he can selct at all) from a small range of linguistic features. Use of features is neither deliberate nor consistent. There is uncertainty, too, if not, conflict as to the social norms governing behaviour. He has to select from the totality of grammatical expressions available to him forms which appropriately reflect the social norms governing behaviour in specific encounters. (Gumpers).

The foreign language user is at a loss as to which norms he should follow: the norms of the non-native speaker (i.e. Italian, Japanese, French, Arab) or the norms of the native speaker of English: Does he have to adopt totally the norms of the culture whose language he speaks as a foreign language?

Linguistic features, innocent in themselves, become socially significant only if they hold clearly defined positions within a field of related features. To give an example from British English: the phonological feature of dropping the 'h' co-occurs regularly with such features as informal, colloquial style. Strictly speaking, there are no variants (in the sociolinguistic sense) at all in

impede comprehension among Indians themselves, but a particular variety of Indian English spoken with an uneducated accent outside India might not be intelligible because it is spoken by an uneducated Indian.

The development towards a variety of English that is called 'English as a communication dialect' (Beneka, 1981:65) is well under way in Europe. In the Arab World we are constantly in need of English as a means of communication at the international level. Among users of English in international contexts there is a widespread readiness to tolerate a non-authentic (neither British nor American) 'international variety' which is clearly seen not as an 'interlanguage', a waystage on the road to perfection, but as a tool for communication in its own right, a final state.

It is necessary for a speaker of English as an international dialect to acquire a fully native control of the phonological system. The standardness of an international variety should relate to grammar first, then vocabulary and finally pronunciation. This does not mean that English as a communication dialect does not reflect the native language phonological systems of its speakers. What we are against here is basing standardness on pronunciation. Some non-native accents should be considered in the positive light. Distinctive foreign accents are associated with some non-native groups.

What Arab speakers of English need is to view English, too, in a positive manner. If they fail to acquire a fully native control of the phonological system of English, they should not feel frustrated and tolerate the linguistic disorientation which occur in the early stages of learning a new langauge. An attitude of loutgoingness toward English is required since success in learning a language depends very much on that attitude.

Foreign language users interviewed within international companies said great demands were made on their ability and willingness to adopt British or American cultural norms when it came to questions of using (and even) understanding conversational routines and specimens of written style that contained a pronounced culture-specific element.

The writer subscribes to the view that with English as an international languiage, the goal in teaching it to Arabs (and this applies, too, to other groups from other nationalities wishing to learn English as an international language) should not be acculturation, but getting the message across and

the sole pronunciation model taught in schools. Nevertheless, some schools teach the American English pronuciation model. In many Arab countries those who do not know English are trying to either learn the British variety or the Amnerican variety. American English is taught in institutions such as the American University of Cairo or the American University of Beiruit or other American centres established to teach U.S. bound adult students. There are also some other American private colleges and high schools established to serve the needs of the American community in the Arab World and the Arabs themselves who are interested in giving their childred American education.

If our students fail to achieve native pronunciation but they are understood when they communicate with others, we should not worry much about their inability to reach that goal. Even if our students, come very close to use an international variety such as the one used.in Europe that is neither pure American nor British English, we should accept it as a legitimate one. Towards An Internaional Dialect of English in the Arab World: Some Problems:

What we need to adopt, then, is an international kind of English with international standard in grammar and vocabulary, an English that is understood by multi-lingual audience and comprehensible outside the Arab World. For example, a German English, a Japanese English, or even a Russian English are not acceptable simply because those Englishes are not dialects spoken in normal everyday life, but incomplete attempts to learn American English or British English or some other variety . We are not in need of a locally intelligible English at the national level such as the English spoken by Iraqis, Egyptians, or Palestinians. This kind of English is useless at the international level. We need to adopt and teach a kind of English (British or American) which is completely comprehensible outside the Arab World.

Kachru (See Kachru, 1981) emphasises that there is a crucial distinction between national and international English. He speaks of the "cline" of intelligibility. For instance, a minority of educated Indians (like Kachru himself) who have occasion to communicate on the international level are at one end of the cline, with Butler English and Boxwallah English (pedlar English) at the other end. Let the Indian pedlar, Kachru argues, use his Boxwallah English in the Indian villages, but let us all try to approach some major national standard when we talk to foreigners. What kachru aims at is a natioanl standard of Indian English as a necessary tool to communicate with foreigners outside India. For instance, the subdivisions of English and the greater variety do not

Understandably, then, to the Arabs, English does have an essential instrumental value at both the individual and national levels. This utilitarian value appears particularly at the higher educational level, for which it has been imperative. (Abuhamdia, 1984:214). Thus, the field of Istudy and sometimes the job determine the use of English by Arabs and its importance as an instrument for survival becomes apparent.

Since the Arabs are in need of technology, we assume it (as opposed to politics) provides the ground for a cultural neutrality (taking into consideration the negative attitudes of the Arabs to British English as the language of the colonizer) on which the acquisition and the use of English can be promoted rather easily. (El-Sayed, 1987:75).

"The fact is that English can be deculturized, can be learned and used for purely instrumental purposes and can be separated from the value systems and the literary culture of any society of native speakers". (Strevens, 1987:60).

Although English is still remembered as the langauge of the colonizer and negative attitudes are associated with it, it is taught in Arab schools because of its utilitarian value. Because English is not the langauge of just one country (England originally, but now U.S., Canada, Australia, New Zealand, the Caribean) there is already some neutrality in interr ational English which has evolved naturally, but this neutrality may involve the use of lexical items and of auxillary verbs, but definitely not pronunciation and probably not grammar since all the Englishes, except the pidgins and Creoles, share essentially the same grammar with only surface level differences.

If Arab students view English neutrally as a subject of utilitarian value at present, they may not view western culture positively because it is difficult to separate western culture from western governmental policies in the area which can account for suspicion and sometimes hostility on the part of EFL students (Zughoul, 1980:203). Indeed, language is a very emotional matter and the attitudinal factor is of utmost importance since positive attitudes towards the target language and its speakers results in motivation for learning the language.

The third criterion one may follow to choose a pronunciation model is the attitude of the school or university administration. In the Arab countries except for former French colonies, the British English pronunciation model is almost

As for the set of criteria selected for the choice of a pronunciation model, Schon (Schon, 1987:22-27) suggests three criteria. One : Teachers may go along with the prevailing opinion in their area and teach the model that is most admired in that part of the world.

Since the British were in the Arab World for a number of years as a colonizing power, British English would be the type of English that is most suitable as a model. There is no inherent superiority of the British pronunciation model, our choice stems from the fact that the British English variety was the variety that was naturally imposed and taught in the Arab World schools for a long time. There was no other choice for the Arabs. It was out of necessity, then, that the Arabs used the British pronunciation model in their schools.

As other parts of the world that were former colonies in the British empire, the Arab countries maintained greater contact with Britain than with other English speaking countries, and as a result, the tradition of teaching British English continued in Arab schools.

The second criterion one might look at is the use the students will make of their English. An examination of any Arab country's x-year plan or a survey of university mission statements show a strong movement in the direction of development and modernization. The gates to development and modernization happen to be science and technology, which are seen as English-dependent. As a consequence of this dependency, the status of English vis-a-vis other languages has become a foregone conclusion: English is more useful (and in some ways more prestigious) than other languages including the native language. (Abuhamdia, 1984:211).

In Arab countries, the situation, however, is compounded by the sentimental and ideological attachments of Arabs to Arabic, resulting in the current call and campaign to have Arabic replace foreign langauges in the teaching of content subjects such as medicine and engineering. (At Syrian universities, for instance, Medicine is currently taught in Arabic). Consequently, the Arabs find themselves caught in a dilemma, torn between loyalty to Arabic, out of Islamic, ideological, cultural and nationalistic values, on the one hand, and the linguistic concomitants of importing and adopting technology from English based sources, on the other.

Striving for good and correct pronunciation should be taken into consideration since students' accent counts for very much if it interferes with the communication of the intended message. Some thought must be given, then, to the choice of a pronunciation model. We cannot allow our students to speak English with whatever accent they wish to have because this might threaten and lead to less than adequate standards for our English as an international variety. Whatever pronunciation model we opt for, we have to strive to make our students achieve native pronunciation. And unless they achieve that native pronunciation they will have an accent that is determined in large measure by the phonological patterns of Arabic, even at the level of 'inter-lnaguage fossilization'. A pronunciation model is necessary and the language laboratory helps the students a great deal in making the students rely on a model of pronunciation (British or American).

Of course, we have to set a number of criteria for the choice of a pronunciation model. But before we discuss the criteria, the characterictics of a standard for English as an international langauge must be given some thought.

For English as an international language, an international standard does exist in vocabulary and grammar. No such standard exists for pronunciation. For instance, there is a new trend in Europe to use an international variety of English that is neither pure American nor British English, but a variety that is suitable for use for communication anywhere and intelligible and international enough to be accepted by everyone (El-Sayed, 1987:78). The so-called "Educated European English" is a new local form of English that has emerged and is used by business people, professional administrators from France, Germany, Holland, Italy, etc., to communicate together, and in which they recognize each other as European by performing in an English with common features, but each with his/her own accent. (Schon, 1987:24).

What is more important in this respect to be emphasized is that as long as teachers in the Arab World, and other parts of the world as well, continue to teach the lexico-grammar of educated English, the unity of the langauge will transcend its immense diversity. This one set of grammatical patterns and core vocabulary has two absolutely crucial characterictics. First, it is accepted everywhere throughout the English using world, not just in one single locality. And second, it has, in Strevens, words, no 'twinned accent': it is spoken with any and every accent in the world. (Strevens, 1987:62).

another thing to accept a model with a heavy accent such as Japanese (or for that matter) Russian English, (Schon, 1987:25). There is great value in consistency. Imagine how confused the school or university students would be if they get American English the first year, British English the second and third year. Indeed, it is not recommended to shift the whole emphasis of the course too soon.

Tolerance towards the varieties of English in its spoken form and the idioms used in these varieties is acceptable on the part of teachers as specialists in teaching English because their ears should be tuned to different kinds of pronunciation whether it is British English, American English, or even Indian English. However, they should insist (on the part of their students) on a particular correct pronunciation of a native speaker model.

The question the teacher should always ask is "does my student sound like a native speaker of English?" Of course a perfect pronunciation of English is almost impossible to achieve with all students. Indeed, the students who have the ability to achieve a near-native accent (especially those who have lived in the native speaker country) should not be denied the opportunity.

However, striving for adequate intelliginility rather than native-like perfection should be taken into consideration. We use English as an international variety to communicate. Students who can not achieve near-native pronunciation should not be denied the opportunity to communicate in the language. Again, perfect pronunciation of all sounds is not necessary to communicate. It is quite common to communicate well at the international level with someone who has a noticeable accent. Of the two, pronunciation and communication, communication is the more important. Usually, our Arab students who do not acquire a native-like pronunciation, can acquire intelligibility and this is a reasonable goal.

Part of the difficulty of acquiring good pronunciation among Arab students is due to the failure of schools in the Arab World to emphasize the speaking and listening skills. In Arab schools, teachers of English are constrained by prescribed text books, prescribed methods, and the overpresent threat of examinations based on reading and writing skills alone rather than on oral ability.

Strevens argues that native speakers of English especially of British English, should come to terms with the variations that occur among non-native speakers use of the language and should develop the feeling that English is no longer their own language but a language for world communication (Strevens, 1987:56).

In the first part of this paper the writer argues the need for an international variety of English to be taught in schools and universities in the Arab World. The international variety is defined as English that is understood by multi-lingual audience. It is a kind of Englsih that is comprehensible outside the Arab World. For instance, the local Egyptian English spoken by the majority of Egyptians at the national level is both undersirable and useless at the international level because of problems of intelligibility.

In the second part of the paper the writer discusses the problems posed in adopting such a variety. The writer argues that what determines the use of English in Arab schools and universities should be the job, the hobby, or the field of study of students. English should be looked upon as a means of communication and understanding each other in fields that require the uses of a language other than Arabic. The writer argues that the goal of teaching an international variety should not be acculturation so as to preserve the cultural identity of Arab speakers of English.

Selinker (see Selinker 1972) points out that a perfect pronunciation is almost impossible to achieve. This is due to the fact that for most students (as Selinker cliams) an interlangauge pronunciation (foreign accent) tends to fossilize at some point and such a fossilized foreign accent is very resistant to change. However, we should not accept such interlanguages (if they really exist) as models in our search for an international variety lof English to be instituted and taught in our schools.

It is legitimate to opt for an international variety of English in our schools, but some thought must be given to the characteristics of such a variety. We should have native speaker Egnlish as a model to follow and imitate. If we abandon the attempt to teach Arab students native speaker English and give them only a model with a heavy accent, such as Japanese English, the students can not possibly achieve anything but a heavy accent. Of course, it is one thing to accept the probability that most Arab students' pronunciation will fossilize at some point short of their native speaker model, but it is quite

"Towards English As An International Dialect Of Communication In The Arab World"

Dr. Ali M. El-Sayed

Introduction:

In Charles Dickens's time, young students were "provided with all necessaries and instructed in all languages living and dead". (Nicholas Nickleby, Ch. 3). It is of great importance that the peoples of the Arab World have a reasonable knowledge of English since it has become an international language. The number of people who understand, let alone speak, Arabic is small and the Arab peoples are obliged to make use of English if they want to make contact with their friends abroad.

Today, English has been carried around the world and has grown in use until it has become the second most widely spoken language of the world after Chinese and the first language in international use. Interestingly, while English is predominantly used by more people than any other language on earth, its mother tongue speakers make up only a quarter or a fifth of the total.

The use of English falls into two major types: the "ethnocentred" and the "non-ethnocentred". Native speakers live in nations and communities in which English has an established role and thus have an ethnocentred use of the language. Non-native speakers have a "non-ethnocentred" use since their nationalities and the linguistic histories of their countries are equally irrelevant. Their use of the language is determined by job, hobby, or field of study (Strevens, 1987:57-58). Indeed the accident of historical events has largely determined where English is used for ethnocentred purposes. But the borrowing and anglicising characteristic of English has made the process easier and has contributed to a vast increase in the non-ethnocentred uses.

18. Smith, P.M. (1979) : "Sex Markers in Speech". In K.R. Scherer and H. Giles (eds) : Social Markers in Speech. Cambridge : CUP, pp. 109-146.

19. ———————— (1985) : "Langauge, The Sexes and Society". Oxford : Basil Blackwell.

20. Trudgill, P. (1974) : "The Social Differentiation of English in Norwich". Cambridge : CUP.

21. Van Alphen, I. (1987) : "Learning From Our Peers : The Acquisition of Gender - Specific Speech Styles". In Brouwer and De Haan (eds), pp. 58-75.

22. Wardhaugh, R. (1986) : "An Introduction to Sociolinguishtics". Oxford : Basil Blackwell.

23. Zimmerman, D.H. and West, C. (1975) : "Sex Roles, Interrruptions and Silence in Conversation". In B. Thorne and N. Henley (eds) : Language and Sex : Difference and Dominance. Rowley, Mass : Newbury House.

المراجع العربية :

١ - أحمد جمال ظاهر : المرأة في دول الخليج العربي - دراسة ميدانية - منشورات ذات السلاسل - الكويت - ١٩٨٣م .

٢ - السيد عبدالعاطي السيد : صراع الأجيال - دراسة في ثقافة الشباب ، دار المعرفة الجامعية - الأسكندرية - ١٩٨٧م .

٣ - جابر عبدالحميد جابر و سليمان الخضري الشيخ : دراسات نفسية في الشخصية العربية ، عالم الكتب - القاهرة - ١٩٧٨م .

٤ - محمد علي محمد : الشباب العربي والتغيير الاجتماعي ، دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٥م .

5. Coates, J. (1986) : Women, Men and Language. New York-London : Longman.

6. Ervin-Tripp, S. (1987) : "About, To and By Women". In Brouwer and De Hann (eds) 1987, pp. 16-26.

7. Kramarae, C. (1982) : "How She Speaks" In Ryan, E.B. and Giles, H. (eds) 1982. Attitudess Towards Language Variation. London : Arnold.

8. Labov, W. (1966) : "The Social Stratification of of English in New York City". Washington, D.C. : Center for Applied Linguishtics.

9. Lakoff, R. (1975) : Langauge ad Women's Place". New York : Harper and Row.

10. Macualay, R.K.S. (1976) : Langauge, Social Class and Education". Edinburgh : Edinburgh University Press.

11. Maltz, D.N. and Borker, R.A. (1982) : "A Cultural approach to Male-Female Communication". In J.J. Gumperz (ed) : Language and Social Identity". Cambridge : CUP.

12. Middle East Education and Training (1988) : 11.1.8.

13. Mills, S. (1987) : "The Male Sence". Language and Communication, Vol. 7, Number 3.

14. Milroy, L. (1980) : "Language and Social Network". Owford : Basil Blackwell.

15. Nilsen, A.P. (1977) : "Sexism As Shown Throuhg the English Vocabulary". In A.P. Nilsen, H. Bosmajian, H.L. Gershuny and J.P. Stanley (eds) Sexism and Language. Urbana, Illinois : National Council of Teachers of English, pp. 27-42.

16. Romaine, S. (1978) : "Post Vocalic /r/ in Scottish English : Sound Change in Progress? In P. Trudgill (ed) 1978 : Sociolinguistic Pattern in British English. London : Arnold, pp. 144-157.

17. Sherzen, J. (1987) : "A Diversity of Voices: Men's and Women's Speech in Ethnographic Perspective". In S.U. Philips, S. Steele and C. Tanz (eds) 1987 : Langauge, Gender and Sex in Comparative Perspective. Cambridge : CUP.

Secondly, very limited senior posts in any country are held be females whereas the majority of such posts are monopolized by men. Finally, we must remember that not long ago female were paid less for carrying out the same duties. Thus we see that the difference between the two societies as just matter of degree and not of principle, as far as the subjogation of women goes.

Power is obviously related to responsibilities. One becomes more influencial as one's responsibilities increase. In most communities men fulfill more obligations than women do; thus they dominate and dictate the norms of the society. Therefore, we may say that bias use of language is a reclection of men's dominance and women's subordination. It is also a way of constructing the social reality. In this event, contribute to the inequal distribution of power (Appleman et al 1987). This is because "language is man-made product, designed by and for the male half of the species to the neglect and exclusion of women". Smith 1985:1). Men's dominance in conversation, for example, parallels their dominance in society. The two levels are really parts of the same social system. Likewise, interruptions and topic control are synptoms of male display of power which is in the large social structure but reinforced and spelled out in direct interactions with women (Maltz and Borker 1982).

The evidence from the areas of naming, world order, and in conjunction with other asymmetried, shows quite clearly that the overall picture of the ways in which the two sexes are represented in the British and Qatari cultures, as being different not just descriptively but also evaluatively. In other words, not only men and women use different strategies and forms in language, but that the form used by men are always more prestigeous than the ones by women.

References:

1. Appleman, S., Heijerman, A., Van Puijenbroek M. and Schreuder, K. (1987) : "How To Take Floor Without Being Floored". In Brouwer, and De Haan, (eds) pp. 164-175.
2. Bolinger, D. (1980) : Language the Loaded Weapon. U.K. : Longman.
3. Brouwer D., and De Haan, D. (eds) 1987 : "Women's Language, Socialization and Self-image". Foris Publicationss, Holland / USA.
4. Chaika, E. (1982) : Langauge the Social Mirror. Newbury House Publishers, Inc., Rowley, Mass.

Similar thing is evident in Qatari Arabic as well :

	lit. "the woman is walking"
حرمة ماشية	= "the woman is a prostitute"
ريال ماشي	= "The man is walking"

Other examples include :

loose woman	=	tramp
loose man	=	casual

The word beast when applied to males, it means strong, but to the females, it means sexually unattractive.

Discussion:

In the previous pages we have examined evidence from English and Qatari dialect which clearly shows the sex bias in language use. But why is it the case that the two societies subjogate women through language use, more or less in the same way, although they have very little in common in terms of language, religion, tradition, social structure . . . etc.?

The answer to this question lies in the relative position of women in the British society, and the west, and their psoiton in the Qatari society, and other Arab states. In the study by جابر عبد الحميد والخضري (Jaber and Al-Khodhari 1978) on population of Qatari female and male students at the University of Qatar, it was found that the informants (50% of women, 75% of men) believed that a woman is weak character and was created to provide comport to a man. Similar results were also obtained in other Arab countries e.g. Iraq جابر عبد الحميد جابر والخضري (Jaber جابر and Al-Khodahari 1978), Egypt السيد عبد العاطي السيد (Al-Sayed 1987) and محمد علي محمد (Mohammad 1985).

This is also true of western culture. For example Augste Comte (1968) and Herbert Spencer (1954) (quoted in احمد جمال ظاهر Dhahin 1983), clearly put forward the idea of superiority of men and the subordination of women. Such attitudes are also evident in many aspects of contemporary conduct and events in the west. Firstly, we have, in Europe and North America, women liberation movements. Are there equivalent movements for men? None.

Male and female sides of the opponent are attacked in the event of swearing, but they are treated differently. It seems that in all societies more female parties are involved or being attacked in the event. For example, in English, the insult is always directed at the mother but never the father. We may see this very clearly in the phrase "son of a bitch". In the Qatari society the father is attacked as in ابن الكلب "son of a dog" "your father is a dog". Obviously the mother is involved too. But in this society, the opponents sisters are brought in as well, but not his brothers. Moreover, the types of insult directed at each sex is quite different. Swearing aimed at the father attempt to equate him with a particular animal e.g. dog, donkey, etc., whereas those directed at the mother and sisters have clear sexual components, e.g. "whore".

Moreover, it seems that feminine words with negative, obscene and dirty connotaitions outnumber male counterparts. In an interesting study Nilsen (1977) analysed 517 words chosen from a dictionary. The choice was done on the basis of their masculine or feminine semantic marker such as son, girl, host, hostess, etc. Words were also analysed according to their prestige or negative connotations. Overall, masculine words were three times as frequent as the feminine ones. The masculine words which had positive or prestigious connotations outnumbered the feminine words by ratio 6:1, (e.g. crafstman, first lady, etc), But feminine words with negative connontations (e.g. old maid, fish wife, etc.) outnumbered the masculine one with similar connotations (e.g. madman) by about 20 percent, despite the massive overall dominance of masculine items. Ervin-Tripp (1987:19) explains this point by stating that

> "that lower public prestige or ridcule of womenin modern western societies shows up symbolically in many ways. Words that refer to women tend to get lower prestige meanings or have secondary meanings than their male cognates".

Perhaps the most revealing aspect of sex bias are words that have different connotations when applied to each gender. Many adjectives take on an additional sexual meaning, when attached to a female. But no such connotation is implied when the same words are used to refer to men. Here are some examples :

She is a professional = "prostitute"
He is a professional = "skillful"

Master/Mistress:

The male word remained as intended : "a man who has others working under him or a male head of a household, great artist . . . etc.". But the female word became to mean, in addition to the original meaning which is equivalent to that of men's, "a woman who has regular sexual intercourse with one man to whom she is not married".

Sir/Madam:

The fate of the female term was not different from the fate of the previous female word. It has taken on a new meaning: "a keeper and procurer of women for men to use for sexual purposes". Thus, Madam is mistress of a house of ill repute.

King/Queen:

In addition to the original meaning. the female term has come to refer to "a male homosexual who acts like a woman". However, a female homosexual who acts like a man is not called a king, but a butch which is an older nick-name for tough, lower-class boy.

> It is not wrong to claim that the
>
> "terms for females in authority have taken on sexual meanings. Worse, these terms originally denoting high female position have been demeaned to refer to women with the least admirable feminine sexual behaviour. The lofty mistress and madam have been lowered to porvide elevated terms for those held in contempt: whores and procurers. A mistress is one better than the prostitute on the street ... but still she is a whore" (Chaika 1982:206).

But do we use Sit to refer to a pimp? Never! Men's term do not suffer the same fate.

Women also suffer more that men in the process of swearing. Moreover, they are always attacked on sexual basis. Swearing is an act of revenge that one seeks as a response to an outside stimula. It varies from one country to another. For example, it is very harsh insult to call someone a guy in the Qatari society, but this is not the case in England.

The presentation of women as sex objects:

A further aspect of sex bias in language is the fact that women are generally presented and seen as sex objects. Many of the terms refer to females carry sexual connotations to suite the taste of dominant males, whereas the equivalent masculine terms carry no such connotations. We may see this in the use of the titles Mr. and Mrs./Miss. Similar distinctions has recently been introduced in Qatari Arabic a السيد / السيدة – آنسة . The important point is that in the case of women a distinction is made between a married and unmarried person, thus we have Mrs./Miss. But the distinction does not apply to men. Thus, the sexual availability of the woman is being pointed out.

However, the Mrs./Miss distinction is not very old. Prior to early 19th century Mrs. was applied to all adult women and Miss to female children. But,

> "the change in the use of these forms to denote married status arose as a consequence of women's changing role during the Industrial Revolution. To the extent that wage labour enabled more women to achieve an identity and means of existence independent of men, the use of the titles Mrs./Miss became popular as a means of communicating information about a woman's sexual availability" (Smith 1985:4).

In Qatari Arabic we have the word عانس bachelor/spinster. This word is supposed to refer to both males and females who reach a certain age without being married at all. Buit in real usage of the term, it is only applied to women whereas for men another term is used i.e. عازب / "bachelor". When the two terms are considered carefully we realize that the meaning of the female term عانس is "a female who is not married but who is not attractive and who has passed the age of marriage i.e. not useful for men. But the male term عازب indicates that the person is not married, nothing else.

It also seems that most of the titles that refer to women "degrade" in the course of history whereas men's equivalent terms remain intact (Chaika 1982). Here are some examples from English.

talk more than men. On the contrary many studies have shown the opposite i.e. that men talk more than women in various diversified settings "such as staff meetings (Eakins and Eakins 1978), T.V. panel discussion (Bernard 1972), experimental pairs (Argyle et al 1968) and husband and wife in spontaneous conversaation (Soskin and John 1963)" Coates 1986:103).

The verbosity of women has obviously been gauged in comparison, not with men, but with silence. Women are supposed to be silent in front of men. When silence is the desired behaviour, then any talk, no matter how much, can be labelled too much. Coates (1986:37) writes that "there is evidence that silence is an ideal that has been held up to women for many centuries". The same idea is also evident in the Estern cultures. Women are to keep quiet in the presence of their husbands or other male speakers.

This may be due to the fact women are considered weak creatures. Thus, in the Qatari dialet, a male person who is afraid or reluctant to do what is asked to do is labelled " حرمة " "/" a woman". The expression that is normally used is

ايش دعوى انت حرمة ؟

What's the matter, are you a woman (coward).

On the other hand, a woman who fights for her rights is seen, not as a female, but as a man. In such case the expression that is used is

هاي ريال ماتقول عنها حرمة

She is a man. You would not call her a woman.

The reason is that women are supposed to take what they are given, but never fight for it. Thus, weak frightened women are not equated with men, while strong women are, because only men are seen as strong and dominant whereas women are by definition weak.

The problem here is not so much a linguistic one as much as it is a cultural one. Perhaphs as Lakoff (1975) points out the distinction between men's and women's language is a reflection of the fact that men and women are expected to have different interests and roles and to held different types of conversations.

surprised to find that the two entries were dealt with differently. Man talked about the evolution of mankind whereas the other heading: woman talked about various things such as women's status, women's liberation movements, jobs that women held . . . etc. No such topics were discussed under the heading man simply because it is a man's world. He dictates the world. Thus, we look at some of aspects of the partner's life in the light of his standard.

Moreover, men's speech is stereotypically logical, concise and dealing with highly important topics, whereas women's speech is pictured as trivial and emotional. Thus in Qatari dialet we have the cliche.:

a. كلام حريم women's talk

b. كلام رجاجيل (ريابيل) men's talk

(a) is used to refer to a speech that is considered to lack seriousness and is worthless, but (b) is considered more like a promise. It is seen as very serious and important.

In Qatari society, as in Western societies, stupid comments are seen as part of women's language but not of men's. Moreover, women as a group are characterized as silly speakers."The idea that women discuss topics which are essebtially trival has contributed to the myth of women's verbosity, since talk on trival topics can more easily be labelled "too much" (Coates 1986:103).

English is full of sayings of "women's verbosity".

Here are some proverbs :

a. Foxes are all tail and women are all tongue.
b. A women's tongue wags like a lamb's tail.
c. Many women, many words, many geese, many turds.

The same is equally trur in Arabic. In fact the term الثرثرة "talkativeness" is normally associated with women.

Such widespread belief that women talk more than men is regularly contradicted by research findings. No single study has shown that women

The naming process and the order of presentation reflects the dominant social values. The attitudes transmitted help to reinforce the status·quo: the subjugation of women and the dominance of men. (Smith 1985).

Deviation of Women's Language:

Many people working in the field of linguistic have attempted to show that women's langauge has certain characteristics which make it different from that of men. However, in all cases men's language is seen as the standard norm whereas women's language is regarded as deviation from that norm (Hills 1987, Bolinger 1980). Thus, when linguists talk about sex-related differences in the language of men and women, they always look for distinctive female pattern of speech. For example, Otto Jasperson, the famous Danish linguist, in his book Language, devoted a chapter to female speech and called it "the women's" but had no equivalent male one "the men's".

> "So at the outset we are equating male langauge to the norm. Since male and female devide the species evenly, the comparison might as well be in the other direction, but even linguistics has been till now so dominated by men that female speech has always been regarded as the marked or supposedly exceptional form" (Bolinger 1980:91).

In other words, female's speech is seen as deviation from the norm: the male's.

For example the notion of hypercorrection introduced by Labov (1966) and copied by many linguists later on, e.g. Trudgill (1974), is s clear case of such conception. Labov showed that lower class speakers aim towards the standard norm of speech of people directly above them in term of the class hierarchy. Thus, lower-middle class speakers try to elevate their speech to match the standard norm of the midle-midle class speakers as the speech event becomes more formal. However, in the two most formal styles of speech: word list and minimal pairs, the lower-midle class speakers even shoot ahead of midle-midle class speakers. Thus, we get the hypercorrection phenomenon. Labov concludes that this hypercorrection practice is more evident in the speech of females from the lower-midle class than in the speech of males.

However, one must point out that such treatment of females aspects is not confined to language but is found in other domains as well. For example, checking the encyclopedia Britanica for the headings man and woman, I was

and lacking any sex bias. On the other hand the whole book centres around two main characters:

سحر Sahar : "a girl" and حمد Hamad : "a boy".

The first lesson starts with حمد Hammad and a photographs of a small boy while on the second page سحر Sahar is introduced with a photograph of a girl. Lesson two is quite interesting. It reads:

حمد مع سحر

Hamad and Sahar = male and female

If we compare the photographs which appears at the top of the page of the lesson, with the order of presentation of the two characters, we notice clear discripancies. Sahar, the female character is on the right. She is much bigger in size and much older than Hamad, the male character. Bearing in mind that in Arabic we write from right to left, the natural order should be:

سحر مع حمد

Sahar and Hamad

But because the influence of male-female pole is so strong we end up with

حمد مع سحر Hamad and Sahar = male and female

Lesson three reads :

حمد أخو سحر Hamad is Sahar's brother

سحر أخت حمد Sahar is Hamad's sister

Here the two new words are أخ "brother" and أخت "sister". As expected the male term is presented first followed by the female equivalent. In fact this pattern of male first female second is so evident throughout the whole book to the extent that every activity is first executed by حمد Hamad: the male character and later by سحر Sahar: the female character.

wives, children and servants were historically part of male's property and were actually inherited. (Smith 1985).

Another asymmetry in the treatment of women and men in language is seen in the order of precedence and preference that is given to men when females and males are points of reference.

Here are some examples from English and Arabic :

a. English :

husband and wife
son and daughter
king and queen
Adam amd Eve
brother and sister
John and Mary

b. Arabic :

ولد و بنت	a boy and a girl
آدم و حواء	Adam and Eve
رجل و امرأة	male and female
العاملين و العاملات	male employees and female employees
الطلاب و الطالبات	male students and female students

In fact we are so accustomed to this order of presentation that if we attempt to reverse the order at presentation it will be odd and very much out of tune. Thus, the cliche "Ladies before gentlemen" is mere rhetoric that is never observed in practice. Even this cliche reinforces the strenght of men. The cliche means "let the women, the weak ones go first, we men can look after ourselves".

This order of precedence and preference of males over females is evident at all levels including academic and school books. To illustrate this let's take the reading book for the first primary level at schools in Qatar as an example. This book is chosen for different reasons. On the one hand it is children's first encounter with the academic world which is supposed to be authentic

names, for example, are not known by their peers, for if they do, they can be used as a source of embarrassment.

It seems that the agnomens أم "umm . . . " "mother of . . . " and أبو "Abu.." father of . . . are used for different purposes. In the case of males, it is used o elevate the stature of the person and to grant him respect and honour. But in the case of females, agnomens are used to conceal their names which are considered taboo. Moreover, male first names such as علي Ali and محمد Mohammed are used far more often to address a married man than female names, like فاطمة Fatma and مريم Maryam, are employed to addressed married women.

It seems that women both in the West and the East alike take part of their identity by relating to a man.

> "Lakoff 1975 argues that men are defined in terms of what they do in the world while women are defined in terms of the men with whom they are associated . . . the owner and the owned . . . Women more often than men are reffered to in terms of their partners: "John's wife" "Harry's daughter" "Bill's girlfriend". It becomes most acute in the event of a spouse's death" "A women whose husband dies is "Ed's widow". But the man whose wife is deceased is not commonly reffered to as "Vera's widower". (Smith 1985: 46-7)

Similar approach is also evident in Qatari Arabic. Here are some examples:

زوجة علي	Ali's wife
خطيبة علي	Ali's fiance

However, we must remember that a great degree of flexibility is attached to this point. So it is not the case that females are always attached to men, but the matter depends on the degree of acquaintance between the speaker and the male and female to whom he refers. Thus, if he is familiar with the man but not the woman the male will be the centre to which the female is attached. The reverse is true if he is acquainted with the female but not the male. But when the speaker knows the two parties to a similar extent, then women are more often than men are reffered to in terms of their male partners.

Moreover, the term "family" which is derived from the Latin word "famulus" which means a slave or servant, is itself a constant reminder that

However, it is also possible to use a person's father's name to construct his agnomen. Thus, if one's name was جاسم علي Jassim Ali, one may have any of the following agnomen:

أبو محمد	Abu Mohammed father of Mohammed
	or
أبو علي	Abu Ali father of Ali

Normally the father's name is chosen to make up an agnomen if the person's given name does not have a fixed counterpart in the agnomen system, since some names like ناصر Nassir, as سيف Saif etc. have no fixed or agreed upon agnomen.

Females, on the other hand, are not given equivalent agnomen أم mother of . . . until they are married. Thus, males are regarded as full adults long before their marriage takes place, whereas for the females this is not the case.

But after marriage the females lose their name almost completely. They are no longer reffered to as فاطمة Fatma or مريم Maryam but addressed, in the presence of others, in term of female agnomen أم umm/ "mother of . . . " and the name that follows is always that of a male.

In fact the parent's agnomen أبو Abu " father of" and أم umm "mother of" are always followed by the son's (male) name, even if the eldest child of the family is a female and even if a male child doesn't exist in the family. But some people, though very rarely, use the name of their eldest daughter to construct their agnomen, such as أبو فاطمة Abu Fatma/lit. father of Fatma. "Fatma's father". They may go on using them for years before a boy arrives in the family. Once he arrives, the female name is abandoned and the masculine name is used instead.

Avoidance of female names is so evident and forceful that many people do not know their grandmothers' names. Mothers' names and sisters' names are considered taboo. Children 12 and over make sure that their mothers'

adapting their husbands' family names when they marry. Thus women are said to marry into a family and families die out if an all-female generation occurs.

We may want to think that women are better off in the Eastern societies (like Qatar) where females retain their family names after marriage. But this is not the case. Before going into details, I would like to describe the naming system in Qatar (which is true for many other Arab societies).

Children are usually addressed by nik-names. These names are usually abbreviations of or derived from their given names. The system is applied to both sexes. Here are some examples:

محمد	Mohammed	حمود	Hammoud
علي	Ali	علوي	Alloy
فاطمة	Fatma	فطوم	Fattoom, Fitami
خالد	Khalid	خلود	Khalloud
مريم	Maryam	مريوم	Maryoum, Miureim

An important process pf change takes place during adolescence. Men are no longer, or very rarely, addressed by their nik-names. Instead they are given an agnomen which consisits of abu أبـو father of and another name. The agnomen or kunya كنية names have historical roots and they are in a kind of fixed relation with a person's given name. Here are some examples.

محمد	Mohammed	أبو جاسم	Abu Jassim lit "father of Jassim" or Jassim's father
جاسم	Jassim	أبو محمد	Abu Mohammed lit "father of Mohammed" or Mohammed's father
علي	Ali	أبو حسن – حسين	Abu Hussein/Hassan lit father of Hussein or Hassan's father
حسن/حسين	Hassan/Hussein	أبو علي	Abu Ali "lit father of Ali" or Ali's father

a name is much more than a label or a tag. It is a symbol which stands for the unique combination of characteristics and attributes that define them as individuals. Probably it is justifiable to claim that it is the closest thing that we have to a shorthand for the self-concept (Smith 1985).

Parents usually think of a name for their baby long before s/he is due. Sometimes this is done as early as the first month of the pregnancy. In most societies two names are chosen: one for girls and the other one for boys. The reason for that is the perception of sexes as a binary system: whoever is not a member of one sex is by definition a member of the opposite sex. People who don't see themselves as members of a particular sex to which they are attached are looked upon as misfits. In our societies, British and Arab, for example, they are reffered to as gays and lizbians, a-sexuals, etc.

However, the Navajo, for example,

> "recognize a separate sex class for individuals who are anatomically distinct from females and males whom they call "real nadle". This sex class corresponds to a gender formular for nadle . . . Inother words "real nadle: are not forced into male or female gender pattern as they would be in our society. Furthermore, the nadle gender category constitutes a real third gender-option and not just a misfit category" (Smith 1985:24).

Such communities are really rare. Most societies follow the binary system of female and male.

Names are usually marked for gender. Im other words, we can in most cases define the person's sex on the basis of his/her name (given name). For example names like John, Joseph (English) and Mohammed, Ali (Arabic) are unambiguously masculine, whereas Mary, Josephine (English) and Fatma, Mariam (Arabic) are clear feminine names. Names like Lee and Dale (Enflish) and Sabah, Nour (Arabic) which are acceptable for both sexes are really rare. Other familiar names which seems to suit both sexes such as Jo, Chris and Pat are usually abbreviations of longer unambiguous forms such as Joseph or Joanne, Christopher of Christine and Patricia or Patrick.

The assumptions which underline the customs regarding female names after marriage is quite interesting, and the whole process reflects a sexism strategy. It is very common in Europe and North America to see women

Women display a greater tendency to ask questions (Maltz and Borker 1982). Women are interrupted more often by the opposite sex in mixed discussions (Zimmerman and West 1975). In fact the interruption policy that is regularly practiced by men in mixed conversations shows how language reflects the structural position of inequality of females and males. Thus in an interactional activities:

> "Men and women exhibit the normal power relationship that exists in society, with men dominant and women subservient. They also behave in this way because that is how they have been brought up to behave" (Wardhaugh 1986:309).

Therefore, "Men dominate women by interrupting them and by neglecting topics they raise while women exhibit their supportiveness . . . by using positive politeness strategies" (Brouwer and de Haan 1987:4).

On the whole, features that are generally associated with women's speech were renamed by O'Barr and Atkins as Powerless Language. They argue that similar speech symptoms occur in the speech of powerless people i.e. who held subordinate, lower-status jobs or were unemployed. However, powerless language has been confused with women's language because in most societies women are usually weaker than men (Kramarae 1982).

Women acquire a speech style which is more appropriate for the domestic sphere; it is supportive, harmonizing, open-hearted and cooperative. Men, on the other hand, learn a speech style appropriate for the domain of public discussion: it is forceful, fast, loud, competitive and dominant. These differences in speech styles reinforce and suit the division of labour, between men and women, found in most societies: women take care of the domestic sphere and men are visible only in the public sphere. (Van Alphen 1987).

Those were some characteristics of the language of each sex, but there are other types of sex-related language prejudices that can be observed community wide. In other words the community as whole uses certain forms of langauge that give an edge to the males over the females. Here are some of those aspects.

Names:

Names are important. It is hard to think of anything in the universe which does not have a name. For non-humans names may just serve as a tag reference; they facilitate communication among people. But for most people

more salient social distinctions in our society, therefore we will always expect and indeed find some reflections of the gender identity in the sociolinguistic system of the society under investigation, whether in its phonology, morphology, syntax, sematics or discourse.

The linguishtic differences between the two sexes are evident in most languages of the world, but as expected such diversities are more salient in some communities than others. The most often mentioned example of sex-related language difference is probably the Malagasy speech community in wich there is a fundamental contrast between the patterns of speaking of the two sexes. Direct speech is associated with women while indirect speech is related to men. Indirect speech is the style used in public and political speeches. It is the one that is positively valued in society as a whole. The other form of speech i.e. direct, although discredited in general, is used sometimes such as in bargaining which comes within the domain of women. (Sherzen 1987).

> "Pitch and intonation phenomena figure prominantly in impressionistic accounts of male-female speech differences from the earliest writing. At the empirical level, acoustical analysis of adult speakers in the United States and Germany has demonstrated that women have both a higher fundamental frequency - - - and greater pitch variability than men". (Smith 1979:123).

Various studies have shown that in the same context women use more standard forms than men (Labov 1966, New York City; Trudgill 1975, Norwich; MaCaulay 1976, Glassgow, Romaine 1978, Edinburgh). For example Labov (1966) reports that women in New York lead the way in the sound change that is taking place in the pronunciation of (r), as they adopt the hypercorrection form in most formal styles.

But women use the standard form of the language more frequently not because they belong to the less tightly-knit networks which in turn are less efficient at enforcing vernacular norms. Milroy (1980) reports that the use of non-standard forms seems to be associated not only with working class speakers, but also with men, because their networks are denser and more multiplex than the women's. This difference in strength of the networks is matched by linguishtic differences. In other words, women use more standard English forms because they are relatively less exposed to the vernacular speech. (Coates 1986).

old, female and male vote these activities as important and value them positively. But when the same occupations are done by woman they are regarded as less important (Sherzen 1987). For example, looking at the Qatari society where women's participation in public occupations is quite limited, we may notice that occupations traditionally done by females such as house work, rearing of children and baby care are appreciated far less than office work, although very often such activities are extolled in lectures that emphasize their value. Those lectures, however, remain part of the social rhetoric that is not practiced by the society. Thus a female who seeks a job such as in teaching, or nursing etc., is always valued far more positively than a woman who takes care of her children. But then the former is voted less efficient when compared to men, even if both parties carry out the same job.

In a recent study carried out at the King Fahad University of Petroleum and Minerals, Saudis and Asian expatriates, and to a lesser degree Western expatriates, believed that women were neither ambitious nor competitive enough for their work as managers, for it to be considered as valuable as that done by men. (Middle East Education and Training 1988).

The other issue that is closely related to prejudice is the question of identity. We live in a multi-dimensional social space. We identify ourselves with numerous groups or sub-groups. Language is just one of the means by which individuals locate themselves in the multi-dimensional social space. Speech is in fact an act of identity. When we speak, one of the things we do is identify ourselves as females or males. During our childhood we are trained indirectly to acquire linguishtic behaviour appropriate to our sex, and this becomes part of our identity. In fact the acquisition of sex-related aspects of language is essential in developing and acquiring native competence in any language. Competence relates not only to the rules of grammar but also includes rules of appropriateness.

> "A person's knowledge of his language includes more than knowledge of syntactic, semantic and phonological rules. Even if his knowledge of these is complete he must also acquire communicative competence - of when to speak or be silent, how to speak on each occasion; how to communicate and interpret meanings of respect, seriousness, humour, politeness or intimacy". (Milroy 1980/85).

However, we expect distinct social groups to develop certain characteristics which differentiate them from others. Gender is one of the

"Language Mirrors Gender Preference"

Dr. Darwish Al - Amadidhi

Introduction:

The following piece of research will look at certain aspects of contemporary usage of Arabic and English. The aim is to reveal prejudicial attitudes in the language use that demean women while on the other hand glority and honour men. The paper will not only try to describe a linguistic phenomenon and its social context, but will also attempt to show how linguishtic differentiantion and usage reflect social structure i.e. it is a direct consequence of the structural social inequality found in the community. Data from Arabic, mainly Qatari Arabic, and English in the fields of names, insults, word ordering and titles is presented to provide evidece that sex-related bias in language usage is evident everywhere, albiet in different forms and fashions, and to different degrees.

Everyone has prejudice of one sort or another, and it is reflected in one's behaviour, attitudes, manners, etc. Language is a vehilcle through which all kinds of prejudice are materialized. Therefore we may look at language as a carrier of societal attitudes and stereotypes. Normally it takes a considerably long time and hard effort to change linguistic prejudice for it is the result of accumulations of societal behaviour and attitudes over generations. However, linguistic prejudice is largely responsible for reinforcing stereotype images found inthe society and which are in mnany cases totally unfounded and unproved.

Sexism is one type of prejudice. It is the preference of one sex, maily males, over the other. Such sexist attitude is not related only to the linguishtic aspect but is quite evident in all other domains of human behaviour.

Almost in all societies men's need for achievement and success is recognized. Men have the freedom to do what they like. They may cook, drive, dress dolls, hunt or do office work, and when society perceives such activities as part of the male domain, then the whole community: young and

17. G. Jean-Aubry, Joseph Conrad: Life and Letters, Doubleday, Garden City, N.Y., 1927, vol. 1, p. 260.

18. Thomas Moser, Joseph Conrad: Achievement and Decline, Harvard University Press, Cambridge, USA 1957, p. 179.

19. Baines, op. cit., p. 324.

20. William Blackburn, ed.: Joseph Conrad: Letters to William Blackwood and David S. Meldrum, Duke University Press, Durham, N.C.: 1958, p. 47.

22. Joseph Conrad, Youth, a Narrative, and Two Other Stories, Dent, London, 1950, p. 203.

23. Ibid., p. 204.

24. Leavis, op. cit., p. 177.

NOTES

1. Jocelyn Baines, Joseph Conrad, Weidenfeld and Nicolson, London, 1960. p. 275.
2. F.R. Leavis, The Great Tradition, Chatto and Windus, London, 1948. p. 187.
3. Edward Garnett, Letters from Joseph Conrad, 1895 - 1924, Edited with introduction and notes; Nonesuch Press, London, 1928, p.113.
4. Merrell R. Davis and William H. Silman, The Letters of Herman Melville, New Haven: Yale University Press, 1960 p. 167.
5. Baines, op. cit., p. 209.
6. Ibid., p. 321.
7. C.T. Watts, ed., Joseph Conrad's Letters to Cunninghame Graham, Cambridge University Press, 1969. p. 215.
8. Garnett, op. cit., p. 124.
9. Frederick R. Karl, Joseph Conrad: The Three Lives, Faber and Faber, London, 1979, p. 451
10. Davis and Silman, op. cit., p. 133.
11. Adam Gillon, The Eternal Solidarity: A Study of Joseph Conrad, Bookman, New York, 1960. p. 206.
12. Baines, op. cit., p. 311.
13. Gillon, op. cit., p. 67.
14. Ibid., p. 163.
15. C.T. Watts. ed., op. cit., p. 233.
16. Baines, op. cit., p. 199.

1. The instinctively good, who are unreflecting men of simple virtue (e.g., Singleton, MacWhirr, and Captain Whalley), and whom Conrad renders in imagery that is uniformly light or white;

2. The bulk of mankind which goes its way unheedingly, in connection with whom there is a neutral rendering, a mixture of light and dark;

3. The instinctively evil, who are virtually agents for the force of darkness, and who are always rendered in dark or black imagery (e.g., Heemskirk, Gentleman Brown, Kurtz), both in its physical and psychological aspects.

Finally, isolation is a natural condition of existence, both in its physical and psychological aspects.

Thus Conrad's pessimism, founded on the doctrine that reality is essentially evil, is far more thorough-going than the pessimism of Hardy or de Maupassant. The course of action he seems to advocate, while having much in common with the Cynical–Stoic tradition, differs from that advocated by Voltaire or Ibsen in its defensive character, and in its mocking of any possibility of transcending the difficulties of life. His dualism is pagan and absolute, thus separating him from the Christian Dualist writers, such as Dostoevsky, Melville and Hawthorne.

This is, it must be said, a different Joseph Conrad from the writer we have long been familiar with. In this view, it is no longer tenable to dismiss the descriptions of nature as 'purple patches,' or to sidestep the issue of his 'adjectival insistence' as his narrative becomes ever more densely philosophical. The Conrad that emerges when we recognise the uncompromising, and unique, form of his pessimism may prove to be less congenial than the Conrad we thought we knew. There are indeed elements in his outlook which are profoundly antisocial and even anti-life, but we should recognise that they spring fron venerable sources. They have none of that taint that attaches to the works of, say, Céline and Genet, whose anti-humanity was the expression of active rebellion against the very society that produced them. At the very least, we may be able at last to use "that portentous term, philosophy"[24] of Conrad, as it always deserved to be used, in our continuing attempt to unravel the meaning of his works.

of Darkness," when Kurtz is brought aboard the steamer, Marlow says, "His was an impenetrable darkness . . . one evening coming in with a candle I was startled to hear him say a little tremulously, 'I am lying here in the dark waiting ffor death.' The light was within a foot of his eyes."[22] This is followed several paragraphs later, after the announcement of "Mistah Kurtz - he dead," with the puzzling summation of Marlow's feeling: he says, a propos of nothing and immediately after a remarkon his loss of appetite, "There was a lamp in there - light, don't you know - and outside it was so beastly, beastly dark."[23] We can make nothing of such passages as these, and they are many, if we maintain a sophisticated literary distance from what Conrad seems to be saying, if we search pedantically for what the symbolic representations of light and darkness "stand for." In short, they may not symbolise, but be Good and Evil, and in such a Manichaen reading of the text the difficulty vanishes.

To return in this brief overview of Conrad's outlook to the nature of his absolute and cosmic pessimism, we may summarise his attitudes as follows:

Conrad seems to have viewed the world as composed of two elements: (1) Reality, or evil, as expressed in materiality, nature, and human fallibility; (2) Illusion - the 'dream' of life, as manifested in (a) the surface illusions of happiness, pleasure, success, and (b) the enfeebling illusions of love, sympathy, intellectualisation, and imagination.

Perched on the horms of his fate, man's life is a continual struggle against catastrophic annihilation that may come from within (Illusion) or without (Reality).

The end of life for men of 'fine conscience' is an ascetic detachment from it, and an attitude towards it of 'cold unconcern.' For such men, the only lasting satisfaction is that of having enjoyed the spectacle of existence while defending oneself: the simple enjoyment of the exhilaration of the chase that is life. The ideal state of perception or true gnosis is never fully attainable, but remains fixed as a goal in the minds of the elect and the potentially elect; the path towards it is singleminded attention to honour, fidelity and the practice of 'simple virtue.'

At the lowest level of this ethical hierarchy is the mass of humanity, which has neither the ambition nor the natural equipment for spiritual quest. But Conrad distinguishes three categories of ordinary (non-elect) mankind:

says the Athenian stranger in The Laws of Plato, "are not these two opposed in respect to ease and difficulty?" What is remarkable about the elect in Conrad's work is that their achievement is always a heightened perception, whereas other more worldly men seek only power. Perception of the true nature of reality , and oneself, leads Conrad's elect to a faith in the necessity of a few simple truths: man must be faithful above all to himself, and to the ideal standard that he sets up for himself. If that standard requires him also to be faithful to one or more others, then it is also part of his moral obligation to be so. The elect are armed with an instinctive sense of honour, and with the practical ability to devote themselves to particular tasks. In "Heart of Darkness," what prevents Marlow from succumbing to the evil projected by the dying Kurtz is his determined hard work in repairing and piloting the steamer. Thus the practical code of behaviour advocated by Conrad combines some of the elements of medieval chivalry with others of a Calvinist hue. Both the code itself, and the system of its transmission from gnostic elect to auditor, derive mainly from Conrad's uncle Tadeusz Bobrowski. In Bobrowski's letters, and especially in those addressed to "My Dear Pessimist," one finds a distillation of the philosophy of Stein in Lord Jim, culminating in the Bobrowski-Stein motto "Usque ad finem."

The 'answer' that Conrad provides implies always the question, "Why should men behave like this?" And that question is answerable only in terms of Conrad's own, highly individual perception of the visible world. Unless we are to hold that Conrad's vocabulary was very limited, we must concede that his insistence on images of light and darkness was intentional, and that his choice of imagery expressed (whether consciously or unconsciously) his view of the world. Many other writers have seemed also to view the world in light and dark terms, and many have employed such a symbolism in their works. But few have done this so obsessively, or at the apparent expense of style, or so consistently as Conrad does. His association of light and white images with Good, and dark and black images with Evil, amounts to a step well beyond the device of symbolic language: it indicates a possible conviction that they are literally the same - that light is Good, and darkness is Evil, rather than their being only representational.

It might be maintained that Conrad, as a result of his long years at sea and in the tropics, was morbidly sensitve to effects of gradations of light (as apparently the painter Daumier was), but this would scarcely account for the obvious ethical significance of light and dark imagery in his works. In "Heart

Conrad's attitude as springing from a reticence compounded of prudishness and a distaste for the vulgar. Thomas Moser, however, believes that to Conrad love was the 'uncongenial subject,' and the bête noire of his artistic struggle. Moser notices that Conrad, particularly in the early works, sets his love scenes in natural backgrounds that exude either death and decay or sinister growth. Moser does not relate the association of passion and repellent nature to Conrad's outlook on life - rather, he sees the symptoms of a troubled psyche, and claims that "the inappropriate imagery used in connection with lovers suggests that their creator is so seriously confused that he cannot carry out his artistic intentions."[18]

One doubts that Conrad would have agreed that his imagery was "inappropriate." On the contrary, it was highly appropriate to his view of reality as essentially evil, and love as an illusory condition leading in its sexual aspect to a multiplication of earthly materia. This attitude is also not confined to the early works, or to those set in the tropics: in The Secret Agent the natural background is uniformly sinister and squalid, and in "The Sisters" manuscript, when Conrad describes in detail Stephen's retreat in Passy he speaks of the trees in the garden growing "as if in a dungeon . . . fragile and menaced by fertile grass which sprang up vigorous and conquering over the desolate remnant of beauty."[19]

Given that "impassable walls" exist between people, and that love is an illusion, and that this illusion is in fact enfeebling, it follows that sensual passion will be viewed as corrupting, and relegated to the order of things to be avoided. Both nature and love are treated as acceptable by Conrad only when they are passive. Activity signifies the presence of a malevolent force.

But if Conrad's outlook was made up of the above attitudes, his was nevertheless not a counsel of despair. Some few men, the Marlows and Steins of this world, achieve a level of perception that finally allows them to enjoy their passage on earth: they manage to come to terms with "a universe whose amazing spectacle is a moral end in itself."[20]

Such men stand in Conrad's books at the top of an ethical hierarchy. Baines writes of this fact with some degree of bafflement, "It is a strange theory that destiny should be reserved only for the elect . . . but that seems to be Conrad's contention in Lord Jim."[21] The elect can, as in Lord Jim, serve as instruction to other men of 'fine conscience.' "Perception and power,"

time when most writers, and many of his friends, believed ardently in one political creed or another, Conrad adopted an attitude of aloofness. That the reasons for this attitude were moral rather than artistic is obvious from his letters to Cunninghame Graham and Wells. To Wells the social reformer Conrad wrote, "You don't care for humanity but think they are to be improved. I love humanity but know they are not."[16] His pessimism prevented him from believing in social or political improvement. To those critics who nevertheless insist on reading into Conrad's works a political message, a suitable caution is provided by Joseph Retinger, a fellow Pole living in England, who wrote:

> When it came to the principles of governing mankind he was not a very moral person, I am afraid, and with Montesquieu he shrugged his shoulders at the thought of a Chinese Mandarin killed thousands of miles away . . . he had no faith in politics as a factor which might bring any substantial reward to suffering humanity, because, he reasoned, politics cannot change human nature, which alone is the origin of good and evil.[17]

If we exclude the non-fictional pieces Conrad was pressed into writing, such as "Autocracy and War," the prevalent note in the "political" works, Under Western Eyes, and The Secret Agent, and the short stories "Heart of Darkness" and "An Outpost of Progress," is one of unfailing scepticism: human, social and political perfectability are treated ironically as illusions: ridiculous at best and dangerous, as in The Secret Agent, at worst.

As an extension of such scepticism, Conrad also clearly questioned man's passionate attachment to life itself. Eighteen of his characters, most of them major, commit suicide: either out out of despair when faced by the true nature of reality, or in offering themselves as a sacrifice to an ethical ideal, or simply by choosing to stop living. Conrad himself, as we now know, attempted suicide in Marseilles in 1878, and he is rivalled only by Ibsen in the number of suicides in his works. Never is there any hint of condemnation of suicides in Conrad; rather, one may easily see in his attitudes towards it a positive attraction, and there is in this none of the careless disdain for life that one finds in Sartre and Camus. The suicide of Axel Heyst is born of a repugnance for life, and a desire to end the illusions of living.

Few Conrad scholars have failed to notice the strangeness of his attitudes towards nature and physical love. In treating of the latter, most have analysed

It is too often overlooked when dealing with the isolated condition of Conrad's characters that none of any importance complains of his condition; indeed, some of the noblest , like Lord Jim, who "had no dealings but with himself," are loftily above such a concern. Conrad accepts the walls that separate people as natural, and at times of benefit. In particular, it is noticeable that 'pairs' of characters never break through to one another. Jim remains "inscrutable at heart" even to Marlow. Impenetrable barriers separate Alan Harvey and his wife in "The Return," and other couples are similarly alienated from each other: Yanko Goorall and Amy Foster, the Goulds, Heyst and Lena, the Verlocs, and Captain Anthony and Flora. But such isolation, however tragic, is inevitable. It is this theme of 'unconnectedness' that is at the centre of E.M. Forster's novels, but with Forster isolation is far from inevitable, provided there is a willingness to commune between people with "developed hearts." No such communion, or even communication, is allowed for by Conrad. When it appears to exist, as in Nostromo between Emilia and Charles Gould, it is proved to be merely an illusion, a self–deception.

Adam Gillon claims further that "Conrad's lonely heroes are an affirmation of human solidarity... man's isolation proves that no person with a conscience can live by himself."[13] What Gillon does not notice is that having a conscience – in the sense that Heyst and Razumov exercised theirs so fatally – is not a necessary requirement of the Conrad hero. When Jim allows Gentleman Brown to escape he has no thought of what may follow that decision, if not in Patusan then in the world outside Patusan. There is no evidence to support the view of Conrad's heroes as affirmations of human solidarity, for it is plain that the isolated, the men of conscience, and the men of no conscience, all are made to perish without reward. Although Conrad claimed to hope in his work to ". . . awaken that feeling of unavoidable solidarity,"[14] in practice he proclaimed the fact of isolation as inevitable. His wish was at odds with his outlook. And even the wish may be doubted in view of Conrad's picture of his fellow man:

> L'homme est un animal méchant. Sa méchanceté doit être organisée. Le crime est une condition nécessaire de l'existence organisée. La société est essentiellement criminelle, – ou elle n'existerait pas. C'est l'égoisme qui sauve tout, – absolument tout, – tout ce que nous abhorrons, tout ce que nous aimons.[15]

By its very nature, Conrad's outlook required him to be suspicious of all human progress, and especially of political or social progress. Living at a

man–inhabited world."[9] Evil existed as a force in the world, and Conrad plainly believed both in its power and in the necessity for man to oppose it in his own interest. His conception of man's 'religious duty' was simply the awareness of and opposition to evil.

Against man in his deadly struggle is the fact of his isolation. Most of Conrad's characters are what Melville, in describing th crew of the 'Pequod,' called "isolatoes ... not acknowledging the common continent of men, but each isolate living on the separate continent of his own."[10] Such a state is the antithesis of Donne's 'No man is an island.' Adam Gillon, in his study of isolation in Conrad's novels, says: "Thrown upon himself, the isolated man forever faces an impassable wall that separates him even from the people who stand closest to him."[11] And Baines agrees that "... there is no invariable element that is either the cause of misfortune or else an essential ingredient of the tragedy: the emotional and moral isolation of the individual."[12]

However, it is possible to agree that isolation is "an essential ingredient of the tragedy" while vehemently disagreeing that it is ever "the cause of misfortune" in Conrad. As a fact of the human condition, isolation may contribute to misfortune, but when Baines and Gillon insist on the importance of the theme of isolation they fail to see the larger picture: isolation may be a regrettable condition, but it is one that is incapable of alteration.

Of all Conrad's protagonists, only Axel Heyst in Victory intentionally isolates himself. In all other cases the characters are isolated by the nature of their circumstances, either physically or psychologically. Heyst's total and voluntary withdrawal from the world to a life of solitary asceticism is not the cause of his destruction. His doubt about the correctness of his action contributes to his unease, but it is his brief surrender of isolation that destroys him. His moment of weakness in sympathising with and then rescuing Lena brings as a direct consequence all the evils that befall him, and it is clear that had he continued to heed his father's advice he might well have survived. That this has been so seldom perceived in Conrad criticism is due to a reluctance to admit to so deeply anti–social a conclusion. The point is reinforced by the example of Razumov, in Under Western Eyes, whose isolation is shattered by Victor Haldin. All Razumov, like Heyst, had wanted was to be left alone. The consequence of his fatal weakness in sympathising with Haldin is suffering and death.

Having weighed these possibilities in Moby Dick, Melville appears to waver between the second and the sixth, whereas Conrad's view was essentially the third, which is not incompatible with any of the final three. Melville put his fears about the truth of the sixth possibility most clearly in a letter to Hawthorne: "The reason the mass of men fear God, and at bottom dislike Him, is because they rather distrust His heart, and fancy Him all brain like a watch."[4] Similar suspicions of a mechanistic deity appear later in the writings of G.B. Shaw and W.B. Yeats, as well as Conrad. The letter to Hawthorne was written in 1851, the year Moby Dick was published. Forty years later, with Billy Budd, it became clear that Melville's early pessimism had turned into tragic optimism. In that work Claggart, the personification of evil, triumphs but his death is sudden and he is forgotten; Captain Vere similarly dies and is forgotten, but Billy continues to be remembered. Melville seems to be saying that neither man nor nature can completely destroy the good, so the existence of good and evil can be accepted in the confidence that only the good is immortal.

Conrad's conclusions are uniformly the reverse of Melville's in Billy Budd. Indeed, it is those characters who are most good, or most innocent, who are most quickly forgotten. Stevie, Freya, Lena, Captain Anthony, Mrs. Gould, Antonia, Captain Mitchell, Singleton, all are rewarded by being forgotten. They meet the fate of Mr. Baker, the "model chief mate," who returns to find that "no one waited for him ashore . . . mother dead, father and two brothers drowned . . . sister married and unfriendly."[5] Evil wins, in this world and forever. As Jocelyn Baines remarks, ". . . it is useless to look for consolation in his work. It concedes no hope; the fate of those undisdained by destiny . . . is tragic, and triumph inevitably brings death."[6]

In comparing Conrad with Melville, one must acknowledge Melville's great reluctance to disbelieve in God and the truth of Christian doctrines. Conrad had no such difficulty. Christianity was "distasteful" to him: "I am not blind to its services, but the absurd oriental fable from which it starts irritates me. Great, improving, softening, compasionate it may be but it has lent itself with amazing facility to cruel distortion and is the only religion which, with its impossible standards, has brought an infinity of anguish to innumerable souls – on this earth."[7] On another occasion he wrote, "It's strange how I always, from the age of fourteen, disliked the Christian religion, its doctrines, ceremonies and festivals."[8] But such disbelief was not wholly negative, for Conrad confessed to a "deep–seated sense of fatality governing this

The strict definition, in both philosophical and literary usage, is absolute, constant, and cosmic: the universe is seen as being at the mercy of a malignant – or at least uncaring – force (cf, Gloucester's speech in King Lear, IV.1.37: "As flies to wanton boys are we to the gods; They kill us for their sport.") Alternatively, it is seen as being driven by a blind, directionless, and irrational will, as in the writings of Von Hartman and Schopenhauer. Of these two views, it might be said that Thomas Hardy held the latter view and Conrad the former. In Conrad's view there is an acceptance of the active power of evil: it supposes a malevolent direction which at its worst is far from blind.

"Retrogressive pessimism" – the doctrine that the world is undergoing an inevitible process of degeneration (cf. Spengler) – while far more common in literature than either of the forms of absolute cosmic pessimism, should not concern us but for the fact that it is held to be applicable to Conrad by those critics who feel that he was motivated by a nostalgic yearning for the past.

Closest to Conrad's view are the 'melancholy romantics,' such as Baudelaire and De Vigny. Hardy, on the other hand, adhered to a type of stoicism which emphasised the irony of human fate, and, unlike Conrad, he indicates a measure of benefit, pride or satisfaction in suffering.

Melville is sometimes linked with Conrad as a cosmic pessimist, and a comparison of their views may help to distinguish the nature of Conrad's pessimism. Like Conrad, Melville, "was concerned because he was unable to express all he meant, or even to bare all his deepest thoughts."[3] But his method of resolving this difficulty was as different from Conrad's as was the essential nature of his early pessimism. Conrad never hesitated over choosing a view of life, while in Moby Dick Melville surveys six possible conceptions of the nature of evil and the universe:

1. The transcendental view uniting God, man and nature in mutual perfection in a benevolent universe;
2. The Christian Dualist view that the universe is controlled by a benevolent God or force that permits evil in man and nature;
3. The Manichaean view that good and evil forces are at war perpetually for universal control, with evil the more powerful;
4. The view that the universe or God is essentially evil;
5. The view that the universe is chaotic;
6. The view that the universe is orderly but godless, and is therefore indifferent to man.

It will readily be seen that, in view of these attitudes, Conrad's general outlook as thus described was absurdly out of line with the thinking and beliefs of his contemporaries. Indeed, one is hard pressed to think of any writer with whom he bears comparison, although there is close proximity to (and an undoubted influence from) the views of Schopenhauer. Such views are particularly inimical to those schooled in the Greek Hellenistic philosophical, or the Judaeo–Christian religious, tradition. Nevertheless, one reçognises that the elements of such an outlook are rooted in this very tradition, even though their fusion would seem to be unique to Conrad.

That Conrad was a pessimist is not always agreed. There exists a group of critics who see him in romantic terms, and persist in finding in his works a note of romantic optimism. Even F.R. Leavis finds the end of Victory "unequivocally – a victory of life."[2] But the majority of modern critics do agree on Conrad's pessimism while disagreeing on the nature and sources of it. Interpretations depend on a bewildering variety of theories, ranging from the Freudian–Jungian to the socio–political. What they do not do, however, is attempt to explain the nature of Conrad's pessimism.

To label a writer a pessimist is usually to use the word in its loose, everyday sense: to say that he looks consistently on the dark or gloomy side of life. And such usage, even implying as it does a simplistic reversal of optimism, is normally adequate. But when we examine in detail a writer's basic philosophy of life some stricter definition is obviously required.

In its philosophical definition, pessimism is primarily the belief that reality is essentially evil. That is the extreme position of a pessimist, and the one which I believe Conrad held. The less extreme philosophical doctrine is that the 'evils' of life outweigh the happiness it affords. That is the more popular sense of the word when it is used of Conrad, and in this definition what is meant by 'evils' is in truth unhappiness rather than evil; thus there is implied no view of the universe as having a 'character' at all.

In literature, pessimism is primarily the view that the universe is intrinsically either evil or indifferent, and that life is consequently futile. This view is closely related to the primary philosophical definition given above. Related to the less extreme philosophical definition is the view that there is an inevitable preponderance of unhappiness over happiness in life.

To Conrad, the difference between appearance and reality was that the former represents man's false view of the world as benevolent, such a view being born of and sustained by human weakness: sympathy, imagination, intellectualisation. Thus man fabricates an unreal world of appearances and is trapped within that world by his own illusions and pretences, whereas in reality there is no benevolent force operating. In the real world – the "destructive element," as Stein terms it in Lord Jim – the forces that exist are evil. The little good that exists is the goodness of simple human virtue, but by the exercise of such virtue man can expect no reward. Love, friendship, happiness, pleasure, success, are all illusions man has constructed to mask the ugly reality of existence. In the end there is no loving God, no ultimate God, no salvation, no redemption, no perfectibility, no real progress, but only surcease into death. Most weakening is the practice of the Christian virtues of love, faith,hope and charity: man lives perpetually in a state of moral isolation.

Against the evil forces of the universe man has few weapons, and these are only defensive, less weapons than armour. Solidarity is one, and others are fidelity, hard work and honour. But the chief protection against evil is knowledge (gnosis), which is achieved through the successful passing of tests. Men can be ranked in a gnostic hierarchy by the measure of knowledge they display of the true nature of the universe and human illusion. Also operating in man's favour, for his guidance, is an ethical coding of light and dark elements which sometimes in Conrad seems more than merely symbolic.

The simple and unreflective man has the best chance of survival in this hostile world, but his is a triumph of ignorance. For the perceptive man, who must always be on his guard, nature is at best indifferent (and when it is passive it is only resting), but more often actively malevolent. As such, nature is the principal instrument of evil against mankind, and part of it is the process of reproduction itself (perpetuated by the enervating illusion of love), which increases the tormenting materiality of life.

Because every man is in reality isolated, and because human contact only breeds as well as feeds on illusion, man's best policy – if he is perceptive – is to live ascetically. The perceptive onlooker's only reasonable position is to derive some ironic pleasure from the mere spectacle before him.

"The Nature of Conrad's Pessimism"

Dr. Leighton Pratt

In all of his major works, Conrad places his characters in ethical dilemmas and then stands back and says, "Look! Why did this happen? What should be done?" It is primarily in this deliberate arrangement of ethical problems and their outcome that Conrad most clearly displays his view of life.

Jocelyn Baines remarks, "The essence of his art lies in the construction of a setting where a complex state of mind can be presented with the fullest emotional and dramatic effect."[1] If this presentation were accompanied by analysis, one might conclude that Conrad's interest was psychological rather than philosophical. But there is little analysis; rather the emphasis is on the "construction" and the presentation. For example, in "Heart of Darkness" no explanation is offered for the evil that enters Kurtz other than that he provided a suitably hollow receptacle for it, so that we are led to consider the nature of evil in the universe rather than the psychology or circumstances peculiar to one man.

In Victory, Conrad shows us Heyst's stubborn scepticism invaded by love, but then followed by murder, suicide and chaos. We are prevented by Conrad's deliberate arrangement of events from holding to traditional moral values: even those characters who are faithful and hardworking come to catastrophic ends. Such a manipulation of destiny implies a fixed set of attitudes on the part of the writer.

It may be worthwhile at the outset to describe in general terms what I believe that outlook was. I shall then go on to treat of the elements that comprise that outlook, and in the concluding section summarise my view of his attitudes.

In order broadly to relate Conrad's views to those of established modes of thought, we may say that he was a pessimist with a catastrophic view of the universe, whose philosophy of action (or more accurately, defence) partook of Cynicism and Stoicism. His ethical views bear some resemblance to those of certain Christian–dualist writers (e.g., Dostoevsky, Melville, Hawthorne), and his perception of the visible world, and of Man, was deeply Manichaean.

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying materials (whether or not accepted for publication) will not be returned to the authors.

11. Opinions expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the views of the Editorial Board.

12. Order of articles published within each issue of the *Bulletin* is based on technical considerations and bears no relation either to their relative importance or to the author's academic status.

13. All correspondence should be addressed to the Editor:

Professor Fathalla Kholeif
Chairman of the Editorial Board
University of Qatar
P.O. Box 2713
Doha, State of Qatar
Arabian Gulf

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE *BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES*

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the areas covered by the *Bulletin of The Faculty of Humanities.* Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but the results of research in other fields of specialization may also qualify for acceptance.

2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. (e.g. sound knowledge, accuracy, originality) and include full references to sources and other material used. Articles containing descriptive work only will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow international rules.

3. Contributions which have already appeared in print are not acceptable. After an article has been approved for publication in the *Bulletin,* the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.

4. The *Bulletin* is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities and institutions of higher learning in other countries. Articles should normally be written either in Arabic or in English.

5. Articles should be typed in double spacing and submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty-five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not be less than fifteen pages of similar dimensions.

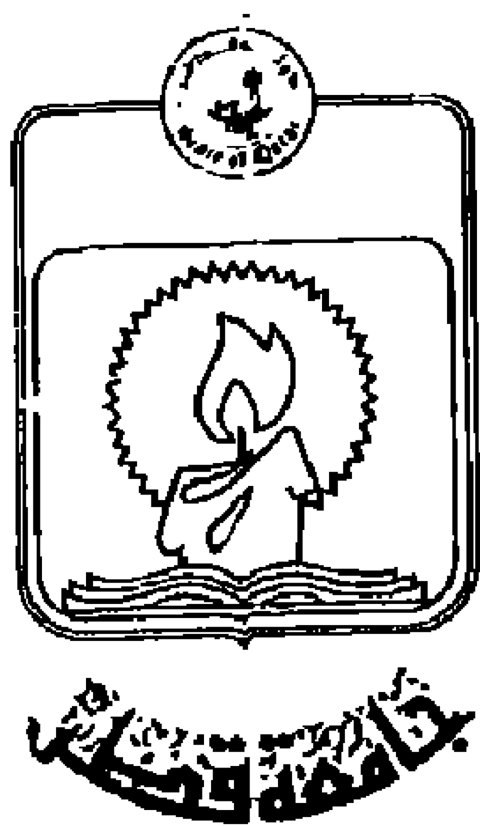
6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper of the same size or less than a page of the *Bulletin.* Photographs should be clear and printed on glossy paper no larger than postcard size.

7. The author of an article published in the *Bulletin* will receive twenty offprints, together with an honorarium fixed by the University of Qatar.

8. An article approved for publication may not necessarily appear in the issue of the *Bulletin* next following.

9. Contributions are considered by assessors from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the assessor's verdict is binding and final. The author's and the assessor's identities will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.



UNIVERSITY OF QATAR

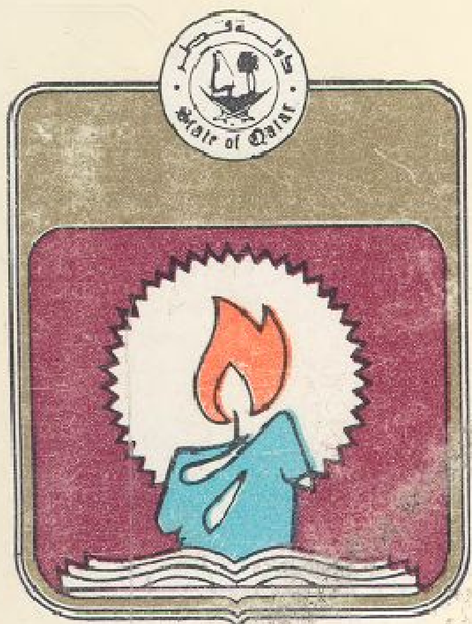
BULLETIN
OF THE
FACULTY OF HUMANITIES
AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 12

1989

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٤٧٢ لسـنة ١٩٨٩

طبـع في المطبعـة الأهليـة
AL-AHLEIA P. PRESS Doha - Qatar



UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN
OF THE
FACULTY OF HUMANITIES
AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 12

1989